”مضيئة... رواية آسرة بإيقاع لا يهدأ ، وتأمل عميق في معنى الحياة.“

– كريستينا بيكر كلاين ، المؤلفة الأكثر مبيعًا وفق قائمة نيويورك تايمز ورواية *قطار الأيتام*.



شارون غوسكين

زمن النسيان

رواية

ترجمة : بياتريس

من أكثر الكتب مبيعاً عالمياً

The Forgetting Time

By Sharon Guskin

زمن النّسيان

للكاتبة: شارون غوسكين

ترجمة: بياتريس*

يُمنع منعًا باتًا تداول ملف الرّواية خارج قناتنا بدون إذن.

لمزيد من الترجمات، رابط قناة التيليغرام:

https://t.me/whimsy_pages

بياتريس.

إلى دوج، إيلي، وبن.

1

في عشية عيد ميلادها التّاسع والثلاثين، في أكثر أيام شهر شباط كآبةً بذاكرة الناس، اتّخذت جاني القرار الذي سيتبين لاحقًا أنّه المنعطف الأهم في حياتها: قررت أن تأخذ إجازة.

ربّما لم تكن ترينيداد الخيار الأفضل، ربّما؛ لو كانت ستسافر كل هذه المسافة، لكان الأجدر بها أن تذهب إلى توباجو أو فنزويلا، لكن اسم الجزيرة أعجبها، تري-ني-داد، بإيقاعه الموسيقي الذي يحمل في طياته وعدًا ما. اشترت أرخص تذكرة عثرت عليها، ووصلت إلى هناك في الوقت الذي كان فيه المحتفلون بالكرنفال يغادرون عائدين إلى بيوتهم، بينما غصّت قنوات تصريف المياه بأجمل القمامة التي رأتها في حياتها. كانت الشوارع مُقفرة، والناس يغطّون في نوم عميق ليتعافوا من صخب الحفل. أما عمال التنظيف فكانوا يتحركون ببطء، في خطى وئيدة ومكتفية أشبه بالحركة تحت الماء. غرفت جاني حفنات من قصاصات الورق الملون، والريش اللامع المتناثر، والحلي البلاستيكية من على حافة الرصيف، وحشرتها في جيوبها، محاولةً أن تمتص تلك البهجة العابرة بالخاصية الأسموزية.

كان هناك حفل زفاف يقام في فندقها، لامرأة أمريكية تتزوج من رجل ترينيدادي، وكان معظم النزلاء هناك من أجل هذه المناسبة. راقبتهم جاني وهم يدورون حول بعضهم البعض؛ الأخوال والأعمام والعمات والخالات يذبلون تحت وطأة الحر، وجناتهم لطختها حمرة حروق الشمس مما جعلهم يبدون أكثر سعادة مما هم عليه في الحقيقة، والترينيداديون ينظرون إليهم بذهول ممتع، كانوا يتجمعون دائمًا في

مجموعات، يضحكون ويتحدثون بلهجتهم الترينيدادية السريعة. كانت الرطوبة خانقة، لكن عناق البحر الدافئ كان يعوض ذلك، كمكافأة عزاء للمحرومين من الحب. كان الشاطئ تمامًا مثل صورته؛ أشجار نخيل ومياه زرقاء وتلال خضراء، مع ذباب الرمل الذي كان يلامس كاحليها ويلسعهما ليذكّرها بأن كل هذا حقيقي، أكواخ صغيرة نبتت هنا وهناك تبيع البايك آند شارك—لحم سمك القرش المقلي والمحشو في جيب من العجين الطازج المقلي. كان طعمه ألذ من أي شيء تذوقته في حياتها قط. أما دش الفندق، فكان يجود أحيانًا بماء ساخن، وأحيانًا ببارد، وفي أحيان أخرى لا يخرج منه ماء على الإطلاق.

مرّت الأيام خفيفة سهلة. كانت تستلقي على الشاطئ وتتصفح نوعًا من المجلات البراقة التي لا تسمح لنفسها عادةً بقراءتها، لتشرب ساقاها أشعة الشمس ورذاذ البحر. لقد كان شتاءً طويلًا وقاسيًا، حيث تساقطت العواصف الثلجية تلو الأخرى كأنها سلسلة من المصائب التي لم تكن نيويورك مستعدة لمواجهتها. كانت قد كُلِّفت بتصميم حمامات متحف تعمل شركتها على هندسته، وغالبًا ما كانت تغفو عند مكتبها، حالمةً بالبلاط الأزرق، أو مستقلةً سيارة بعد منتصف الليل إلى شقتها الصامتة، لتهوي على سريرها قبل أن يتسنى لها الوقت لتتساءل كيف آلت حياتها إلى هذا المسار.

أتمّت عامها التاسع والثلاثين في ليلتها قبل الأخيرة في ترينيداد. جلست بمفردها عند الحانة في الشرفة، تستمع إلى عشاء البروفة المقام في قاعة المأدبة المفتوحة المجاورة. كانت سعيدة لأنها تفادت "برانش عيد الميلاد" الإلزامي في بلدها، وتلك الجموع من الصديقات مع

أزواجهن وأطفالهن، وبطاقات التهنئة الحماسية التي تؤكد لها: "هذه هي السنّة المنشودة!"
السنة المنشودة *لأجل ماذا؟* كان هذا السؤال يراودها دائمًا وتتمنى لو تطرحه.
لكنها كانت تعرف ما يقصدونه بالطبع: السنة التي ستلتقي فيها برجل. غير أن الأمر بدا بعيد الاحتمال. فمنذ وفاة والدتها، لم يعد لديها قلب للذهاب في مواعيد غرامية لا تستطيعان تحليلها معًا بعد ذلك، لحظة بلحظة، عبر الهاتف؛ تلك المحادثات الطويلة الضرورية التي كانت تستغرق أحيانًا وقتًا أطول من الموعد نفسه. لقد جاء الرجال وذهبوا دائمًا في حياتها؛ كانت تشعر بتسربهم وابتعادهم قبل أشهر من حدوث ذلك فعليًا. أما والدتها، فقد كانت دائمًا هناك، كان حبها أساسيًا وضروريًا كقانون الجاذبية، حتى جاء يوم واختفت فيه.
الآن، طلبت جاني مشروبًا وألقت نظرة على قائمة طعام الحانة، واختارت كاري لحم الماعز لأنها لم تذق طعمه من قبل.
"هل أنتِ متأكدة من هذا؟" قال لها النادل. كان في الواقع صبيًا، لا يتجاوز العشرين من عمره، بجسد نحيل وعينين واسعتين ضاحكتين. "إنه حار جدًا." أضاف.
"يمكنني تحمّله." قالت له وهي تبتسم، متسائلة إن كان بإمكانها أن تخلق مغامرة من لا شيء في ليلتها قبل الأخيرة، وكيف سيكون شعور ملامسة جسد آخر من جديد. لكن الصبي اكتفى بالإيماء وأحضر لها الطبق بعد فترة وجيزة، دون أن يكلف نفسه عناء مراقبتها ليرى كيف ستتعامل معه.
لقد اشتعل كاري الماعز في فمها كالنار.

"أنا معجب بشجاعتكِ. لا أظن أنني قادر على أكل هذا الشيء." علّق الرجل الجالس على بعد مقعدين منها قائلًا. كان في مكان ما من منتصف العمر، رجل ضخم البنية، يبرز صدره وكتفاه، وتحيط برأسه حلقة من الشعر الأشقر الأشعث كإكليل الغار الذي يطوق رأس يوليوس قيصر، له أنف ملاكم تحت عينين جريئتين لم تعرفا الهزيمة. كان هو النزيل الوحيد الآخر الذي لم يكن من ضمن مدعوي حفل الزفاف. لمحتْه من قبل في أرجاء الفندق وعلى الشاطئ، ولم تكن مجلات الأعمال التي يقرأها، ولا خاتم زواجه، ليمثلا أي مصدر إلهام لها.

أومأت له برأسها، وتناولت ملعقة كبيرة بشكل خاص من الكاري، وهي تشعر بالحرارة تنضح من كل مسام جسدها.

"هل هو جيّد؟"

"في الواقع، نعم،" اعترفت. "بطريقة جنونية تحرق الفم." رشفت رشفة من مشروب الرم والكولا الذي طلبته؛ فبدا باردًا ومفاجئًا بعد كل ذلك اللهيب.

"أهو كذلك؟" انتقلت عيناه من طبقها إلى وجهها. كانت قمة وجنتيه ورأسه بلون وردي فاقع، كما لو أنه حلّق قريبًا جدًا من الشمس وأفلت منها بأعجوبة. "هل تمانعين لو تذوقتُ منه؟"

حدقت فيه، مذهولة بعض الشيء، ثم هزت كتفيها. تبًا لكل شيء.

"تفضل، على الرحب والسعة."

انتقل سريعًا إلى المقعد المجاور لمقعدها. التقط ملعقتها، وراقبته وهي تراه يحلق بالملعقة فوق طبقها ثم يغرسها ليغرف ملء فمه من الكاري، ويودعها بين شفتيه.

"يا يسوع!" جرع كأسًا من الماء دفعة واحدة. "يا يسوع المسيح!" لكنه كان يضحك وهو يقول ذلك، وكانت عيناه البنيتان تعبران عن إعجابه بها بوضوح وصراحة من فوق حافة كأس الماء. لعلّه لاحظ ابتسامتها لصبي الحانة فاستنتج أنها مستعدة لبعض الإثارة.

ولكن هل كانت مستعدة حقًا؟ نظرت إليه وقرأت المشهد كاملًا في غضون ثانية: الاهتمام البادي في عينيه، والطريقة السلسة والسهلة التي حرك بها يده اليسرى قليلًا خلف سلة خبز الروتي، ليحجب مؤقتًا إصبعه الذي يطوقه خاتم الزواج.

كان هو في بورت أوف سبين لإدارة بعض الأعمال، رجل شركات حقق أرباحًا طائلة من صفقة حق امتياز تجاري فرنشايز، وقرر أن يمنح نفسه "إجازة" قصيرة للاحتفال بالصفقة. نطق الكلمة هكذا بدلع "Vacay"، واضطرت جاني إلى كتمان امتعاضها؛ فمن عساه ينطق الكلمات بهذه الطريقة؟ لا أحد ممن تعرفهم. كان من هيوستن، وهي مدينة لم تزرها قط ولم تشعر يومًا بالرغبة في الذهاب إليها. كان يرتدي ساعة رولكس من الذهب الأبيض على معصمه الأسمر بفعل الشمس، وهي أول ساعة من هذا النوع تراها عن قرب. عندما أخبرته بذلك، خلعها ووضعها على معصمها الصغير الرطب، فتدلت الساعة هناك، ثقيلة وبراقة. أعجبها ملمسها، وأعجبتها غرابتها على ذات اليد النمشة التي طالما حظيت بها، وأحبّت مراقبتها وهي تحلق كطائرة هليكوبتر من الماس فوق كاري الماعز الخاص بها. "إنها تبدو جميلة عليكِ،" قال لها وتطلّع من معصمها إلى وجهها بنظرة مباشرة وحاسمة في مقصدها، إلى درجة جعلتها تحمرّ خجلًا وتعيد إليه الساعة. ماذا كانت تفعل بالضبط؟

"أظن أنني يجب أن أذهب." بدت كلماتها مترددة حتى في أذنيها.
"ابقِ وتحدثي معي لفترة أطول." كان في صوته نبرة توسل، لكن عينيه ظلّتا جريئتين. "أرجوكِ. لم أحظَ بمحادثة لائقة منذ أسبوع. وأنتِ جدًا..."
"جدًا... ماذا؟"
"غير عادية." أومض بابتسامة في وجهها حينها، تلك الابتسامة المستعطفة لرجل يعرف كيف ومتى يستخدم سحره، وهي أداة في ترسانته لمعت مع ذلك وهو ينظر إليها، مثل معدن تحت الشمس، لتشع بشيء حقيقي؛ عاطفة صادقة تتجه نحوها مباشرة في لفحة من الحرارة.
"أوه، أنا عادية جدًا."
"لا." أخذ يتأملها. "من أين أنتِ؟"
ارتشفت رشفة أخرى من مشروبها؛ فخففت الرشفة من حدة حذرها قليلًا. "أوه، ومن يكترث لذلك؟" كانت شفتاها باردتين ومشتعلتين في آن واحد.
"أنا أكترث." برزت ابتسامة أخرى؛ سريعة وجذابة. ظهرت واختفت، ولكنها كانت... *فعالة*.
"حسنًا، أنا أعيش في نيويورك."
عقّب وكأنه يقرر حقيقة واقعة. "لكنكِ لستِ من نيويورك في الأصل."
استشاطت غضبًا. "لماذا؟ أتعتقد أنني لست قاسية بما يكفي لأكون من نيويورك؟"
شعرت بعينيه تطيلان النظر إلى وجهها، وحاولت جاهدة إخفاء أي دليل على الدفء المتصاعد في وجنتيها. قال بلكنته المتمهلة. "أنتِ

قاسية، بلا شك، لكن ضعفكِ يظهر بوضوح. وليست هذه من سمات أهل نيويورك."
ضعفها يظهر بوضوح؟ كانت هذه معلومة جديدة بالنسبة لها. تمنت لو تسأله أين يظهر، حتى تتمكن من إخفائه وإعادته إلى حيث ينتمي.
"إذن؟" اقترب منها أكثر. كانت تفوح منه رائحة لوشن الشمس بجوز الهند والكاري والعرق. "من أين أنتِ حقًا؟"
كان سؤالًا مخادعًا. وعادةً ما كانت تتهرب منه. فتقول: من الغرب الأوسط. أو ويسكونسن، لأنها قضت هناك أطول فترة من حياتها، إذا احتسبنا سنوات الجامعة. غير أنها لم تعد إلى هناك منذ ذلك الحين.
لم تكن تخبر أحدًا بالحقيقة أبدًا. باستثناء الآن، ولسبب لا تعرفه. "أنا لست من أي مكان."
تحرك في مقعده عاقدًا حاجبيه. "ماذا تعنين؟ أين نشأتِ؟"
هزت رأسها قائلة. "أنا لا... لن ترغب في سماع كل هذا."
"أنا أنصت إليكِ."
رفعت بصرها إليه. وكان كذلك بالفعل؛ كان ينصت.
لكن كلمة *ينصت* لم تكن الكلمة الدقيقة تمامًا. أو ربما كانت كذلك: وهي كلمة تُستخدم عادةً بشكل سلبي، توحي بنوع من الاستقبال الخافت، قبول الصوت الصادر من شخص آخر، مثل *أنا أسمعك*، في حين أن ما كان يفعله الآن معها بدا قويًا وحميمًا بشكل صادم: إنصات مشحون بالقوة، بالطريقة التي تنصت بها الحيوانات لتنجو بحياتها في الغابات.
"حسنًا..." أخذت نفسًا عميقًا. "كان والدي يشغل إحدى تلك الوظائف في المبيعات الإقليمية التي كانت تجعلنا ننتقل باستمرار من مكان

لآخر. أربع سنوات هنا، سنتان هناك. ميشيغان، ماساتشوستس، ولاية واشنطن، ويسكونسن. كنا نحن الثلاثة فقط. ثم... واصل تنقله نوعًا ما—لا أعرف أين ذهب. إلى مكان ما بدوننا. عشت أنا وأمي في ويسكونسن حتى تخرجت من الجامعة، ثم انتقلتْ هي إلى نيوجيرسي حتى توفاها الله." كان قول ذلك لا يزال يبدو غريبًا على لسانها؛ حاولت أن تشيح بنظرها عن عينيه المحدقتين باهتمام، لكن الأمر كان مستحيلًا. "على أي حال، انتقلتُ بعد ذلك إلى نيويورك، لأن معظم الناس هناك لا ينتمون إلى أي مكان أيضًا. لذلك ليس لدي ولاء خاص لأي مكان. أنا من لا مكان. أليس هذا مضحكًا؟"

هزت كتفيها. لقد انبثقت الكلمات من أعماقها، ولم تكن تقصد قولها حقًا.

"هذا يبدو وادعًا ووخزًا بالوحدة اللعينة،" قال وهو لا يزال عاقدًا حاجبيه. كانت الكلمة كأنها عود أسنان صغير ينخس ذلك الجزء الرقيق منها الذي لم تكن تنوي إظهاره. "أليس لديكِ عائلة في مكان ما؟"

"حسنًا، هناك خالة في هاواي، ولكن—" ماذا كانت تفعل؟ لماذا تقول له هذا الكلام؟ توقفت عن الحديث، وقد تملكها الرعب من نفسها. هزت رأسها. "أنا لا أفعل هذا عادةً. أنا آسفة."

"لكننا لم نفعل أي شيء." لم يكن هناك مجال للخطأ في ذلك الظل الذئبي الذي ارتمى على وجهه. خطرت ببالها عبارة لشيكسبير، شيء كانت والدتها تهمس به في أذن جاني عندما تمران بجانب المراهقين في مركز التسوق: *"كاسيوس هذا له مظهر نحيل وجائع."* كانت والدتها تتردد دائمًا في قول أشياء من هذا القبيل.

"أقصد،" تعلثمت جاني قائلة. "أنا لا أتحدث بهذه الطريقة. لا أعرف لماذا أقول لك هذا الآن. لا بد أنه تأثير مشروب الرم."

"ولماذا لا تخبريني؟"

نظرت إليه. لم تكن تصدق أنها فتحت قلبها له—وأنها كانت تقع تحت تأثير السحر البالغ لهذا الرجل من هيوستن الذي يرتدي خاتم زواج.

"حسنًا، أنت شخص..."

"شخص ماذا؟"

غريب. لكن الكلمة بدت طفولية للغاية. فقبضت على أول كلمة خطرت ببالها. "جمهوري؟" وضحكت بخفة، محاولةً تحويل الأمر إلى دعابة. ولم تكن تعرف حتى إن كان ذلك صحيحًا أم لا.

انتشر الانزعاج كالنار في الهشيم على وجهه.

"وهل هذا يجعلني ماذا؟ نوعًا من الجفاة عديمي الذوق؟"

"ماذا؟ لا. على الإطلاق."

"لكنكِ تظنين ذلك، أستطيع رؤية هذا بوضوح على وجهكِ." جلس الآن مستويًا في خط مستقيم. "أتعتقدين أننا لا نشعر بنفس الأشياء التي تشعرين بها؟" كانت عيناه البنيتان، اللتان كانتا تفيضان بالإعجاب قبل قليل، تخترقانها بنوع من الغضب المجروح.

"هل يمكننا العودة للحديث عن الكاري؟"

"أتعتقدين أن قلوبنا لا تنفطر، أو أننا لا ننخرط في البكاء عندما يولد أطفالنا، أو لا نتساءل عن مكاننا في هذا الوجود الكبير؟"

"حسنًا، حسنًا. فهمت. أنت تنزف إن وُخِزت." كان لا يزال يحدق فيها. فقالت مقتبسة. *"'إذا وخزتمونا، ألا ننزف؟' هذا من مسرحية تاجر..."*

قاطعها قائلًا. "هل فهمتِ حقًا يا شايلوك؟ هل فهمتِ فعلًا؟ لأنني لست واثقًا من ذلك."
"احذر من تناديه بشايلوك."
"حسنًا. يا شايلوك."
"مهلًا."
"سمعًا وطاعة، يا شايلوك."
"مهلًا!" كانا الآن يبتسمان لبعضهما البعض.
"إذن... أطفال، هاه؟" وقالت وهي تنظر إليه بطرف عينها.
أشار بيده الوردية الكبيرة ملوحًا ليتجاوز السؤال.
"على أي حال، ما أهمية ما أظنّه في أي شيء؟"
"بالتأكيد، هذا مهم."
"حقًا؟ ولماذا؟"
"لأنكِ ذكية، ولأنكِ إنسانة، ولأنكِ هنا الآن في هذه اللحظة ونحن نخوض هذه المحادثة." قال وهو ينحني نحوها بجدية ويلامس ركبتها بخفة، بطريقة كان من المفترض أن تبدو مبتذلة بأي مقياس ولكنها لم تكن كذلك. شعرت برعشة تسري في جسدها سريعًا، متجاوزةً رغبتها في كبتها.
نظرت إلى أسفل، إلى طبقها الذي عاثت فيه الفوضى.
وفكرت في نفسها أنه على الأرجح يعيش في قصر فخم وضخم، ولديه ثلاثة أطفال وزوجة تلعب التنس.
لقد عرفت رجالًا من هذا الطراز بالطبع، لكنها لم تغازل أحدًا منهم من قبل—رجل نوادي غولف ريفية، رجل يملك موهبة في المبيعات... والنساء. في الوقت نفسه، كانت تشعر أن هناك شيئًا آخر فيه

يجذبها—كان ذلك يكمن في سرعة لمحاته، وتقلب عواطفه، وشعورها بأن هناك أفكارًا تعصف في عقله بسرعة مليون ميل في الدقيقة.

"اسمعي. سأذهب غدًا لاستكشاف مركز آسا رايت للطبيعة. هل تودين القدوم معي؟"

"ما هذا المركز؟"

هز ساقه بنفاد صبر. "إنه مركز للطبيعة."

"هل هو بعيد؟"

هز كتفيه. "سأستأجر دراجة نارية."

"لا أعرف."

"كما تشائين." وأشار بيده طالبًا الفاتورة. شعرت بطاقته تغير مسارها بسرعة، وتنسحب بعيدًا؛ فأرادت استعادتها.

"حسنًا، قالت. لِمَ لا؟"



كان المركز يبعد مسيرة ساعات، لكنها لم تمانع. تشبثت بظهره بقوة فوق الدراجة النارية وانتشت بالسرعة، وهي تتشرب خضرة الطبيعة الغزيرة والتدفق الفوضوي للبلدات؛ حيث تجاور البيوت الخرسانية الجديدة تلك الخشبية المتهالكة، وتشرق أسقفها المعدنية جنبًا إلى جنب تحت أشعة الشمس. وصلا إلى هناك عند منتصف النهار، وبعد أن استقرّ بينهما صمت مريح، تبعا دليلًا سياحيًا عبر الغابة المطرية، وهما يتبادلان ضحكات مكتومة على أسماء الطيور التي كان يشير إليها: طائر الموزي (الباناناقيت)، وطيور الزيت، وطائر الجرس ذو اللحية، وطائر الموتموت ذو التاج الأزرق، والوقواق السنجابي، وصائد الذباب ذو المنقار الزورقي.

حلّت بينهما حالة من الارتياح بحلول الوقت الذي كانا يتناولان فيه الشاي الفاخر على الشرفة الواسعة لمنزل المزرعة القديم، يراقبان طيور الطنان ذات الكفل النحاسي وهي تحوم عند المغذيات المتدلية من السقيفة: أربعة، خمسة، ستة طيور طنان تتأرجح وتطن في الهواء، كأنها خدعة سحرية.

"الأجواء هنا تبدو استعمارية للغاية." قالت جاني وهي تستند إلى الخلف في كرسيها المصنوع من الخيزران.

أشاح بنظره نحوها متسائلًا بنبرة مبهمة. "أيام الزمن الجميل، هاه؟"

"أنت تتهكم، أليس كذلك؟"

"لا أدري. لقد كانت أيامًا جميلة لبعض الناس." حافظ على جمود وجهه لبرهة، ثم انفجر ضاحكًا. "أي نوع من الأوغاد تظنينني؟ لقد كنت من حاملي منحة رودس الدراسية، للعلم فقط." قالها بخفة، لكنها عرفت أنه كان يحاول إبهارها. وقد نجح في ذلك.

"حقًا؟"

أومأ برأسه ببطء، وعيناه السريعتان تفيضان بالتسلية.

"نلت درجة الماجستير في الاقتصاد من كلية 'باليول'. أكسفورد، إنجلترا." نطق الحروف متباعدة متمهلًا، متظاهرًا بالبساطة.

كان يبتغي ضحكة، فأعطته ما أراد. "إذن، ألا يجدر بك أن تدرّس في هارفارد أو ما شابه؟"

"لأمر واحد، أنا أجني الآن نحو عشرين ضعف ما كنت سأجنيه من التدريس، حتى في هارفارد. كما أنني لست مدينًا بالفضل لأحد. لا لرئيس قسم، ولا لرئيس جامعة، ولا لابن متبرع كبير مدلل." وهز رأسه. "ذئب منفرد، هاه؟"

فتصنع العبوس كالأطفال. "ذئب وحيد."

ضحكا معًا. ضحكة تواطؤ. شعرت بشيء ما بين كتفيها يسترخي، عضلة كانت قد حسبتها عظمًا من فرط التشنج، وحلّت عليها خفة. تفتتت قطعة الكعك بين يديها إلى أجزاء، فلعقت الفتات المتناثر على أطراف أصابعها.

"أنتِ فقط لطيفة بشكل لعين."

"لطيفة؟" وصنعت وجهًا ممتعضًا.

عدّل كلماته سريعًا. "جميلة."

"حسنًا."

"لا، حقًا."

فهزت كتفيها.

هز رأسه. "أنتِ لا تعرفين، أليس كذلك؟ أنتِ تعرفين أشياء كثيرة، لكنكِ لا تعرفين هذا."

بحثت في ذهنها عن رد ساخر لتقوله، لكنها آثرت الحقيقة عوضًا عن ذلك.

اعترفت وهي تتنهد. "لا، لا أعرف. للأسف. لأنه الآن—" كانت على وشك أن تقول إنها ناهزت الأربعين وهي في طريقها السريع لخسارة كل ما كانت تملكه، وكانت مستعدة تمامًا لتشير إلى الشعرات الرمادية الثلاث والتجاعيد التي آخذت تزداد عمقًا بين حاجبيها، لكنه لوح بيده مبعدًا كل ذلك.

"يمكن أن تبلغي من العمر مئة عام وتظلي جميلة." قال كما لو كان يعي ما يقول تمامًا. لم تملك دفعًا للأمر، فقد كانت تلك عبارة عذبة للغاية—ابتسمت له، وهي تتشرّب الكلام كله بشعور غريب يثير الغثيان

بأنها تُجرف نحو شاطئ لم تكن تتخيله، وأنها بحاجة إلى التجديف بجدية في الاتجاه المعاكس إذا كانت تريد العودة إلى بيتها بأمان.

تشبثت بخصره بقوة مرة أخرى في طريق العودة. كان الضجيج أعلى من أن يسمح لأي منهما بقول شيء، وهو ما كانت ممتنة له؛ فلا قرارات يتعين اتخاذها، ولا شيء يدعو للقلق، فقط أشجار النخيل والأسقف الصفيحية تدور وتتلاشى خلفها، والريح تطيّر شعرها ليلفح وجهها، والجسد الدافئ القريب من جسدها؛ هذه اللحظة، ثم التي تليها. بدأ الفرح يتدفق في أسفل عمودها الفقري ويرتفع، بنشوة مطيرة، في أنحاء جسدها. إذن هكذا يكون الأمر: اللحظة الحاضرة. شعرت بها كأنها تجلٍّ وإلهام.

وأليس هذا ما كانت تبحث عنه—هذه *الخفة* التي جاءت تركض لتقبض على خصرك وتجرك معها؟ كيف للمرء ألا يستسلم لها، حتى لو كان يعلم أنه سينتهي به المطاف جالسًا بكدماته فوق التراب؟ افترضت أنه لا بدّ من وجود طريقة أخرى لتذوق هذا التدفق اللاهث للشعور بالحياة—شيء داخلي، ربما؟—لكنها لم تكن تعرف ماهيته ولا كيف تصل إليه بمفردها.

ثم انتهت الرحلة، ووقفا هناك بارتباك خارج الفندق. كان الوقت متأخرًا، وكان التعب قد نال منهما. وشعرها مغطى بالأوساخ بفعل الريح. لحظة متعثرة، ولا شيء يسرّع مرورهما فوقها.

يجب أن أدخل وأحزم أمتعتي، فكّرت، لكن حفل استقبال الزفاف كان لا يزال مستمرًا في قاعة المأدبة، والآن بات بإمكانهما سماع قرع طبول الصفيح وهي تبدأ، لتموج أصواتها عبر الليل، حاملة إيقاعها المائي المتميز والخاثر—طبول صُنعت قبل سنوات من علب شركات النفط

المهملة، موسيقى تُخلق من النفايات. من تكون هي لتقاوم؟ كان الهواء الرطب يطوق جسدها كأنه يد كبيرة ناضحة. "هل نذهب للمشي؟" قالاها معًا في الوقت ذاته، كأن الأمر مقدّر له أن يكون.

⩔⩔⩔

مشكلة، مشكلة، مشكلة، أخذت تقول لنفسها وهما يسيران. لكن يده كانت دافئة في يدها، وفكرت أنه ربما يجدر بها أن تمنح نفسها هذا. ربما لا بأس بالأمر. على الأرجح أن الزوجة كانت واحدة من أولئك النساء ذوات الوجوه الصارمة المثالية، بشعر أشقر يلمع حول أقراط ماسية ضخمة. ترتدي تنانير بيضاء قصيرة وتغازل مدرب التنس. فلماذا ينبغي لجاني أن تكترث؟

ولكن، لا، لم يكن هذا صحيحًا، أليس كذلك؟ كانت عينا هذا الرجل دافئتين، بل وصادقتين، هذا إن كان بإمكان المرء أن يكون حسابيًا وصادقًا في الآن ذاته، وربما لا يمكنه ذلك. وقد أعجب بها، بجاني، بوجهها غير المثالي، وعينيها الزرقاوين الجميلتين، وأنفها المعقوف قليلًا، وشعرها المجعد. لذا، على الأرجح—على الأرجح أن الزوجة كانت امرأة رائعة. لها شعر بني طويل متموج وعينان طيبتان. ربما كانت معلمة سابقة لكنها تمكث في البيت الآن، ترعى الصغار، صبورة ولطيفة وأذكى من أن تتحمل قسوة تلك الحياة التي تمتص دماء عافيتها وتغذيها في الوقت نفسه—كانت امرأة محبّة، هذا هو الأمر؛ فهذا الرجل يحظى بحبّ وافر (شيء ما في طريقته المسترخية في الحركة، وفي البريق الذي يعلو وجهه)، وفي هذه اللحظة بالذات تنام الزوجة مع كل أطفالهما الصغار في سريرهما الكبير لأن الأمر أيسر بهذه الطريقة، وهي تحب دفء أجسادهم الصغيرة المستقرة في حضنها،

وتفتقده كثيرًا جدًا، وربما تظن أحيانًا في تلك الرحلات الطويلة الطويلة أنه يقدم على فعل شيء ما، لكنها تثق به لأنها تريد ذلك، لأنه يملك تلك الجرأة في عينيه، تلك الحياة—

لماذا تفعل هذا بنفسها؟ ألا يمكنها أن تسمح لنفسها بالحصول على أي شيء؟

كان يشير إلى القواقع المتناثرة على الشاطئ بينما كانت هي غارقة في أفكارها.

أومأت برأسها بذهول.

"لا، انظري. أنتِ بحاجة لأن تنظري." قال وهو يمسك برأسها بين يديه الكبيرتين الدافئتين ويوجهه نحو الشاطئ.

كانت القواقع تندفع مسرعة عبر الشاطئ نحو الماء، كأن البحر يجذبها بقوة سحره.

"ولكن—كيف؟"

"سرطانات الرمل." قال. كانت يداه لا تزالان على وجهها، لذا لم يكن صعبًا عليه أن يوجهه نحوه ويقبلها مرة، مرتين، مرتين فقط، كانت تفكر، مجرد تذوق صغير ثم سيعودان أدراجهما، ولكنه قبّلها للمرة الثالثة، وفي هذه المرة شعرت بكل جوعها يرتفع مثل عمود دخان معطر ينطلق من جنيّ حُبس في زجاجة لمئة عام، ليطوق هذا الرجل الذي تكاد لا تعرفه—رغم أن جسدها كان يعرفه، حيث التف حوله بضراوة وقبله كأنه الأحب من بين كل الأحباب. تهاوت دفاعاتهما، تمامًا مثل ثيابهما. وربما كان ذلك مزيجًا غريبًا من التفاعلات الكيميائية التي أطلقت الفيرومونات، وربما كانا عاشقين في زمن

الفراعنة وعثرا للتو على بعضهما البعض، ومن كان يدري ما السبب حقًا؟ من كان يدري–اللعنة–لكل شيء؟
"يا إلهي." قال وتراجع عنها قليلًا، وسرّها أن ترى أن كل الثقة قد مُحيت تمامًا من وجهه وأنه كان مذهولًا بالأمر بقدر ذهولها–بفعل قوة هذه العاطفة التي لم يكن هناك ما يبرر وجودها ولكنها كانت موجودة على أي حال، لتصعق كليهما، كأن ألعاب لوح الويجا في حفلة مبيت قد استحضرت شبحًا حقيقيًا.
أن تمارس الجنس على الشاطئ (أليس هذا اسم مشروب؟ هل هذه هي حياتها حقًا، كوكتيل مبتذل؟) مع رجل لا تعرفه، يعبث مع النساء، ودون استخدام واقٍ ذكري، كانت فكرة سيئة جدًا جدًا جدًا. لكن جسدها لم يكن يرى ذلك. ولم تكن قد استسلمت يومًا بالكامل لأي شيء في حياتها، وربما حان الوقت. كان بإمكانها سماع طبول الصفيح ترن كفقاعات معدنية تدور في حلقات في الهواء، وصيحات الابتهاج الصادرة عن المحتفلين الراقصين، وضحكات العروسين اللذين كانا يرقصان أيضًا تحت ذلك السقف المرتفع المصنوع من القش. كانت قد ناهزت الأربعين وقد لا تتزوج أبدًا. وهناك تلك الزوجة الجميلة النائمة في ذلك السرير الكبير مع كل أولئك الأطفال ذوي الوجنات الوردية، بينما هي ليس لديها أحد تعود إليه، لا بيت ولا أطفال ولا زوج، لم يكن هناك من يحبها على الإطلاق باستثناء هذا الجسد الدافئ بنبضات قلبه السريعة المستقرة وقوة حياته المشتعلة. كان الأمر كما لو أن الصفحة التي كانت تعيش فيها قد انتُزعت فجأة من الغلاف، وباتت الآن على الجانب المنفلت، الجانب الممزق الحر، ترفرف هابطة نحو الشاطئ الرملي، بينما يرتفع القمر عاليًا فوق الرؤوس.

عندما نال جسداهما كفايتهما أخيرًا، تشبثا ببعضهما البعض على الشاطئ وهما يلهثان.
هز رأسه وهو يبتسم بعجب، وعيناه الحيّتان الممتلئتان بالإعجاب تتأملان جسدها الأبيض المحكوك بالرمل وهو يتوهج على الشاطئ.
"أنتِ..." لم يكمل فكرته؛ كبح نفسه قبل أن ينتهي، إذ كان يملك عمرًا كاملًا من الانضباط البالغ في مثل هذه المواقف، ولم تكن تعرف ما الذي كان يود قوله عنها، وإن كانت تعلم أن ما تبقى من حياتها سيكون كافيًا لتأمل الاحتمالات. تملكتها رغبة مفاجئة في أن تخبره بشيء ما—أن تخبره بكل شيء، بكل أسرارها، سريعًا، الآن، قبل أن يبدأ الدفء بالانحسار، على أمل أن يكون هناك شيء يمكنها مواصلة التشبث به، صلة قد تحتفظ بها—
تحتفظ بها؟ كادت تضحك من نفسها. فحتى واللحظة الحاضرة تبتسم في وجهها، لم تملك دافعًا عن الالتفات في الاتجاه الآخر.
انفرط عقد النهاية سريعًا. كانت لا تزال تستوعب ما حدث، ولا تزال تعيد عرضه في مخيلتها وهما يسيران ببطء عائدين إلى الفندق في صمت، جنبًا إلى جنب، ويده تلامس ظهرها بخفة وهما يسيران، في إيماءة كانت تحمل جزءًا من المداعبة وجزءًا من حثها على المضي قدمًا.
وقف خارج بابه قائلًا. "أظن أننا وصلنا إذن. لقد كان من دواعي سروري حقًا قضاء الوقت معكِ."
كان وجهه يحمل المزيج الملائم من الحنان والوقار، لكنها كانت تشعر بالريح تهب في داخله، هذه العجلة التي تجري في عروقه والتي كانت على النقيض تمامًا مما كان يجري في عروقها، وعرفت دون أن

تنطق بكلمة أن رغبتها في التشابك والتلكؤ لا تملك فرصة أمام حاجته اللعينة في الخروج من الرواق والعودة إلى الانفراد بنفسه مجددًا.
حاولت أن تحافظ على خفة صوتها قائلة. "هل ينبغي لنا... أن نتبادل البريد الإلكتروني أو ما شابه؟ مهلًا، هل تأتي إلى نيويورك في عمل ما؟" لكنه نظر إليها بحزن.
فعضت على شفتها.
"حسنًا إذن." قالن. كان بمقدورها فعل هذا. وقد فعلته بالفعل. انحنى وقبلها، قبلة جافة كقبلة الأزواج، لكنها مع ذلك انتزعت جزءًا صغيرًا منها.

⸙⸙⸙

لم تكن تعرف اسم عائلته. أدركت ذلك لاحقًا. لم تكن بحاجة لمعرفته، إذ كانت حدود الأمر واضحة للغاية لدرجة أنها تكاد لا تحتاج إلى وصف. تمنت لاحقًا، مع ذلك، لو كانت تملكه—ليس من أجل شهادة الميلاد، ولا رغبةً في التواصل معه وتعقيد حياته، بل ببساطة من أجل القصة نفسها، حتى تتمكن من القول لنوح يومًا ما. "في إحدى الليالي التقيت بهذا الرجل، وكانت أجمل ليلة على الإطلاق. وكان اسمه—"
جيف. جيف... ابن فلان.
ولكن ربما كانت هي من أرادت للأمر أن يكون هكذا. ربما خططت له ليكون كذلك. لأنه لا سبيل للعثور على جيف "ابن فلان" من هيوستن، ولم يزدها ذلك إلا ارتباطًا وثيقًا بنوح، وجعله ملكًا لها هي وحدها بأكثر مما يكون.

2

"لكنني لم أنتهِ بعد." كانت هذه هي الكلمات التي انطلقت عفوية ودون إذن من فم جيروم أندرسون عندما أخبرته طبيبة الأعصاب أن حياته قد انتهت فعليًا من الناحية الوظيفية.

"بالطبع لا يا سيّد أندرسون، هذا لا يعني بحال من الأحوال حكمًا بالإعدام."

غير أنه لم يكن يقصد حياته؛ بل كان يقصد عمله. وهو عمله الذي يمثّل حياته، إذا ما أردنا توخي الدقة والوصول إلى جوهر الأمر.

"بل الطبيب أندرسون." قال لها. وهدّأ من روع ذعره بمراقبة طبيبة الأعصاب الجالسة في مواجهته عبر الطاولة، ويداها الأنيقتان ترتبكان وهي تمضي في إخباره عن طبيعة مرضه.

في العام الذي تلا وفاة زوجته، كانت كل امرأة يلتقي بها مجرد "ليست شيلا"، وينتهي الأمر عند هذا الحد. لكنه فجأة استعاد وعيه بتلك التفاصيل التي تخص النساء الأحياء وحدهن: الطريقة التي ترقرقت بها عينا الطبيبة قليلًا بدافع التعاطف، وصعود وهبوط المنحنيات الناعمة التي لم يكن يتبينها إلا بالكاد تحت معطفها الأبيض وهي تتنفس. رأى أشعة الشمس تتجمع فوق شعرها الأسود الصقيل وهي تجلس إلى مكتبها، واستنشق رائحة الصابون المضاد للبكتيريا الممتزجة بشيء خفيف ومألوف—عبير عطرٍ يفوح بنكهة الحمضيات.

تحرك شيء ما في داخله وهو ينظر إليها، كما لو أنه يستيقظ من غفوة طويلة. الآن؟ حقًا؟ حسنًا، لم يقل أحد قط إن العقل شيء بسيط، ولا الجسد كذلك. معًا، يمكنهما بالتأكيد أن يرتكبا بعض المشاكسات.

كانت هذه مادة دسمة لدراسة علمية: هل يجد المرضى الذين يواجهون عجزًا خطيرًا أو موتًا وشيكًا أعضاءهم الجنسية تثار؟ ينبغي له أن يرسل بريدًا إلكترونيًا إلى كلارك بخصوص هذا الأمر؛ فقد كان الأخير يجري بعض الدراسات المثيرة للاهتمام حول الرابطة بين العقل والجسد. يمكنهما تسميتها 'تقصٍّ في غريزتي الحياة والموت (إيروس وثاناتوس).'

"دكتور أندرسون؟"

كانت ساعة المكتب تكتك، وتحت تكتكتها، كان بإمكانه سماع أنفاسهما معًا.

"دكتور أندرسون. هل تفهم ما كنت أقوله لك؟"

التنفس؛ كلمة تحمل في طياتها الشهيق والزفير. افقد كلمة كهذه، وستفقد كل شيء.

"دكتور—"

"هل أفهم؟ نعم، لم يغب عقلي إلى هذا الحد بعد... ليس بعد. يبدو أنني ما زلت قادرًا على تفكيك تراكيب الجمل الأساسية." شعر بصوته يبدأ في الانفلات من قيد سيطرته، فضبطه بصعوبة.

"هل أنت بخير؟"

جسّ نبضه. بدا طبيعيًا، لكنه لم يثق به. "هل لي أن أستعير سماعة الطبيب الخاصة بكِ؟"

"عفوًا؟"

"أريد أن أفحص معدل ضربات قلبي. لأرى كيف حالي حقًا." وابتسم، وهو أمر كلفه شيئًا من الجهد، استجماعًا لقواه الخائرة. "أرجوكِ.

سأعيدها إليكِ فورًا." وغمز لها. تبًا لكل شيء، فما هي إلا دقائق وستطلب له طبيبًا نفسيًا على أي حال. "أعدكِ."

خلعت السماعة من حول عنقها الطويل وناولتها له. كانت عيناها حائرتين ومترقبتين. هل ما زالت هذه الجثة الهامدة تحتفظ بجرعة من الجاذبية والحيوية؟ لمح نفسه في انعكاس النافذة خلفها، بالكاد ظاهرًا في مواجهة المعدن المتوهج للسيارات في موقف السيارات: هل كان ذلك الطيف غائر الوجنتين هو وجهه حقًا؟ لم يكن يكترث كثيرًا بمظهره، باستثناء معرفته بأن المظهر كان يساعده أحيانًا مع الحالات الخاضعة لدراساته في عمله، ومع ذلك شعر الآن بالخسارة مع وخزة ألم. كان لا يزال يحتفظ بشعره، وإن كانت تلك الخصلات المجعدة التي طالما أحبتها النساء قد ولت منذ زمن بعيد.

كانت رائحة السماعة تفوح بعبق خفيف منها. وأدرك حينها سبب ألفة ذلك العطر لديه؛ فقد كان العطر نفسه الذي اعتادت شيلا وضعه عندما يذهبان إلى مكان راقٍ لتناول العشاء. على الأرجح أنه هو من اشتراه لها. لم يكن لديه أدنى فكرة عن نوعه؛ فقد كانت دائمًا تكتب ما تريده في ورقة، وكان يقوم بواجبه ويقدمه لها في عيد الميلاد وأعياد ميلادها، دون أن يعير التفاصيل انتباهًا، إذ كان عقله مشغولًا بأمور أخرى.

كان معدل ضربات القلب مرتفعًا بعض الشيء، وإن لم يكن بالسرعة التي توقعها.

لكانت شيلا قد ضحكت منه الآن. *هيا يا رجل، كف عن فحص نفسك واكتفِ بالشعور بالأمر فحسب، هلّا فعلت؟*–تمامًا مثلما ضحكت منه في ليلة زفافهما (هل مرت أربع وأربعون سنة على ذلك بالفعل؟) عندما

أمطرها بالأسئلة في منتصف العملية. *"وهذا يبدو جيدًا، هكذا؟ ولكن هنا، هنا، هنا لا يبدو جيدًا؟"* في شدة تلهفه لمعرفة ما ينجح، وفضوله يحثه ويدفعه، بقوة تضاهي الرغبة نفسها. وما العيب في ذلك؟ فالجنس، كالموت، أمر بالغ الأهمية، ومع ذلك لماذا يبدو أن أحدًا لا يكترث بما يكفي لطرح الأسئلة الجوهرية؟ لقد فعلها كينسي، وفعلتها كوبلر-روس (وهو كذلك فعلها، أو حاول فعلها)، لكنهم كانوا قلة نادرة وغالبًا ما واجهوا عداء مؤسسة علمية بليدة العقل، ورجعية التفكير... *دع الأمر يمر يا جير*، سمع صوت شيلا وهي تقول ذلك. *فقط دع الأمر يمر.*

كان يجدر به أن يشعر بالإحراج—عروسه تضحك منه في ليلة زفافهما، وهو أمر أشبه بالكوميديا—لكن ذلك لم يزده إلا يقينًا بحكمة الخيار الذي اتخذه. لقد ضحكت لأنها تفهم أي نوع من المخلوقات يكون، وقبلت حاجته للمعرفة جنبًا إلى جنب مع بقية طباعه، تلك الكينونة البشرية الكاملة المليئة بالنزوات والعيوب.

"دكتور أندرسون." كانت الطبيبة قد دارت حول المكتب، ووضعت يدها على ذراعه. كان هذا أمرًا لم يفكر فيه قط قبل سنوات، عندما كان طبيبًا مقيمًا يزف الأخبار السيئة: قوة اللمسة. كان بإمكانه الشعور بالضغط الخفيف لأظافرها من خلال قماش قميصه القطني. بدأ يتصبب عرقًا عند فكرة أنها ستفعل وسترفع يدها، فسحب ذراعه بخشونة، ملاحظًا تلك العبسة الغريزية المذعورة وهي تستوعب الرفض. تراجعت خلف مكتبها، وشهاداتها تحيط بها من الجانبين: جنود صغار صامدون في زيّهم اللاتيني. "هل أنت بخير؟ هل يمكنني الإجابة عن أي أسئلة؟"

أجبر عقله على العودة إلى ما كانت تخبره به. عودة إلى اللحظة التي نطقت فيها تلك الكلمة: الحبسة (الأفازيا). كلمة أشبه بفتاة حسناء في فستان صيفي تشهر خنجرًا مصوبًا نحو قلبه.

الحبسة (الأفازيا)، من الكلمة اليونانية "أفاتوس"، وتعني: عاجز عن الكلام.

"هل التنبؤ بسير المرض قطعي؟"

مرّت عربة في الرواق خارج الغرفة، وأخذت السوائل في الكؤوس الزجاجية ترن.

"التنبؤ بسير المرض قطعي."

بالتأكيد كانت هناك أسئلة أخرى.

"لست واثقًا من أنني أفهم. لم أتعرض لإصابة في الدماغ، ولا لسكتة دماغية."

"هذا شكل أندر من الحبسة. الحبسة التقدمية الأولية هي نوع تقدمي من الخرف يصيب مركز اللغة في الدماغ."

الخرف. تلك كلمة كان ليسعده جدًا أن يفقدها.

"مثل—" أجبر نفسه على نطقها. "ألزهايمر؟" هل درس هذا في كلية الطب؟ وهل كان لعدم تذكره أي دلالة؟

"الحبسة التقدمية الأولية هي اضطراب لغوي، ولكن نعم. يمكن القول إنهما أبناء عمومة."

ضحك قائلًا. "يا لها من عائلة."

"دكتور أندرسون؟" كانت طبيبة الأعصاب تنظر إليه كما لو كان قد فقد صوابه.

"اهدئي يا دكتورة روثنبرغ. أنا بخير. مجرد... أستوعب الأمر، كما يقولون. حياتي، بعد كل شيء..." وتنهد. "على ما كانت عليه. *ففي رقدة الموت تلك، أي أحلام قد تراودنا / عندما نكون قد نفضنا عنا غبار هذا الجسد الفاني / لا بد أن تجعلنا نتريث.*" وابتسم لها، لكن تعابير وجهها لم تتغير. "أوه، يا للإله، أيتها المرأة، لا تبدي هكذا مذعورة—ألم يعودوا يدرسون شيكسبير في ييل؟"

نزع السماعة بخشونة وناولها إياها. "أترين ما سأفقده؟" ثار في داخله غضب. "أشياء لم أظن قط أنني سأفقدها. هل هناك حياة بعد شيكسبير؟ هذا هو السؤال الذي يستحق الطرح حقًا."

هل هناك حياة بعد العمل؟

لكنه لم *ينتهِ* بعد.

"ربما تود التحدث إلى شخص ما—هناك اختصاصي اجتماعي—أو، إذا كنت تفضل، طبيب نفسي—"

"أنا طبيب نفسي."

"دكتور أندرسون. استمع إليّ." لاحظ القلق في عينيها، لكنه لم يستطع الشعور به. "الكثير من المصابين بالحبسة التقدمية الأولية يستمرون في الاعتناء بأنفسهم لست أو سبع سنوات. وأكثر من ذلك في بعض الحالات. وحالتك لا تزال في مراحلها المبكرة جدًا."

"إذن سأكون قادرًا على إطعام نفسي و... تنظيف نفسي وكل ذلك؟ لسنوات قادمة؟"

"على الأرجح."

"كل ما في الأمر أنني لن أكون قادرًا على الكلام. أو القراءة. أو التواصل بأي شكل من الأشكال مع بقية البشر."

"المرض تقدمي، كما أشرتُ. في نهاية المطاف، نعم، سيصبح التواصل الشفهي والكتابي غاية في الصعوبة. لكن الحالات تتباين تباينًا كبيرًا. وفي كثير من الأحيان، يتطور العجز تدريجيًا وببطء شديد."

"إلى أن؟"

"يمكن أن تظهر أعراض شبيهة بمرض باركنسون، إلى جانب تدهور في الذاكرة، وحسن التقدير، والقدرة على الحركة، وما إلى ذلك." توقفت لبرهة. "وغالبًا ما يؤثر هذا على العمر المتوقع للمريض."

"الإطار الزمني؟" كانت هاتان الكلمتان كل ما استطاع تدبره.

"الرأي السائد طبيًّا هو من سبع إلى عشر سنوات من تاريخ التشخيص حتى الوفاة. لكن هناك بعض الدراسات الحديثة التي—"

"والعلاج؟"

توقفت مرة أخرى.

"لا يوجد علاج للحبسة التقدمية الأولية في هذا الوقت."

"آه. فهمت. حسنًا، الحمد لله أنه ليس حكمًا بالإعدام."

إذن هذا هو شعور الأمر. لطالما تساءل؛ كان يعرف كيف يكون الشعور على الجانب الآخر من المكتب. قبل سنوات طويلة جدًا الآن، في تلك الأشهر التي جعلوا فيها الأطباء النفسيين المقيمين يبلغون بالتشخيصات الأكثر خطورة، قالوا إنها ممارسة وتدريب، رغم أن الأمر كان أقرب إلى السادية. تذكر ذلك القلق الذي يجعل اليدين ترتجفان عند دخول تلك الغرفة حيث ينتظر المريض (يداك في جيبك، كان هذا شعاره في ذلك الوقت: يداك في جيبك، صوتك هادئ، قناع من المهنية والاحترافية لا ينطلي على أحد)؛ ثم ذلك الارتياح العارم عندما ينتهي

الأمر. كانوا يحتفظون بزجاجة فودكا تحت الحوض في حمام قسم النفسية لمثل هذه المناسبات.
هذه الطبيبة الآن، طبيبة الأعصاب المتميزة التي أرسلوه إليها (بشعرها المصفف، ومظهرها المصقول—بل إن مكياجها نفسه كان يحمل نوعًا من التظاهر بالشجاعة) لا بد أنها أبلغت بنحو اثني عشر تشخيصًا من هذا القبيل في الشهر (فقد كان هذا أحد تخصصاتها، بعد كل شيء) ومع ذلك بدت ذابلة ومرهقة الملامح. تمنى لو أن هناك زجاجة من مشروب ما تنتظرها في مكان ما، عندما ينتهي هذا كله.
"دكتور أندرسون—"
"جيري."
"هل هناك شخص يمكننا الاتصال به من أجلك؟ ابن، ربما؟ شقيق؟ أو... زوجة؟"
التقطت عيناه عينيها. "أنا بمفردي."
"أوه." كان التعاطف البادي في عينيها لا يطاق.
استوعب الأمر كله ورفضه في الآن ذاته. لم ينتهِ بعد. لن يمسح لنفسه بأن ينتهي. لا يزال من الممكن إنجاز الكتاب. سيكتب سريعًا؛ هذا كل ما سيفعله. يمكنه الانتهاء في غضون عام أو عامين، قبل أن تصبح الأسماء البسيطة ثم اللغة نفسها غريبة عليه.
كان يعلم أنه بدأ يتعب. وظن أن هذا هو كل ما في الأمر. السبب في أنه لم يكن يجد الكلمات المناسبة للأشياء أحيانًا، رغم معرفته بأنه يعرفها. لم تكن تخرج من فمه ولا تنساب من قلمه، ظن أن السبب هو الإرهاق. فلم يعد صغير السنّ ولطالما عمل لساعات طويلة. أو ربما التقط سلالة من مرض ما في رحلته الأخيرة إلى الهند، لذا ذهب

لإجراء فحص عام، وقاد الأمر إلى آخر، وطبيب إلى آخر، ولم يكن خائفًا. كان رجلًا لا يهاب الموت ولم يترك الألم يومًا يُبطئ من عزيمته، رجلًا نجا من التهاب الكبد والملاريا وكان قادرًا على العمل مباشرة خلال الأمراض الأقل شأنًا وبالكاد يلاحظها، لذا لم يكن هناك ما يخيفه—ومع ذلك انتهى به المطاف بطريقة ما هنا، على حافة هذا الجرف. لكنه لم يسقط بعد، ليس بعد.

كلمات كثيرة جدًا. أوه، لم يكن مستعدًا للتخلي عن أي منها. كان يحبها كلها. *شيكسبير. مِملَحة. شيلا.*

ماذا كانت شيلا لتقول له لو كانت هنا؟ لطالما كانت أذكى منه، رغم أن الناس كانوا يضحكون عندما يقول ذلك—المعلمة في روضة الأطفال أذكى من الطبيب النفسي؟ لكن الناس كانوا أغبياء حقًا؛ كانوا يرون شعرها الأشقر المنفوش وشهاداته العلمية، في حين أن أي شخص يملك نصف عقل كان بإمكانه رؤية مدى فطنتها، وكم كانت تفهم، وكم كانت تسمح لنفسها بأن تعرف.

لو كانت شيلا هنا—

ولكن هل كانت هنا؟ هل يمكن أن تكون في زيارة له، في وقت حاجته؟ كانت رائحتها هنا. لم تكن له خبرة خاصة بالأرواح، لكنه لم يكن يكذب بوجودها أيضًا؛ فقد كان موضوعًا لا تتوفر عنه بيانات كافية، على الرغم من بعض الجهود الباسلة هنا وهناك، كقالب قضية بتلر لدوكاس مثلًا، أو شبح تشيلتنهام لمايرز، ناهيك عن دراسات أوائل القرن التاسع عشر للوسطاء الروحيين التي أجراها ويليام جيمس وأمثاله.

أغمض عينيه لبرهة وحاول استشعار وجودها. شعر بشيء، أو تمنى شعوره. حركة ما. *أوه، شيل.*

"جيري." كان صوت الدكتورة روثنبرغ منخفضًا. "أعتقد حقًا أنه ينبغي لك التحدث إلى شخص ما."

فتح عينيه. "أرجوكِ لا تطلبي قسم النفسية. أنا بخير. حقًا."

"حسنًا." قالت برقة.

جلسا لبرهة في صمت، يتطلع كل منهما إلى الآخر عبر المكتب، كما لو كانا على ضفتين متقابلتين لنهر هائج. كم هي مخلوقات غريبة الكائنات البشرية الأخرى، فكر في نفسه. إنه لأمر مذهل أن يتمكن أي شخص من التواصل مع الآخر على الإطلاق.

يكفي هذا. انحنى إلى الأمام، واستجمع أنفاسه. "هل انتهينا إذن؟" اعتبري الأمر معروفًا، فكر في نفسه. أنتِ بموجب هذا معفاة من الاهتمامات المشوشة لرجل يتداعى.

"هل لديكَ أي أسئلة أخرى؟ أي شيء آخر بخصوص... مسار المرض؟"

ماذا كانت تريد منه؟ اجتاحته موجة من الذعر فجأة. قبض على جانبي كرسيه، واستطاع رؤيتها تسترخي أخيرًا عند علامة الضعف هذه. فأجبر نفسه على إفلات قبضته.

"لا شيء يمكنكِ الإجابة عنه. لا شيء لن يُجاب عنه في وقت قريب بما يكفي." تمكن من الوقوف دون ترنح. وألقى لها تحية عسكرية صغيرة. راقبها وهي تراقبه وهو يجمع حقيبته وسترته، واستطاع رؤية الانزعاج الذي سببه لها ارتباكها. فالأمر في مجمله لم يكن رد الفعل الذي توقعته.

ليكن هذا درسًا لكِ، فكر في نفسه وهو يغلق الباب وراءه ويستند إلى الجدار، محاولًا استجماع أنفاسه في هذا الممر الفلوريسنتي الشديد السطوع، وسط الصخب المتدفق الذي لا يتوقف للأصحاء والمرضى على حد سواء. لا تتوقعي شيئًا أبدًا.

لقد كان هذا درس حياته.

3

جثت جاني على البلاط الوردي بفستانها الأسود المفضل وحاولت تهدئة عقلها. كانت مياه الاستحمام القذرة تنضح عبر الأرضية، فتبلل ركبتي جواربها الطويلة، وتبقع حاشية فستانها المخملي. لطالما أحبت هذا الفستان لأن خصره المرتفع كان يتناسب مع قوامها، والمخمل يمنحه نبرة احتفالية بوهيمية، ولكن الآن، بعد أن تلطخ بصفار البيض وبقع الشامبو الرغوية التي تلمع مثل اللعاب، تحول إلى خرقة بالية بالغة الفخامة.

نهضت واقفة، وألقت نظرة في المرآة.

لقد كانت في حالة فوضى عارمة، بلا شك. لطخت المسكارا المنطقة تحت عينيها بالسواد مثل لاعب كرة قدم أمريكية؛ وترك ظلال العيون خطوطًا برونزية براقة عبر صدغيها؛ وكانت أذنها اليسرى تنزف. غير أن شعرها كان لا يزال يبدو جميلًا، يتموج ويتجعد حول وجهها كما لو أنه لم تصله الفكرة بعد.

تستحق ما جرى لها لأنها ظنت أن بإمكانها أخذ ليلة إجازة من نوح.

وقد كانت متحمسة جدًا أيضًا.

كانت جاني تعلم أنه من غير العقلاني على الأرجح أن تتوتر وتتحمس لموعد مع شخص لم تلتقِ به في الواقع. لكنها أحبت صورة بوب، ووجهه المنفتح وعينيه الضاحكتين اللتين تضيقان برقة، وأحبت صوته الفكاهي عبر الهاتف، والطريقة التي كان يهتز بها في أعماق جسدها فيوقظه. تحدثا لأكثر من ساعة، وابتهجا باكتشاف الكثير من الأمور المشتركة بينهما: فكلاهما نشأ في الغرب الأوسط وشق طريقه

إلى نيويورك بعد الجامعة؛ وكانا الابنين الوحيدين لأمهات قويات الشخصية؛ وكانا شخصين مقبولين المظهر ومؤهلين اجتماعيًا، وفوجئا بوجودهما عازبين في المدينة التي يحبانها. ولم يملكا دفعًا عن التساؤل (لم ينطقا بالأمر لكنه كان هناك، في رنين صوتيهما، وفي ضحكاتهما العفوية السلسة) إن كان كل ذلك الشوق والانتظار سينتهي قريبًا جدًا.

وكانا ذاهبين لتناول العشاء! والعشاء كان بلا شك مؤشرًا مبشرًا بالخير. كل ما كان عليها فعله هو تجاوز هذا اليوم. كان صباحًا عصيبًا، أشبه بالعلاج النفسي للأزواج منه بالهندسة المعمارية، حيث تردد السيد والسيدة فردينانند بشأن ما إذا كانت غرفة النوم الثالثة ستكون غرفة تمارين أم غرفة خاصة بالزوج (مان كيف)، واعترف آل ويليامز في اللحظة الأخيرة أنهم يريدون قطع غرفة الطفل إلى نصفين لأنهم، في الواقع، سيحتاجون إلى غرفتي نوم رئيسيتين بدلًا من واحدة، وهو أمر لا بأس به؛ فلم تكن تكترث إن كانا ينامان معًا أم لا، بل كل ما هنالك هو لماذا لم يخبراها قبل أن تضع اللمسات الأخيرة على المخططات؟ طوال اليوم، بين هذه الاجتماعات، وجدت نفسها تتفقد هاتفها بينما كان بوب يرسل لها رسائل نصية في دفقات مثيرة. "لا أطيق الانتظار!" وتخيلته (هل كان طويلًا أم قصيرًا؟ على الأرجح طويلًا...) يجلس في مقصورته المكتبية (أو أينما يعمل المبرمجون) وينشط عندما يهتز هاتفه بردها. "وأنا أيضًا!"—والاثنان يتبادلان الرسائل النصية مثل مراهقين، يتجاوزان يومهما على هذا النحو، فكل شخص بحاجة إلى شيء ما، أليس كذلك، ليدفعه ويقوده عبر مسار يومه؟

ولتكون صادقة، كانت تتطلع إلى قضاء ليلة بعيدًا عن نوح. لم تخرج في موعد غرامي منذ عام تقريبًا. وقد ألهمها العشاء مع بوب، مذكرًا إياها بأنها لا تعيش الحياة التي خططت لها.

تضحيات الأم العازبة كانت لازمة والدتها المتكررة طوال طفولتها، تلقيها دائمًا بذات الابتسامة التي تحمل مسحة خفيفة من الأسف، كما لو أن التخلي عن بقية حياتكِ هو الثمن الذي يتعين عليك دفعه مقابل الشيء الوحيد الأهم. ومهما حاولت، كان من المستحيل على جاني أن تتخيل والدتها على غير ما كانت عليه: زي التمريض الخاص بها مكوي بعناية ومربوط بإحكام بحزام، وحذاؤها الأبيض وشعرها البيوتري المقصوص بقصة البوب، وعيناها الزرقاوان الحادتان والنافذتان اللتان لم يمسهما زمن ولا مكياج ولا أي ندم ملموس (فلم تكن تؤمن بالندم).

لم يكن أحد ليجرؤ على العبث مع روثي زيمرمان. حتى الجراحون الذين كانت تعمل معهم بدوا خائفين منها قليلًا، ينكمشون بارتباك عندما تلتقي جاني ووالدتها بهم في السوبرماركت وتتبع عينا روث مسارًا لا يخطئه أحد من عربتها المحملة بالخضراوات والتوفو إلى صناديق البيرة الخاصة بهم وأكياس لحم الخنزير المقدد والبطاطس المقلية. ولم يكن بإمكانك أبدًا تخيلها تذهب في موعد غرامي أو تنام في أي شيء آخر سوى بيجامتها الفلانيلا المقلمة.

عندما قررت جاني إنجاب نوح، كانت مصممة على أن تفعل الأشياء بشكل مختلف. وهو ما كان على الأرجح السبب وراء تمسكها بخطتها تلك الليلة، حتى عندما بدأت الأمور تسير على نحو خاطئ بشكل واضح.

وصلت قبل عشر دقائق من الموعد إلى مدرسة نوح وقضت الوقت بالتناوب بين التحقق من رسائل بوب والتجسس على نوح من خلال نافذة غرفة سن الرابعة. كان الأطفال الآخرون يفعلون شيئًا يتضمن لصق معكرونة مدهونة باللون الأزرق على أطباق ورقية بينما كان ابنها، كالعادة، يقف بجانب سوندارا مباشرة، يقذف كرة من الطين الاصطناعي (بلاي دو) من يد إلى أخرى وهو يراقبها وهي تشرف على الأطفال. كبتت جاني وخزة من الغيرة؛ فمنذ يومه الأول في الروضة، كان نوح مرتبطًا بشكل لا يُفسر بالمعلمة الجامايكية الهادئة، يتبعها مثل جرو صغير. لو أنه فقط أحب أي واحدة من جليسات الأطفال بنصف هذا القدر، لكان الخروج من البيت أيسر بكثير...

لمحتها ماريسا، المعلمة الرئيسية، وهي امرأة تفيض بالبهجة الطبيعية أو بجرعة زائدة من الكافيين، عند النافذة ولوحت بذراعيها كما لو كانت توجه طائرة للهبوط، وحركت شفتيها قائلة. "هل يمكننا التحدث؟"

تنهدت جاني—مرة أخرى؟—وهوت على المقعد في الممر تحت صف من فوانيس اليقطين المصنوعة من ورق الإنشاء.

"كيف يسير الأمر مع غسيل اليدين؟ أي تقدم؟" أومضت ماريسا بابتسامة مشجعة.

"قليلًا،" وهي كذبة، لكنها أفضل، كما فكرت، من "لا تقدم على الإطلاق."

"لأنه اضطر لتفويت حصة الفنون مرة أخرى اليوم."

"هذا مؤسف." هزت جاني كتفيها بطريقة رجت ألا تقلل من شأن مشروع المعكرونة. "يبدو أنه لا يمانع الأمر على أي حال."

"وقد بدأ يصبح..." انكمش أنفها، من فرط أدبها الذي منعها من إكمال الكلمة. فكرت جاني. *قوليها فحسب*. متسخًا. كان ابنها متسخًا. كل جزء مكشوف من جلده كان إما لزجًا أو ملطخًا بالحبر أو الطباشير أو الغراء. كان هناك خط أحمر من قلم تحديد ماجيك ماركر على عنقه منذ أسبوعين على الأقل الآن. وقد بذلت قصارى جهدها باستخدام المناديل المبللة وغطت يديه ومعصميه بمعقم اليدين، وهو ما بدا كأنه يغلف الأوساخ ويثبتها، كما لو أنها قامت بتغليفه بطبقة بلاستيكية.

بعض الأطفال لا يمكنهم التوقف عن غسل أيديهم؛ أما ابنها فلا يقترب من قطرة ماء دون معركة. الحمد لله أنه لم يبلغ سن البلوغ بعد وتبدأ رائحته بالظهور، وإلا لكان مثل ذلك الرجل المشرد في مترو الأنفاق الذي يمكنك شم رائحته القادمة من المقطورة المجاورة.

"و، أمم، نحن نطبخ غدًا. كعك التوت الأزرق؟ سأكره أن يفوت ذلك!"

"سأتحدث إليه."

"جميل. لأن—" أمالت ماريسا رأسها، وعيناها البنيتان تفيضان بالقلق.

"ماذا؟"

هزت المعلمة رأسها. "سيكون أمرًا لطيفًا بالنسبة له، هذا كل ما في الأمر".

فكرت جاني في نفسها. *إنه مجرد كعك مافن*، لكنها لم تنطق به. وقفت؛ كان بإمكانها رؤية نوح من خلال النافذة الصغيرة. كان في منطقة الملابس التنكرية، يساعد سوندارا في جمع القبعات. وأسقطت ممازحة قبعة فيدورا على رأسه، فانكمشت جاني. بدا رائع المظهر، لكن آخر شيء يحتاجونه الآن هو قمل الرأس.

اخلع القبعة يا نوح. تمنت في سرها قائلة.

لكن صوت ماريسا كان يثرثر في أذنها. "واسمعي... هل يمكنكِ أن تطلبي منه ألا يتحدث عن فولدمورت كثيرًا في الفصل؟ إن هذا يزعج بعض الأطفال الآخرين."

"حسنًا." *اخلعـ ـها.* "من هو فولدمورت؟"

"من كتب هاري بوتر؟ أعني، أنا أتفهم تمامًا إن كنتِ تريدين قراءة تلك الكتب له، أنا أحبها أيضًا، كل ما في الأمر أن... أعني، نوح متقدم بالطبع، لكنها ليست مناسبة حقًا للأطفال الآخرين."

تنهدت جاني. كانوا دائمًا يقعون في الافتراضات الخاطئة عندما يتعلق الأمر بابنها. كان يملك عقلًا معجزة، يلتقط المعلومات من الهواء على ما يبدو—تعليق عابر سمعه ذات مرة، ربما، من يدري؟—لكنهم كانوا يحاولون دائمًا إعطاء الأمر معنى آخر.

"نوح لا يعرف أي شيء عن هاري بوتر. أنا نفسي لم أقرأ الكتب قط. ولن أسمح له أبدًا بمشاهدة تلك الأفلام. ربما أخبره طفل آخر هنا عنها، طفل له شقيق أكبر سنًا؟"

رَمشت عينا المعلمة البنيتان. "ولكن—" وفتحت فمها مرة أخرى لتقول شيئًا ثم بدت وكأنها تراجعت عن رأيها. "حسنًا، اسمعي، فقط أخبريه أن يبتعد عن هذه الأمور السوداوية، حسنًا؟ شكرًا جزيلًا لكِ—" قالتها وهي تفتح الباب على ساحة صاخبة من الأطفال في سن الرابعة المغطين بالطلاء الأزرق والمعكرونة.

وقفت جاني عند الباب، تنتظر حتى يلمحها نوح.

آه، كان هذا دائمًا اللحظة الأجمل في يومها: الطريقة التي يشرق بها وجهه ويتوهج عندما تقع عيناه عليها، تلك الابتسامة الملتوية التي

تقسم وجهه نصفين وهو يندفع إلى الأمام، يأخذ قفزة راكضة عبر الغرفة ويرتمي في أحضانها. لَفّ ساقيه حول خصرها مثل قرد صغير ووضع جبهته على جبهتها مباشرة، ينظر إليها بوقار مرح خاص به وحده، كما لو كان يقول: "آه، نعم، أنا *أتذكركِ*." كانت عينا والدتها تنظران إليها، وعيناها هي أيضًا، زرقة صافية تبدو جميلة جدًا—شكرًا جزيلًا لكِ—على وجهها هي، ولكن على وجه نوح، محاطة بفيض الخصلات الشقراء المجعدة، اتخذت بعدًا آخر تمامًا، بحيث كان الناس دائمًا يلتفتون التفاتة مزدوجة عند النظر إليه كما لو كان الجمال الأثيري، عندما يتجسد في طفل ذكر، نوعًا من الخدع السحرية.

كانت قدرته على الفرح تذهلها دائمًا، شيء كان يعلمها إياه بمجرد النظر في وجهها.

الآن خرجت مع نوح إلى بعد ظهر أوكتوبر الذي بدأ يظلم، وشعرت بالعالم يتقارب ويتضاءل مؤقتًا لينحصر في هذا الجسد الصغير الذي يقفز على أطراف أصابعه بجانبها. سارا يدًا بيد تحت الأشجار، وصفوف من البيوت الحجرية البنية تحف الأرصفة على امتداد بصريهما.

اهتز الهاتف في جيبها، ليعيدها فجأة إلى بوب، ذلك المزيج غير المرئي من الصفات (صوت عميق، ضحكة مبتهجة) التي لم تلتئم وتتحد بعد لتشكل كائنًا بشريًا كاملًا.

"أشعر وكأنني أعرفكِ بالفعل. هل هذا غريب؟"

"لا!" كتبت له. "وأنا كذلك!". (هل كان هذا صحيحًا؟ ربما). هل ينبغي لها أن تضع قبلة (xo)؟ أم أن ذلك يحمل جرأة زائدة؟ فاكتفت بوضع حرف x واحد. فجاء رده فوريًا. "XXX!"

أوه! شعرت بتيار من الحرارة يسري في جسدها، كما لو أنها سبحت في رقعة دافئة داخل بحيرة باردة.

مرا بالمقهى الواقع على زاوية شارعهما، فجذبتها الرائحة إلى الداخل؛ وقررت أن تقوي نفسها من أجل المحادثة القادمة. فجرت نوح إلى الداخل.

"إلى أين نحن ذاهبون يا أمي-ماما؟"

"أريد فقط تناول القهوة. لن أتأخر."

"أمي، إذا شربتِ القهوة الآن فستظلين مستيقظة حتى الفجر."

ضحكت؛ فقد كان كلامه أشبه بما يقوله الكبار. "أنت على حق يا نوي. سآخذها منزوعة الكافيين. حسنًا؟"

"وهل يمكنني الحصول على كعكة مافن بالذرة منزوعة الكافيين؟"

"حسنًا." كان الوقت قريبًا جدًا من موعد عشاءه بالطبع، ولكن تبًا لكل شيء.

"ومشروب سموذي منزوع الكافيين؟"

داعبت شعره قائلة. "ماء منزوع الكافيين من أجلك يا صديقي."

كانت القهوة فواحة الرائحة عندما استقرا أخيرًا مع غنيمتهما على درج مدخل بيتهما. كانت الشمس تغرب وراء المباني. والضوء، الوردي واللطيف، يبرز الحمرة في المنازل المبنية من الطوب والبيوت الحجرية البنية، يلامس أوراق الأشجار الآخذة في التراخي والسقوط. كان مصباح الغاز في المقدمة يرتعش ويهتز ضوؤه. لقد كان هذا هو العامل

الحاسم الذي أقنعها باستئجار المكان، على الرغم من أنه كان مكلفًا، وفي مستوى الحديقة (طابق أرضي منخفض)، ولا تصله أشعة الشمس المباشرة. لكن الأعمال الخشبية المصنوعة من الماهوجني في الداخل وشجيرات السياج اللطيفة ومصباح الغاز في المقدمة جعلتها تشعر بالدفء والراحة، كما لو كان بإمكانها ونوح الاختباء والاندساس معًا هناك بأمان، بعيدًا عن العالم، وبعيدًا عن الزمن. لم تكن قد حسبت حساب حقيقة أن اللهب الذي يرتعش دائمًا خارج النافذة الأمامية سيخطف نظرها في أوقات غريبة خلال اليوم وينعكس على نوافذ المطبخ الخلفية ليلًا، مما يجعلها تجفل أكثر من مرة مع شعور بأن المنزل يحترق.

نظفت يدي نوح المتسختين بمنديل مضاد للبكتيريا وناولته كعكة المافن الخاصة به.

"تعلم، إنهم يصنعون كعك المافن غدًا في المدرسة. ما رأيك؟"

أخذ قضمة، مما فجر شلالًا من الفتات.

"وهل سيتعين عليّ الغسيل وتنظيف نفسي بعد ذلك؟"

"حسنًا، الطبخ يتضمن الفوضى. هناك طحين وبيض نيء..."

"آه". لَعق أصابعه. "إذن، لا."

"لا يمكننا الاستمرار على هذا النحو إلى الأبد يا حشرتي الصغيرة."

"ولماذا لا؟"

لم تكلف نفسها عناء إجابته—فقد دارا في هذه الحلقة مِرارًا وتكرارًا، وكانت لديها أمور أخرى بحاجة لقولها.

وخزته برقة قائلة. "مهلًا."

كان مشغولًا، يعمل بجد على كعكة مافن الذرة الخاصة به. كيف سمحت له بطلبها؟ لقد كانت ضخمة الحجم. "اسمع، أنا سأخرج الليلة."
حدق فيها. ووضع كعكة المافن جانبًا. "لا، لن تخرجي."
أخذت نفسًا عميقًا. "أنا آسفة يا صغيري."
لمع ضوء جامح في عينيه. "لكنني لا أريدكِ أن تذهبي."
"أعلم، لكن ماما يجب أن تخرج أحيانًا يا نوح."
"إذن خذيني معكِ."
"لا أستطيع."
"ولماذا لا؟"
لأنه لن يضر ماما بشيء إن حظيت ببعض الحب لمرة واحدة على الأقل قبل أن تذهب أنت إلى الجامعة. "هذا أمر خاص بالكبار."
فاجأها بابتسامة يائسة وملتوية. "لكنني ناضج قبل أواني."
"محاولة جيدة يا صاح، لكن لا. سيكون كل شيء على ما يرام. أنت تحب آني. أتتذكر؟ لقد جاءت إلى مكتب ماما عطلة نهاية الأسبوع الماضية ولعبت معك بقطع الليجو؟"
"ماذا لو راودني كابوس؟"
كانت قد فكرت في هذا الأمر؛ فكوابيسه كانت متكررة. وقد راوده كابوس ذات مرة بينما كانت خارج البيت لحضور حدث تواصل في مجال العمل؛ وعادت لتجده زجاجي العينين ويرتجف أمام فيديو لشخصية دورا المستكشفة بينما جليسة الأطفال (التي كانت قد بدت مفعمة بالحيوية والنشاط! والتي قد أحضرت معها كعك براونيز منزلي الصنع!) رفعت بضعة أصابع في لوحة واهنة وخائرة من حيث كانت

تستلقي، منهكة ومصدومة، على الأريكة. وتلك الجليسة لم تعد هي الأخرى أبدًا.

"حينها ستوقظك آني وتضمك وتتصل بماما. لكن هذا لن يحدث."

"ماذا لو أصابتني نوبة ربو؟"

"حينها ستعطيك آني جهاز الاستنشاق الخاص بك وسأعود إلى البيت فورًا. لكنك لم تصب بأي نوبة منذ فترة طويلة جدًا."

"أرجوكِ لا تذهبي." لكن صوته ارتعش وتأرجح، كما لو كان يعلم أن اللعبة قد انتهت.

⁂

كانت قد ارتدت ملابسها بالفعل، وانشغلت بتصفيف شعرها وهي تتابع بنصف عين مقطع فيديو على يوتيوب لمراهقة تبتسم ببلاهة وتستعرض الطريقة الصحيحة لوضع ظلال العيون—وهو أمر كان مفيدًا بشكل مفاجئ في واقع الأمر—عندما سمعت صوت نوح الحاد والرفيع يناديها من غرفة المعيشة.

"أمي-ماما! تعالي إلى هنا!"

هل انتهى عرض سبونج بوب بهذه السرعة؟ ألا يعرضون هذه البرامج في حلقة مفرغة لا تنتهي؟

توجّهتْ إلى الغرفة بخطوات وئيدة بجواربها الصوفية السوداء. كان كل شيء على حاله كما تركته؛ وعاء الجزر الصغير لم يُمسّ على طاولة القهوة الجلدية، وصوت سبونج بوب يتردد وهو يتمشى بساقيه المقوّستين الغريبتين عبر الشاشة، لكن نوح لم يكن له أثر في الأرجاء. ومض شيء ما في الفتحة الجدارية المطلة على المطبخ. هل كان ذلك انعكاس مصباح الغاز الذي يرتعش؟

"مهلًا، انظري إلى هذا!"

لم يكن انعكاس مصباح الغاز المرتعش.

عندما دارت حول المنعطف ولمحت طرفه، واقفًا عند رخامة المطبخ بجانب كرتونة مفتوحة من بيض الدجاج البني العضوي المعزز بالأوميغا-3، ويمسك بالبيضة تلو الأخرى ويهشمها فوق رأسه الأشقر ذي الخصلات الحيوية المتوثبة، شعرت بليلتها وهي تتسرب من بين يديها.

لا؛ لن تسمح بذلك. تصاعد الغضب في داخلها من حيث لا تدري: حياتها، حياتها هي، حياتها الوحيدة، ألا يحق لها أن تحظى بقليل من المرح، لليلة واحدة فقط؟ هل كان هذا حقًا طلبًا يفوق الحد؟

"أرأيتِ يا أمي؟" قال ببراعة ولطف كافيين، ولكن دون أن تخطئ عيناها ذلك العناد المتوهج على وجهه. "أنا أصنع بيض-نوح. هل فهمتِها؟ مثل شراب البيض (الإيجنوج)؟"

كيف له أن يعرف أصلًا ما هو شراب الإيجنوج؟ لماذا كان يعرف دائمًا أشياء لم يحدثه عنها أحد قط؟

"راقبيني." قال وقد والتقط بيضة أخرى، وأرجع ذراعه إلى الخلف، وقذفها نحو منتصف الجدار، وهو يصرخ بابتهاج بينما تلاشت البيضة وتناثرت بقاياها. "رمية سريعة!"

"ما *خطبك*؟" قالت له.

ارتدّ إلى الوراء مكبلًا وأسقط البيضة التي كانت في يده الأخرى.

حاولت تعديل نبرة صوتها. "لماذا تفعل أمرًا كهذا؟"

قال والذعر يبدو عليه قليلًا. "لا أعلم."

حاولت تهدئة روعها. "يتعين عليك الاستحمام الآن. أنت مدرك لذلك، أليس كذلك؟"
ارتجف جسده عند سماع الكلمة. كان البيض يسيل على وجهه، وينضح في تجويف عنقه. "لا تذهبي." قال وعيناه الزرقاوان تسمرانها على الجدار بمدى حاجته إليها.
لم يكن غبيًا. لقد حسب أن الشيء الذي يكرهه أكثر من أي شيء آخر في العالم يستحق التحمل والرضوخ في سبيل إبقائها في المنزل. لقد أراد وجودها هناك إلى هذا الحد. فهل يمكن لبوب، الذي لم يلتقِ بها قط، أن ينافس ذلك؟
لا، لا، لا؛ بل ستذهب! تبًا لكل شيء: لقد طفح الكيل! لن تخضع لهذا النوع من الابتزاز، لا سيما من طفل! إنها هي البالغة بعد كل شيء—أليس هذا ما يكررونه دائمًا في مجموعة الأمهات العازبات؟ أنتِ من تضع القواعد. يتعين عليكِ الصمود بقوة، لا سيما وأنكِ البالغة الوحيدة. أنتِ لا تسدين إليهم معروفًا بالاستسلام.
رفعته بين ذراعيها (كان خفيف الوزن؛ لم يكن سوى طفل صغير، ابنها، في الرابعة من عمره فقط). حملته إلى الحمام وأمسكت بجسده المتلوّي بإحكام بين ذراعيها وهي تفتح صنبور المياه وتتفحص درجة حرارتها.
كان يتلوى ويصرخ كحيوان وقع في فخ. خطت نحو حافة حوض الاستحمام ووضعته على سجادة الحمام (ساقاه تزلان، وذراعاه تلوحان بعنف)، وتمكنت بطريقة ما من خلع ملابسه وتشغيل دُش الاستحمام.

على الأرجح أن صرخته كانت مسموعة على امتداد الجادة الثامنة بأكملها.
حارب وقاتل كما لو أن حياته تتوقف على ذلك، لكنها فعلتها؛ احتجزته هناك تحت الماء وسكبت الشامبو فوق رأسه، وهي تردد في نفسها مرارًا وتكرارًا أنها لا تعذب أحدًا، بل إنها تمنح ابنها غسيلًا وتنظيفًا هو في أمسّ الحاجة إليه.
عندما انتهى الأمر (مسألة ثوانٍ معدودة، وإن بدت دهرًا لا ينتهي) كان مستلقيًا ككومة على أرضية حوض الاستحمام، وكانت هي تنزف. في غمرة ذلك الصخب، كان قد مدّ عنقه وعضّ أذنها. حاولت لفه بمنشفة، لكنه انتزع نفسه منها بقوة، واندفع خارجًا من الحوض نحو غرفة نومه، منزلقًا على الأرض. تناولت بعض المضادات الحيوية من خزانة الأدوية ووضعتها بينما كانت تستمع إلى عويله الذي يتردد صداه في أرجاء المنزل، ليملأ كل خلية في جسدها بالكمد والأسى.
نظرت في المرآة.
أيًا كان ما تبدو عليه، لم تكن امرأة تستعد للذهاب في موعد عاطفي أول.
مشت نحو غرفة نوح. كان مستلقيًا على الأرض، عاريًا، يتأرجح، وركبتاه مضمومتان بين ذراعيه—طفل يبدو كبقعة ماء، بشرته الشاحبة تلمع في الضوء الأخضر المنبعث من النجوم المضيئة في الظلام التي لصقتها على السقف لتجعل الغرفة الصغيرة تبدو أكبر مما هي عليه.
"نوي؟"

لم ينظر إليها. كان يبكي بنشيج خافت في ركبتيه. "أريد العودة إلى المنزل." كان هذا أمرًا اعتاد قوله في أوقات محنته وضيقته منذ أن كان طفلًا يخطو خطواته الأولى. كانت تلك أول جملة كاملة ينطق بها. وكانت تجيبه دائمًا بالطريقة نفسها. "أنت في المنزل."

"أريد ماما الخاصة بي."

"أنا هنا يا حبيبي."

شاح بنظره عنها. "لستِ أنتِ. أريد أمي الأخرى."

"أنا أمك يا عزيزي."

استدار، والتقت عيناه الكئيبتان بعينيها مباشرة. "لا، لستِ كذلك."

سرت قشعريرة في أوصالها. شعرت بكيانها وكأنها تنظر لنفسها من بعيد، واقفة فوق هذا الصبي المرتجف تحت الضوء الغريب للنجوم الزائفة. كانت الأرضية الخشبية خشنة تحت قدميها، وعقد الخشب فيها تبدو كحفر يمكن للمرء أن يسقط من خلالها، كالسقوط خارج حدود الزمن.

"بلى. أنا أمك الوحيدة والفريدة."

"أريد الأخرى. متى ستأتي؟"

تمالكت نفسها واستجمعت قواها بجهد. فكرت في نفسها: مسكين هذا الصغير؛ أنا كل ما تملك. ونحن كل ما نملك، نحن الاثنين معًا. لكننا سنجعل الأمر ينجح. سأكون أفضل. أعدك بذلك. جثت على ركبتيها بجانبه. "لن أذهب، حسنًا؟"

سترسل إلى بوب رسالة نصية اعتذارية، وينتهي الأمر عند هذا الحد. فماذا عساها أن تقول؟ *أتذكر ذلك الابن الرائع الذي حدثتك عنه؟ حسنًا، إنه غير طبيعي بعض الشيء...* لا، كانت رابطتهما أضعف وأرق

من أن تتحمل هذا النوع من التعقيدات، وهناك دائمًا امرأة نيويوركية أخرى وحيدة تنتظر في الكواليس. ستلغي جليسة الأطفال وستدفع لها أجرها على أي حال، لأن الإلغاء جاء في اللحظة الأخيرة ولا يمكنها تحمل خسارة جليسة أخرى.

"لن أذهب. سألغي مجيء آني." قالت مرة أخرى. "سأبقى معك." شعرت بالامتنان، ولم تكن هذه المرة الأولى، لعدم وجود أي شخص بالغ يشهد لحظة الضعف هذه.

ولكن من يكترث بما يظنه الآخرون؟ صعدت الحمرة إلى وجه نوح، تفتحًا ورديًا على بشرة باردة لزجة، وأطاحت بها ابتسامته الملتوية جانبًا، ومحت الغرفة من مخيلتها. كان الأمر أشبه بالنظر إلى الشمس. فكرت في نفسها أن والدتها ربما كانت على حق بعد كل شيء. ربما كانت بعض القوى أعتى من أن تُقاوم.

"تعال إلى هنا يا مشاكس." بسطت ذراعيها، وقذفت بكل شيء في مهب الريح: الفستان، والموعد، وهذه الليلة المثيرة، ولعلها كل الليالي المثيرة المتبقية لها، وهي امرأة تقدم بها السن لحظة بلحظة، في قلب حياتها الوحيدة والفريدة تمامًا.

هنا، بين ذراعيها، يكمن كل ما يهم. قبلت رأسه الرطب العذب. كانت رائحته زكية، لمرة واحدة.

رفع وجهه. "هل ستأتي أمي الأخرى قريبًا؟"

4

فتح أندرسون عينيه وتلفت في أرجاء الغرفة بذعر عارم.
أوراقه. أين هي؟ ما الذي بحق الجحيم فعل بها؟
كانت الغرفة معتمة، والجو يعج بالغبار المتطاير. صناديق نصف معبأة بالملفات تحف كل جدار، ترتفع من حوله وكأنه سقط في قبر بعمق ستة أقدام بدلًا من الاستغراق في النوم على السرير السفري في مكتبه مجددًا. كانت النافذة مرتفعة وضيقة، كشق في حصن منيع؛ والآن تسللت منها حزمة ضوء كالرمح على الأرضية الخشبية والكتب المكومة هنا وهناك وصفحات المخطوطة المبعثرة حيث ألقى بها بغضب في الليلة السابقة. نهض مسرعًا وجمع الصفحات واحدة تلو الأخرى. وعندما انتهى جلس مجددًا، ممسكًا بالمخطوطة في حجره: كائن ضخم، يشبه القطة. سوّى حوافها بيديه، وأطراف الأوراق تداعب باطن كفيه. لم يكن هذا الدفق يبدو شيئًا ذا بال، هذه الحزمة، ومع ذلك كانت تحوي مجمل عمل حياته.
نحى صفحة العنوان جانبًا ونظر إلى الإهداء.

إلى شيلا.

حاول استشعار وجودها الآن، في الغرفة، لكنه لم يستطع؛ كانت مثبتة على الصفحة كفراشة غُرِز فيها دبوس. وخطر بباله أن وفاة شيلا، التي كانت أسوأ ما حدث في حياته قط، لم تغير مسار أيامه بشكل جوهري. ومن ناحية أخرى، في السنوات الخمس التي تلت تشخيصه بالمرض، كانت الحبسة قد دمرته تقريبًا.
انتقل إلى الصفحة الأولى. آه، ها هي ذا: كلماته.

على الرغم من أن الأمر قد يبدو صعب التصديق، إلا أن هناك أدلة قد تثبت أن الحياة بعد الموت هي حقيقة واقعة بالفعل.

كان من غير العقلاني الاعتقاد بأن الجمل قد تمحو نفسها في الليل لمجرد أنه حلم بذلك، ومع ذلك لم يكن هذا بأكثر عقلانية من أي شيء آخر كان يحدث له. بالأمس كان يتحدث عبر الهاتف مع أمينة مكتبة جمعية الاستكشاف العلمي في لندن، يناقش معها تخزين الملفات التي يتبرع بها. كان يريد التأكد من أنه على الرغم من إغلاق مكتبه، فإن أبحاثه ستظل متاحة لأي علماء جادين قد يجدونها مفيدة. كان يريد إخبارها عن الحالات الجديدة الواردة من النرويج والتي أرسلها إليه أموندسون، لضمان أرشفة هذه الملفات بشكل صحيح، ولكن عندما وصل إلى الموضع من الجملة حيث كان ينبغي أن يظهر فيه اسم زميله القديم، لم يكن الاسم هناك ببساطة.

"الملفات الواردة من هناك، في الأعلى." كانت هذه هي العبارة المخزية المهينة التي انطلقت من فمه بدلًا من ذلك. وبالطبع، غلبت الحيرة على أمينة المكتبة.

"ماذا تقصد؟ هناك في الأعلى أين؟"

رأى أندرسون المضايق البحرية (الفيوردات) والغابات ونساء النرويج. ولاح وجه أموندسون في مخيلته، بأنفه المنتفخ والشعيرات الممتدة على وجنتيه، وعينيه المبتسمتين المشككتين، اللتين لم تحملا قط أي نزعة تهكمية أو سخرية لاذعة.

"الملفات الجديدة المتعلقة بالوحمات الخلقية، كما تعلمين."

"آه. تقصد تلك الدراسة الواردة من البروفيسور في سريلانكا؟"

"لا، لا، لا." شعر بموجة عابرة من اليأس وأراد إغلاق الهاتف، لكنه أخذ نفسًا وأجبر نفسه على الاستمرار. "الأبحاث الجديدة عن الوحمات، الأبحاث الواردة من ذلك الرجل—ذلك الرجل هناك في الأعلى. في الشمال. أنتِ تعلمين من أقصد. في أوروبا. الجبال الجليدية... الـ... *المضايق البحرية*!" زمجر في وجه المرأة المسكينة.

قالت أخيرًا بنبرة باردة. "آه. سأتأكد من أرشفة دراسات أموندسون بشكل صحيح،" وشعر بومضة نصر خافتة لأنها باتت تظنه الآن وغدًا أحمقًا فظًا بدلًا من كونه مصابًا بعجز عقلي.

في الأسبوع السابق، كان قد سحب مسرحية *العاصفة* من الرف في غرفة نومه وانتقل إلى نهايتها، ولكن عندما وصل إلى السطر الذي يقول "لقد انتهت مباهجنا واحتفالاتنا الآن،" بدت الكلمات وكأنها ترتجف في قبضة عقله، كلحظة تمر وتنقضي في حينه. كيف له ألا يعرف تلك الكلمة، *مباهج*؟ وهو الذي قرأ وأعاد قراءة هذه المسرحية، وهذا الخطاب، مائة مرة؟ واضطر إلى البحث عنها في ذلك القاموس اللعين. فكر في أنه ينبغي له نسخ مكتبته بأكملها، حتى تتورم يداه، ينسخ كل كلمة أخيرة من كل كتاب من كتبه، حتى يحتفظ بذاكرة مادية هناك في يديه لكل تلك الكلمات التي لا يطيق خسارتها وفقدانها. تصفح المخطوطة في حجره. كان قد أرسلها بالبريد الإلكتروني إلى وكيله الأدبي بالطبع (فالعالم لم يعد عالمًا ورقيًا)؛ لكنه قام بطباعتها أيضًا حتى يتمكن من الشعور بثقلها. *عمل عمر كامل*: الحالات الأكثر قوة، جرى تقطيرها وتلخيصها من أجل عامة الناس. عقود من العمل الدؤوب مع المرضى لإعداد دراسات الحالات، وسنوات من كتابة مسودة تلو الأخرى، سعيًا وراء الوضوح، والوضوح دائمًا. فرصته الأخيرة

لترك أثر وفارق: لقد عمل كالمجنون طوال أربع سنوات ونصف لإنهاجها بينما كان عقله لا يزال قادرًا، قبل أن يجتاح الضباب جنباته. وفي بعض الأيام كان ينسى تناول الطعام.

لطالما اعتبر المجتمع الأكاديمي أندرسون فاشلًا. كان يعلم ذلك. كانت هناك لحظة، عندما ترك وظيفته في كلية الطب لأول مرة وكان زملائه لا يزالون يقدرونه، عندما روجعت كتبه: مرتين من قِبل مجلة الجمعية الطبية الأمريكية، ومرة في مجلة ذا لانسيت. ولكن مع تقدم زملائه في السن نسوه، أو بمزيد من الدقة نسوا أنهم احترموه يومًا ما. لم يعره أحد في ذلك العالم أي اهتمام منذ عقود الآن. كان مشهورًا في مجتمع أبحاث الظواهر الخارقة بالطبع؛ وكان يُدعى للتحدث في كل مكان يدرسون فيه الإدراك الحسي الفائق، أو تجارب الاقتراب من الموت، أو الوسطاء الروحيين. لكن المجتمع العلمي لن يقبله مجددًا أبدًا، وهو المجتمع الوحيد الذي انتمى إليه حقًا؛ وقد تخلى في النهاية عن تلك المعركة، بعد عقود من حثّ شيلا له على فعل ذلك. لقد انتهى الأمر.

ولكنه الآن كتب شيئًا لجمهور مختلف: إنه يستهدف العالم بأسره، لا أقل من ذلك.

"إذا تمكن الناس من فهم بياناتك—أعني الناس الحقيقيين، لا الأكاديميين—فقد يغير ذلك شيئًا بالنسبة لهم." قالت له شيلا هذا أكثر من مرة، لكنه لم يدرك قوة منطقها إلا تدريجيًا، عندما كانت تحارب بالفعل مرض القلب الذي سيودي بحياتها.

عندما يتأمل قرّاءه المستقبليين الآن، يتخيل رجلًا مثله، في الأيام الخوالي قبل أن يبدأ هذا كله، عندما كان في كلية الطب. يرى نفسه في

أمسية جمعة باردة يسير عائدًا من مكتبه عبر الساحة، يفكر بملء عقله في دراسة عن اضطرابات الأعراض الجسدية، وتجذبه دفء وأنوار المكتبة. يخطو إلى الداخل لتصفح سريع، يلقي نظرة على الكتب المعروضة على الطاولة، باحثًا عن شيء يثير انتباهه—ويستدعيه الكتاب ويناديه. يلتقطه ويفتحه على الصفحة الأولى. على الرغم من أن الأمر قد يبدو صعب التصديق، إلا أن هناك أدلة قد تثبت أن الحياة بعد الموت هي حقيقة واقعة بالفعل.

يتخيل الرجل وهو يفكر في نفسه قائلًا. *"أدلة؟ مستحيل."* ومع ذلك يجلس على كرسي جلدي قريب، ويبدأ في القراءة...

كان أندرسون يعلم أن هذا مجرد وهم وخيال. ولكنه كان رجلًا كهذا يومًا ما. هو أيضًا كان بحاجة إلى دليل. الآن بات بوسعه تقديمه. يمكنه ترك بصمته وأثره. كان يشعر بفيض من الثقة، حتى يوم أمس. حتى تحدث إلى وكيله الأدبي وعلم أن كل ناشر قد رفض كتابه. وعندما أغلق الهاتف، ركل المخطوطة بقدمه لتتطاير عبر الغرفة، وتتناثر الصفحات كأنها رماد.

الآن نظر إلى الكلمات مجددًا.

على الرغم من أن الأمر قد يبدو صعب التصديق، إلا أن هناك أدلة قد تثبت أن الحياة بعد الموت هي حقيقة واقعة بالفعل...

لا؛ لن يسمح لهذا بأن يوقفه. فكر في أموندسون الآخر، النرويجي الذي اكتشف القطب الجنوبي، وكيف تضاءل انتصاره أمام الفشل النبيل لمنافسه، روبرت فالكون سكوت. سكوت، الذي هلك مع رجاله في التندرا المتجمدة. رجل شجاع مات وهو يحاول، والبرد يختطف

أطرافه إصبعًا تلو إصبع، وقدمًا تلو قدم. ضحية أخرى من ضحايا الأرض الجديدة تيرا نوفا، المجهول العظيم.

5

كانت متأخرة.

لقد بدأ يومها بشكل سيئ؛ إذ استيقظ نوح في منتصف الليل مجددًا، فزعًا من كابوس مروع وقد غمره بوله من رأسه حتى قدميه. حاولت في الصباح تنظيف جسده ذي الرائحة الكريهة بالمناديل المبللة بينما كان يتلوى وينتحب، لكنها استسلمت في النهاية، ورشته ببودرة الأطفال، ثم تركه في روضة البراعم الصغيرة وهو عابس وتنبعث منه رائحة لا تخطئها عين، تشبه رائحة صندوق رمل القطط.

إذن: كانت متأخرة. وكان الأمر سيمر بسلام لولا أن الموعد مع عائلة غالوواي. لقد كان مشروع تجديد منزل عائلة غالوواي من تلك الوظائف التي يسير فيها كل شيء على النحو المعاكس لما ينبغي له. لقد انتقلوا إلى المنزل منذ أسبوعين، وكانت تأتي إلى هناك يوميًا تقريبًا منذ ذلك الحين، بما في ذلك زيارة في صباح عيد الشكر.

اليوم كان لديهم قائمة مراجعة؛ بدؤوا بأجهزة المطبخ وانتهوا في حمام الضيوف.

وقف الثلاثة في الحمام الصغير، يحدقون في خيط رفيع من الماء يسيل من كابينة الدش ذات البلاط الفاخر نحو الأرضية الجديدة ذات الشكل الشطرنجي.

"أرأيتِ؟" أشارت سارة غالوواي بمخلب أحمر لامع إلى التدفق الصغير. "إنه يسرب."

لماذا تستحمون في حمام الضيوف على أي حال؟ أرادت أن تسألها، لكنها لم تفعل. بدلًا من ذلك، أخرجت شريط القياس وقاست عتبة كابينة الدش، والتي كانت، كما تعلم، ضمن المقاييس القياسية.

"همم. إنه العرض القياسي."

"ولكنكِ تَرين التَّسريب."

"نعم... كنت أتساءل..."

نظرت سارة إلى جاني بتعبير يشبه بومة متحيرة، وهو التعبير الذي أدركت جاني مع الوقت أنه ليس سوى عبوس مغطى بالبوتوكس.

"تتساءلين عن ماذا؟"

"أعني، هل المسألة تتعلق بكابينة الدش أم بكمية المياه؟ لأنه إذا كانت هناك كمية كبيرة من المياه، فقد يكون الأمر مفهومًا..." توقفت جاني وقالت كل شيء في نفس واحد سريع. "هل هذا أول دش يستحم به شخص ما هنا اليوم أم الثاني؟ هل تأخذون دُشًا طويلًا بشكل خاص؟"

يا إلهي، كم كانت تكره هذا الجزء من العمل. كان الأمر أشبه بما لو أنها سألتهم عما إذا كانوا يمارسون الجنس هناك؛ وإذا كان الأمر كذلك، فقد افترضت أنه كان ينبغي عليهم إخبارها، حتى تتمكن من تفصيل الحجم المناسب...

تنحنح فرانك غالوواي. "أعتقد أن استخدامنا للدش طبيعي جدًا، إيه—" طفق يقول، عندما اهتز هاتف جاني في جيبها.

"لحظة واحدة فقط."

ألقت نظرة خاطفة على هاتفها الخلوي؛ *روضة البراعم الصغيرة*. أوه، بحق السماء!

"اسمعا، أنا آسفة، يجب أن أرد على هذه المكالمة. لن يستغرق الأمر سوى لحظة." خطت إلى الغرفة المجاورة. ماذا يريد المعلمون الآن؟ ربما يشتكون من أن رائحة نوح كريهة اليوم. وهو أمر صحيح، حسنًا، لقد كان كذلك، ولكن—

"معكِ ميريام ويتاكر." كشط الصوت الأجش لمديرة الروضة مسامعها. في ثانية واحدة، انقطع نَفَسها، وارتعدت ركبتاها—هل هذه هي اللحظة الفاصلة بين ما قبل وما بعد، اللحظة التي يخشاها الجميع؟ الغصة بقشرة تفاحة، أو السقوط من على السلالم؟ استندت إلى الجدار. "هل نوح بخير؟"

"إنه بخير."

"أوه، الحمد لله. اسمعي، أنا في وسط اجتماع، هل يمكنني معاودة الاتصال بكِ؟"

"آنسة زيمرمان. هذا الأمر خطير للغاية."

"أوه". كانت النبرة مقلقة؛ قبضت على الهاتف بإحكام ولصقته بأذنها. "ماذا حدث؟ هل فعل نوح شيئًا؟"

تسلل الصمت الذي أعقب ذلك ببطء إلى وعيها، ليخبرها بكل شيء ولا شيء مما تحتاج إلى معرفته. كان بإمكانها سماع أنفاس المرأة على الطرف الآخر من الهاتف، وسارة غالوواي وهي تقرقر بصوت خافت، ولكن ليس خافتًا تمامًا، لزوجها في الحمام. *"مهمِلَة،"* ظنت أنها سمعت تلك الكلمة.

"هل بكى أثناء وقت القيلولة؟ هل شد شعر شخص ما؟ ماذا؟"

"في الواقع، آنسة زيمرمان،" تلا ذلك شهيق حاد. "هذا حديث يجب أن يدور بيننا شخصيًا."

"سأكون هناك بأسرع ما يمكن،" قالت جاني بنبرة حازمة. لكن صوتها اهتز، واخترق الخوف درع مهنيتها كالعظم البارز.

كانت مديرة البراعم الصغيرة بمثابة الأسد، والساحرة، وخزانة الملابس مجتمعين في كيان واحد. بنيتها تشبه الصندوق، ترتدي الأسود من نظارة الجدة العصرية وحتى جزمتها المدببة التي تصل إلى الكاحل. كانت ميريام ويتاكر تطلق شعرها طويلًا، خصلات فضية تداعب كتفيها العريضين بنزق غير متوقع، كإصبع وسطى مرفوعة في وجه تقلبات الزمن. كانت تدير الروضة الرائدة في الحي المهووس بالمدارس طوال السنوات الخمس عشرة الماضية، ومن ثم كان لديها شعور متضخم بعض الشيء بأهميتها الخاصة مقارنة بالمنظومة الكونية الكبرى. لطالما وجدت جاني أن غطرسة السيدة ويتاكر مع البالغين مسلية، مستشفة من وراء قناعها نوعًا من الشجن والدفء العشوائي.

أما الآن، وهي تجلس في مواجهة السيدة ويتاكر على كرسي بلاستيكي برتقالي صغير محشورة بين نبتة في أصيص وملصق دودة الكتب، رأت جاني في وجه المرأة الأكبر سنًا شيئًا أكثر إزعاجًا بكثير من سلطتها البهرجة المعتادة: رأت القلق. كانت المرأة متوترة تقريبًا بقدر توترها هي.

قالت المرأة الأخرى وهي تتنحنح. "شكرًا لكِ على الحضور، في مثل هذا الوقت القصير."

حافظت جاني على هدوء صوتها. "إذن، ما الأمر؟"

تلا ذلك فترة صمت، حاولت فيها جاني الحفاظ على ثبات أنفاسها قدر الإمكان، وسمعت فيها كل دقة من دقات قلب الروضة النابض: صوت صنبور في غرفة الفنون، معلمة تغني *"تنظيف، تنظيف، لِتُنظف الجميع"*، وطفل ما في مكان ما، ليس طفلها، يصرخ.

رفعت السيدة ويتاكر رأسها، مرسلة نظرتها إلى نقطة تقع إلى اليسار قليلًا من كتف جاني. "كان نوح يتحدث إلينا عن البنادق."

إذن هذا هو كل ما في الأمر؟ شيء قاله نوح؟ لكن هذا أمر هين. شعرت بالتوتر في جسدها يبدأ في الانقشاع. "ألا يفعل كل الأولاد الصغار ذلك؟"

"لقد كان يقول إنه لعب بالبنادق."

"ربما كان يتحدث عن بندقية لعبة (Nerf)"، فالتفتت السيدة ويتاكر إليها، ولمحت في عينيها شيئًا قاسيًا.

"بندقية رينيجيد من عيار .54، هذا ما قاله تحديدًا. وقال إن رائحة البارود تشبه رائحة البيض الفاسد."

شعرت بومضة من الفخر؛ ابنها يعرف أشياءً—لطالما كان هذا هو الحال مع نوح، ميزة غريبة في دماغه، تشبه أدمغة العباقرة، لكن بدلًا من المعادلات الرقمية، كان يعرف حقائق عشوائية لا بد أنه سمعها في مكان ما. هل كان دماغ أينشتاين هكذا؟ هل كان دماغ جيمس جويس؟ ربما هما أيضًا لم يفهمهما أحد في طفولتهما. لكن في هذه الأثناء، كان هناك مسألة ما تقوله لهذه المرأة التي تجلس عابسة في وجهها عبر الطاولة. "أنا لا أعرف من أين يأتي بهذه الأشياء حقًا. سأطلب منه ألا يتحدث عن البنادق."

"هل تحاولين إخباري بأنكِ لا تعرفين أين استخدم بندقية؟ أو كيف يعرف أن رائحتها تشبه رائحة الكبريت؟"

قالت بصبر. "إنه لم يستخدم بندقية. أما بالنسبة للكبريت—فلا أعلم. إنه يقول أشياء غريبة أحيانًا."
"إذن أنتِ تنكرين ذلك؟" رفضت المرأة النظر إلى جاني.
"ربما رأى شيئًا على التلفزيون؟"
"إنه يشاهد التلفزيون إذن، أليس كذلك؟"
أوه، من هذه المرأة! "إنه يشاهد دييغو ودورا وسبونج بوب ومباريات البيسبول... ربما كان هناك إعلان على قناة (ESPN) عن الصيد، أو شيء من هذا القبيل؟"
"هناك أمر آخر. لقد كان نوح يتحدث كثيرًا عن كتب هاري بوتر. مع ذلك، وفقًا لكلامكِ، أنتِ لم تقرئيها له ولم تعرضي عليه الأفلام."
"هذا صحيح."
"ومع ذلك يبدو أنه يعرفها جيدًا وبشكل لا يصدق. لقد كان يتجول وهو يردد نوعًا من تعاويذ القتل."
"انظري، هذه هي طبيعة نوح فحسب. إنه يقول كل أنواع الأشياء." حركت ساقيها؛ فقد بدأ نمل الخدر يسري في مؤخرتها بسبب الكرسي الصغير. لقد قطعت زيارة عائلة غالوواي؛ وربما كانت السيدة غالوواي تتصل بجميع صديقاتها في هذه اللحظة بالذات لتخبر الجميع بأنها كانت مخطئة، وأنها لا يمكنها التوصية بمكتب *جاني زيمرمان للهندسة المعمارية* بعد الآن. إنها تخسر عملاء بسبب هذا الهراء. "إذن لهذا السبب استدعيتِني إلى هنا من اجتماع عمل مهم؟ لأنكِ تعتقدين أن طفلي الصغير يتحدث أكثر من اللازم عن البنادق وهاري بوتر؟"
"لا."

بعثرت بعض الأوراق على مكتبها، ومررت يدًا معقودة ومكسوة بالخواتم عبر شعرها الفضي.
"كنا نجري نقاشًا حول الانضباط اليوم في المدرسة. كانت هناك حادثة عض... ولكن لا يهم ذلك الآن. ناقشنا قواعدنا، وكيف أن إيذاء بعضنا البعض أمر غير مقبول أبدًا. وعرض نوح—من تلقاء نفسه—أنه كان ذات يوم تحت الماء لفترة طويلة لدرجة أنه غاب عن الوعي. لقد استخدم بالفعل عبارة 'غاب عن الوعي'، وهو اختيار غريب للكلمات بالنسبة لطفل في الرابعة من عمره، ألا تظنين ذلك؟"
"قال إنه غاب عن الوعي؟" حاولت جاني استيعاب الأمر.
"آنسة زيمرمان. أنا آسفة، ولكن يتعين عليّ أن أسألكِ." كانت عيناها، اللتان ركزتا أخيرًا على عيني جاني، بمثابة نيران باردة من الغضب الشديد. "هل سبق لكِ أن احتجزتِ رأس ابنكِ تحت الماء حتى غاب عن الوعي؟"
"ماذا؟" رمشت في وجه المرأة الأخرى؛ كانت الكلمات فظيعة وغير متوقعة لدرجة أنها استغرقت لحظة لامتصاصها. "لا! بالطبع لا!"
"أنتِ تفهمين لماذا أجد صعوبة في تصديقكِ."
لم تطق الجلوس في هذا المقعد للحظة أخرى؛ وثبت واقفة وبدأت تذرع الغرفة جيئة وذهابا. "إنه يكره الاستحمام. هذا هو التفسير على الأرجح. لقد غسلت شعره؛ هذه هي جريمتي."
كان صمت المرأة غارقًا في الازدراء، وتابعتها نظرات السيدة ويتاكر وهي تسير ذهابًا وإيابًا في أرجاء الغرفة.
"هل قال نوح أي شيء آخر؟"
"قال إنه نادى على والدته ولكن لم يساعده أحد، وأنه دُفع تحت الماء."

تصلبت جاني في مكانها. "دُفع تحت الماء؟" كررت الكلمة.

أومأت السيدة ويتاكر برأسها باقتضاب. "رجاءً، اجلسي."

كانت مشوشة للغاية لدرجة أنها لم تعد تقوى على الوقوف؛ فغاصت مجددًا في الكرسي الصغير. "ولكن—لم يحدث له أي شيء من هذا القبيل قط. لماذا يقول ذلك؟"

كررت السيدة ويتاكر بقوة. "قال إنه دُفع تحت الماء، ولم يتمكن من الخروج."

أخيرًا، غمر الإدراك عقل جاني. "ولكن—هذا حلمه،" قالت بسرعة. "كابوس يراوده؛ أنه عالق تحت الماء ولا يستطيع الخروج."

عادت إليها شظية من الليلة السابقة—نوح ينهال عليها بلكمات بقبضتيه الصغيرتين القاسيتين، ويصرخ: *أخرجيني، أخرجيني، أخرجيني!* دراماهما الليلية، التي تلاشت بحلول الصباح. من المذهل كيف سقطت تمامًا من وعيها، حتى تأتي الليلة التالية. "إنه يراوده نفس الكابوس منذ سنوات. إنه مشوش فحسب."

رفعت نظرتها، لكن وجه السيدة ويتاكر كان يشبه بابًا معدنيًا ثقيلًا؛ يمكنك الطرق والطرق عليه، لكن شيئًا لن يفتحه.

تحدثت السيدة ويتاكر ببطء. "إذن لا بد أنكِ تفهمين معضلتي."

"معضلتكِ؟ لا، لا أفهمها. أنا آسفة."

"آنسة زيمرمان. لقد قضيت سنوات طويلة مع الأطفال الصغار، وفي خبرتي، هم لا يتحدثون عن أحلامهم بهذه الطريقة. هذا النوع من—التشوش—ليس شائعًا."

شائع، لا؛ لم يكن هناك شيء شائع في نوح، أليس كذلك؟ حاولت جاني التفكير. لم يكن الأمر يقتصر على أنه يعرف أشياءً فحسب؛ بل كان

أكثر من ذلك، أليس كذلك؟ متى أدركت لأول مرة أن نوح يختلف عن الأطفال الآخرين؟ متى توقفت عن الذهاب إلى مجموعة الأمهات العازبات؟ في مكان ما على طول الطريق، عندما تطورت النقاشات من النوم طوال الليل وغازات الرضع إلى الاستحمام والروضة، كانت هناك لحظات كثيرة جدًا شاركت فيها (كوابيسه ومخاوفه، ونوبات بكائه الطويلة غير المبررة) لتتطلع حولها فلا ترى سوى نظرات فارغة بدلًا من إيماءات الموافقة. *هذا مجرد جزء من تميز نوح وغرابته*—هذا ما كانت تقوله لنفسها دائمًا، أما الآن—

تنحنحت السيدة ويتاكر، وهو صوت فظيع. "طفل صغير يعاني من فوبيا الماء يتحدث عن احتجازه تحت الماء... ويتشبث بكل ما أوتي من قوة بمعلمة مبتدئة هنا، ويبكي بنشيج لا ينقطع لساعات عندما تغيب—"

"لقد أخذته في منتصف النهار في ذلك اليوم."

"... ثم الأدلة الأخرى على أن المنزل ليس على ما يرام تمامًا، حقيقة أن رائحة الولد... حسنًا، أنتِ تفهمين؟ إن عليّ التزامًا. أنا ومعلموه لدينا التزام..." رفعت رأسها، وميض فضي، سيف يقطع ويفصل. "بإبلاغ خدمات حماية الطفل عن أي علامة تشير إلى تعرض الطفل للخطر..."

"خدمات حماية الطفل؟"

سقطت الكلمات في بئر بلا قاع. شعرت بإحساس ساخن ولاذع، كما لو أنها صُفعت بقوة على وجنتيها. عائلة غالوواي، مخاوفها المالية، كل ما كان يزدحم به عقلها تلا تلاشى وتبدد.

"أنتِ تمزحين بالتأكيد."

"أؤكد لكِ أنني لا أمزح."
كان الأمر مستحيلًا. أليس كذلك؟ إنها أم صالحة. أليست كذلك؟
شاحت بنظرها عنها، نحو الملعب خارج النافذة، وحاولت تماسك نفسها. لا يمكنهم أخذه منها، أليس كذلك؟
حط غراب على الأرجوحة، يتأملها بعينيه الحادتين الخرزيتين. وأجبرت الذعر على العودة إلى حلقها بجهد جهيد.
قالت محتفظة بثبات صوتها. "انظري، هل سبق لكِ أن رأيتِ أي علامة من أي نوع عليه؟ أو أي دليل على سوء المعاملة؟ أعني، إنه طفل سعيد." واعتقدت أن هذا صحيح؛ كان بإمكان أي شخص أن يشعر ببهجة نوح. "تحدثي إلى معلميه—"
"لقد فعلت،" تنهدت السيدة ويتاكر، وهي تدلك صدغيها بأصابعها. "صدقيني، أنا لا أستهين بهذا الأمر. بمجرد أن تدخلي في النظام—"
قطعت جاني حديثها قائلة فجأة. "نوح غريب الأطوار، إنه واسع الخيال." رمت بنظرها خارج النافذة؛ نفض الغراب ريشه، وحرك رأسه نحوها. التفتت مجددًا إلى الغرفة وواجهت خصمها. "إنه يكذب."
رفعت السيدة ويتاكر حاجبها. "يكذب؟"
"إنه يؤلف قصصًا، مجرد أشياء صغيرة في الغالب. مثل مرة، في حديقة الحيوانات الأليفة، قال: 'الجد جو كان لديه خنزير، أتذكرين؟ كان صوته عاليًا جدًا.' لكن ليس لديه جد، ناهيك عن جد يملك خنزيرًا. أو في المدرسة—قالت إحدى المعلمات إنه أخبر الصف عن ذهابه إلى منزل البحيرة في الصيف وكم أحب البقاء هناك، وكيف كان يقفز من الطوافة إلى الماء. كانت فخورة به لتحدثه في وقت الحلقة."
"نعم؟"

"حسنًا، كما ترين، لا يوجد أي منزل على البحيرة. أما بالنسبة للسباحة... فأنا لا أستطيع حتى إجباره على غسل يديه،" ضحكت، وهو صوت جاف يتردد صداه في الغرفة. "وفي الليل، قبل أن ينام، يقول إنه يريد العودة إلى المنزل ويسأل متى ستأتي أمه الأخرى. هذا النوع من الأشياء."

كانت السيدة ويتاكر تحدق فيها.

"منذ متى وهو يتحدث هكذا؟"

فكّرت في الأمر؛ كان بإمكانها سماع صوت نوح عندما كان طفلًا يحبو، ذلك الأنين الشجي: *أريد العودة إلى المنزل*. كانت تضحك عليه أحيانًا: *أنت هنا بالفعل يا غبي*. وقبل ذلك، عندما كان رضيعًا، كانت هناك فترة من الوقت (تبدو مشوشة الآن، لكنها كانت مؤلمة للغاية أثناء حدوثها) كان يبكي فيها لساعات، ينادي *ماما! ماما!* وهو يتلوى بين ذراعيها. "لا أعلم. منذ فترة. ولكن أليس لدى الكثير من الأطفال أصدقاء خياليون؟"

كانت المديرة تنظر إليها بنظرة فاحصة، كما لو كانت تنظر إلى طفل أخطأ في الحسابات الأساسية. قالت: "هذا يتجاوز مجرد الخيال،" ورنت العبارة في أذني جاني، وتردد صداها في غرفة خلفية من عقلها كانت تنتظر سماعها، كما أدركت، منذ فترة طويلة.

شعرت جاني بأن كل رغبة في المقاومة بدأت تتسرب منها. "ماذا تقولين؟"

التقت أعينهما؛ واختفت القسوة، ولمعت عينا المرأة بحزن لم تملك جاني أي دفاع ضده. "أعتقد أنه يجب عليكِ أخذ نوح لرؤية طبيب نفسي."

نظرت جاني خارج النافذة، كما لو أن الغراب قد يرى غير ذلك، لكنه كان قد طار ورحل. "سأفعل ذلك على الفور."

"حسنًا. لدي قائمة يمكنكِ الاختيار منها، سأرسلها لكِ عبر البريد الإلكتروني الليلة."

"شكرًا لكِ،" حاولت الابتسام. "لقد كان نوح سعيدًا هنا."

"نعم. حسنًا،" دلكت السيدة ويتاكر عينيها، وبدت منهكة؛ كانت كل شعرة في رأسها الفضي بمثابة شهادة على عناء الإشراف على أطفال الآخرين. "سنكون جميعًا بانتظار عودته."

"عودته؟"

"بعد أن يقضي فترة في العلاج النفسي. سنتواصل معكِ قبل الدورة الصيفية ونعيد تقييم الوضع حينها. اتفقنا؟"

تمتمت جاني. "اتفقنا." وتعثرت خطواتها نحو الباب قبل أن تتمكن المرأة من قول أي شيء آخر لا تطيق سماعه.

في الخارج، جلست بثقل على مقعد بين الجزم والمعاطف الصغيرة. إذن لا يوجد بلاغ لخدمات حماية الطفل؛ لقد تفادت تلك الكارثة. غرق عقلها في سواد شديد من الراحة. في الزاوية البعيدة من ذلك السواد، ومض قلق (كان هناك طوال الوقت) كشرارة ضلت طريقها وبدأت تختنق: ما الخطب في نوح؟

6

"الحبسة عند موريس رافيل،" مجلة جمعية لوس أنجلوس لطب الأعصاب

في سن الثامنة والخمسين، أُصيب رافيل بالحبسة الكلامية، مما أدى إلى توقف أي إنتاج فني آخر له. الأكثر إثارة للدهشة، أنه كان قادرًا على التفكير موسيقيًا ولكنه عاجز عن التعبير عن أفكاره سواء بالكتابة أو الأداء. ويقدم التموضع الجانبي لنصفي الدماغ للتفكير اللفظي (اللساني) والموسيقي تفسيًا لانفصام قدرة رافيل على التصور والابتكار...

"جير!"

أزاح أندرسون طبقه الذي لم يمسسه من الطعام فوق المقال الذي كان يحاول قراءته وتطلع إلى الأعلى. كان الرجل الواقف أمامه، وهو زميل بدين بلحية صغيرة تطفو كجزيرة في منتصف ذقنه، يرفع صينيته وينظر إليه متسائلًا. لم يكن الأمر ليصبح أسوأ من هذا بأي حال.

كان يعلم أن كافتيريا كلية الطب ربما كانت فكرة سيئة، لكنه ظن أن ضجيج النشاط الزميل، والسير لمسافة طويلة إلى المبنى المألوف، قد يفيدانه ببعض الشيء. الآن أومأ برأسه للرجل وقضم تفاحة؛ وشعر بها باردة وجافة في فمه.

"أنت هنا!" قال الرجل. "كنت أقول لهيلستريك بالأمس فقط إنني متأكد من أنك انتقلت إلى مومباي، أو كولومبو،" ولوح بيد مشذبة بعناية. "أو ما شابه ذلك."

"كلا، ما زلت هنا." نظر أندرسون إلى زميله وتصبب عرقًا. كان يعرف هذا الرجل منذ عقود، لكنه لم يستطع تذكر اسمه.

لقد كان الرجل نجمًا صاعدًا عندما كانا طبيبين مقيمين، صديقين ومتنافسين، يُذكر اسماهما في نفس النفس. كانا في المؤسسة نفسها طوال السنوات العشرين الماضية، ولا يزال كلاهما يبدو مذهولًا من الاتجاهات المختلفة التي اتخذها القدر واهتماماتهما بكل منهما. والآن أصبح الرجل الآخر رئيسًا لقسمه في كلية الطب،

وأندرسون كان... أندرسون كان...

كان أندرسون يجبر نفسه على التحرك جانبًا، ليفسح المجال لهذا الرجل المجهول الاسم ليأخذ مكانه بجانبه. تعجب من كم الطاقة المضغوطة التي تحويها بعض الأجساد. داعب البخار المتصاعد من طعامه أنف أندرسون؛ وظن أنه ربما يتقيأ، فهذا من شأنه أن يضع حدًا للوجبة على عجل.

"إذن، أين كنت تختبئ إذن؟ لم أرك منذ أشهر! هل سمعت آخر الأخبار؟"

اختار أندرسون رد فعله بعناية. "أشك في ذلك."

"هناك حديث عن أن مينكوفيتش في مرحلة التنافس على—أنت تعلم، الكلمة التي تبدأ بحرف الـ(N)."

"الكلمة التي تبدأ بحرف الـ(N)؟" حدق أندرسون.

همس الرجل. "نوبل. مجرد حديث، كما تعلم، ولكن—" وهز كتفيه.

"آه."

"لقد كانت دراساته الأخيرة رائدة حقًا؛ إنها تغير فهمنا الحالي للدماغ بالفعل. نحن جميعًا فخورون جدًا."

"آه." قال أندرسون مجددًا. نظر إليه الرجل بطرف عينه، وكان بإمكان أندرسون معرفة ما يدور في خلده تمامًا: *كان بإمكانك أن تكون جزءًا من هذا، كان بإمكانك أن تفعل شيئًا، لو لم تنحرف بشكل غير مبرر. كان بإمكانك تغيير حياة الناس...*

أدرك أندرسون أنهم جميعًا يفكرون بهذه الطريقة، ولطالما فعلوا ذلك، لكنه كان مشغولًا للغاية لدرجة تمنعه من الشعور بثقل هذا الأمر. نظر حوله الآن إلى جميع زملائه وهم يتجاذبون أطراف الحديث ويمضغون الطعام، تتحطم شوكهم وسكاكينهم. أطباء في غالبهم؛ أناس حذرون وغافلون. وكان بإمكانه استشعار هالتهم من اليقين المغرور حتى في الطريقة التي يغرسون بها شوكهم في طبق الباستا المخبوزة. لقد عرف بعضهم منذ عقود، ولطالما اعتبر هذا مجتمعه: هؤلاء الغرباء الذين نسي أسماءهم، والذين لم يرغبوا في أي علاقة معه.

"إذن كيف حال عمل الروح؟ هل اكتشفت أي أرواح جديدة مؤخرًا؟ أم أنها أرواح قديمة؟" ضحك الرجل مجهول الاسم في سره. "في الواقع، كنت أنوي الاتصال بك؛ كورين تقسم أن عليتنا مسكونة، وأخبرتها أنه ينبغي لها أن تبحث عنك. قلت لها: 'جيري سيصل إلى حقيقة الأمر من أجلكِ'. بالطبع، ربما تكون السناجب هي السبب،" وغمز بطرف عينه. رجل مسرور بنفسه في كل تفصيلة؛ في يقينه بأن عمله ذو قيمة وأن عمل أندرسون ليس كذلك.

في لحظة أخرى من الزمن، كان أندرسون سيومئ برأسه، وعيناه في مكان آخر، ويدع سخرية الرجل الآخر تسقط على درع المجاملة التي كان عليه أن يصنعها حول نفسه. كان رده المعتاد هو التظاهر بعدم سماع الفكاهة وراء الاستفسارات، والإجابة بمناقشة جادة تمامًا لعمله، كما لو أن بياناته يمكن أن تثير اهتمامهم، وكما لو كان لا يزال بإمكانه تغيير آرائهم. وكان ليقول: *"حسنًا، في الواقع، كانت لدي حالة مثيرة للاهتمام مؤخرًا في سريلانكا."* ويتحدث حتى يرى سخريتهم تتلاشى وتتحول إلى ملل.

أما الآن، فقد نظر مباشرة في عيني هذا الرجل المألوف والمجهول الاسم، الصغيرتين اللامعتين، وسقطت الكلمات في رأسه، فقالها. "تبًا لك." وكانت هذه الجملة الأكثر تعبيرًا وبلاغة واختصارًا التي قالها منذ فترة طويلة.

ضيق الرجل عينيه؛ وفتح فمه ثم أغلقه. وتناول بعض الحساء بملعقته، وارتسمت بقع حمراء على رقبته ووجنتيه. مسح شفتيه بمنديله. ولم يقل شيئًا على الإطلاق لعدة لحظات، ثم قال:

"أوه، يا إلهي—أهذا راتنر؟ كنت أحاول التواصل معه منذ أسابيع!" وحمل صينيته المبعثرة بغدائه الذي لم يأكل سوى نصفه، وأسرع مبتعدًا عن طاولة أندرسون بحثًا عن أجواء أكثر ملاءمة.

سحب أندرسون مقال رافيل من تحت طبقه، وسواه، وبدأ يقرأ مجددًا. حنى رأسه منخفضًا فوق النص في إشارة تمنى أن تكون الإشارة العالمية لـ *"ابتعد عني"*. لقد حاول ثلاث مرات في ذلك الأسبوع قراءته، ووجد عقله يقاوم إتمام المهمة بشكل غريب.

...ويقدم التموضع الجانبي لنصفي الدماغ للتفكير اللفظي (اللساني) والموسيقي تفسيرًا لانفصام قدرة رافيل على التصور والابتكار....

ربما كان في حالة إنكار، وهذا هو السبب في أنه لم يتمكن من تجاوزه. أو ربما كانت الحبسة تتدخل في محاولاته لفهم الجوانب المختلفة لتقدمها. لولا أنه كان محبطًا للغاية، لربما أثارت سخريتها ضحكه.

أثناء السباحة في سان جان دو لوز، وجد رافيل—وهو سباح ماهر—فجأة أنه لا يستطيع "تنسيق حركاته"....

سان جان دو لوز؛ لقد زار ذلك الشاطئ مرة واحدة، منذ سنوات، في شهر العسل. قاد هو وشيلا السيارة على طول الساحل الفرنسي؛ كان لديه أسبوعان من الإجازة ووعد بعدم التحدث عن المختبر أو الفئران. بدون موضوعاته المعتادة، كان مشوشًا وحرًا في آن واحد. فأكلا وتحدثا عن الطعام؛ وسبحا وتحدثا عن الماء والضوء.

أقاما في فندق أبيض كبير على الشاطئ؛ فندق غراند، شيء من هذا القبيل. قوارب صيد تتمايل؛ والضوء على الماء، وفي الهواء، ينعكس على كتفي شيلا البيضاوين. ولم يكن هناك شيء يشبه ذلك الضوء، كما كان يعلم الرسامون جميعًا.

حاول التركيز على الكلمات مجددًا.

...وجد رافيل—وهو سباح ماهر—فجأة أنه لا يستطيع "تنسيق حركاته"...

كيف كان شعور تلك اللحظة–تلك اللحظة التي وجد فيها فجأة أنه لا يستطيع السيطرة على جسده؟ هل ظن أنها النهاية؟ هل كان يتخبط، ويغرق؟

كانت حبسة رافيل من نوع حبسة فيرنيكه ذات الشدة المعتدلة... وظل فهم اللغة أفضل بكثير من القدرات الشفهية أو المكتوبة... وكانت اللغة الموسيقية أكثر تضررًا... مع وجود تباين ملحوظ بين فقدان التعبير الموسيقي (المكتوب أو العزفي) والتفكير الموسيقي، الذي ظل محفوظًا نسبيًا.

تباين ملحوظ، فكر في نفسه؛ *ينبغي أن يكتبوا هذا على قبري*. وأجبر نفسه على مراجعة تلك الفقرة مجددًا.

تباين ملحوظ بين فقدان التعبير الموسيقي (المكتوب أو العزفي) والتفكير الموسيقي، الذي ظل محفوظًا نسبيًا....

وهو ما يعني–والكلمات تغوص أخيرًا في وعي أندرسون، كما لو كان يتعرف على كلمات كتبها بنفسه–وهو ما يعني أن رافيل كان بإمكانه الاستمرار في ابتكار أعمال أوركسترالية، وكان بإمكانه سماعها في رأسه، لكنه لم يستطع إخراجها؛ ولم يستطع تدوين النوتات الموسيقية. لقد كانت محبوسة في الداخل إلى الأبد، تُعزف لجمهور من شخص واحد.

على الرغم من حبسته الكلامية، كان رافيل يتعرف على الألحان بسهولة، لا سيما مؤلفاته الخاصة، وكان بإمكانه الإشارة بسهولة إلى أخطاء النوتات أو الإيقاع غير الصحيح. كانت القيمة الصوتية والتعرف على النوتات محفوظين جيدًا... وجعلت الحبسة الكلامية التفكيك التحليلي–القراءة من

النظرة الأولى، والإملاء وتسمية النوتات—أمرًا مستحيلًا تقريبًا، وأعاقها بشكل خاص العجز عن تذكر أسماء النوتات تمامًا كما "ينسى" المصابون بالحبسة التقليدية أسماء الأشياء الشائعة....

الأصوات في الكافتيريا، وهدير الأصوات، ورنين آلة تسجيل النقد، وقعقعة الصواني—تباطأت هذه الأصوات، وتحتها سمع قرع الطبول المتقطع والمتواصل الذي يمثل مستقبله، قادمًا نحوه مباشرة. ربما كان رافيل قد ابتكر شاهكارًا آخر، بوليرو أفضل؛ وربما بناه في عقله، مازورة تلو مازورة، ومع ذلك وجد نفسه عاجزًا عن كتابة نوتة واحدة، أو تدوين لحن واحد. طوال اليوم كانت تلك الألحان تدور في عقله، تتشابك وتنفصل بدقة لم يتقنها سواه، ولم يعرفها أحد. طوال اليوم، كانت الألحان تتصاعد من فنجان قهوته، وتتدفق من الصنبور في حمامه، ساخنة وباردة، متشابكة ومنفصلة: سجينة، ولا يمكن إيقافها.

أليس هذا كافيًا لدفع أي شخص إلى الجنون؟

ألم يكن من الأفضل لو أنه مات هناك في المحيط؟

لو لم يصرخ—لو لم يروه—لبدأ في الغرق. لكانت أطرافه قد توقفت عن التخبط في النهاية، والرغبة الطبيعية في المقاومة تتلاشى منه بفعل هدوء الأمواج، وجلال الضوء الذي يتسلل لأسفل عبر الماء. كان بإمكانه الاسترخاء حينها، وترك جسده يأخذه إلى الأسفل—يأخذ أيضًا كل تلك الكونسيرتوهات غير المكتوبة... كلها تلاشت، دفعة واحدة.

لم يكن الأمر ليتطلب الكثير، كما فكر أندرسون؛ كان بإمكانه ببساطة أن يرخي قبضته عن الحياة، وكان بإمكانه الاستسلام.

للحظة، شعر أندرسون براحة تتدفق عبر أوصاله، لتبرد عقله القلق. فكر في أنه ليس مضطرًا لقراءة المقال؛ وليس مضطرًا لفعل أيّ شيء.

كان بإمكانه ببساطة أن يترك كل شيء يرحل.

لكن الرغبة في الاستمرار ظلت تنبض في داخله، مثل ملاكم كان يفقد توازنه على الأرض لكنه لم يستطع توجيه نفسه بما يكفي للخروج من الحلبة. فبسط الصفحات أمامه، وركز عقله، وبدأ، مجددًا، في القراءة.

7

ومض مصباح الغاز في خضم فوضى شهر مارس المبتل كمنارة عقلانية نائية، بينما كانت جاني تجر نوح تارة وتلاطفه تارة أخرى وهي تسير به في ممر الشارع. كان قد فقد قفازه في مكان ما على طول الطريق، فقبضت يده الباردة كالثلج على يدها وجذبتها لأسفل، كأنها وزن ميت.

التقطت حزمة من البريد الرطب غير المثير للاهتمام من الصندوق (مزيد من الفواتير والإخطارات الثانية) وأغلقت الباب بسرعة لترد عصف الثلج.

في الداخل، كان الجو دافئًا وهادئًا بشكل يكاد يكون مزعجًا بعد صخب مترو الأنفاق والضوضاء البيضاء للرياح. وقفا معًا، تائهين في الغرفة؛ وبدا نوح مذهولًا وخافتًا. أغلقت الشرفات الخشبية، لتحتجزها في النصف ضوء الأصفر للمصباح الأرضي، وأجلسته على الأريكة أمام مشغل أقراص الفيديو الرقمية دي في دي قائلة. "انظر يا حبيبي، إنه نيمو! فيلمك المفضل!" وضعت مجلد بطاقات البيسبول الخاص به في حجره. لقد أصبح على هذا الحال أكثر فأكثر مؤخرًا، بهجته مخنوقة، وكأن النبرة الكئيبة لعيادة الطبيب قد تسللت إلى عظام جسده. جلس يشاهد برامجه دون أي تعليق؛ لم يرغب في اللعب أو رمي الكرة في غرفته.

لم تتمكن من نفض تلك القشعريرة؛ إذ كانت أسنانها لا تزال تصطك. لقد علّقت آمالًا عريضة على هذا الطبيب بالذات، وكانت واثقة من أنه سيكون الطبيب الذي سيغير كل شيء من أجلهما.

وضعت غلاية الماء على النار وصنعت شايًا لنفسها وكاكاو ساخنًا بنكهة التوفي لنوح، ملأت الكوب بالكثير من قطع المارشميلو حتى كادت لا ترى السائل. حدقت للحظة في قطع الحلويات الصغيرة التي تطفو ببهجة في السائل البني الرغوي مثل أسنان بيضاء صغيرة، ثم انحنت تحت حافة الفتحة الجدارية المؤدية إلى غرفة المعيشة، وقبعت على وركيها، حتى لا يراها نوح وهي تبكي. *تماسكي يا جاني*. كان الأمر أشبه بدفع قطة صاخبة في حقيبة، لكنها فعلت ذلك؛ كتمت شهقات البكاء، وتركتها تموج في معدتها، ثم وقفت. من النافذة الخلفية، كان الثلج يتساقط في الفناء ويواصل الهطول.

⸙ ⸙ ⸙

كان نوح يجلس بهدوء، يشاهد الفيلم ويداه الصغيرتان مبسوطتان على المجلد البلاستيكي، ورأسه الأشقر مائل إلى الخلف على الأريكة، عندما أحضرت له الشوكولاتة الساخنة. لقد كانت الأشهر الأربعة الماضية عصيبة عاطفيًا وكارثية على صعيد العمل، لكن كان عليها أن تعترف بأنها اعتادت على رؤية ذلك الرأس الأشقر يتمايل دائمًا في زاوية رؤيتها المحيطية، وعلى الشعور بالراحة لمعرفة أنه هناك تمامًا. قد فشلت ثلاث مربيات ومركزان لرعاية الأطفال في الاستمرار معه، وبعد الفضيحة الأخيرة (عندما اندفع نوح خارجًا من باب *مركز أطفال ناتالي* وهبط في شارع فلاتبوش، على بعد أقدام قليلة من السيارات المسرعة)، استسلمت ودعته هو ومربيته الأخيرة للعب في مكتبها. وجلسا بهدوء كافٍ (بل بهدوء مفرط!)، يبنيان أشياء بقطع اللغو الخاصة به بينما كان مساعدها يعبس ويدون المخططات، وحاولت

جاني تقريب المشاريع التي لا تزال جارية لديهما بضع خطوات نحو الاكتمال.
جلست بجانبه على الأريكة، تحتضن الشاي بين يديها، تحاول التماس الدفء. لم تكن تأبه حتى برائحته: تلك الرائحة الحلوة الممرضة والمخثرة قليلًا التي بات نوح يحملها معه أينما ذهب الآن.
افترضت أن الدكتور ريمسون كان لطيفًا بما يكفي، وهو ما ينبغي له أن يكون عليه، مقابل ثلاثمائة دولار في الساعة. قد أخذ وقته مع نوح، ومعها؛ لكنه في النهاية كان مثل البقية؛ لم تكن لديه أي إجابات يقدمها لها، وحذرها طالبًا منها الانتظار.
لكن الانتظار كان تحديدًا ما لم تكن قادرة على فعله. عندما شرحت له ذلك، اقترح اسم طبيب نفسي آخر في حال أرادت هي تلقي العلاج لنفسها... وكأن إنفاق المزيد من المال على المزيد من العلاج النفسي كان الإجابة الوحيدة التي يمكنه التفكير فيها.
قالت. "لقد أمضينا ثلاثة أشهر من الجلسات الآن، وهل هذا كل ما يمكنك قوله لي؟ إنه يعاني من كوابيس كل ليلة، ونوبات بكاء خلال النهار. والاستحمام أمر مستحيل."
مستعينًا بضرب حذائه الرياضي المصنوع من الجلد الأسود على السجادة الفارسية، ونظارته السميكة المستقرة بنزق على رأسه الذي بدأ يغزوها الصلع، لم يكن الدكتور مايك ريمسون يبدو كأحد أبرز أطباء نفس الأطفال في مدينة نيويورك، بغض النظر عما قالته مجلة *نيويورك*. جلس هناك على كرسيه الجلدي ذي الذراعين، وشبك أصابعه، وحاجباه الكثيفان كيرقات الفراش يرتفعان فوق عينين حذرتين وثقيلتي الجفون. وحتى بعد إجابتها على أسئلته جلسة تلو

أخرى، ظل انطباعها بأنه يحاول تحديد ما إذا كانت هي المشكلة في نهاية المطاف.
قال بعناية. "بدأ نوح يثق بي، ويتحدث أكثر عن أوهامه وخيالاته."
"أمه الأخرى؟" كانت يداها تنقبضان وتنبسطان، فثبتتهما على ركبتيها.
"هذا، وأشياء أخرى."
"ولكن لماذا يتخيل أمًا أخرى؟"
"غالبًا ما تكون مثل هذه الحياة الخيالية واسعة التصور ناتجة عن أحداث تقع في المنزل."
"هذا ما تقوله، ولكننا ناقشنا ذلك مرارًا، ولا يوجد شيء."
"لا يوجد أي ضغط استثنائي؟"
أطلقت ضحكة صغيرة مبحوحة: *لا شيء سوى ما تسببه أنت يا دكتور.* "لا شيء يسبق هذا الوضع." والحقيقة هي أنها كانت تستنزف مدخراتها؛ لقد قامت بالفعل بتسييل حساب التقاعد الفردي الخاص بها وأنفقت الميراث الصغير الذي تركته لها والدتها والذي خصصته لتعليم نوح الجامعي (وكان هدفها الآن ببساطة هو إيصاله بأمان إلى مرحلة الروضة). اضطرت إلى إلغاء أربعة اجتماعات مع عملاء محتملين هذا الشهر وحده لأنها لم تكن قادرة على اصطحاب نوح إلى الاجتماعات وزيارات المواقع، ولم يكن لديها الكثير من الوقت على أي حال، بسبب كل هؤلاء الأطباء. لم يكن هناك أي عمل يلوح في الأفق، ولا توجد وسيلة لدفع الفواتير بدون عمل، ولا توجد إجابات.
كانت تأخذه إلى أطباء آخرين منذ أشهر: أطباء أعصاب، أطباء نفسيين، وأطباء نفس عصبي. كان نوح وجاني يكرهان ذلك معًا: رحلات المترو الطويلة، والانتظار الذي لا ينتهي في العيادات المزدحمة، ونوح يتصفح

بفتور كتاب *هورتون يفقس البيضة* بينما تفعل هي الشيء نفسه مع نسخة من مجلة *تايم* تعود لعام مضى. تحدث الأطباء معه، وأجروا اختبارات على دماغه، وفحصوا رئتيه مجددًا (نعم، هو يعاني من الربو؛ نعم، إنه خفيف)، ثم أرسلوه إلى الغرفة المجاورة بينما تحدثوا معها، وفي النهاية كانت تشعر بالراحة والإحباط معًا لمعرفتها أنهم لم يجدوا شيئًا ولم يكن لديهم ما يقدمونه، باستثناء الوعد بإجراء المزيد من الاختبارات. طوال الوقت كانت تنتظر الجلسات مع الدكتور ريمسون، الذي كان من المفترض أن يكون الأفضل.

"لقد ذهبت إلى ثلاثة أخصائيين، وطبيبين نفسيين الآن، وأنت. لا يمكن لأحد أن يخبرني بأي شيء على الإطلاق. ولا يريد أحد أن يعطيني حتى احتمالًا لتشخيص ما."

"الطفل في الرابعة من عمره، وهذا سن صغير لتشخيص دقيق للصحة النفسية."

"يا دكتور، أنا لا أستطيع حتى تحميم ابني." في المرة الأخيرة التي حاولت فيها ذلك، قبل أسبوع، وصل إلى حالة من الهياج تسببت في إصابته بنوبة ربو.

كانت تلك أول نوبة تصيبه منذ ثمانية عشر شهرًا. بينما كانت تمسك بجهاز الاستنشاق وتضعه على وجهه، وأنفاسه المتهدجة تتردد في أذنها كصوت الفشل، قطعت عهدًا على نفسها: ستتوقف عن انتظار تحسنه، وستفعل كل ما يتطلبه الأمر لمساعدته الآن.

"قد يساعد العلاج السلوكي—"

"لقد جرب ذلك، ولم ينجح. لم ينجح أي شيء. يا دكتور—أرجوك. أنت تمارس هذا العمل منذ فترة طويلة، ألم ترَ حالة مثل حالة نوح قط؟"

"حسنًا." استند الدكتور ريمسون إلى الخلف، ووضع يديه على ركبتيه الكبيرتين المكسوتين بالمخمل المضلع. "ربما كانت هناك حالة واحدة."

"كانت هناك حالة مماثلة؟" حبست جاني أنفاسها. لم تطق النظر في عينيه، وركزت بدلًا من ذلك على مقدمة حذائه. تابع الدكتور ريمسون نظراتها، وحاجباه معقودان، وراقبا معًا قدمه السوداء وهي تنقر وتنقر على المربعات القرمزية الداكنة للسجادة الفارسية.

"كان ذلك أثناء فترة إقامتي الطبية في مستشفى بلفيو، منذ سنوات عديدة. كان هناك طفل يتحدث كثيرًا عن شيء صادم حدث له أثناء الحرب. وكان يرسم صورًا عنيفة للطعن بالحراب، والاغتصاب."

قشعر جسدها؛ واستحضرت في مخيلتها تلك الرسومات وكأنها أمام عينيها مباشرة، الدماء مرسومة بقلم تلوين أحمر، والشخصية الخطية بفمها المفتوح على مصراعيه.

"كان من بلدة صغيرة في نيوجيرسي، من عائلة محبة ومترابطة حسب كل التقارير. وأقسموا يمينًا مغلظة أنه لم يرَ قط أي صور تشبه تلك التي رسمها. وكان الأمر مذهلًا للغاية؛ كان في الخامسة من عمره فقط."

حالة مثل حالة نوح. بدأت قطع الأحجية الخاصة بنوح تتجمع أخيرًا، لتشكل صورة واضحة. وشعرت بالراحة، وقشعريرة من نذر الشؤم.

"وماذا كان تشخيصه؟"

امتعض الطبيب النفسي. "كان أكبر سنًا من نوح بقليل، ومع ذلك كان لا يزال أصغر بكثير من أن يُشخص بذلك."

"التشخيص؟"

"فصام الطفولة المبكرة (Schizophrenia)." سحب سترته فوق بطنه، وكأن كلماته تسببت في انخفاض درجة الحرارة. "إنه أمر نادر بالطبع في طفل بهذا السن الصغير."

"فصام؟" علقت الكلمة عاليًا في الهواء الذي بات باردًا فجأة لبرهة، تلمع كقطعة جليد مدببة، قبل أن يستقر الفهم في عقلها. "أنت تعتقد أن نوح مصاب بالفصام."

"إنه أصغر من السن المناسب، كما قلت، لإجراء تشخيص دقيق، ولكن يتعين علينا التفكير في الأمر؛ ولا يمكننا استبعاده." راقبتها عيناه بثبات من تحت جفونه الثقيلة. "سنعرف المزيد مع مرور الوقت."

نظرت إلى الأسفل نحو السجادة؛ وكان النمط القرمزي كثيفًا، وعصيًا على الفهم، مربعات داخل مربعات داخل مربعات.

صمت لبرهة ثم قال. "هناك أحيانًا مكون وراثي. لقد قلتِ إنكِ لا تعرفين أي شيء عن عائلة الأب؟"

هزت رأسها ببؤس. بعد عمليات بحث متفرقة وليلية على غوغل لم تؤدِ إلى شيء لسنوات، كانت تحاول بجدية أكبر تعقب جيف القادم من هيوستن. في الأسبوع السابق، خطت خطوة أخرى إلى الأمام: أمضت الجزء الأكبر من يومين في البحث في سجلات كل باحث حصل على منحة رودس طوال العقدين الماضيين. ركزت على كل شخص يحمل اسم جيف أو جيفري، وكل باحث من تكساس ثم من كل ولاية أخرى، ولم يكن هناك أي شخص يشبه ولو من بعيد الرجل الذي أخبرها أن اسمه جيف. واتصلت بالفندق في ترينيداد، لكنه تحول الآن إلى فندق هوليداي إن.

إذن جيف—إن كان اسمه جيف أصلًا—لم يكن باحثًا حاصلًا على منحة رودس، وربما لم يذهب إلى أكسفورد قط (لقد بحثت عنه في كلية باليول أيضًا، ولم تجد شيئًا). ربما لم يكن حتى رجل أعمال، بل ألّف ذلك كله—ولكن لماذا؟ كانت تظن أن الأمر كان لإثارة إعجابها، ولكنها تتساءل الآن: هل كان في غمرة ذهان كامل الأركان؟

شعرت بنظرات الطبيب المركزة تحوم فوقها كأنها خفاش بني فروي، لكنها لم تستطع رفع عينيها لتلتقي بنظراته. نظرت إلى ركبتيها، المكسوتين بجواربها الطويلة الرمادية؛ وبدتا لها فجأة مثيرتين للسخرية، برماديتهما واستدارتهما.

كان ريمسون يقول. "أعلم أنكِ تريدين إجابات، ولكن هذا هو أفضل ما يمكننا فعله. يمكننا وسنعيد التقييم مع تقدم العلاج. في هذه الأثناء، هناك أدوية مختلفة مضادة للذهان يمكننا تجريبها. ويمكننا إعطاء نوح جرعة صغيرة جدًا الآن، إذا أردتِ؛ سأكتب لكِ وصفة طبية."

كانت الكلمات تنزلق ببطء عبر عقلها، وكأنها تتجمد حتى الموت بهدوء ونعاس، ولكن عند تلك الكلمة—أدوية—انتفضت جاني مستيقظة.

"أدوية؟" رفعت رأسها. "ولكنه في الرابعة من عمره فقط!"

أومأ الطبيب برأسه معتذرًا، ورفع كفي يديه. "قد يساعده الدواء على عيش حياة أكثر طبيعية. وسنعيد التقييم كل بضعة أشهر، بمجرد أن نصل إلى الجرعة المناسبة. وبالطبع، سأستمر في رؤيته؛ مرتين في الأسبوع." سحب قلمًا جافًا من كوب على الطاولة بجانبه وكتب الوصفة.

مزق الورقة من دفتره وسلمها إياها وكأن هذا أمر اعتيادي يومي. بدا وجهه فظيعًا في برودة المعتاد. "لماذا لا تأخذين بعض الوقت لاستيعاب هذا الأمر، وسنتحدث الأسبوع المقبل." كانت يده الممدودة لا تزال تمسك بالوصفة الطبية لمضاد الذهان. اجتاحت جاني رغبة غريبة وعارمة في تجعيدها وإلقائها في وجهه؛ وبدلًا من ذلك، خطفتها وحشرتها في جيبها.

الآن، جلست جاني على الأريكة بجانب ابنها، تقاوم الرغبة في جذبه إلى حجرها وتغطيته بالقبلات. "هل أنت بخير يا صغيري؟"

أومأ نوح بنصف رأس، ووجهه مكسو بشارب من الكاكاو، وعيناه مسمرتان على شاشة التلفزيون.

اهتز هاتفها—لكنه لم يكن الطبيب النفسي ليقدم لنوح جرعة معجزة مكتشفة حديثًا من الأعشاب الصينية والأوميغا-3؛ بل كانت رسالة نصية من بوب، من بين كل الناس، ذلك الرجل الذي كانت تغازله عبر الإنترنت منذ أشهر.

"مرحبًا! هل أصبحت الأمور أسهل؟ هل نجرّب مجددًا؟"

ضحكت لفترة وجيزة على توقيت الرجل المسكين، وهو صوت عالٍ وخالٍ من المرح، يشبه نباح فقمة مكتئبة. ثم أغلقت الهاتف دون رد ورشفت من شايها. لم يكن ذلك يفيدها بشيء؛ إذ كانت بحاجة إلى شيء أقوى.

⁂

أوت جاني نوح إلى الفراش مبكرًا في تلك الليلة. كان في مزاج يتوق فيه للعناق، فجذبت ذراعاه رأسها لتقبله، وداعبت أصابعه وجهها في الظلام.

همس. "أي جزء من الجسد هذا؟"

"هذا أنفي."

"وهذا؟"

"هذه أذني."

"وهذا هو رأسكِ الصغير."

"نعم، طابت ليلتك يا صغيري."

"طابت ليلتك يا أمي-ماما،" وتثاءب. ثم (كانت تعلم أن الأمر آتٍ لا محالة، كان يحدث دائمًا الآن، عندما يكون في منتصف الطريق نحو النوم بالفعل وتظن أنه ربما هذه المرة سيكون الأمر مختلفًا، وربما لن يقولها هذه المرة): "أريد العودة إلى المنزل."

"أنتَ في المنزل يا حبيبي."

"متى ستأتي أمي الأخرى؟"

"لا أعلم يا صغيري."

"أنا أفتقدها،" كان رأسه مائلًا نحو الوسادة، بعيدًا عنها. "أنا أفتقدها حقًا حقًا." وبدأ جسده يرتجف.

على الرغم من أن الأمر كان مجرد وهم، إلا أن حزنه كان حقيقيًا؛ وكانت تعرف عن الحزن ما يكفي لتعرف ذلك. "هذا مؤلم، أليس كذلك؟" قالت بهدوء.

التفت نحوها، وفمه ينكمش؛ وألقى بذراعيه حولها واحتضنت رأسه إلى جسدها بينما كان يبكي ويمسح أنفه في قميصها.

همست. "أنا آسفة جدًا يا حبيبي." وداعبت رأسه.

"أنا أفتقدها كثيرًا." كان يبكي بحرقة الآن، شهقات كبيرة ومتهدجة تبدو وكأنها تخرج من صدره كاملة التكوين، مثل خصلات من الدخان

الأسود. أي شخص كان ليظن أن هذا طفل مكسور القلب، طفل مهجور؛ مع ذلك لم تتركه ليلة واحدة قط طوال حياته. "اجعلي الأمر أفضل يا أمي."

لم يكن أمامها خيار في هذا الشأن. "سأفعل."

⸙⸙⸙

خرجت جاني من الغرفة وهي تشعر بحزن أشد مما تذكرت أنها شعرت به في أي وقت منذ وفاة والدتها. أحضرت كمبيوترها إلى المطبخ وأخرجت الوصفة الطبية لدواء ريسبريدون. ثم أخرجت كوبًا وزجاجة من مشروب البوربون كان أحد العملاء قد أهداها إياها منذ سنوات، وتجرعت منها رشفة طويلة.

كان على الكوب صورة قطة صغيرة تطارد فراشة؛ وكان هدية من زميل ظن أنها تملك قطة. بدا الأمر هذا المساء مهدئًا لها، مثل طالع متفائل في كعكة الحظ لا يصدقه المرء ومع ذلك يضعه في جيبه على أي حال. دار البوربون دافئًا في بطنها، ورقص رقصة مطر ضبابية حول عقلها المصاب بالذعر.

مدت يدها نحو الكمبيوتر، وفتحت شاشة البحث.

تأثير مضادات التعرق.

لا.

تأثير مضادات الذهان على الأطفال.

يصف الأطباء النفسيون هذه الأدوية للأطفال في بعض حالات الأمراض الخطيرة عندما يعتقدون أن الفوائد تفوق المخاطر... وفي الوقت نفسه، تتزايد التقارير عن الوفيات والآثار الجانبية الخطيرة المرتبطة بهذه الأدوية. تظهر دراسة أجرتها صحيفة "يو إس إيه توداي" (USA TODAY) على بيانات إدارة الغذاء والدواء (FDA) التي جُمعت من عام 2000 إلى عام 2004 حدوث 45 وفاة على الأقل بين الأطفال

أُدرج فيها مضاد الذهان غير التقليدي في قاعدة بيانات إدارة الغذاء والدواء كـ "مشتبه به رئيسي". وكان هناك أيضًا 1328 تقريرًا عن آثار جانبية سيئة، كان بعضها مهددًا للحياة.

يا إلهي، لا.

خرجت من تلك الصفحة بسرعة وفتحت صفحة جديدة.

عند تناول مضادات الذهان، يفقد المرء شعوره بذاته، ويصبح عقله مشوشًا، وتتدمر عواطفه، وتضيع ذاكرته نتيجة للعلاج.

أغلقت النافذة بسرعة، وجربت نافذة أخرى، ثم أخرى. وفتحت نافذة تلو أخرى، كل واحدة منها تطل على رعب جديد، حتى أفرغت البوربون ببطء من الزجاجة إلى كوبها وشعرت وكأن عينيها تنزفان.

احتفظت بالمشروب في فمها، وشعرت به يحرق لسانها. وبدت القطة المرسومة على الكوب شيطانية، أو بالأحرى، عادية؛ وفي أي لحظة ستنقض وتمزق أجنحة الفراشة الجميلة الزرقاء إلى قطع بأسنانها.

بحثت عن دواء ريسبريدون وتصفحت قائمة الآثار الجانبية: *النعاس، والدوار، والغثيان...* استمرت القائمة وطالت. عندما انتهت من القراءة، شعرت بالدوار، الغثيان، الاضطراب، التعرق، الحكة، الحمى والسمنة. كان رأسها يدور، وإن كان هذا بسبب المشروب ربما.

فكرت في أنها حاولت جاهدة إعطاء طفلها طعامًا صحيًا: بيتزا جبن الصويا، والبازلاء العضوية والبروكلي والجزر الصغير، والعصائر، والحليب الخالي من الهرمونات، والخضروات الورقية. حافظت على الأطعمة المصنعة في حدها الأدنى، وألقت بحلوى الهالوين بعد أسبوع؛ لم تسمح له قط بتناول المثلجات التي تباع في الحديقة، لأنها تحتوي على صبغات حمراء وصفراء. ثم تعطيه هذا؟

خطفت الوصفة الطبية وجعدتها، ثم بسطتها مجددًا على الطاولة وحدقت فيها. بعد فترة نهضت وأعادت زجاجة البوربون إلى الخزانة.

فكرت في الاتصال بصديقة لتأتي إليها، لتواسيها أو تقدم لها نصيحة تحتاجها بشدة، لكنها لم تطق مشاركة التشخيص مع أحد، ولا سماع صدى ذعرها يتردد إليها عبر الهاتف.

طالما اعتبرت نفسها شخصًا ناجحًا؛ لقد عملت بجد، وبنت عملها الخاص من الصفر، وصمدت حتى في ظل اقتصاد صعب؛ وربت نوح بمفردها، وصنعت منزلًا مريحًا لهما معًا. الآن كانت تفشل في الشيء الوحيد الذي يهم.

فتحت نافذة جديدة على كمبيوترها المحمول؛ وحدقت في المؤشر الوامض لبرهة، ثم أرسلت شعلة استغاثة إلى آلهة الإنترنت:

مساعدة (Help). وكانت واثقة من أنها لم تكن الشخص الأول ولا الأخير الذي يبحث عن ذلك على غوغل.

فريق البيتلز، أغنية *مساعدة*، يوتيوب

فيلم "المساعدة" (The Help)، تصنيف PG-13 - دراما. تدور أحداثه في ميسيسيبي خلال الستينيات، وتعود فتاة من المجتمع الجنوبي من الكلية مصممة على أن تصبح كاتبة، ولكنها تحول—

موقع Help.com. أنا عضو في جمعية الأرض المسطحة ويتعين عليّ تقديم عرض تقديمي حول سبب عدم تصديق الآخرين بأن الأرض مسطحة—

أراحت رأسها على لوحة المفاتيح، ثم رفعته مجددًا؛ حركت أصابعها على لوحة الماوس، تتحدث إلى الشبح الساكن في هذه الآلة.

أنا لا أعرف حتى ماذا أسأل—

كيف أطلب من فتاة الذهاب لحفل العودة للمنزل؟

ابني يريد أمًا أخرى—

هل يُسمح للأمهات بتأديب طفل آخر؟

حياة أخرى–

فرقة "ذا فيرونيكاس" - أغنية "في حياة أخرى" - كلمات الأغنية - يوتيوب

"عمر آخر" (Another Lifetime)، فيلم وثائقي عن تقمص الأرواح (تناسخ الأرواح) يتضمن مقابلات فيديو مجانية ومباشرة...

آه: وثائقي من حركة العصر الجديد. لقد شاهدت الكثير من هذه الأنواع من الأفلام الوثائقية خلال السنة الأخيرة من حياة والدتها. كانت والدتها امرأة عملية، ولديها دائرة واسعة من الصديقات العمليات، ولكن عندما تلقت التشخيص (سرطان الدم، من أسوأ الأنواع)، ذهب كل ذلك في مهب الريح فيما يتعلق بصديقاتها. واحدة تلو الأخرى، كنّ يمررن ومعهن عبوات مسحوق بني من أطباء المعالجة الصينيين، ومعها بلورات وأفلام وثائقية وكتيبات عن إجراءات علاجية في المكسيك، وجارتهن جاني ووالدتها وجارتاهما بأفضل ما يمكنهما. أمضت ساعات وهي تجلس بجانب سرير والدتها، وتمسك بيمينها بينما كانتا تشاهدان هذه الأفلام وتسخران منها، واحدًا تلو الآخر، هراء يتبعه خرف.

أفلام وثائقية عن تحضير الأرواح، الشفاء الخيميائي، قرع الطبول الشامانية. ضحكت جاني من وراء غشاوة من الدموع بينما كانت والدتها المحتضرة ذات العقل الصارم تستخدم آخر ما تبقى من طاقتها الشرسة للسخرية من الرسوميات الرديئة، والشواطئ وقوس قزح في هذه الأفلام، والتي كانت تقدم ما لا يمكنها الوفاء به بأي حال: الأمل. كان ذلك الجزء الأفضل من أسوأ أيام حياة جاني، وهي تضحك مع والدتها على تلك الأفلام. بطريقة ما، جعلت سخرية والدتها جاني تعتقد أنها لن تحتاج إلى أي من تلك الأشياء الغريبة، وستنجو بالإرادة المحضة والطب الحديث. كان هناك إجراء تجريبي آخر يحاولون

تجريبه، أفضل من ذلك الذي سبب لها انتفاخًا مؤلمًا؛ وسيكون ذلك كافيًا.

ونعم (بالنقر الآن على رابط يوتيوب، حرصًا منها على تشتيت نفسها عن رعب الحاضر والماضي غير المحتمل على حد سواء، ولتجد شيئًا يخفف من عقلها المثقل بالبوربون)، نعم، ها هو ذا، في هذا الفيلم أيضًا: لقطة مبتذلة لأمواج المحيط. هناك الشمس والشلال... والناي بالطبع!—والمعلق نفسه ذو الصوت العريض... هل كان الرجل نفسه؟ هل كان عمل حياته هو التعليق على الأفلام الوثائقية لحركة العصر الجديد؟

"دورة مهيبة من الحياة والموت والحياة التي تبدأ من جديد، ولكل منها دروسها الخاصة..."

دورة مهيبة من الحياة....

أوه، لكانت والدتها قد ضحكت على هذه العبارة؛ وقالت بصوت عالٍ. "ما رأيكِ في هذا يا أمي؟"، وهي تردد الكلمات بصوت خطابي زائف. "دورة مهيبة من الحياة!"

وتوقفت لبرهة، وكأنها تمنح والدتها وقتًا للإجابة، ولكن لم يكن هناك أحد هناك، كما كانت تعلم علم اليقين.

"في الولايات المتحدة، كان بعض المستكشفين العلميين الرائدين يدرسون تقمص الأرواح..."

صرخت قائلة. "مستكشفون يا أمي!"، وهي تدرك أنها لا تسلي أحدًا، ولا حتى الموتى، لكنها عاجزة عن منع نفسها من المحاولة. كان هذا الخيار، أو البدء في البكاء، وكانت تعلم أن شيئًا جيدًا لن يأتي من وراء ذلك. "إنهم مستكشفون!"

"وأبرز هؤلاء المستكشفين هو الدكتور جيروم أندرسون—"
"أراهن بكل ما أملك على أنه دكتور! ماذا لديه، دكتوراه في الدجل؟" سعلت، وقهقهت بمرارة.
"...الذي ظل لعدة عقود يدرس الأطفال الصغار الذين يبدو أنهم يتذكرون تفاصيل من حيواتهم السابقة. وهؤلاء الأطفال، الذين غالبًا ما يكونون في سن الثانية أو الثالثة، يتحدثون بتفاصيل محددة عن افتقادهم لبيوتهم وعائلاتهم السابقة—"
ضغطت جاني على زر الإيقاف المؤقت. خيم الصمت على الغرفة.
ومن الواضح أنها سمعت الأمر بشكل خاطئ؛ فعادت بالخلف قليلًا.
"الدكتور جيروم أندرسون، الذي ظلّ لعدة عقود يدرس الأطفال الصغار الذين يبدو أنهم يتذكرون تفاصيل من حيواتهم السابقة. وهؤلاء الأطفال، الذين غالبًا ما يكونون في سن الثانية أو الثالثة، يتحدثون بتفاصيل محددة عن افتقادهم لبيوتهم وعائلاتهم السابقة—"
ضغطت على زر الإيقاف المؤقت مجددًا، وفي هذه المرة توقف كل شيء: الصور المتحركة، وعقلها، وأنفاسها التي انقطعت كاملة التكوين في صدرها.
على الشاشة، كان بإمكانها رؤية الملف الشخصي لرأس لا بد أنه يخص الدكتور أندرسون؛ كان لديه شعر أسود مجعد ووجه زاوٍ لافت للنظر. كان يتحدث إلى طفل صغير يبدو أنه من جنوب آسيا، طفل في الثالثة من عمره ربما، يرتدي سروالًا ممزقًا. خلف الصبي، يرتفع جدار من الطوب من الطين الأحمر. بدت الصورة محببة، وكأنها التقطت قبل عقود. حدقت فيها حتى تحولت، مثل أي شيء يُحدق فيه لفترة طويلة، إلى شيء آخر: رجل، صبي، مكان، زمان.

ولكن هذا... سخيف.

على الشاشة، كان الصبي الصغير يواجه الرجل البالغ؛ وبدا غير مرتاح على الإطلاق، وظنت أنه مصاب بالدوسنتاريا على الأرجح.

أعادت الشريط مجددًا.

"الدكتور جيروم أندرسون، الذي ظل لعدة عقود يدرس الأطفال الصغار الذين يبدو أنهم يتذكرون تفاصيل من حيواتهم السابقة..."

كانت تعرف أفضل من هذا؛ فهذا هو البوربون، يخفف من منطقها السليم.

أوقفت الصورة مؤقتًا.

لقد رأت بنفسها كيف يفترس المخادعون السذج؛ وكانت تعلم أنه لا توجد نهاية لما قد يفعله اليائسون. أليس هذا هو حال جاني الآن؟

ثم سمعت الصوت.

لم يكن هناك فائدة من الذهاب إلى غرفة نوح بعد، أو محاولة إيقاظه؛ كانت تعرف النظام المتبع. فبعد عشر دقائق، سيتحول الأنين إلى صرخة، وتتحول الصرخة إلى كلمات. "ماما، ماما!"

ستجده يتلوى في الملاءات، ويتخبط، ويصرخ. *"أخرجيني، أخرجيني، أخرجيني!"*.

وليس هناك ما هو أسوأ من مشاهدة طفلك وهو يتهاوى في الظلام وعجزك عن إيقاف ذلك. أي شيء كان أفضل؛ أأدوية المخدرات أفضل؟ أهذا أفضل؟ نظرت إلى الصورة على الشاشة.

كان الأنين يصبح أكثر حدة الآن، ترتفع النبرة؛ وقريبًا سينادي عليها، وستذهب إلى جانبه وتحاول، دون جدوى، مواساته. نائمًا، ومغمورًا بالعرق، سيتلوى بين ذراعيها.

كان الطبيب والصبي لا يزالان هناك، متجمدين على شاشة كمبيوترها. التقطت الوصفة الطبية وأمسكت بها في يدها المفتوحة.

شخص ما يخبرني ماذا أفعل، فكرت.

جلست على طاولة مطبخها مع كمبيوترها المحمول، والوصفة الطبية في يدها، وابنها يبكي في نومه. حدقت في الصورة على الشاشة، وتتساءل متى ستبدأ في فقدان قوتها وتأثيرها.

يولد العديد من الخاضعين للدراسة في حالاتنا وحمات خلقية أو عيوب خلقية تطابق جروحًا في جسد الشخصية السابقة، عادة ما تكون جروحًا قاتلة. إحدى الحالات التي تتضمن حلم إعلان وعيبًا خلقيًا معًا هي حالة سليمان كابير في تركيا. إذ حلمت والدته أثناء حملها بأن رجلًا لا تعرفه قال لها: "لقد قُتلت بضربة من مجرفة؛ وأريد البقاء معكِ وليس مع أي شخص آخر." وعندما وُلد سليمان، كان الجزء الخلفي من جمجمته منخفضًا جزئيًا، وكان لديه وحمة خلقية هناك أيضًا. عندما أصبح قادرًا على الكلام، قال إنه كان طحانًا، مات عندما ضربه زبون غاضب على رأسه. إلى جانب تفاصيل أخرى، ذكر الاسم الأول للطحان والقرية التي كان يعيش فيها. في الواقع، كان زبون غاضب قد قتل طحانًا بهذا الاسم في تلك القرية بضربه على مؤخرة رأسه بمجرفة.

جيم ب. تاكر، دكتور في الطب، كتاب الحياة قبل الحياة.

8

صدم شريط التغليف اللاصق ملوحًا باحتجاج صارخ. قطعه أندرسون بأسنانه وأغلق الصندوق، وهو يشعر كما لو أن أغطية الكرتون كانت تُغلق فوق رأسه. سيكون الجو هادئًا هناك، في الداخل، مع عمل حياته. لقد استغرق الأمر منه شهورًا—إذ إن إخراج الحالات واحدة تلو الأخرى لمراجعتها مجددًا قد أبطأ حركته بشكل ملحوظ—لكن المعهد الآن بات معبأً بالكامل، وجاهزًا للشحن.

ليدع الجيل القادم من الباحثين العلميين يجدون عمله ويصنعون منه ما يشاؤون؛ كان يأمل أن يفعلوا ذلك. لقد تلقى رسالة مؤخرًا من زميل له في سريلانكا، حيث كانت الحالات هناك كثيرة جدًا لدرجة أنه يمكنك جمعها مثل الأسماك في شبكة صيد.

كل تلك الأدلة التي جمعها؛ كان واثقًا من أن محرري المجلات الطبية لن يتمكنوا من تجاهلها. كأن الأدلة في حد ذاتها يمكن أن تكون غير قابلة للجدل. لقد أخطأ في تقدير الطبيعة البشرية، وأفسد الأمر بنسيانه القدرة البشرية على رفض أي شيء تريده—كان ينبغي لغاليلو نفسه أن يعلمه هذا القدر على الأقل.

من مكان ما بعيد، أو في الغرفة نفسها، بدأ هاتف يرن.

⋙

"لكنني لا أفهم. ظننت أنها رفضته. لماذا تريد التحدث إذن؟" كان وكيله الأدبي يقول شيئًا عبر الهاتف، لكن الأمر لم يكن منطقيًا بالنسبة له. "هل تريده أم لا؟"

"إنها تعيد التفكير في الأمر. وتريد بعض التغييرات وترغب في التأكد من أنكما على الصفحة نفسها بشأن ذلك. إنها واحدة من كبار المحررين في هذا المجال، وفي جعبتها سلسلة من الكتب الأكثر مبيعًا. هذه أخبار جيدة جدًا."

على الصفحة نفسها، فكر. *الأبرز في المجال. الكتب الأكثر مبيعًا*. كانت المصطلحات تبدو مضحكة بالنسبة له. تخيل صفحة بيضاء ضخمة تنحدر صاعدة مثل جبل، وهو والمحررة يقفان عند قمتها ويتصافحان. لم يكن عليه قط التعامل مع أشخاص يعملون في مجال جني الأموال. مع الصحافة الأكاديمية التي نشرت كتبه القليلة، لم تكن الأموال تُناقش إلا نادرًا، ولكن مجددًا، لم يقرأ تلك الكتب أحد خارج المجتمع الصغير من الباحثين ذوي التفكير المماثل. فكر أن هذا عالم آخر تمامًا. قبل ثلاثين عامًا، كانت عبارة *الكتب الأكثر مبيعًا* ستجعله يسخر؛ أما الآن فقد جعلت أنفاسه تتسارع. كيف تغيرت الأحوال بالنسبة له.

دخلت المحررة على الخط فورًا بعد أن أعلن مساعدها عن اسمه.

قالت المحررة. "لم أتمكن من إخراج هذا الكتاب من عقلي." كان صوتها حادًا ومبتهجًا في آن واحد. قال وكيله إنها قوة لا يُستهان بها في هذه الصناعة، مستشهدًا بعدد من الكتب الناجحة التي لم يسمع بها قط. حاول أن يتخيلها: ذات شعر داكن، ممتلئة حماسًا، بوجه أبيض على شكل قلب، بياض ثلج ديناميكية تلف سلك الهاتف حول أصابعها وهي تتحدث... فيمَ كان يفكر؟ لم يعد أحد يملك أسلاك هاتف الآن. كان يتصبب عرقًا مثل تلميذ في موعده الغرامي الأول.

أضافت. "أعتقد أن الكثير من الناس سيهتمون به. ولكنه يحتاج إلى بعض العمل."
"يحتاج إلى عمل؟"
"خاصة الحالات الأمريكية."
"الحالات الأمريكية؟"
"نعم. إنها كلها قديمة جدًا، تعود لسبعينيات وثمانينيات القرن الماضي، وهي أقل... دراماتيكية بكثير. إنه جمهور أمريكي في نهاية المطاف. والكثير من الحالات الأخرى تدور أحداثها في أماكن غريبة، وهذا أمر جيد، ولكننا بحاجة أيضًا إلى التركيز أكثر على القصص الأمريكية. حتى يتمكن الناس من التفاعل معها والارتباط بها."
تنحنح ليكسب نفسه بعض الوقت. قال ببطء وعناية وهو يعيد كلماتها مثل طفل يتعلم الكلام، أو رجل في الثامنة والستين من عمره يفقد مفرداته. "ولكن يمكن للناس التفاعل معها. هذه ليست قصة أمريكية. إنها—" ما الكلمة التي كان يبحث عنها؟ شيء شاسع يحتوي على جميع الكواكب والمجموعات الشمسية بداخله. لم يجد الكلمة فغير تكتيكه. "إنها قصة للجميع." لوح بيديه على نطاق واسع وغير مرئي، كما لو كان يريد احتواء كل ما يعنيه وعجز عن قوله.
"صحيح. ولكن الحالة الأمريكية الحديثة الوحيدة التي لديك هنا... كما تعلم، تلك التي يتذكر فيها الطفل أنه كان عم أبيه أو خاله؟"
"نعم."
"حسنًا، الحالات الأخرى تبدو أقوى بطريقة ما."
"حسنًا، بالطبع."
"لماذا بالطبع؟"

"عندما يكون الخاضع للدراسة عضوًا في العائلة نفسها، لا يمكنك حقًا التحقق من الوقائع بالطريقة نفسها."

"صحيح. ما أعنيه هو أننا بحاجة إلى حالة أو حالتين جديدتين قويتين. حالتين أمريكيتين. لتثبيت الكتاب."

"أوه. ولكن—"

"نعم؟"

فتح فمه. ارتفعت الاعتراضات بداخله: مكتبي *مغلق. لم تأتني حالة جديدة منذ ستة أشهر... لا توجد حالات أمريكية قوية كثيرة على أي حال. لست متأكدًا حتى من قدرتي على كتابة جملة متماسكة، فما بالكِ بفصل كامل....*

"حسنًا. لا بأس بذلك. حالة أمريكية." قال.

"حالة قوية. إذن نحن على الصفحة نفسها؟"

كتم ضحكة. كان مبتهجًا ومتهورًا. كان ينزلق الآن من فوق الجبل، يتهاوى رأسًا على عقب. "نعم."

وُلدت بورنيما إيكانایاكي، وهي فتاة في سريلانكا، بمجموعة من الوحمات الخلقية فاتحة اللون على الجانب الأيسر من صدرها وأضلاعها السفلية. بدأت تتحدث عن حياة سابقة عندما كان عمرها بين عامين ونصف وثلاثة أعوام، لكن والديها لم يوليا تصريحاتها الكثير من الاهتمام في البداية. عندما كانت في الرابعة من عمرها، شاهدت برنامجًا تلفزيونيًا عن معبد كيلانيا، وهو معبد معروف يبعد 145 ميلًا، وقالت إنها تعرفه. في وقت لاحق، اصطحب والدها، وهو مدير مدرسة، ووالدتها، وهي معلمة، مجموعة من الطلاب إلى معبد كيلانيا، وذهبت بورنيما مع المجموعة في تلك الزيارة. أثناء وجودها هناك، قالت إنها عاشت على الجانب الآخر من النهر الذي يتدفق بجانب أرض المبد.

بحلول الوقت الذي بلغت فيه السادسة من عمرها، كانت بورنيما قد أدلت بنحو عشرين تصريحًا عن الحياة السابقة، واصفة رجلًا يصنع البخور قُتل في حادث مروري. ذكرت اسمين لعلامتين تجاريتين للبخور، هما "أمبيجا" و"جيتا بيتشا". لم يكن والداها قد سمعا بهما قط، ولم تكن... [أي من] المتاجر في بلدتهم... تبيع هاتين العلامتين من البخور.

بدأ معلم جديد العمل في بلدة بورنيما، وكان يقضي عطلات نهاية الأسبوع في كيلانيا حيث تعيش زوجته. أخبره والد بورنيما

بما قالته الفتاة، وقرر المعلم التحقق في كيلانيا لمعرفة ما إذا كان هناك شخص قد مات هناك وتتطابق مواصفاته مع تصريحاتها. قال المعلم إن والد بورنيما أعطاه النقاط التالية للتحقق منها:

–كانت تعيش على الجانب الآخر من النهر المقابل لمعبد كيلانيا.

– كانت تصنع أعواد بخور "أمبيجا" و"جيتا بيتشا".

– كانت تبيع أعواد البخور على دراجة هوائية.

– قُتلت في حادث مع مركبة كبيرة.

توجه بعد ذلك مع صهره، الذي لم يكن يؤمن بتقمص الأرواح، لمعرفة ما إذا كان يمكن تحديد موقع شخص يتطابق مع تلك التصريحات. ذهبوا إلى معبد كيلانيا واستقلوا عبّارة عبر النهر. هناك، سألوا عن صانعي البخور ووجدوا أن ثلاث شركات عائلية صغيرة للبخور كانت في المنطقة. كان مالك إحداها يطلق على علاماته التجارية اسمي "أمبيجا" و"جيتا بيتشا". كان شقيقه وشريكه، جيناداسا بيريرا، قد قُتل بواسطة حافلة عندما كان ينقل أعواد البخور إلى السوق على دراجته الهوائية قبل عامين من ولادة بورنيما.

زارت عائلة بورنيما منزل المالك بعد فترة وجيزة. هناك، أبدت بورنيما ملاحظات مختلفة عن أفراد العائلة وعملهم كانت

صحيحة، وقبلت العائلة بها على أنها جيناداسا وقد ولد من جديد.

جيم ب. تاكر، دكتور في الطب، كتاب الحياة قبل الحياة.

9

أغلقت جاني الكتاب الذي في يدها وعبست وهي تنظر في أرجاء المطعم الصاخب. كانت تنتظر رجلًا لا تعرفه، رجلًا إما أن يكون عمله مذهلًا للعقول أو مجرد هراء مطلق، ويحمل الآن مستقبل نوح بين كفي يديه. لم تتمكن حتى من إنهاء كتابه.

لقد حاولت؛ وبدا الكتاب رزينًا وجادًا—واضطرت إلى طلبه عبر الإنترنت، بما أن الناشر الأكاديمي الذي أصدره قبل عشرين عامًا قد أغلق أعماله الآن، وكلّفها خمسة وخمسين دولارًا للحصول على النسخة ذات الغلاف الورقي. رفعته مجددًا ومرارًا على مدار الأسبوعين الماضيين، بينما كانت تخطط لهذا اللقاء؛ ومع ذلك، كلما ركزت بتمعن في إحدى حالات أندرسون، كان دماغها يبدأ في التغشي بالضباب والارتباك.

كان الكتاب مليئًا بدراسات الحالة، لأطفال في تايلاند ولبنان والهند وميانمار وسريلانكا أدلوا بتصريحات عن أمهات أخريات وبيوت أخرى. تصرف هؤلاء الأطفال بطريقة تتعارض مع ثقافات عائلاتهم أو قراهم، وكان لديهم أحيانًا ارتباط شديد بأشخاص غرباء يعيشون على بُعد ساعات منهم، والذين بدا أنهم يتذكرونهم من حيوات سابقة. كانوا يعانون في كثير من الأحيان من أنواع من الفوبيا. وكانت الحالات مثيرة للاهتمام ومألوفة بشكل غريب... ومع ذلك، كيف يمكن أن تكون حقيقية؟

وجدت نفسها تمر على الحالات نفسها دون أن تصل إلى أي وضوح في التصديق أو التكذيب. في النهاية، لم تتمكن من قراءتها على الإطلاق، بل امتصت، مثل ضباب لزج، انطباعًا بشيء يبعث على الاضطراب

الشديد. أطفال يبدو أنهم يتذكرون حيوات أمضوها في بيع الياسمين أو زراعة الأرز في قرية ما في آسيا حتى صدمتهم دراجة نارية، أو أحرقهم مصباح كيروسين—حيوات لا علاقة لها بنوح على الإطلاق (أو لها كل العلاقة به).

مررت جاني أصابعها عبر شعر ابنها الناعم، وشعرت بالامتنان لمرة واحدة لوجود جهاز التلفزيون المثبت على الحائط فوق رؤوسهم. (متى انضمت المطاعم إلى المطارات في افتراض أن زبائنها بحاجة إلى البقاء مسمرين دون انقطاع أمام الشاشة؟) أخرجت الورقة المطبوعة من الكمبيوتر والتي حشرتها في المجلد ونظرت مجددًا في مؤهلات الطبيب:

جيروم أندرسون.
دكتور في الطب: كلية الطب بجامعة هارفارد
بكالوريوس آداب: جامعة ييل، الأدب الإنجليزي
الإقامة في الطب النفسي: مستشفى كولومبيا بريسبيتيبيان، نيويورك، ولاية نيويورك
أستاذ الطب النفسي: كلية الطب بجامعة كونيتيكت
أستاذ كرسي روبرت ب. أنغسلي للطب النفسي والعلوم السلوكية العصبية: معهد دراسة الشخصيات السابقة، كلية الطب بجامعة كونيتيكت.

كان معنى هذه الكلمات واضحًا بما يكفي، وتمسكت به: رجل متعلم. كانت ببساطة تحصل على رأي خبير آخر، هذا كل ما في الأمر. لم يكن يهم حقًا ما هي أساليبه، طالما أنه يحقق نتائج. ربما كان لدى هذا الطبيب نوع من الأسلوب المهدئ بشكل خاص مع الأطفال، بالطريقة نفسها التي يمكن بها لبعض الناس تهدئة الخيول. لقد كان إجراءً

تجريبيًا؛ والمرء يقرأ عن أشياء كهذه طوال الوقت. لم يكن يهم ما يعاني منه نوح، أو ما يظن أندرسون أنه يعاني منه، طالما أنه سيُشفى.

تصفحت المجلد الذي جمعته من أجله. كان من نوع المجلدات نفسه الذي تستخدمه عند كسب عملاء جدد، باستثناء أنه بدلًا من المنازل والشقق، كان كل قسم مميزًا بتبويب ملون يشير إلى سنة من حياة نوح. احتوى المجلد على كل معلومات نوح، والأشياء الغريبة التي قالها وفعلها: كل شيء، باستثناء الشيء الحاسم. لم تذكر الدكتور ريمسون أو تشخيصه المحتمل، خوفًا من أن يحجم أندرسون عن العمل مع طفل قد يكون مريضًا نفسيًا.

كان من الغريب أن تلتقي به في مطعم مزدحم. لقد اقترح الدكتور أندرسون اللقاء في منزلها—قال إن هذا هو بروتوكوله المعتاد، فهو يجعل الأطفال أكثر راحة—لكنها كانت بحاجة إلى تكوين فكرة عن الرجل أولًا، وإجراء فحص سريع لمدى غرابته، ولذا تساوموا على هذا المكان عند المنعطف. ومع ذلك، أي نوع من الأطباء يقوم بزيارات منزلية؟ ربما كان دجالًا في نهاية المطاف—

"الآنسة زيمرمان؟"

وقف رجل فوق رأسها: شخص طويل القامة ونحيف يرتدي سترة صوفية كحلية اللون فضفاضة وبنطالًا من الكاكي.

"أنت الدكتور أندرسون؟"

"جيري." ابتسم لفترة وجيزة، ومضة من الأسنان في الغرفة المزدحمة، ومد يده إليها، ثم إلى نوح، الذي أدار عينيه بعيدًا عن التلفزيون لفترة كافت فقط للمس يد أندرسون الضخمة بيده الصغيرة.

مهما كان ما تتوقعه (شخص مهني، ربما غريب الأطوار قليلًا، بالملامح الحادة والشعر الداكن المجعد الذي لمحته في الفيديو)، لم يكن هذا الرجل. كان هذا شخصًا تم اختزاله إلى جوهره، بعظام وجنتين عاريتين وعينين براقتين تشبهان عيني إله قط فرعوني، وبشرة لوحتها الشمس والريح كبشرة صياد سمك. لا بد أنه كان وسيمًا يومًا ما (إذ كان للوجه جمال شرس وبدائي) ولكنه الآن بات زاهدًا للغاية بالنسبة لذلك، وكأنما ترك الوسامة على جانب الطريق منذ سنوات طويلة، كشيء لم يعد له به حاجة.

"أنا آسفة إن بدا ذلك فظًا، ولكن في الفيديو بدوت—"

"أصغر سنًا؟" انحنى قليلًا في اتجاهها، وانبعثت منه نفحة من شيء ما: شعرت بوجود شيء جامح يجري تحت السطح الأنيق والمتماسك. "الزمن يفعل ذلك."

تظاهري فقط بأنه عميل، قالت لنفسها. وغيرت أسلوبها، وابتسمت باحترافية قائلة. "أنا متوترة قليلًا، فهذا ليس من نوع الأمور التي أعتاد عليها تمامًا."

جلس في المقابل منها في الكابينة. "هذا جيد."

"هو كذلك؟"

كانت عيناه الرماديتان براقتين بشكل غير طبيعي حقًا. وقال بوضوح، مخارج حروفه دقيقة في كل كلمة. "هذا يعني عادة أن الحالة أقوى. وإلا لما كنتِ هنا."

"فهمت." لم تكن معتادة على التفكير في مرض نوح كـ "حالة" قد تكون "قوية." وربما كانت لتعترض لولا أن النادلة (ذات الشعر الأرجواني؛ والمجهدة) كانت توزع قوائم الطعام. وعندما التفتت عائدة نحو

المطبخ، برز وشم YOLO بحروف قوطية على البشرة الشاحبة لكتفيها.

YOLO. شعار، صرخة استنفار، انتهاز الفرصة (carpe diem) لجيل متزلجي الألواح: *أنت تعيش مرة واحدة فقط (You only live once)*.

ولكن هل كان ذلك صحيحًا؟

تلك كانت المشكلة، أليس كذلك؟ لم تفكر في الأمر قط بأي طريقة عميقة؛ ولم يكن لديها الوقت أو الرغبة في التكهن بحيوات أخرى: فهذه الحياة الحالية كانت صعبة الإدارة بما يكفي. كان كل ما يمكنها فعله هو دفع ثمن طعامهم وإيجارهم وملابسهم، ومحاولة منح نوح الحب والتعليم وجعله ينظف أسنانه. مؤخرًا، كانت تكاد تعجز عن إدارة أي من ذلك. كان يجب أن ينجح هذا الأمر؛ لم يكن لديها خيار آخر، باستثناء إعطاء طفلها ذي الأعوام الأربعة الأدوية. لكن فيمَ كانت تفكر؟ آه، صحيح. الحيوات الأخرى؛ والتي لم تكن متأكدة من إيمانها بها.

ومع ذلك: ها هي ذي هنا.

كان أندرسون ينظر إليها بتوقع عبر الطاولة. كان نوح يشاهد التلفزيون، ويرسم خربشات على مفرش المائدة الورقي الخاص به. جاءت النادلة التي تعيش مرة واحدة فقط وأخذت طلباتهم وغادرت مجددًا مثل سحابة أرجوانية من التجهم.

مدت جاني يدها ولمست كتف ابنها بخفة، وكأنها تحميه من حدة الرجل الهادئة. "اسمع يا نوي، لماذا لا تذهب وتقف عند المنضدة لدقيقة وتشاهد المباراة من هناك؟ إنها أقرب بكثير."

"حسنًا." تملص من مقعده، وكأنه سعيد بإطلاق سراحه.

مع خروج نوح من مدى السمع، بدا أن جسدها يذبل في الكابينة.

على شاشة التلفزيون القريبة من المنضدة، سجل أحدهم ضربة ساحقة؛ وانضم نوح إلى الرواد في الهتاف.

قال أندرسون. "أرى أنه يحب البيسبول."

"عندما كان رضيعًا، كان هذا هو الشيء الوحيد الذي يمكنه تهدئته. وكنت أسميه زولبيديم الرضع."

"هل تشاهدينها أنتِ أيضًا؟"

"ليس عن قصد."

سحب دفترًا أصفر من حقيبته ودون ملاحظة.

أضافت جاني. "لكنني لا أرى كيف يكون هذا أمرًا غير مألوف، فالكثير من الأولاد الصغار يحبون البيسبول، أليس كذلك؟"

"بالتأكيد يفعلون." تنحنح أندرسون. "قبل أن نبدأ، أنا واثق من أن لديكِ أسئلة تقدمينها لي؟"

نظرت إلى الأسفل نحو مجلدها ذي التبويبات الملونة. المجلد الذي يمثل نوح. "كيف يعمل الأمر؟"

"البروتوكول؟ حسنًا، أطرح عليكِ بعض الأسئلة ثم أسأل ابنكِ—"

"لا، أقصد—تقمص الأرواح." ارتعشت عند الكلمة. "كيف يعمل؟ أنا لا أفهم. أنت تقول إن كل هؤلاء الأطفال—تقمصت الأرواح فيهم وهم يتذكرون هذه الأشياء من حيواتهم الأخرى، صحيح؟"

"في بعض الحالات يبدو أن هذا هو التفسير الأكثر احتمالًا."

"الأكثر احتمالًا؟ ولكنني ظننت—"

"أنا باحث علمي. أدون التصريحات من الأطفال وأتحقق منها وأقترح التفسيرات. أنا لا أقفز إلى الاستنتاجات."

لكن الاستنتاجات كانت تحديدًا ما كانت تأمل فيه. التقطت المجلد وضمته إلى صدرها، مستأنسة بكيانه المادي.

"أنتِ متشككة." قال. فتحت فمها لترد، فأسكتها بيدك مرفوعة. "لا بأس بذلك. زوجتي كانت متشككة أيضًا في البداية. لحسن الحظ، أنا لست في عمل يعتمد على الإيمان والأفكار." والتوت شفتاه بسخرية. "أنا أجمع البيانات."

البيانات. تمسكت بالكلمة، كما يتمسك المرء بصخرة مبتلة في نهر هائج. "إذن لم تعد متشككة بعد الآن؟"

"هممم؟" بدا مرتبكًا.

"قلت—إن زوجتكِ كانت متشككة في البداية. إذن هي تؤمن بعملكِ الآن؟"

"الآن؟" لمح وجهها. "إنها—"

لم يكمل فكرته. وظل فمه مفتوحًا لبرهة بدت ممتدة، مما تسبب في إحراجهما معًا، ثم أغلقه فجأة. مع ذلك، كانت اللحظة قد وقعت، ولا سبيل للتراجع عنها؛ وبدا الأمر كما لو أن دفاعاته، ذلك المجال الحامي العادي الذي يحجب الطبيعة البشرية الأساسية للمرء، قد تحطم بشكل غير مفسر.

قال أخيرًا. "لقد رحلت. منذ ست سنوات. أقصد—لم تعد على قيد الحياة."

كان مفجوعًا بالحزن، هذا هو الخطأ الكامن فيه. كان وحيدًا؛ وتلقى طعنة مسددة. كانت جاني تعرف كيف يكون ذلك الشعور. نظرت حول الغرفة العادية إلى الأطفال وهم يمضغون خبزهم الفرنسي المحمص، وآبائهم يمسحون بعطف قطرات الشراب المتساقطة؛

كان أولئك الناس على الشاطئ الآخر، بينما كانت هي على جانب المفجوعين مع هذا الرجل الذي يبدو عليه الألم وينتظر بصبر ما أوشكت على قوله.

حافظت على صوتها ناعمًا. "هل نتابع؟"

قال بقوة أكبر مما توقعت. "بالطبع." وتماسك بسرعة، أعادت الخطوط الأنيقة لوجهه ترتيب نفسها؛ وأمسك بقلمه الرصاص المدبب عاليًا فوق دفتره الأصفر.

"متى كانت المرة الأولى التي تتذكرين فيها أن نوح فعل شيئًا بدا خارجًا عن المألوف؟"

"أعتقد... كان أمر السحالي."

"السحالي؟" وكان يخط بسرعة.

"كان نوح في الثانية من عمره. كنا في متحف التاريخ الطبيعي، وذهبنا لرؤية معرض السحالي والثعابين. وكان... مجرد..." توقفت. "الكلمة الوحيدة لوصف الأمر هي *مأخوذ*، على ما أظن. وقف أمام الخزان الأول مباشرة وبدأ يصرخ هاتفًا. وظننت أن خطبًا ما قد أصابه، ثم قال: 'انظري، تنين ملتحٍ!'"

لمحت أندرسون ورأت مدى انتباهه الشديد لها؛ لم يكن الأطباء النفسيون الآخرون مهتمين بالسحالي قط. انحنى ليكتب ملاحظة، ولاحظت أن سترته الزرقاء، التي تبدو ناعمة وباهظة الثمن، تحتوي على ثقب واضح في الكم؛ وربما كانت قديمة بقدمها هي.

"كنت مندهشة للغاية، لأن حصيلته اللغوية كانت محدودة في تلك المرحلة، وكان قد أتم السنتين للتو، وكان كل كلامه يقتصر على 'أريد أمي-أمي و ماء وبطة وحليب'"

"أمي-أمي (Mom-Mom)؟"

"عادة ما يناديني بذلك، أو أمي-ماما. أظن أنه يحب أن يكون له اسمه الخاص لي. على أي حال، ظننت أنه يؤلف الأمر."

"يؤلف ماذا؟"

"الاسم. التنين الملتحي. بدا لي خياليًا، مثل شيء يبتدعه طفل، تنين بلحية. ولذا ضحكت منه، ظنًا مني أنه أمر طريف. وقلت: 'في الواقع يا حبيبي، إنه—' ونظرت، كما تعلم، إلى البطاقة التعريفية. ويا للمفاجأة، كان يُسمى بالفعل التنين الملتحي. لذا سألته: 'نوح، كيف تعرف عن التنانين الملتحية؟' فقال—" ونظرت مجددًا إلى أندرسون. "قال: 'لأنني كنت أملك واحدًا'"

"لأنني كنت أملك واحدًا؟"

"ظننت... لا أعلم ماذا ظننت. كان يتصرف كطفل، يؤلف الأشياء."

"وأنتِ لم تملكي سحلية قط؟"

"يا إلهي، لا." ضحك، وشعرت بانفراجة، براحة في التحدث بحرية عن الاختلافات الكامنة في نوح. "ولم يكن الأمر مقتصرًا على التنانين الملتحية، بل كان يعرف كل السحالي."

تمتم أندرسون. "كان يعرف أسماءها."

"كل سحلية في المكان، في سن الثانية."

قد كانت مذهولة للغاية، وفخورة جدًا بذكائه الواضح، وبـ—ولماذا لا تقولها؟—موهبته الفريدة. كان يعرف أسماء كل السحالي—وهو شيء لم تكن تعرفه هي قط. أبهجها الأمر وهي تشاهده يحدق في كل غابة مطيرة مصغرة، شديدة المكر ومكسوة بالطحالب، وسكانها يكادون لا يتحركون باستثناء نقرة لسان أو رحلة متشنجة عبر جذع شجرة،

بينما كان صوته النقي العالي يهتف: "أمي-ماما، إنه ضب! إنه برص! إنه تنين ماء!" فكرت بارتياح أن طريقه في الحياة سيكون ممهدًا: منح دراسية لأفضل المدارس والجامعات، وذكاؤه الهائل يمهد الطريق لحياة ناجحة.

بعد ذلك، تدريجيًا، تحول فخرها إلى ارتباك. كيف عرف هذه الأشياء؟ هل كان هناك نوع من الكتب أو الفيديوهات التي حفظها؟ ولكن لماذا لم يذكر ذلك من قبل؟ هل علمه أحد؟ ولم تتضح المسألة قط؛ بل قبلتها مجددًا كجزء من تميزه وخصوصيته.

سأل أندرسون الآن، وكأنما يقرأ أفكارها، وصوته الهادئ يعيدها إلى جلبة المطعم. "هل كان هناك كتاب أو فيديو في منزل صديق له، ربما؟ أو في حضانته؟ شيء قد يكون رآه في مكان ما؟"

"هذا هو الشيء الغريب. لقد سألت في كل مكان—وكنت دقيقة جدًا لم يكن هناك شيء."

أومأ برأسه: "هل تمانعين إذا سألت أنا بنفسي قليلًا؟ في مدرسته ومع أصدقائه ومربياته؟"

"أظن لا." ونظرت إليه جانبًا. "يبدو الأمر وكأنك تحاول إيجاد تفسير طبيعي لإلغائه. ألا تصدقني؟"

"يتعين علينا أن نفكر بالطريقة التي يفكر بها المتشككون؛ وإلا فإن كل هذا—" وهز كتفيه. "الآن: هل لاحظتِ أي تغيير في سلوكه، بعد تلك الحادثة مع السحلية؟"

"كوابيسه ساءت، على ما أظن."

قال ورأسه منحنٍ فوق دفتره. "حدثيني عنها." لكن كان من الصعب جدًا، فجأة، التحدث عن ذلك.

"قد ترغب في النظر إلى هذا." وضعت المجلد الذي يمثل نوح على الطاولة ودفعته إليه.



قلّب أندرسون الصفحات ببطء، متفحصًا التفاصيل. لم تكن الحالة بقوة ما كان يأمل—فالكوابيس والفوبيا من الماء كانت أمورًا شائعة، وإن كانت شديدة الكثافة بشكل غير معتاد، والإشارات إلى البندقية وهاري بوتر كانت مثيرة للاهتمام ولكنها غير حاسمة، والمعرفة بالسحالي كانت واعدة، ولكن فقط إذا تمكن من إثبات عدم وجود مصدر واضح لخبرة الطفل. الأهم من ذلك، لم يكن هناك شيء ملموس قد يقوده إلى شخصية سابقة—فالبنادق وكتب هاري بوتر كانت منتشرة مثل الهواء في هذه الثقافة، والحيوان الأليف من نوع التنين الملتحي لم يكن شيئًا كافيًا للاعتماد عليه. كان الطفل قد ذكر منزلًا على البحيرة لمعلميه، ولكن الأمر كان بلا فائدة بالنسبة له دون معرفة اسم البحيرة.

لمح المرأة، التي كانت تبني هيكلًا من مكعبات السكر. وكانت، مثل معظم الناس، عبارة عن تناقض: عينان زرقاوان ثابتتان، ويدان قلقتا الحركة. عندما كانت تنظر إلى أندرسون، كانت عيناها مقيمتين وحذرتين، ولكن عندما تلتفت إلى ابنها، كان دفء ملموس يشع من ملامحها. مع ذلك، تمنى لو أنها وثقت به بما يكفي لتدعوه إلى المنزل؛ فالمطعم كان صاخبًا، وسيكون من الصعب الحصول على أي شيء من طفل في هذه البيئة.

راقب أصابعها الرشيقة وهي تنهي بناء المنزل الصغير المصنوع من الطوب الأبيض. "جميل..."

ماذا كان يسمى؟ سقطت الكلمة فجأة من آلهة اللغة، مثل السكر على شفتيه. "... كوخ إسكي،" وتابع. إن العودة إلى العمل على حالة ما كان مفيدًا لحصيلته اللغوية على الأقل. شعر الطفل الكامن بداخله بالأسف عندما فككته بسرعة، معيدة تكويم المكعبات بشكل مرتب في الطبق.

تجرع رشفة من الشاي؛ وكان قد نسي إخراج كيس الشاي، فبدا السائل كثيفًا على شفتيه. ونقر على المجلد قاطعا الصمت. "أنتِ دقيقة جدًا."

"ولكن—ما رأيك؟"

"أعتقد أن حالته واعدة ولها مستقبل."

لمحت ابنها، المستغرق في مباراة البيسبول عند المنضدة، وانحنت عبر الطاولة وهمست. "ولكن هل يمكنك مساعدته؟"

كان بإمكانه شم رائحة القهوة في أنفاسها؛ ولقد مر وقت طويل منذ أن شعر بدفء أنفاس امرأة على وجهه. تجرع رشفة أخرى من الشاي. لقد تعامل مع الأمهات من قبل بالطبع؛ وعقود من الأمهات: المتشككات، والغاضبات، والمحزونات، والرافضات، والمساعدات، والمتأملات، أو اليائسات، مثل هذه الأم. وكان الشيء الرئيسي هو البقاء متماسكًا ومسيطرًا على الوضع.

أنقذته النادلة من الإجابة، وهي تدخر الابتسامات المتاحة لها لحياتها الوحيدة والفريدة (لماذا يوشم الناس ذلك على أجسادهم؟ هل يجدون حقًا إلهامًا في العيش مرة واحدة فقط؟) وضعت طبقًا ساخنًا من البانكيك مع تجهم واضح.

راقب الأم وهي تحضر الصبي.

الآن أصبح بإمكانه إلقاء نظرة جيدة عليه. كان جميلًا بالطبع، ولكن اليقظة الكامنة في عينيه هي ما جذبت أندرسون. كان هناك أحيانًا بعد آخر في وعي الأطفال الذين يتذكرون؛ ليس معرفة بقدر ما هو حذر، وعي ظلّي يشبه وعي غريب في بلد جديد لا يملك إلا أن يفكر في وطنه.

ابتسم أندرسون للصبي. كم ألف حالة تعامل معها؟ ألفان وسبعمائة وثلاث وخمسون حالة، على وجه الدقة. ولا يوجد سبب يدعو للتوتر، ولن يسمح لنفسه بالتوتر. "من الفائز في المباراة؟"

"اليانكيز."

"هل أنت من مشجعي اليانكيز؟"

أخذ الصبي لقمة من البانكيك. "لا."

"أي فريق تحب؟"

"الناشيونالز."

"واشنطن ناشيونالز؟ لماذا تحبهم؟"

"لأن هذا هو فريقي."

"هل ذهبت إلى واشنطن العاصمة من قبل؟"

تحدثت والدته قاطعة. "لا، لم نذهب."

حاول أندرسون الحفاظ على هدوء صوته. "كنت أسأل نوح."

التقط نوح ملعقة وأخرج لسانه لفتى الملعقة المشوه المنعكس في قعرها الدائري. "ماما، هل يمكنني العودة والمشاهدة؟"

"ليس الآن يا حبيبي، عندما تنتهي من تناول الطعام."

"لقد انتهيت."

"لا، لم تنتهِ. بالإضافة إلى ذلك، الدكتور أندرسون يريد التحدث إليك."

"لقد سئمت من الأطباء."

"هذا الطبيب الأخير فقط."

"لا!"

كان صوته عاليًا. لاحظ أندرسون قيام امرأتين في الجوار بإلقاء نظرات في اتجاههما، يحكمون على هذه الأم الأخرى فوق بيضهم المخفوق، وشعر بوخزة من التعاطف معها.

"نوح، أرجوك—"

"لا بأس". تنهد أندرسون. "أنا شخص غريب، ونحن بحاجة إلى التعرف على بعضنا البعض بشكل أفضل. الأمر يستغرق وقتًا."

"أرجوكِ يا أمي-ماما؟ إنه يوم الافتتاح."

"أوه، حسنًا."

راقباه وهو يقفز خارجًا من مقعده.

قالت وهي تنظر إليه بقوة، وكأنها تبرم صفقة. "إذن، ستتولى حالته؟"

"أتولاها؟"

"كعلاج لمريض."

"الأمر لا يعمل بهذه الطريقة تمامًا."

"ظننتك طبيبًا نفسيًا."

"أنا كذلك. ولكن هذا العمل ليس ممارسة سريرية، بل هو بحث علمي."

"فهمت." وبدا عليها الارتباك. "إذن، ما هي الخطوات التالية؟"

"أنا بحاجة إلى مواصلة التحدث مع نوح؛ لنرى إن كان بإمكاننا العثور على شيء ملموس يتذكره. بلدة، اسم، شيء يمكننا تتبعه."

"تقصد، مثل دليل؟"

"بالتأكيد."

"حتى يتمكن من الذهاب لرؤية... حيث كان يعيش في حياته السابقة؟ هل هذا هو الأمر؟ وهل هذا سيشفيه؟"

"لا يمكنني تقديم أي وعود. لكن الخاضعين للدراسة يميلون عادة إلى الهدوء بعد أن نحل الحالة ونجد الشخصية السابقة. قد ينسى من تلقاء نفسه، كما تعلمين؛ فمعظمهم ينسى بحلول سن السادسة أو نحو ذلك."

استقبلت هذا الكلام بحذر. "ولكن كيف يمكنك العثور على الشخصية السابقة؟ نوح لم يقل أي شيء محدد إلى هذا الحد."

"لنرى كيف تسير الأمور. الأمر يستغرق وقتًا."

"هذا ما يقولونه جميعًا، كل الأطباء. لكن الأمر هو—" ارتعش صوتها وتوقفت فجأة، ثم حاولت مجددًا. "الأمر هو أنني لا أملك الوقت. أموالي توشك على النفاد، ونوح لا يتحسن. أنا بحاجة إلى فعل شيء الآن، بحاجة إلى شيء ينجح."

شعر بحاجتها عبر الطاولة، وهي تسيطر عليه.

ربما كان هذا خطأً؛ وربما كان ينبغي له العودة إلى منزله في كونيتيكت... ويفعل ماذا؟ لم يكن هناك شيء ليفعله سوى الاستلقاء على الأريكة التي باتت سريره الآن، تحت اللحاف المنقوش بنقشة البيزلي الذي اشترته شيلا قبل عشرين عامًا والذي لا يزال يفوح برائحة خفيفة جدًا من الحمضيات والورود. إلا أنه إذا فعل ذلك، فكأنه ميت بالفعل.

عبست ونظرت بعيدًا عنه، واضحة المحاولة لاستعادة السيطرة على نفسها. لن يواسيها بوعود كاذبة؛ فمن يدري إن كان بإمكانه مساعدة ابنها؟ فضلًا عن أن الحالة كانت ضعيفة، ولم يكن هناك شيء للبناء

عليه، ما لم يصبح الطفل فجأة أكثر رغبة في الكلام. نظر إلى الأسفل نحو الطاولة، نحو بقايا وجبة الإفطار المتأخرة، البانكيك نصف المأكول للصبي، ومفرش المائدة الورقي المتسخ... "ما هذا؟"

كانت المرأة تمسح عينيها بمنديل. "ماذا؟"

"مفرش المائدة هذا، ما المكتوب عليه؟"

"هذا؟ إنه خربشة، كان يخربش."

"هل يمكنني رؤيته؟"

"لماذا؟"

"هل يمكنني رؤيته، من فضلكِ." حافظ على ثبات صوته بجهد كبير.

هزت رأسها، لكنها أزاحت الطبق وكوب عصير البرتقال وسلمته المستطيل الورقي الرقيق. "احذر، هناك شراب محلى على الحواف."

التقط أندرسون مفرش المائدة؛ كان لزجًا تحت أطراف أصابعه ويفوح برائحة الشراب وعصير البرتقال. مع ذلك، وحتى قبل أن يتفحص العلامات الموجودة على الورقة بشكل صحيح، شعر بالدم يبدأ في التدفق والوخز في عروقه.

"لم يكن يخربش،" قال أندرسون بهدوء. "بل كان يسجل نقاط المباراة."

10

وقفت جاني في منتصف غرفة معيشتها. كانت الغرفة مظلمة، باستثناء أضواء المصابيح الأمامية للسيارات المارة؛ ومضات تأتي وتغيب، خاطفةً على الجدار. كان بمقدورها تمييز الأشكال المألوفة في تلك العتمة: الأريكة، المقعد، المصباح. مع ذلك، بدت الأشياء مختلفة في عينيها، مائلة قليلًا، وكأن زلزالًا خفيفًا قد ضرب الأرض.

سمعت صوت حركته في المطبخ. فتحت النافذة قليلًا، فانتعش الهواء بنضارة رطبة لبداية فصل الربيع. كان مصباح الغاز يتراقص في الظلام، ولهبه يتحرك باستمرار؛ هنا، ثم هنا، ثم هنا.

لقد قاد أمر إلى آخر. فنوح قد سجل نقاط مباراة بيسبول دون أن يعلّمه أحد كيف يفعل ذلك، ولذا دعت أندرسون للمجيء إلى منزلها للعمل معه في مكان أكثر هدوءًا. أمضوا فترة بعد الظهيرة مستغرقين في النشاط المفضل لابنها: كان نوح يرمي كرته المطاطية النطاطة نحو الجدار ويلتقطها، بينما يقف أندرسون إلى جانبه ممسكًا بدفتره الأصفر، مقيمًا مدى دقة الرمية. ("ثمانية". "ثمانية فقط؟" "حسنًا، ربما تسعة". "تسعة! نعممم! تسعة!"). ارتفعت معنويات نوح تحت طائلة اهتمام أندرسون، بطريقة لم تره عليها منذ شهور، وبدا أندرسون نفسه رجلًا مختلفًا تمامًا. كان يضحك بسهولة وبدا مهتمًا حقًا بمهارة نوح في رمي والتقاط الكرات النطاطة (وهو أمر مذهل لجاني، التي لطالما وجدت هذه اللعبة مملة بشكل لا يصدق). كان طبيعيًا جدًا مع الصبي لدرجة أنها تفاجأت عندما أجاب على سؤالها بأنه ليس لديه أطفال.

كيف يمكن للمرء ألا يحب رجلًا يلعب بهذه البهجة وذاك العطف الواضح مع ابنها؟ متى كانت آخر مرة فعل فيها أي رجل ذلك؟

لكن لم يكن يهمّ كم عدد المرات التي سأله فيها أندرسون أو بأي أسلوب؛ فقد انتهى نوح من التحدث مع الأطباء عن أي شيء لا يتضمن الالتقاط أو الرمي. ولم يستجد في دفتر أندرسون أي ملاحظات جديدة.

بحلول أواخر بعد الظهيرة، بدا واضحًا لجاني أنهما لا يصلان إلى أي نتيجة. حتى نوح بدا شاعرًا بالإحباط المخيم على الجو، فبدأ يرمي الكرة في أنحاء الغرفة بطريقة مفرطة وعشوائية حتى استقرت مع الكرتين الأخريين داخل ثريا الإضاءة في السقف، فوضعت جاني حدًا للعبة. وتهدئةً له (ولنفسها)، لجأت إلى الحيلة الأخيرة للأمهات: شغلت فيلمه المفضل البحث عن نيمو (Finding Nemo)، الذي يدور عن السمكة المفقودة التي تبحث عن والدها. جلسوا معًا، جاني ونوح وأندرسون، جنبًا إلى جنب على الأريكة. ركزت جاني على الأسماك الملونة وحاولت ألا تفكر في أي شيء آخر، لكن الصور لم تتمكن من جذب انتباهها. كان الفزع يتسرب ببطء في أعماقها، مالئًا إياها بسمّه المُشل: *ما العمل الآن؟ ما العمل الآن؟ ما العمل الآن؟*

كان أندرسون يجلس على الجانب الآخر من نوح، ملامح وجهه الجانبية غامضة ولا يمكن قراءتها، كتمثال فارس فوق ضريح. قبل أن ينتهي الفيلم، كان نوح قد غط في النوم، ورأسه يميل على كتف جاني، لكنهما واصلا مشاهدة الفيلم حتى نهايته على أي حال، مستغرقين في عالميهما المنفصلين. شعرت بوخزة بؤس عندما وجد الأب ابنه، حسدًا لكل تلك السعادة السمكية. بعد ذلك، حملت نوح إلى سريره،

وساقاه تتدليان على جانبيها كطفل رضيع ضخم، ودثرته. كانت الساعة السادسة فقط.



عندما عادت جاني، كان الرجل الطويل يذرع المكان جيئة وذهابًا. كان من الغريب وجوده في شقتها دون وجود نوح في الغرفة. بدا الأمر كما لو أن الطبيب قد أصبح فجأة رجلًا—ليس شخصًا قد تهتم به (فهو أكبر منها سنًا بكثير، وشديد الانعزال) ولكنه شخص شحن جزيئات الهواء باختلاف ذكوري على أي حال. راقبته وهو يسير لبضع لحظات؛ وبدا مستغرقًا تمامًا في أفكاره.

قالت أخيرًا. "إذن، ماذا نفعل الآن؟"

توقف في منتصف خطواته؛ وبدا متفاجئًا برؤيتها هناك. "حسنًا، يمكننا المحاولة مجددًا غدًا. هذا إن كان الأمر يناسبكِ بالطبع؟"

"غدًا؟" هزت رأسها. "لدي اجتماع مع عميل..." لكنه لم يكن يستمع إليها.

"في هذه الأثناء، نحن بحاجة إلى تأكيد المعلومات التي لدينا. سنتحقق من المدرسة بشأن السحالي والسلوك الآخر الذي أظهره هناك. الوقت متأخر الآن"—لمح ساعته—"ولكنني سأرسل لهم بريدًا إلكترونيًا في الصباح. هل يمكنكِ إخطارهم مسبقًا؟"

"أظن نعم." انقبضت من الداخل لفكرة مفاتحة الآنسة ويتيكر في هذا الأمر. فبالتأكيد لن تملك الصبر على ذلك، وبالطبع قد تخبر مديرة الروضة أندرسون أن نوح يراجع طبيبًا نفسيًا بالفعل...

"وتأكيد كذلك على أنهم لا يعلمون الأطفال فن تسجيل نقاط البيسبول، بالطبع." ضحك بينه وبين نفسه. "رغم أن هذا سيكون أمرًا غير مألوف على الإطلاق."

"ولماذا تحتاج إلى التأكيد والتوثيق على أي حال؟"

"ستكون الحالة أقوى بوجود مصادر متعددة."

"حالة أقوى؟" تمنت لو يتوقف عن الحديث عن نوح كحالة.

"نعم."

"تقصد—من أجل مقال أو شيء من هذا القبيل؟"

"صحيح."

"حسنًا، لا أظن أنني أريد أي جزء من هذا."

"هممم؟"

"أنا إنسانة خصوصية، ونحن أناس نفضل الخصوصية."

"بالطبع. سنغير جميع الأسماء في الكتاب."

الكتاب. أصبح حماسه واضحًا لها فجأة. لقد كانت تتساءل أي نوع من الأطباء يكون، والآن عرفت: من النوع الذي يؤلف كتابًا.

"أي كتاب؟"

"أنا أدون بعض الحالات. ولن يضيع في غياهب النسيان الأكاديمي مثل الكتب الأخرى. هذا الكتاب موجه للعامة،" أضاف بلهفة، وكأن المجهولية والنسيان هما المشكلة.

"أنا لا أريد نوح في كتاب."

فحدق بها.

"هل يهمك الأمر إلى هذا الحد يا دكتور؟"

"أنا—" لم يكمل فكرته، وتحول وجهه إلى شحوب أشد.

لم يكن بمقدورها الثقة به؛ فهو يكتب كتابًا. تذكرت كل تلك الكتب التي قدّمها أصدقاء والدتها لها عندما كانت تحتضر؛ الجميع يحاول جني المال من بؤس اليائسين عبر حمياتهم الغذائية الخاصة ووضعيات اليوغا. حتى عندما كانت والدتها في كامل وعيها لفترات وجيزة، استمرت الكتب في التدفق؛ وفي النهاية، امتدت خزانة مليئة بها.

بالتأكيد لم يكن هناك كتاب يمكنه مساعدتها الآن، لم تكن هناك أم أيضًا. لم يكن هناك سوى هذا الغريب وأجندته الخاصة. شعرت بالإنهاك الذي كان يغمرها يتحول فجأة إلى شيء آخر—عاطفة أفزعتها بضراوتها. فلشهور طويلة كان الناس يجلسون ببرود خلف المكاتب يخبرونها بأن خطبًا ما يصيب ابنها، وكانت تتقبل الأمر، مهدئةً علامات الهلع الظاهرة بقدر ما تستطيع. لكن هذا الرجل، بعينيه البراقتين والمتسائلتين وبشرته الرمادية الشاحبة—هذا الرجل لديه ما يخسره أيضًا. استشعرت القلق الكامن فيه كما لا يستشعره إلا اليائسون، وكانت معرفتها بذلك بمثابة مفتاح يفتح الباب على إحباطها الشاسع وغضبها العارم.

"لهذا السبب كنتَ متحركًا ومبتهجًا جدًا بفكرة أنه يستطيع تسجيل نقاط مباراة بيسبول، أليس كذلك؟ إن هذا لن يساعدنا في العثور على أي 'شخصية سابقة'. إنه مجرد تفصيل جيد *لكتابك الثمين*." تأذت ملامحه من الطريقة التي نطقت بها الكلمة. "هل تهتم أصلًا بمساعدة نوح على الإطلاق؟"

"أنا—" نظر إليها بنوع من عدم اليقين. "أنا أريد مساعدة جميع الأطفال—"

"صحيح، بجعل أمهاتهم يشترين كتابك؟" شعرت حتى وهي تقولها أن هذا الرجل لا يبدو مدفوعًا بشيء فج كجني الأموال، لكنها لم تتمكن من كبح نفسها.

بدأ يقول مجددًا. "أنا—". ثم توقف. "ما هذا الصوت؟"

سمعا الصوت معًا حينها: من غرفة النوم في نهاية الممر. صوت نحيب خفيف.

تمتم أندرسون. "أعتقد أننا أيقظنا نوح."

تحول النحيب الخفيف إلى صوت اندفاع عاصف، كعويل الريح في مدخنة.

"لا، ليس مستيقظًا."

تجمع الصوت بقوة حتى عصف بالكامل في الغرفة: إعصار، قوة من قوى الطبيعة، ثم ببطء اتخذ العويل شكلًا، وأصبح كلمة.

"ماماااا! ماماا!"

لطالما فاجأها ذلك: هذا السيل العارم من العواطف الذي يبدو وراء ما يمكن لصبي صغير أن يستجمعه. وقفت جاني بإنهاك، على قدمين ترتجفان. ونظرت إلى أندرسون. لم تكن تثق به، لكنه الوحيد الموجود هنا. "ألن تأتي؟"

وتوجها معًا نحو غرفة نوم نوح.

وُلد تشاناي تشومالايوونغ في وسط تايلاند عام 1967 بوحمتين خلقيتين، واحدة في مؤخرة رأسه والأخرى فوق عينه اليسرى. عندما وُلد، لم تعتقد عائلته أن وحماته ذات أهمية خاصة، ولكن عندما بلغ الثالثة من عمره، بدأ يتحدث عن حياة سابقة. قال إنه كان معلمًا في مدرسة يدعى بوا كاي وأنه أُطلق عليه النار وقُتل وهو في طريقه إلى المدرسة. أعطى أسماء والديه وزوجته واثنين من أطفاله من تلك الحياة، وتوسل بإصرار إلى جدته، التي كان يعيش معها، لتأخذه إلى منزل والديه السابقين في مكان يدعى خاو بهرا.

في النهاية، وعندما كان لا يزال في الثالثة من عمره، فعلت جدته ذلك تمامًا. استقلت هي وتشاناي حافلة إلى بلدة قريبة من خاو بهرا، والتي تبعد خمسة عشر ميلًا عن قريتهم الأصلية. بعد أن نزلا من الحافلة، قاد تشاناي الطريق إلى منزل قال إن والديه يعيشان فيه. كان المنزل يخص زوجين مسنين كان ابنهما، بوا كاي لوناك، معلمًا قُتل قبل خمس سنوات من ولادة تشاناي... فور وصوله إلى هناك، تعرف تشاناي على والدي بوا كاي، اللذين كانا هناك مع عدد من أفراد العائلة الآخرين، على أنهما والداه. تأثروا بما يكفي بتصريحاته ووحماته لدعوته للعودة بعد فترة قصيرة. عندما فعل، اختبروه بطلب انتقاء متعلقات بوا كاي من بين أشياء أخرى، وتمكن من فعل ذلك. تعرف على إحدى بنات

بوا كاي وسأل عن الأخرى باسمها. قبلت عائلة بوا كاي أن تشاناي هو بوا كاي وقد ولد من جديد، وزارهم عددًا من المرات. أصر على أن تناديه بنتا بوا كاي بـ "أبي"، وإذا لم تفعلا، كان يرفض التحدث إليهما.

جيم ب. تاكر، دكتور في الطب، كتاب الحياة قبل الحياة.

11

فُتح باب، وسقطت من خلاله.

هذا ما حدث، فكرت جاني لاحقًا، وهي تقف في غرفة المعيشة المظلمة. مع ذلك لم يكن هناك شيء غير مألوف في مشهد نوح وهو يصرخ ويتخبط في ملاءات السرير المطبوعة برسوم نينجا تيرتلز. كان فمه مفتوحًا، وشعره رطبًا ملتصقًا بوجنتيه. تحركت نحو السرير لتهدئته وكبحه، لكن أندرسون تحرك أسرع؛ وبات إلى جوار نوح في لمح البصر، منحنيًا فوقه، ومثبتًا القدمين اللتين تركلان الملاءات.

كان شخص غريب يلمس ابنها، الذي كان يصرخ مناديًا إياها. الذي كان يصرخ—

"ماما!"

"نوح." قالت وهي تتحرك نحو السرير. تطلع أندرسون إليها وأرجعها بنظرته.

قال أندرسون بهدوء، وصوته شديد الحزم. "نوح. نوح، هل تسمعني؟"

"أخرجيني!" صرخ نوح. "ماما! أخرجيني! لا أستطيع الخروج!"

قال أندرسون. "نوح، لا بأس، إنه كابوس. أنت تمر بكابوس."

"لا أستطيع التنفس!"

"لا تستطيع التنفس؟"

"لا أستطيع التنفس!"

كانت جاني تعلم أنه الحلم، لكنها لم تملك إلا أن تقول. "نوح يعاني من الربو. نحن بحاجة إلى إحضار جهاز الرذاذ—إنه في الدرج—"

"إنه يتنفس." كان جسد أندرسون الطويل متأهبًا فوق جسد نوح الصغير المتخبط، ويداه لا تزالان على قدميه. *لا تلمس ابني*، فكرت، لكنها لم تقلها. لم تقل أي شيء. أرسلت إلى أندرسون رسالة صامتة: حركة واحدة خاطئة يا صاح، وسأطردك من هنا بسرعة تجعل رأسك يدور.

قال أندرسون بحزم. "نوح. يمكنك الاستيقاظ الآن. كل شيء على ما يرام."

توقف نوح عن الحركة، وفتح عينيه على وسعهما. "ماما."

نادت من عند أسفل السرير. "نعم يا حبيبي." ولكنه كان ينظر إلى ما وراءها؛ لم تكن هي ما يريده.

"أريد الذهاب إلى المنزل."

"نوح." قال أندرسون مجددًا، فالتفت نوح بعينيه الزرقاوين نحو أندرسون وثبتهما هناك. "هل يمكنك إخبارنا بما حدث في حلمك؟"

"لا أستطيع التنفس."

"لماذا لا تستطيع التنفس؟"

"أنا في الماء."

"أنت في—المحيط؟ بحيرة؟"

"لا." أخذ نوح بضعة أنفاس متقطعة وضحلة. شعرت جاني بالصراع في رئتيها؛ فإذا توقف عن التنفس، ستتوقف هي أيضًا.

تملص نوح متخذًا وضعية الجلوس. لم يعد أندرسون بحاجة لتثبيت قدميه، فقد حاز على انتباهه بالكامل. "لقد آذاني."

"في حلمك؟" تحدث أندرسون بسرعة. "من الذي يؤذيك؟"

"ليس في حلمي، بل في حياتي الحقيقية."

"فهمت. من آذاك؟"

"بولي. لقد آذى جسدي. لماذا فعل ذلك؟"

"لا أعلم."

"لماذا فعلها؟ لماذا؟" أمسك نوح بيد أندرسون، وعيناه قلقتان. وأصبحت جاني نفسها غير مرئية، مجرد ظل عند أسفل السرير.

تطلع أندرسون إليه بتمعن. "ماذا فعل؟"

"لقد آذى تومي."

"تومي؟ هل كان هذا اسمك؟"

"نعم."

كانت جاني تستمع إلى ابنها، لكن الكلمات تردد صداها بشكل غريب في عقلي، وكأنها تسمعها من مكان بعيد. مع ذلك كانت هنا، في هذه الغرفة المألوفة، مع النجوم المضيئة في الظلام التي ألصقتها على السقف واحدة تلو الأخرى، والخزانة التي طليتها بيدها برسوم الفيلة والنمور، ونوح، نوحها، والباب في عقلها يُفتح ويُغلق ويُفتح مجددًا.

قال أندرسون. "فهمت. هذا رائع. هل تتذكر اسم عائلتك؟"

"لا أعلم. أنا تومي فقط."

"حسنًا. هل كانت لديك عائلة عندما كنت تومي؟"

"بالطبع."

"من في عائلتك؟"

"هناك ماما وبابا وأخي الصغير. لدينا سحلية."

"وما هي أسماؤهم؟"

"هورنتيل."

"هورنتيل؟"

"إنه تنين ملتحٍ. أنا وتشارلي أسميناه كذلك لأنه يشبه التنين هورنتيل الذي قاتله هاري."
"فهمت. ومن هاري؟"
قلّب نوح عينيه. "تعرف، هاري بوتر؟"
عند أسفل السرير، سمعت جاني نفسها وهي تستنشق الهواء. حبست النَفَس في صدرها، تاركة إياه يحترق هناك. هذه الغرفة المألوفة، وهذا المشهد غير المألوف: الرجل الطويل ينحني فوق نوح، والوجه المستدير المشرق يكاد يلامس الوجه الحاد والزاوي.
"وأين تعيش مع عائلتك؟"
"نحن نعيش في المنزل الأحمر."
"المنزل الأحمر. وأين يقع؟"
"إنه في الحقل."
"وأين يقع الحقل؟"
"أشفو؟"
"أشفيو؟"
"هذا هو!"
"هذا أين تعيش؟"
"هذا هو منزلي!"
شعرت جاني بنفسها تزفر، همسة صوت خافتة في الغرفة.
"أريد العودة إلى هناك. هل يمكنني العودة إلى هناك؟"
"هذا ما نحاول فعله. هل يمكننا التحدث للحظة عما حدث مع بولي؟ هل يمكننا فعل ذلك؟"
أومأ برأسه.

"هل تتذكر أين كنت عندما حدث هذا؟ عندما آذاك؟"

أومأ برأسه.

"هل كنت عند الماء؟"

"لا. عند منزل بولي."

"كنت في منزله عندما آذاك؟"

"لا، كان في الخارج."

"حسنًا، كان في الخارج. وماذا فعل يا نوح؟"

صرخ وهو يتطلع إلى وجه أندرسون. "لقد—لقد أطلق علي النار."

"أطلق عليك النار؟"

"أنا أنزف... لماذا فعل ذلك؟"

"لا أعلم. لماذا تظن أنه فعلها؟"

جاء نوح هائجًا ومضطربًا. "لا أعلم! لا أعلم! لا أعلم لماذا!"

"حسنًا، لا بأس، كل شيء على ما يرام. إذن ماذا حدث بعد ذلك؟ بعد أن أطلق عليك النار؟"

"ثم متُّ."

"متَّ؟"

"نعم. ثم أتيت إلى—" وبحثت عيناه في الغرفة. "أمي-ماما؟"

بطريقة ما لا بد أنها انزلقت للأسفل؛ إذ كانت تقرفص بجانب السرير، وتتنفس شهيقًا وزفيرًا. كان ينظر إليها.

"هل أنتِ بخير؟"

نظرت إلى الصبي؛ صبيها، طفلها، نوح. "نعم." نقرت على عينيها المبللتين بإصبعها. "إنها مجرد عدساتي اللاصقة."

"يجب أن تنزعيها."

"سأفعل بعد قليل."

"أنا متعب يا ماما."

"بالطبع أنت كذلك يا حبيبي. هل نعود إلى النوم؟"

أومأ نوح برأسه. ابتعد أندرسون، وجلست إلى جانبه على السرير. ووضع نوح يديه العذبتين والمتعرقتين على كتفيها، وأسندت جبهتها إلى جبهته. وغاصا معًا ككيان واحد ووحيد كما كانا يومًا ما.

⸙ ⸙ ⸙

كان أندرسون في المطبخ عندما خرجت جاني من غرفة نوم نوح للمرة الثانية في تلك الليلة. تحركت في أنحاء غرفة المعيشة المظلمة والهادئة، ناظرة إلى الأشياء التي لم تعد كما كانت قبل ساعة.

أنا جاني، قالت لنفسها. نوح هو ابني، ونحن نعيش في الشارع الثاني عشر.

مرت سيارة، وامضة بضوء أبيض على الجدار المظلم.

أنا جاني.

نوح هو ابني.

نوح هو تومي.

نوح كان تومي وأُطلق عليه النار.

كانت تصدق ولا تصدق في الوقت نفسه. نوح أُطلق عليه النار، وكان ينزف—الكلمات جرحتها.

تمنت فجأة لو أنها لم تتصل بهذا الرجل قط، ولو كان بإمكانها العودة إلى زمن كان فيه الأمر يقتصر على جاني ونوح فقط، يصنعان حياة معًا. لكن لا مجال للعودة، أليس كذلك؟ أليس هذا هو درس البلوغ،

ودرس الأمومة؟ يتعين عليك أن تكون حيث أنت. الحياة التي تعيشها، واللحظة التي تمر بها.

12

جلس أندرسون في المطبخ، يبحث في غوغل عن أشفيو.
كان كل شيء يعود إليه الآن. الحماس، الطاقة، *الكلمات*.
لقد وجدها أخيرًا، حالة أمريكية قوية... ربما حالة حياته، تلك التي ستصنع الرابط والاتصال. إذا وجد الشخصية السابقة (وكان متفائلًا بأنه سيفعل)، فربما يمكنه حتى إثارة اهتمام وسائل الإعلام. على أي حال، كانت هذه هي الحالة الأمريكية التي يحتاجها لإنهاء الكتاب بشكل صحيح. كان واثقًا من قدرته على إقناع جاني بتركه ينشرها.
لديه ما يحتاجه الآن: أشفيو، تومي، تشارلي، سحلية، وفريق بيسبول.
لقد جمع أجزاء أحاجٍ أكبر من معطيات أقل.
قالت جاني. "كان بإمكانك أن تطلب الإذن،" ولم يلاحظ دخولها إلى المطبخ.
"هممم؟" كانت هناك بلدة تدعى أشفيو في فرجينيا، ليست بعيدة عن واشنطن العاصمة، حيث يقع فريق بيسبول الناشيونالز.
الأمر بهذه البساطة.
"لاستخدام كمبيوتري؟"
نظر لأعلى؛ وبدا عليها الانزعاج منه.
"أوه! أنا آسف جدًا. أردت الدخول إلى الإنترنت—" وأشار إلى الكمبيوتر، وانتباهه معلق بالصفحة الرئيسية لبلدة أشفيو.
كان فريق الناشيونالز فريق العاصمة (D.C)، وكانت هناك أشفيو في ضواحي فرجينيا. كل ما يحتاجه هو بعض إعلانات الوفاة؛ فالطفل المتوفى يجد طريقه دائمًا إلى الصحف... وسيكون لديه اسم بحلول

نهاية الأسبوع، وربما قبل ذلك؛ وكان متأكدًا من ذلك الآن. بدا الأمر كما لو أن تومي أراد أن يتم العثور عليه.
"إذن أظن أن الأمر كان مفيدًا؟ تلك الأشياء التي قالها نوح؟"
نظر إليها عن كثب. كانت شاحبة، وشفتيها مضمومتان بإحكام. كان ينبغي له الجلوس معها ومساعدتها في استيعاب ما حدث، لكن إلحاحه الاستقصائي كان قويًا جدًا، كمن يحاول إيقاف موجة عاتية. قال محاولًا أن يبدو مسترخيًا. "لقد كان مفيدًا جدًا، وكان خرقًا جيدًا. سنجد تومي الآن، أنا أشعر بذلك."
"تومي، صحيح." وهزت رأسها بقوة، وكأنها تطرد أفكارها. "إذن يا دكتور، أيهما الأصح؟ غرق أم أُطلق عليه النار؟"
"عفوًا؟"
هزت رأسها مجددًا، وتساءل للمرة الأولى إن كانت سليمة العقل تمامًا. "أنت تظن أن نوح هو هذا—الشخص الآخر، هذا تومي، صحيح؟ إذن أريد أن أعرف: أيهما الأصح؟ هل غرق، أم أُطلق عليه النار، أم ماذا؟"
"الأمر ليس واضحًا."
"لا شيء واضح." قذفت بالكلمات في وجهه.
تراجع أندرسون عن الكمبيوتر وسند ظهره. "العلم نادرًا ما يكون واضحًا،" قالها بعناية.
"العلم؟ هل هذا ما تسميه؟" أطلقت ضحكة مكتومة وجالت بعينيها في أرجاء مطبخها، وتوقفت عند قدر متسخ نصف مليء بالماء في حوض الغسيل. "ربما الأمر غير واضح لأن نوح يؤلف كل هذا."
"لماذا قد يفعل ذلك؟"

فتحت الصنبور وبدأت في فرك القدر بضراوة بيديها العاريتين. قالت فوق صوت الماء المتدفق. "أنا آسفة، لست متأكدة من قدرتي على المضي في هذا."
نظر إلى ظهرها، متلمسًا الأسلوب الذي قد ينجح، النبرة، السياق، الفوائد المحتملة لابنها... لقد وظف هذا الأسلوب آلاف المرات... كيف يمكنه الشكّ في نفسه الآن؟ هو الذي كان قادرًا يومًا ما على إقناع أم من طبقة البراهمة في الهند بالسماح لابنتها بزيارة المنبوذين في عائلة الشخصية السابقة. كان بإمكانه رؤية المشهد وكأنه حدث للتو: ساريها البرتقالي اللامع ينساب عبر مدخل كوخ مصنوع من الطين. في وقت من الأوقات، شعر أنه قادر على إقناع أي شخص كان من خلال القوة المحضة لإرادته.
قال ببرود. "حسنًا. سأغادر إن كنتِ ترغبين في ذلك. ولكن ماذا ستفعلين؟"
تصلب جسدها. "أفعل؟ ماذا تقصد؟"
حافظ على صوته مهدئًا وعقلانيًا. "قلتِ إنكِ لا تستطيعين الاستمرار على هذا النحو، وأن أموالكِ توشك على النفاد، وأن الأطباء لم يقدموا مساعدة. إذن—إذا غادرتُ الآن، ما هي خطتكِ بشأن نوح؟"
شعر بقليل من الخزي؛ فقد كان يستخدم يأسها ضدها. لكن الأمر يصب في مصلحتها الفضلى، أليس كذلك؟ ومصلحة ابنها؟ ومصلحته هو أيضًا، وحتى مصلحة شيلا، ألم تكن تريد منه إنهاء ونشر هذا الكتاب؟ تساءل كم من الجهد سيستغرق إقناع جاني بالسماح له بالكتابة عن نوح. لا يهم.

"سأفعل—" قالت، ولكنها لم تتمكن من إخراج الكلمات من حلقها. التفتت لتواجهه بيدين حمراوين ومبللتين، وخوفها مكتوب بوضوح على وجهها، وشعر بالأسف تجاهها.

"تعالي إلى هنا. دعيني أريكِ ما وجدته. إنه ليس بالشيء الكثير، ولكنه قد يكون بداية."

نقر على المقعد القريب منه. مسحت يديها في بنطال الجينز وجلست. أدار شاشة الكمبيوتر نحوها: منازل جميلة متجمعة حول ملعب غولف أخضر لامع. *مرحبًا بكم في أشفيو!*

"هل تعرفين أحدًا من ضواحي فرجينيا يدعى أشفيو؟"

هزت رأسها. "لم أسمع به قط."

"هذا جيد. إذن لدينا مكان لنبدأ منه. بالطبع، توماس اسم شائع، ونحن لا نعرف أي سنة يشير إليها نوح، وإن كان بإمكاننا استخدام كتب هاري بوتر كدليل على أنه في الماضي القريب. سنبحث في الصحف المحلية عن أي نعي لحادثة إطلاق نار أو غرق تتعلق بطفل يدعى توماس. قد يستغرق الأمر بعض الوقت قبل أن نحدد موقعه، ولكنني أظن أننا بدأنا بداية لائقة. وأنتِ تعلمين أن الناشيونالز،" وأضاف. "هو فريق العاصمة (D.C)"

"هل هم كذلك؟" نظرت بحذر وضيق إلى الشاشة، إلى المساحة الخضراء الممتدة. كانت لا تثق به، وهو يعلم ذلك؛ ومع ذلك، كان ضروريًا لها. كانا ضروريين لبعضهما البعض.

عيّن مهاتما غاندي لجنة مكونة من خمسة عشر شخصًا بارزًا، بمن فيهم أعضاء برلمان وقادة وطنيون وأعضاء من وسائل الإعلام، لدراسة حالة [شانتي ديفي، وهي فتاة صغيرة بدأت، منذ سن الرابعة، بتذكر حياة سابقة كامرأة تدعى لوغدي من ماثورا]. أقنعت اللجنة والديها بالسماح لها بمرافقتهم إلى ماثورا.

غادروا بالقطار مع شانتي ديفي في 24 نوفمبر 1935. يصف تقرير اللجنة بعضًا مما حدث:

"مع اقتراب القطار من ماثورا، تورد وجهها بالفرح ولاحظت أنه بحلول الوقت الذي يصلون فيه إلى ماثورا ستكون أبواب معبد دواركاديش قد أُغلقت. كانت لغتها الدقيقة هي: 'Mandir ke' pat band ho jayenge'، وهو تعبير مستخدم بشكل نموذجي في ماثورا.

"الحادثة الأولى التي لفتت انتباهنا عند وصولنا إلى ماثورا حدثت على الرصيف نفسه. كانت الفتاة بين ذراعي ل. ديشباندو. لم يكد يخطو خمس عشرة خطوة حتى جاء رجل أكبر سنًا، يرتدي ملابس ماثورا التقليدية، ولم تلتقِ به من قبل، أمامها واختلط بالحشد الصغير وتوقف لبرهة. سُئلت عما إذا كانت تستطيع التعرف عليه. كان لرد فعل حضورها عليه سرعة كبيرة لدرجة أنها نزلت على الفور ولمست قدمي الغريب بتبجيل عميق

ووقفت جانبًا. عند الاستفسار، همست في أذن ل. ديشباندو بأن الشخص هو 'جيف' (شقيق زوجها الأكبر). كان كل هذا عفويًا وطبيعيًا لدرجة أنه ترك الجميع مذهولين من المفاجأة. كان الرجل هو بابو رام تشوبي، الذي كان بالفعل الأخ الأكبر لكيدارناث تشوبي [زوج لوغدي]."

اصطحبها أعضاء اللجنة في عربة تونغا جياد، موجهين السائق باتباع توجيهاتها. في الطريق، وصفت التغييرات التي حدثت منذ زمنها، وكانت كلها صحيحة. تعرفت على بعض المعالم البارزة التي ذكرتها سابقًا دون أن تكون هناك من قبل.

مع اقترابهم من المنزل، نزلت من العربة ولاحظت شخصًا مسنًا في الحشد، فانحنت له على الفور وأخبرت الآخرين أنه والد زوجها، وحقًا كان الأمر كذلك. عندما وصلت إلى واجهة منزلها، دخلت دون أي تردد وتمكنت من تحديد موقع غرفة نومها، وتعرفت أيضًا على العديد من متعلقاتها. تم اختبارها بسؤالها عن مكان "jajroo" (المرحاض)، فأخبرت بمكانه. وسُئلت عما يعنيه مصطلح "katora"، فقالت بشكل صحيح إنه يعني باراثا (نوع من الفطائر المقلية). كلتا الكلمتين شائعتان فقط بين عائلات التشوبي في ماثورا ولا يعرفهما أي شخص خارجي في العادة.

ثم طلبت شانتي أن تؤخذ إلى منزلها الآخر حيث عاشت مع كيدارناث لعدة سنوات، وأرشدت السائق إلى هناك دون أي

صعوبة. سألها أحد أعضاء اللجنة، باندیت نیکي رام شارما، عن البئر التي تحدثت عنها في دلهي؛ فركضت في اتجاه واحد، ولكن لعدم عثورها على بئر هناك، ارتبكت. وحتى عندها، قالت ببعض الاقتناع إن هناك بئرًا في هذا المكان. أزاح كيدارناث حجرًا عند تلك البقعة، وبالتأكيد وجدوا بئرًا... واصطحبت شانتي ديفي المجموعة إلى الطابق الثاني وأرتهم بقعة وجدوا فيها أصيص زهور ولكن دون أموال. مع ذلك، أصرت الفتاة على أن الأموال كانت هناك، واعترف كيدارناث لاحقًا بأنه أخرج الأموال بعد وفاة لوغدي.

عندما أُخذت إلى منزل والديها، حيث تعرفت في البداية على خالتها على أنها والدتها لكنها سرعان ما صححت خطأها، ذهبت لتجلس في حجرها، وتعرفت أيضًا على والدها. بكت الأم وابنتها علانية عند لقائهما، في مشهد حرك مشاعر كل من كان هناك.

ثم أُخذت شانتي ديفي إلى معبد دواركاديش وإلى أماكن أخرى تحدثت عنها سابقًا، وتم التحقق من صحة جميع تصريحاتها تقريبًا.

الدكتور ك. س. راوات، "حالة شانتي ديفي"

13

لم تكن عائلة توماس في بلدة أشفيو بولاية فرجينيا من ذوي الحظوظ الوافرة.

فقد قُتل رايان 'تومي' توماس في السادسة عشرة من عمره إثر اصطدام دراجته النارية من طراز هوندا غولد وينغ بسيارة دوج أفينجر على طريق ريتشموند السريع.

توفي توماس فيرناندیز لأسباب مجهولة وهو في شهره السادس.

أما توم هانسون، البالغ من العمر ثمانية عشر عامًا، فقد قضى بجرعة زائدة من الهيروين في شقة خارج حدود مدينة ألكسندرية.

بينما سقط توماس "جونيور" أورايلي، ذو الخمسة وعشرين عامًا، من أعلى سلم أثناء إصلاحه لسقف منزل جاره.

جلس أندرسون خلف المكتب في مكتبه الخالي، وأخذ يتصفح عبر نقرات فأرته عامًا آخر من وفيات جريدة *أشفيو غازيت* الإلكترونية. بدأ من الشهر الذي وُلد فيه نوح وعاد بالزمن إلى الوراء. مع غياب اسم عائلة تومي، كان يعلم أن البحث سيستغرق وقتًا طويلًا، لكنه لم يكن يبالي؛ فلا شيء يضاهي شعور العودة إلى المضمار مجددًا ومحاولة حل قضية ما. إذا تطلب الأمر قراءة الأسماء بضع مرات للتأكد من أنه لم يغفل عن شيء، فلم يكن هناك أحد ليلاحظ ذلك.

كان يأمل في البداية أنه بمجرد البحث في غوغل عن كلمات: "توماس، توم، أو تومي، أشفيو، طفل، إطلاق نار، غرق، وفاة"، سيعثر على خيط ما في مكان ما، ولكن ربما كان الاسم شائعًا جدًا أو الفترة الزمنية ممتدة أكثر من اللازم—فإذا اتخذ من كتب هاري بوتر معيارًا قياسيًا، فإن الأمر

يعود إلى ما يصل لخمسة عشر عامًا مضت. أما مؤشر الوفيات التابع للضمان الاجتماعي، والذي كان متقطعًا وغير دقيق على أي حال فيما يخص الأطفال، فقد كان بلا فائدة في هذه الحالة.

أصيب توم ماكينيرني بتمدد في الأوعية الدموية وتوفي في الثانية والعشرين من عمره.

قضى تومي بولتون نحبه اختناقًا بالدخان في الثانية عشرة من عمره رفقة شقيقتيه خلال حريق شب في منزلهم ليلة عيد الميلاد. (بدا العمر مناسبًا، ولكن بما أن نوح لم يكن يعاني من فوبيا الحرائق أو أعياد الميلاد، وتحدث عن وجود شقيق له، فقد وضع هذه الحالة جانبًا في الوقت الحالي).

أطلق توماس بورشيك النار على نفسه خطأً أثناء تنظيف بندقيته، لكنه كان يعيش في كاليفورنيا آنذاك وكان رجلًا قوي البنية في الثالثة والأربعين من عمره.

كان عليه الاعتراف بالأمر: لقد افتقد شعور الاستغراق الكلي في قضية ما. حتى إنه افتقد أجهزة الميكروفيش التي كان يضطر لاستخدامها قبل أن يصبح كل شيء متاحًا على الإنترنت، تلك الأجهزة المنزوية حتمًا في ركن تحيط به رفوف الأطالس والموسوعات المغبرة. كانت تلك الآلات بمثابة أصدقاء قدامى له؛ طريقة استقرار المقبض بثبات في يده، وكيفية التمرير الأفقي للنصوص عبر الشاشة.

كانت تذكره دائمًا بأيام الجامعة، والعمل بين رفوف المكتبة الخلفية الضيقة، حيث عثر لأول مرة على كتاب صغير نحيل يعود لعام 1936 يحمل عنوان تحقيق في *حالة شانتي ديفي*، فهرع حينها إلى قاعة رايت لمشاركته مع زميله في السكن أنغسلي. أمضيا ساعات طويلة في حانة

موريز على مدار السنوات القليلة التالية يتبحران في الأبعاد والافتراضات بين كؤوس البيرة، يقرآن نظريات التناسخ والتقمص لفيثاغورس وماكتاغارت، وبنجامين فرانكلين وفولتير.

لكن شانتي ديفي كانت الحالة التي يعودان إليها دائمًا؛ تلك الطفلة الصغيرة التي بدت، على نحو مذهل، تتذكر تفاصيل حياة شخص آخر.

إذا كانت هذه الحالة موجودة، وإذا كانت حقيقية—كما تخيلا وخمنا—فلا بد من وجود حالات أخرى. لذا، وفيما تبقى من سنوات دراسته الجامعية وطوال فترة دراسته في كلية الطب، أمضى أندرسون وقت فراغه في البحث عنها. ووجد أشياء كثيرة أثارت اهتمامه—إشارات إلى الحيوات السابقة في نصوص الأوبانيشاد الهندية، وكتابات اللاهوتيين المسيحيين في القرن الثالث، وصولًا إلى مادام بلافاتسكي والجمعية الثيوصوفية، إلى جانب العديد من الدراسات الرائعة حول ارتداد البالغين إلى حيوات سابقة تحت تأثير التنويم المغناطيسي، وإن كان يتساءل عن حجم الأدلة المفيدة التي يمكن أن تقدمها. استوعب أطروحات المشككين أيضًا: قصة فرجينيا تيغي، ربة المنزل من كولورادو التي استحضرت تحت التنويم المغناطيسي ذكريات حياة سابقة زعمت فيها أنها امرأة تدعى بريدي ميرفي، ليتضح وجود تشابه صارخ بين ما قالته وحياة جارة لها في طفولتها. كذلك أعمال فلورنوي، الذي شخّص وسيطة روحية تتذكر حياة سابقة بأنها مصابة باضطراب تعدد الشخصيات.

لكن مهما بحث أندرسون وفتش بعناية، لم يكن قادرًا على العثور على حالة واحدة أخرى لطفل يتذكر تلقائيًا وبعفوية حياة سابقة.

لم يكن هناك إنترنت في ذلك الوقت بالطبع. بالنسبة لباحث، فإن هذا يغير كل شيء...

شتم أندرسون في سره والتفت عائدًا إلى كمبيوتره. تعين عليه المحاولة بجهد أكبر. لم يعد تركيزه كما كان في السابق؛ فلطالما كان على وشك الهروب والارتداد إلى الماضي. في منزل جاني زيمرمان، تحفز عقله واستعاد كفاءته بفضل حماس وجوده في خضم قضية جيدة؛ وعندما كان مع الطفل، قفزت الكلمات الصحيحة إلى شفتيه، تمامًا كما يغني المتلعثمون أحيانًا بطلاقة. مع نوح، كان قد غنى.

أما الآن، فقد اهتزت الكلمات على شاشة كمبيوتره أمام عينيه، فتمسك بصلابته؛ إذ لا يمكنه السماح لطاقته بأن تخبو. لطالما شعر وكأنه عالم آثار ينخل الرمال بحثًا عن شظايا عظام أو كسر من وعاء فخاري. تجلس تحت أشعة الشمس الحارقة أو برودة مكيف الهواء، وتنتظر ببساطة أن يكشف ما كان موجودًا طوال الوقت عن نفسه. الصبر هو كل شيء. تختزل نفسك وتكثفها في الكلمات المطبوعة، وإذا اهتزت الكلمات، تجلس ساكنًا حتى يستقيم معناها مجددًا.

كان يبحث الآن في فترة خمس سنوات قبل ولادة نوح.

مر سريعًا وبلمحات خاطفة على وفيات أشخاص أكبر سنًا من عائلة توماس قضوا نحبهم بسبب الإنفلونزا، وسرطانات البنكرياس والبروستات، والالتهاب الرئوي، والتهاب الدماغ.

توفي ت. ب. (توماس) مانسيرنو جونيور، تسعة عشر عامًا، في تصادم قوارب ببحيرة أشقيو في يوم ذكرى الشهداء.

ووفي توم غرانجر، ثلاث سنوات، بسبب الحصبة. (الحصبة! لماذا يتوقف الناس عن التطعيم بينما البيانات دقيقة للغاية والربط بين اللقاح والتوحد غير مثبت بشكل واضح؟)

تومي يوجين موران، ثماني سنوات، غرق—

تطلع إلى هذه الوفاة الأخيرة عن كثب وبتركيز أكبر.

توفي تومي يوجين موران، ثماني سنوات، ابن جون ب. وميليسا موران، من القاطنين في 128 ممر مونارك، يوم الثلاثاء في حادث مأساوي إثر غرقه في مسبح الفناء الخلفي لمنزله. ويقول الجيران إنه كان طفلًا مبهجًا، وشغوفًا بالزواحف وفريقه المحبوب الناشيونالز...

سند ظهره إلى الكرسي وتراجع للوراء.

تنتظر وتنتظر، ثم في النهاية يحدث ذلك: تلك اللحظة التي تنزاح فيها الرمال وتلمح شيئًا أبيض، فتنكشف شظية العظم.

14

في محطة غريهاوند في بالتيمور، جلست جاني على مقعد طويل، وقد تملكها الصداع والتوتر جراء قهوة محطة الحافلات السيئة، محاولةً التظاهر بأن هذه الخطة عقلانية. *بمقدوري فعل هذا*، فكرت، *طالما أنني لا أركز على المعنى الحقيقي والفعلي لهذا "الفعل"*.

أما نوح، فقد بدا على الأقل متقبلًا للأمر ومستمتعًا به بالكامل: هذه المغامرة، ومحطة الحافلات هذه. قد أبدى تعجبه وهتف مندهشًا من حجم حافلة غريهاوند، مذهولًا من فكرة أن حافلة يمكن أن تحتوي على مرحاض بداخلها. "وقد حظينا بفرصة الجلوس بجانبه تمامًا!"

الآن كان مبتهجًا للغاية بآلة ألعاب الفيديو، على الرغم من أنها لم تعطه أي نقود لتشغيلها. بدا أنه لا يكترث، بل كان يجر المقبض بسعادة يمنة ويسرة، مستمتعًا بجميع الشخصيات المتحركة السريعة دون أن يدرك أنه لا يتحكم بأي منها. هو ما كان يشبه واقع الحال تمامًا، أليس كذلك؟ تظن أنك ممسك بزمام التحكم، لكنك في الحقيقة مجرد شخص يحدق في أضواء متحركة.

ركض نحوها مجددًا. "إلى أين نحن ذاهبون يا أمي-ماما؟ إلى أين نحن ذاهبون؟" كانا يخوضان هذه المحادثة بشكل متقطع منذ ساعات.

"نحن نستقل حافلة أخرى إلى أشفيو."

"أحقًا؟ نحن ذاهبون إلى هناك حقًا؟"

قفز من قدم إلى أخرى، وارتسمت على وجهه تعابير لم تكن مألوفة لها تمامًا. كان خليطًا من الحماس وشيء آخر... قلق؟ (وهذا أمر

مفهوم) خوف؟ عدم تصديق؟ كانت تظن أنها باتت تعرف كل تعابير وجهه بحلول الآن.
"متى سنصل إلى هناك؟"
"في غضون ساعتين إضافيتين."
"حسنًا."
"هل الأمر حسنٌ؟ هل تريد الذهاب إلى هناك؟"
اتسعت عيناه الزرقاوان. "هل تمازحينني؟ بالطبع أريد الذهاب! وماذا عن جيري؟"
باغتها السؤال. "سيلتقي بنا هناك."
"هل يمكنني مشاهدة نيمو مجددًا في الحافلة؟"
"آسفة يا حبيبي، لقد أخبرتك، كمبيوتري نفد من الطاقة تمامًا."
"هل يمكنني الحصول على بعض عصير التفاح؟"
"لقد نفدنا من هذا النوع من العصير أيضًا."
لم تكن تطيق الانتظار حتى تصل الحافلة الثانية. فطالما كانوا في حالة حركة، كانت بخير؛ تُحمل وتندفع للأمام، تاركة أفكارها خلفها ككومة ملابس متشابكة على الشاطئ.
كان أندرسون قد أعطاها حزمة من الأوراق. وضعتها ملفوفة في حقيبة يدها، كدرج مربوط بشريط مطاطي. كانت قصة إخبارية عن صبي صغير غرق في أشقيو بولاية فرجينيا. غرق الصبي في مسبح منزله؛ نسي عامل المسبح إغلاق الأبواب المنزلقة المؤدية إلى الفناء الخلفي، وتوجهت الأم بعد ذلك بفترة وجيزة إلى القبو لغسل الملابس، تاركة طفلها ذو السنوات الثماني بمفرده يشاهد التلفزيون في غرفة المعيشة. خطأ بسيط، ترتبت عليه عواقب وخيمة ومروعة.

تومي موران: طفل لامرأة غريبة.

لم تجبر نفسها على النظر إلى الصفحات؛ بل جعلت الجانب الأبيض الفارغ متجهًا للخارج. تلك الصفحة البيضاء النظيفة التي يبدو أن نوح لم يُمنح مثلها.

تومي موران، تومي موران.

كان أندرسون قد قال في زيارته الثانية. "انظري إلى الحقائق." كانا يجلسان مجددًا في المطبخ، وكان الوقت مساءً ونوح نائم. بدا أندرسون متماسكًا، لكن لم يكن هناك خطأ في قراءة الحماس والاتقاد في عينيه. سحب الأوراق من حقيبته ووضعها أمامها. "هناك تشابهات قوية."

قرأت سريعًا الصفحة التي في الأعلى: قائمة بالتعليقات التي أدلى بها نوح والتشابهات بين نوح وتومي. قفزت الكلمات في عينيها؛ *أشقيو، الهوس بالزواحف، مشجع لفريق الناشيونالز، منزل أحمر، الغرق.*

أين كانت مصلحة نوح وسلامته في كل هذا؟

وضعت الصفحة جانبًا.

"كيف حصلت على هذه المعلومات؟"

فأشار بيده إشارة غامضة. "بعضها من... على الكمبيوتر. وأيضًا، كنت على تواصل مع الأم، وقد أكدت أن منزلها كان أحمر وأن ابنها الآخر يدعى تشارلز."

"لقد تحدثت مع والدة تومي موران؟" أدركت أنها تصرخ فحاولت كبح نبرة صوتها؛ إذ لم تكن تريد إيقاظ نوح. "لماذا لم تسألني أولًا؟"

بدا أندرسون غير منزعج. "أردت التأكد من أن الحالة متماسكة وصلبة. تراسلنا عبر البريد الإلكتروني، وأخبرتها عن عملي، وعن التشابهات..."

"وقد استجابت وتفاعلت مع هذا؟"

فأومأ برأسه.

"إذن—إذا وافقت—ماذا بعد؟"

"بعدها نأخذ نوح إلى المنزل ونكتشف ما إذا كان بإمكانه التعرف على أفراد عائلة الشخصية السابقة، الأماكن المفضلة... هذا النوع من الأمور. نأخذه في جولة ونرى ما يتعرف عليه."

تأملت في كل ما كان يخبر بها؛ النهاية المنطقية للطريق الذي شرعت في خوضه.

لقد سمعت قصصًا عن أمهات عملن بلا كلل ونجحن في عكس وتخفيف العديد من أعراض التوحد لدى أطفالهن؛ أمهات تعلمن كيفية بناء ممرات لبنات مقعدات، وعلمن أنفسهن لغة الإشارة للوصول إلى أبناء صم. لكن متى تتوقف، عندما يتعلق الأمر بطفلك؟

كانت تعرف الإجابة بالفعل: لا يوجد توقف.

دخلت في صلب الموضوع مباشرة. "وهذه العملية ستشفي ابني؟"

"قد تساعده، نعم. فغالبًا ما يكون لها تأثير مفيد على الطفل."

"وإذا لم أفعل هذا؟"

فهز كتفيه، وكانت نبرة صوته مكبوحة ولكن يشوبها التوتر. "إذن هذا خيارك، وتُغلق القضية."

"وسينسى نوح كل شيء عن هذا؟"

"ليس من غير المألوف أن ينسى الطفل بحلول الخامسة أو السادسة."

"نوح في الرابعة فقط."

لمعت عيناه. "نعم."

"لا أعرف إن كان بمقدوري الصمود لعام أو عامين."

واجهها بصلابة وثبات عبر طاولة المطبخ. التقت به مرتين الآن، وتقاسمت معه ساعات مكثفة في الغرفة نفسها، ومع ذلك لم تكن تثق به بعد. لم تملك القدرة على تحديد ما إذا كان الضوء في عينيه ضوء عبقري أم مجنون دجال. كان هناك شيء متكلف ومتردد في الطريقة التي يتحدث بها معها، شيء ظلّ خفيًا ومحجوبًا، وإن كان من الممكن أن يكون ببساطة الطبيعة المتحفظة لعالم... ومع ذلك، كان يملك أسلوبًا جيدًا مع نوح، لطيفًا وصبورًا، كما لو كان يكترث لأمره حقًا، وكان طبيبًا نفسيًا وتعامل مع العديد من الحالات المماثلة. هل يمكنها الاعتماد على ذلك؟

شعرت مجددًا بتيار الخوف الذي كان يتدفق في أعماقها منذ شهور طويلة، كنهر يجري تحت طبقة رقيقة من الجليد. سمعت صوته المتدفق يندفع في أحلامها؛ وعندما استيقظت، لم تتذكر شيئًا سوى مرارة وضيق هذا الشعور، استلقت في السرير وشعرت بقوته وهي تجذبها وتشدها، وفكرت: ابني تعيس، ولا يمكنني مساعدته.

"ما زلت تخطط للكتابة عن هذا؟"

تراجع وسند ظهره إلى الكرسي وتطلع إليها، تحدث ببطء شديد كان يثير الجنون، لدرجة أنها تمنت لو تهزه بعنف. "أنا مهتم بتوثيق الحالة، نعم."

"الحالة، الحالة. الحالة هذه هي عبارة عن طفل يا جيري. نوح طفل."

نهض واقفًا، ومرت ومضة من الضيق والانزعاج على وجهه. "أنا أعلم ذلك. أتظنين أنني لا أعلم؟ أنا طبيب نفسي—"

"ولكنك لست والدًا."

اختفى الغضب من وجهه بالسرعة نفسها التي ظهر بها، وعاد جامد الملامح مجددًا ومستسلمًا. التقط حقيبته البالية ولمح إليها بلمحة خاطفة، وعيناه تلمعان بالكبح والتحفظ. "أعلميني بما تقررينه."

جلست لفترة طويلة في مطبخها، تتفحص الوثائق التي جمعها. كانت أسئلتها كثيرة لا تُعد ولا تُحصى. ماذا يريد نوح من هذه العائلة الأخرى؟ وماذا يمكنهم أن يقدموا له؟ وهل من الجنون فعل ذلك؟ ربما كانت هي المريضة؛ ربما كانت هناك متلازمة نادرة تدفع الأمهات لقذف ذريتهن في دوامات العلم الزائف للعصر الجديد.

لكن لا؛ لم تكن واهمة أو مضطربة نفسيًا. كانت تفعل هذا من أجل نوح؛ ليس لأنه كان يقلب حياتهما رأسًا على عقب ويعرضهما للإفلاس (رغم أنه كان يفعل ذلك)، بل لأن تعابير وجهه عندما تضعه في السرير، في هذه الليلة وكل ليلة ("أريد الذهاب إلى المنزل. هل يمكنني الذهاب إلى المنزل قريبًا؟")، كانت تُدمي قلبها وتفطره.

15

في طريق قيادته من منزله في كونيتيكت إلى أشفيو بولاية فرجينيا، نال أندرسون مخالفتي سرعة زائدة. كان يقود في حالة من الحماس الشديد والاتقاد، وبالكاد يلتقط أنفاسه؛ لم يتمكن من تتبع عداد السرعة، وبالكاد ركز على جهاز تحديد المواقع (GPS). تطلع عبر الزجاج الأمامي، مفكرًا في حالته الأمريكية الجديدة، وشعر وكأنه يبدأ مسيرته من جديد بالكامل.

تذكر حالته الأولى بوضوح شديد وكأنها حدثت بالأمس.

تايلاند. 1977. النهر.

كان الوقت صباحًا باكرًا، واليوم دافئًا بالفعل. كان يتناول الإفطار مع صديقه القديم بوبي أنغسلي على شرفة فندقهما. في أعلى النهر، باتجاه المدينة، انعكس ضوء الشمس الذهبي الزبدي وتراقص على معبد الفجر، ناصرًا الألوان في الجو كجوهرة تتلألأ. أمامهما، كان كلب يكافح لعبور النهر، ورأسه الملبد يندفع فوق الأمواج.

كان أندرسون يعاني من اضطراب الرحلات الجوية الطويلة، ومضت عليه ثلاثة أيام دون تذوق الخمر. أعطت نظارته الشمسية لكل شيء صبغة صفراء باهتة ومريضة. ركز انتباهه على صديقه، الذي كان يغازل النادلة وهي ترتب طبقًا صغيرًا من القشدة المخثرة على المفرش القطني الأبيض بجانب طبق من كعك السكونز الفاخر. كان وجهها متناسقًا تمامًا، كوجه في حلم.

قال أنغسلي. *"كاب خون كاب"* (شكرًا لكِ)، واضعًا يديه معًا في محاكاة ساخرة للتحية التايلاندية المهذبة، أو ربما أصبح واحدًا منهم بالفعل،

لم يكن أندرسون يعلم؛ فلم يره سوى مرتين منذ تخرجهما من الجامعة قبل عشر سنوات، وكانت كل منهما بمثابة خيبة أمل لكليهما. كانا يسيران في طريقين مختلفين: أندرسون يصعد بسرعة في السلك الجامعي، في طريقه ليصبح رئيسًا لقسم الطب النفسي في غضون سنوات قليلة، وأنغسلي يتجه في اتجاه آخر، أو بالأحرى (بقدر ما يرى أندرسون) بلا اتجاه على الإطلاق. تفاجأ أندرسون برؤية صديقه مستقرًا في أي مكان؛ فمنذ أيام الجامعة بدا دائم التنقل، يسكن لفترات وجيزة في الفنادق الفاخرة ويصاحب نساء المدن الكبرى من نيروبي إلى إسطنبول، محاولًا وفاشلًا في استنفاد كل تلك الأموال المتوارثة من أجيال تجارة التبغ.

راقبا النادلة وهي تعود عبر الأبواب المفتوحة إلى الردهة حاملة صينيتها الفضية. وعلى مقربة منهما، كانت فرقة رباعية وتريا تعزف مقطوعة "The Surrey with the Fringe on Top."

هز أنغسلي حاجبيه الكستنائيين بنوع من الخبث والمرح قائلًا. "انظر ماذا أحضرت." مد يده إلى كيس ورقي عند قدميه، وأخرج منه شيئًا بحركة استعراضية، وضعه على الطاولة. انكفأ الشيء مستندًا إلى إبريق الشاي الفضي، وساقاه متباعدتان فوق المفرش الأبيض: شعر من غزل أحمر فاقع، وساقان مقلمتان، ودوائر حمراء تمثل الوجنتين.

تحدق أندرسون به مذهولًا. "أحضرت لي دمية راغيدي آن؟" وتجلى له الأمر ببطء. "إنها من أجل اليوم، لإعطائها للفتاة."

"كنت آمل في العثور على شيء من البورسلين، لكن هذا ما كان متوفرًا لديهم؛ فالمتاجر هنا..." وهز رأسه.

"هل فقدت عقلك؟ لا يمكنك إعطاء دمية لخاضع تجربة." (هل هذا ما كان عليه الأمر؟ تجربة؟)

"بحق السماء يا رجل، تخلص من تزمتك وتصلبك، وتناول كعكة سكونز." وقضم أنغسلي قضمة من كعكة بحجم اليد، منثرًا الفتات فوق المفرش الأبيض. كان شعره المائل للحمرة يتراجع ويهبط بشكل مبكر عبر القبة الواسعة لرأسه، وتحولت ملامحه إلى اللون الوردي المشوش من كثرة التعرض للشمس وتناول الويسكي التايلاندي، مما منحه مظهرًا ناعمًا يشبه اليقطين؛ وربما نعم، قد أصبح عقله ناعمًا ومرنًا أيضًا.

عقد أندرسون حاجبيه مستنكرًا. "هذه رشوة، وستقول الفتاة كل ما تريد منها أن تقوله."

لمح إليه أنغسلي. "اعتبرها بادرة حسن نية؛ فلن تغير قصتها من أجل دمية قماشية، صدقني، أو على الأقل هذا ما أظنه." حدق به. "أنت تكرهني وتحتقرني تحت تلك النظارات، أليس كذلك؟"

خلع أندرسون نظارته الشمسية ورمش بعينيه العاريتين ناظرًا إلى أصابعه البيضاء. "الأمر مجرد أنني ظننت أنك تريد تقييمًا علميًا؛ ظننت أن هذا هو الهدف من إحضاري إلى هنا؟"

ابتسم صديقه ابتسامة عريضة تشوبها الهستيريا الخفيفة بأسنانها المعوجة، والتي كانت غريبة في حد ذاتها كابتسامة الدمية. "حسنًا، نحن نرتجل ونبتكر الأمر أثناء مسيرنا، أليس كذلك؟"

خطأ، فكر أندرسون، *كان هذا كله خطأ*. فقبل أيام قليلة كان في كونيتيكت، يشق طريقه بصعوبة عبر الثلوج إلى مختبره؛ كان يدرس الآثار طويلة وقصيرة المدى للمحفزات الصدمية الكهربائية على

الجهاز العصبي المركزي للجرذان، وترك التجربة في مرحلة حاسمة ومفصلية.
قال ببطء، ونبرة الشكوى ترن في الجو كصوت طفل. "ظننت أن هذا مسعى جاد."
بدا أنغسلي مجروحًا. "لم تُبدِ الكثير من المقاومة، إن كنت أتذكر بشكل صحيح، عندما طلبت منك المجيء."
أشاح أندرسون بنظره عنه؛ كان الكلب لا يزال يحاول عبور النهر. فهل سيصل إلى الشاطئ أم يغرق؟ وكان طفلان يحثانه ويشجعانه من الضفة الأخرى، يقفزان في الطين. اختلطت رائحة النهر العفنة في منخريه برائحة الشاي العطرية الزكية.
ما قاله أنغسلي كان صحيحًا؛ فقد كان متلهفًا ومتحمسًا للمجيء. كان شعورًا جارفًا، أكثر من أي شيء آخر، هو ما قاده إلى هنا، موجة من الحنين اجتاحته في اللحظة التي سمع فيها صوت صديقه المتحمس في خضم تلك الأشهر الكئيبة والموحشة بعد وفاة الطفل وانهيار كل شيء.
كان هو وشيلا يعيشان في جحيمين منفصلين وبالكاد يتحدثان لبعضهما البعض. كان يمضي في أيامه، يدرس جرذانه، ويدون النتائج كما ينبغي، يشرب الخمر أكثر مما ينبغي؛ ومع ذلك شعر في معظم الأيام أن جزءًا كبيرًا منه، ليس أفضل حالًا من الهوام والآفات التي يدرسها؛ وفي الواقع، كانت الجرذان تملك حيوية ونشاطًا أكبر.
سافرت حماسة أنغسلي الطفولية عبر المسافة الشاسعة بينهما كذكرى للاهتمام والشغف الذي كان يملكه يومًا في الحياة وقد يجده

مجددًا إذا ما جازف واقتنص الفرصة؛ وعلى أي حال، كان الأمر بمثابة هروب، وهدنة، الشيء الذي كان يبحث عنه كل ليلة في قاع الكأس.
قال أنغسلي عبر الهاتف. "لقد سمعت عن أمر استثنائي للغاية؛ إنها حالة شانتي ديفي تتكرر من جديد،" ضحك أندرسون للمرة الأولى منذ شهور لسماع الاسم. "سأتكفل بنفقات سفرك بالطبع، لمصلحة العلم."
كانت شيلا قد قالت وعيناها المحمرتان تحملان الاتهام. "اذهب."
لذا فقد اقتنصها، هذه الفرصة، هذه الهدنة؛ كان يقتنصها. وشعر بالارتياح لمغادرة كونيتيكت، مع قدوم عيد الميلاد وزوجته الغاضبة والمحطمة. لم يخبر أنغسلي بشيء عن ظروفه، مفضلًا عدم مناقشة الأمر.
قال أندرسون الآن بصوت عالٍ. "شانتي ديفي." كان يعلم أنه على الأرجح لا شيء، ومع ذلك كان الاسم بمثابة ترياق ومنشط على لسانه، يعيده عقدًا من الزمن إلى الوراء، إلى طعم البيرة والشباب. "من الصعب جدًا تصديق ذلك."
ابتهج أنغسلي. "لهذا السبب نحن ذاهبون، حتى لا تضطر للتصديق."
أشاح أندرسون بنظره عن وجهه المتلهف.
لقد نجح الكلب الأجرب في العبور، وكان يتسلق الضفاف الطينية للجانب الآخر؛ ونفض فراءه، فصرخ الأطفال وتفرقوا متجنبين قطرات الماء العفن التي كانت تدور وتتألق في الضوء.
قال أندرسون. "بلا دمى."
ربت أنغسلي على يد أندرسون. "فقط التقِ بالفتاة."

كانت الفتاة تعيش على بعد بضع ساعات شمال بانكوك في قرية تابعة لمقاطعة أوثاي ثاني. سار القارب الصغير عبر الأحياء الفقيرة على أطراف المدينة، ثم مر بمساكن أكبر وأكثر ريفية؛ منازل خشبية تنتهي بأرصفة بحرية مزينة بمعابد خشبية صغيرة، وهي منازل أرواح للموتى. كانت حقول الأرز المحصودة ذات لون بني ذهبي على جانبيها، تنتشر فيها هنا وهناك جاموس ماء يتجول ببطء أو كوخ صغير. شعر أندرسون بالصور تحل محل الأفكار في عقله، مهدئةً إياه، حتى لم يعد سوى يد بيضاء تلامس سطح الماء بسلاسة. كان إرهاق السفر قد بدأ يغلبه أخيرًا، فغط في نوم خفيف وهو جالس، مستسلمًا لهدير المحرك الخشن والمستمر.

عندما استيقظ بعد بضع ساعات، كان الهواء قد أصبح حارًا وثقيلًا في رئتيه، وتدثر بأشعة الشمس. أدرك أنه قد حلم بالطفل؛ في الحلم كان أوين معافى وسليمًا، طفلًا جميلًا بعينين زرقاوين مثل عيني شيلا تتطلعان إليه بتأمل. جلس الطفل ومط يده إليه كالصبي الذي كان يمكن أن يكونه.



اقتربوا من منزل خشبي صغير قائم على ركائز خشبية تحيط به أوراق شجر كثيفة خضراء. كيفية تحديد أنغسلي لهذا المنزل بالذات من بين المنازل المتطابقة التي تصطف على طول الطريق بالقرب من الرصيف البحري كانت لغزًا لم يكلف أندرسون نفسه عناء حله. كانت امرأة مسنة تكنس الأرضية الترابية في الظلال تحت المنزل، والدجاج ينقنق حول كاحليها. حيّاها أنغسلي بتحية الـ واي (Wai)، منحنيًا

برأسه فوق يديه المضمومتين، وكاشفًا عن بقعة صلعاء وردية في منتصف جمجمته، وخاض الاثنان نقاشًا.
قال أنغسلي. "الأب يعمل في الحقول بالخارج، ولن يتحدث إلينا."
سأل أندرسون. "لغتك التايلاندية جيدة جدًا، أليس كذلك؟" إذ خطر له أنه كان ينبغي عليهما استئجار مترجم فوري.
"إنها جيدة بما يكفي."
سيتعين عليها أن تكون كذلك.
صعدوا الدرج. غرفة بسيطة، مكنوسة جيدًا، ونوافذ خشبية ذات فتحات تطل على حقول مقصوصة وسماء زرقاء. كانت امرأة تضع تشكيلة من الطعام على طاولة في أوعية صفيحية بالية، وترتدي نفس نوع القماش الملون المزخرف بنقوش زاهية الذي ترتديه السيدة العجوز، وعقدته فوق ثدييها مباشرة. كانت جميلة، فكر أندرسون، أو كانت كذلك منذ فترة ليست ببعيدة؛ وبدا أن القلق قد أوقع جمالها في شباكه. عندما ابتسمت لهما، تموجت خطوط القلق من عينيها الداكنتين، وانفرجت شفتاها القرمزيتان لتكشفا عن أسنان حمراء زاهية.
تمتم أنغسلي. "جوز الفوفل (البتل)، يمضغونه هنا؛ إنه نوع من المنبهات." وبسط رأسه باحترام، ويداه معًا *"سواتدي كاب"* (مرحبًا).
"سواتدي." تنقّلت عيناها من أحدهما إلى الآخر.
بحث أندرسون عن الطفلة واكتشف أنها تقبع في الزاوية، تراقب السحالي الصفراء وهي تمرح وتتحرك بخفة في غبار السقف. أصابه الاستياء والرعب برؤية أنها لا ترتدي شيئًا، كانت هزيلة، شبه ضعيفة جدًا، ووجهها وبطنها المقعر مدهونان بمسحوق أبيض خمن أنه

يُستخدم لدرء الحرارة: دائرتان مستديرتان على وجنتيها، وخط أسفل أنفها.
كانت المرأة قد أعدت لهما وليمة قروية: أرز أبيض وكاري السمك، رغم أن الساعة كانت العاشرة صباحًا فقط، وأكواب صفيحية من الماء كان أندرسون واثقًا، وهو يرتشف منها، أنها ستمرضه. لم يكن بمقدوره المخاطرة بإهانتهما، لذا ملأ معدته المضطربة، وطعم المعدن يكسو فمه. خارج النافذة، كان رجل يسوق جاموس ماء عبر حقل من القش الذهبي، واخترقت الشمس فتحات النوافذ.
مشى أنغسلي نحو الطفلة قائلًا. "لدي شيء لكِ." سحب الدمية من حقيبته فأخذتها بوقار وجدية، وأمسكت بها في يديها الممدودتين للحظة، ثم احتضنتها بين ذراعيها.
رفع أنغسلي حاجبيه بشكل ذي مغزى نحو أندرسون عبر الغرفة، وكأنما يقول. *"أرأيت؟ لقد أحبّتها."*
جلسوا إلى الطاولة الخشبية، التي أُخليت الآن من طعام الإفطار. رجلان أبيضان، وامرأة متوترة، وطفلة صغيرة عارية لا يمكن أن يتجاوز عمرها الثلاث سنوات تمسك بدمية قماشية مشوهة وذات شعر أحمر. جلست بهدوء بجانب والدتها، وكانت تملك وحمة غير منتظمة الشكل إلى اليسار من سرتها، تشبه سكب نبيذ أحمر. قبضت على الدمية بإحكام في يديها، وهي تراقب والدتها تقطع البابايا إلى شرائح طويلة ومتساوية بأصابع سريعة.
تحدثا إلى الأم، وتحدث أنغسلي بالتايلاندية أولًا، ثم بالإنجليزية لمصلحة أندرسون وفائدته.
"أخبرينا عن غاي."

أومأت برأسها، ولم تتوقف يداها عن الحركة؛ وتساقطت الشرائح من البابايا في وعاء صفيحي. في كل مرة تسقط فيها شريحة من السكين، كانت الطفلة الصغيرة ترتجف.

تحدثت الأم بصوت منخفض للغاية لدرجة أن أندرسون تعجب كيف يمكن لأنغسلي سماعها لترجمتها.

كان صوته، وهو يترجم، آليًا تقريبًا. "لطالما كانت غاي مختلفة؛ إنها ترفض تناول الأرز، ونحاول إجبارها أحيانًا، لكنها تبكي وتبصقه." امتعض وجه الأم. "إنها مشكلة." وكان هناك صوتها الرفيع المتوتر، ثم صوت أنغسلي المنخفض والمنبسط؛ العاطفة أولًا، ثم المعنى. "أخشى أن تموت جوعًا." وكأنما تذكرت هذا، التقطت قطعة من البابايا من الوعاء الصفيحي البالي وسلمتها لابنتها. قبضت الطفلة على الدمية في يدها اليسرى ومدت يدها اليمنى لتأخذها، ممسكة بها وكأنها بملقط؛ ورأى أندرسون أن ثلاثة من أصابعها في هذه اليد كانت مشوهة، وبدا الأمر كما لو أن هذه الأصابع قد رُسمت بإهمال وعجالة، دون دقة الأظافر والمفاصل. ضبطته الطفلة ينظر إلى أصابعها فقبضتها في شكل قبضة، ليشيح أندرسون بنظره بعيدًا، شاعرًا بالخزي من نفسه لتحديقه.

توقفت الأم عن تقشير البابايا وأطلقت سيلًا جارفًا من الكلمات، بالكاد تمكن أنغسلي من مواكبتها. "ابنتي تقول إنها في المرة الماضية عاشت في منزل أكبر في فيشيت، وكان السقف مصنوعًا من المعدن. وتقول إن منزلنا ليس جيدًا، وإنه صغير جدًا؛ وهذا صحيح، فنحن فقراء."

امتعض وجهها، ورفعت يدها لتشير إلى الغرفة البسيطة. حدقت الطفلة بهما وهي تمضغ البابايا، وقبضت على جسد الدمية اللين والفضفاض بإحكام أشد في يديها.

"وأيضًا، إنها تبكي طوال الوقت؛ وتقول إنها تشتاق لطفلها."

"طفلها؟"

كانت الطفلة تراقب والدتها وهي تتحدث، كالأرنب في الحقل يستمع بإنصات متأهب.

"صبيها الصغير؛ إنها تبكي وتبكي وتقول: 'أريد طفلي'."

شعر أندرسون بقلبه يبدأ في الخفقان أسرع قليلًا، ومع ذلك ظل عقله منفصلًا ومحايدًا. "منذ متى وهي تقول هذا؟"

"منذ عام تقريبًا؛ ونحن نطلب منها نسيان الأمر. زوجي يقول إن التفكير في حياة أخرى يجلب حظًا سيئًا، ولكنها لا تزال تتحدث." ابتسمت بحزن، ووضعت السكين ونهضت، وكأنها تنفض يديها من المسألة برمتها.

نهض الرجلان أيضًا. "فقط بضعة أسئلة أخرى—"

لكنها كانت تهز رأسها، ولا تزال تبتسم، متراجعة عبر باب في الجزء الخلفي من الغرفة.

راقبا قوامها شبه الظلي وهي تقلب شيئًا ما على موقد فحم منخفض.

جلست الطفلة إلى الطاولة، تمسد شعر الدمية السخيف، وتدندن بلا نغم. انحنى أندرسون عبر الطاولة. "غاي، والدتكِ قالت إنكِ كنتِ تعيشين في فيشيت؛ هل يمكنكِ إخباري عن هذا؟"

ترجم أنغسلي، وحبس أندرسون نَفَسه، وانتظرا؛ تجاهلتهما الطفلة، لاعبةً بدميتها، وبدت عيونها المصنوعة من الأزرار الفارغة وكأنها تسخر منهما.

مشى أندرسون نحو غاي، مقرفصًا بجانب كرسيها. كانت تملك عظام وجنتي والدتها العاليتين تحت دوائر المسحوق الأبيض وعيني والدتها القلقتين. جلس براحة على الأرض وسحب ساقيه الطويلتين في وضعية التربع. لفترة طويلة، بلغت خمس عشرة دقيقة، جلس معها ببساطة؛ وأرته غاي الدمية فابتسم، وبدآ اللعب بصمت؛ فأطعمت الدمية وأعطتها له ليطعمها.

قال بعد فترة. "طفل لطيف،" نقرت على أنف الدمية المرسوم بعاطفة وحنان.

جاء صوت أندرسون لطيفًا ومعجبًا. "طفل جميل حقًا." تتبع نغمات أنغسلي التايلاندية وهي تطفو صعودًا وهبوطًا كطائرات ورقية تُحمل بتردد ثم تسقط مخطئةً هدفها؛ فمن يدري إن كان يقولها بشكل صحيح؟

قالت وهي تضحك بقهقهة خفيفة. "إنه صبي."

"هل لديه اسم؟"

"نوينغ."

"اسم لطيف." توقف لبرهة. "ماذا تطعمينه؟"

"الحليب."

"ألا يحب الأرز؟"

فهزت رأسها، وكانت على بعد بضع بوصات فقط منه؛ وتمكن من شم رائحة البابايا في أنفاسها ورائحة طباشيرية، ربما من طلاء الوجه.

"لماذا لا؟"

امتعض وجهها. "الأرز سيئ."

"طعمه ليس جيدًا؟"

"لا، لا، لا، ليس جيدًا."

انتظر لحظة.

"هل حدث شيء ما أثناء تناولكِ للأرز؟"

"حدث أمر سيئ."

"أوه." كان واعيًا بجميع الأصوات في الغرفة: صوت أنغسلي، وحفيفة السحالي وهي تركض بجنون عبر السقف، والضربات السريعة لنبضات قلبه. "ماذا حدث؟"

"ليس الآن."

"فهمت؛ لقد حدث ذلك في زمن آخر."

"عندما كنتُ كبيرة."

نظر أندرسون إلى الشمس وهي تنساب عبر الفتحات على الأرضية الخشبية، والدوائر البيضاء المتوهجة على وجه الطفلة.

"أوه، عندما كنتِ كبيرة؛ هل عشتِ في منزل مختلف؟"

فأومأت برأسها. "في فيشيت."

"فهمت." وأجبر نفسه على التنفس بانتظام. "ماذا حدث هناك؟"

"أمر سيئ."

"أمر سيئ حدث مع الأرز؟"

مدت يدها عبر الطاولة إلى وعاء البابايا، والتقطت قطعة ووضعتها في فمها.

"ماذا حدث يا غاي؟"

ابتسمت لهما والفاكهة تغطي أسنانها، ابتسامة برتقالية عريضة كابتسامة مهرج، وهزت رأسها.
انتظرا لفترة طويلة، ولكنها لم تقل شيئًا آخر. خارج النافذة، لم يعد جاموس الماء في الأفق، وأضرمت الشمس النار في الحقول الساطعة. في الأسفل، كان الدجاج ينقنق ساخرًا منهما.
قال أنغسلي. "أظن أن هذا كل ما في الأمر إذن."
"انتظر."
كانت الطفلة تمد يدها مجددًا في وعاء البابايا، هذه المرة التقطت سكين التقشير التي تركتها والدتها هناك. التقطتها بيدها غير المكتملة والمشوهة. كانا مأخوذين ومستغرقين للغاية، هذان الرجلان البالغان، يراقبانها، لدرجة أنهما لم يبديا رد فعل في البداية—ولم يأخذا السكين من الطفلة الصغيرة. راقباها وهي تلتقط الدمية، وتلف أصابعها القماشية الخام بعناية حول السكين، وبحركة واحدة مركزة وجهت السكين نحو جسدها، متوقفةً تمامًا قبل أن تدخل بطنها، وتلامس طرفها الوحمة ذات اللون النبيذي.
عندها فقط مد أندرسون يده، منتزعًا السكين من أصابعها الصغيرة والمشوهة، تركته يأخذها.
قالت شيئًا آخر، وكانت تنظر إليه، ووجهها يحمل الإلحاح تحت المسحوق الأبيض. *شبح طفلة*، فكر أندرسون، *حلم*؛ ثم فكر: لا، إنها حقيقية، هذا هو الواقع.
كانت هناك فترة توقف.
"حسنًا؟ ما الأمر؟ ماذا قالت؟"
عقد أنغسلي حاجبيه قليلًا. "أعتقد أنها قالت: 'رجل البريد'."

⪢⪢⪢

كان الوقت قد تأخر في اليوم عندما عاد أندرسون وأنغسلي في القارب. وكانت الشاحنة المستأجرة التي نقلتهما من وإلى فيشيت قد أنزلتهما عند ضفة النهر، والآن كانا يعودان بصمت إلى بانكوك.

وقف أندرسون في المقدمة، وإلى جانبه جلس أنغسلي يدخن.

انساب القارب مارًا بالأكواخ ذات الأرصفة البحرية، ومنازل الأرواح الصغيرة الجاثمة على الأطراف، والمعابد المصغرة المبنية لإيواء الأشباح واسترضائها؛ مارًا بالنساء اللواتي يستحممن، والأطفال الذين يسبحون في مياه النهر الطينية.

فك أندرسون أزرار قميصه، وخلع حذاءه وجواربه؛ إذ كان بحاجة للشعور بالماء وهو يتدفق على أصابع قدميه ويرش كاحليه. وقف على القارب بقميصه المفتوح والقميص الداخلي، وشمس أواخر بعد الظهيرة تتدفق بقوة على رأسه. وقفت كل شعرة في جسده على أطرافها.

فكر في أرجونا وهو يتوسل إلى الإله الهندوسي كريشنا ليريه الواقع: "الواقع، نار ألف شمس تتألق وتشتعل في السماء في وقت واحد." وفكر في هيرقليطس: "لا يمكن لرجل أن يخطو في النهر نفسه مرتين، لأنه ليس النهر نفسه، وهو ليس الرجل نفسه." وفكر في تقارير الشرطة والطبيب الشرعي عن موزع البريد من فيشيت الذي غرس سكينًا في الجانب الأيسر من بطن زوجته، فقتلها وقطع ثلاثة من الأصابع ليدها اليمنى، لأنها أحرقت الأرز.

فعل سائق القارب شيئًا بالمحرك فاندفع القارب ونزق للأمام، مخترقًا النهر وراشًا إياهما برذاذه المبرد والممتع.

تذكر نفسه أيام الجامعة، عندما سهر هو وأنغسلي لوقت متأخر يناقشان حالة شانتي ديفي وكتابات أفلاطون وأي شخص آخر أخذ نظرية التناسخ والتقمص على محمل الجد، من أوريجانوس وهنري فورد إلى الجنرال باتون وبوذا. ظن أنه قد تخلى عن كل ذلك. فبقاء الوعي واستمراره بعد الموت: كان بمثابة كنز مفقود أو أضغاث أحلام، وعمل غير مناسب لعالم من عياره ومستواه؛ ومع ذلك فقد كان يبحث منذ ذلك الحين بطريقته الخاصة، متتبعًا ما يفعله جماعة "ج. ب. راين" مع الإدراك الفوق حسي (ESP) في جامعة ديوك، ومستكشفًا في عمله الخاص الروابط بين العقل والجسد. فالضغط النفسي والعقلي يسبب أمراضًا جسدية؛ هذا القدر كان مؤكدًا؛ ولكن لماذا يخرج بعض الناس من الصدمات بمرونة وصلابة بينما يصاب آخرون بالتعرق الليلي والفوبيا؟ كان واضحًا له أن علم الوراثة والعوامل البيئية لا يفسران كل شيء. لم يؤمن أن المسألة مسألة حظ؛ بل كان يبحث عن شيء آخر.

شيء آخر..

تولدت الروابط والاتصالات في عقله، متفرعةً للخارج كزجاج يتشظى ويتهشم.

ليس فقط الطبيعة والوراثة أو التنشئة والبيئة، بل شيء آخر يمكن أن يسبب غرابة الأطوار والشخصية، والفوبيا. لماذا يولد بعض الأطفال هادئين وآخرون لا يمكن تعزيتهم وتخفيف بكائهم. لماذا يملك بعض الأطفال انجذابات وقدرات فطرية. لماذا يشعر آخرون أنه كان ينبغي أن يكونوا من الجنس الآخر. لماذا كان تشانغ، التوأم السيامي سريع الغضب الذي كان يحب الشرب والمجون، مختلفًا جدًا في طبيعته عن

شقيقه إنغ السهل والمعتدل الذي لم يذق الخمر قط. بالتأكيد فإن علم الوراثة والعوامل البيئية في تلك الحالة كانا متطابقين. العيوب الخلقية بالطبع—فأصابع الفتاة المشوهة قدمت رابطًا واضحًا وجليًا بين هذه الحياة وحياة أخرى، وقد تفسر حتى—

أوين.

جلس أندرسون، وكان حلقه جافًا للغاية؛ لفحت الشمس جلد أنفه ووجنتيه وعنقه، علم أنه سيعاني كثيرًا لاحقًا. عندما أغمض عينيه تمكن من رؤية أشكال بلا معالم تتحرك بسرعة عبر مساحة شاسعة برتقالية شديدة السطوع. وتجمعت الأشكال والتحمت لتشكل وجهًا لم يكن وجهًا، وسمح لنفسه برؤية طفله مجددًا.

كانت شيلا قد اتهمته بالعجز عن حب أوين خلال حياته القصيرة والمعذبة، لأنه لم يملك القدرة على إجبار نفسه على ضمه وتمسيده كما كانت تفعل. صحيح أنه لم يتمكن من النظر إلى ابنه، ولكن ذلك كان لأنه يحبه وكان عاجزًا وقليل الحيلة في مساعدته؛ كان معذبًا بجهله. لماذا يجب أن يحدث هذا لهذا الطفل، بهذه الطريقة؟

في المستشفى قبل أن تستيقظ شيلا كان قد مسد اليد الصغيرة لطفله غير المكتمل والمشوه، ونظر في ذلك الوجه البريء والمروع حتى لم يعد بإمكانه النظر إليه لفترة أطول، أو في أي وقت مضى. مشى خارجًا مباشرة من وحدة العناية المركزة لحديثي الولادة وأسفل الممر إلى جناح الولادة، إلى النافذة التي ينام خلفها الأطفال الآخرون ويتحركون، وأجسادهم وردية زاهية بالصحة والعافية.

لماذا؟ وبلا سبب واضح، يخرج طفل بالطريقة التي خرج بها أوين، ويخرج آخرون بشكل مثالي ومعافى. أي منطق كان في ذلك وأي علم؟

هل يمكن أن يكون حقًا مجرد حظ سيئ، ودورة مشؤومة في روليت الكروموسومات؟ لماذا وُلد هذا الطفل بهذه الطريقة، في حين لا توجد مؤشرات وراثية ولا عوامل بيئية على الإطلاق؟

ما لم يكن.

فتح عينيه.

كان بوبي أنغسلي يراقبه، وابتسامة خافتة تلعب عند زوايا شفتيه.

قال أنغسلي بهدوء. "كنت أتتبع هذه الظاهرة في نيجيريا، وفي تركيا، وألاسكا، ولبنان. ظننت أنني كنت أمزح وألعب؛ حسنًا، كنت ألعب وأمرح، ولكنني كنت أبحث أيضًا، وكنت أستمع بإنصات."

"وسمعت شيئًا؟"

"معظمها همسات؛ قصص تروى في وقت متأخر من الليل مع كؤوس الراكي أو خمر القرية المحلي مع علماء الأنثروبولوجيا الزائرين... وبعض النساء جميلات وجذابات بشكل مدهش، كما تعلم، بطريقة مثيرة تشبه مارغريت ميد."

"صحيح." قلب أندرسون عينيه ونقل قدميه المبللتين إلى أشعة الشمس.

قال أنغسلي بسرعة، وجديته جعلت أندرسون يتطلع إليه. "لا، استمع؛ هل تعلم أن هناك قرية لشعب الإيغبو في نيجيريا يبترون فيها الخنصر لطفل متوفى، طالبين منه العودة فقط إذا كان سيعيش حياة أطول معهم في المرة القادمة؟ وعندما يرزقون بطفل لاحقًا ويكون لديه خنصر مشوه، وهو أمر يبدو أنه يحدث فعليًا في بعض الأحيان، فإنهم يبتهجون. شعب التلينغيت–تلينغيت ألاسكا–يظهر موتاهم أو المحتضرون لهم في الأحلام، مخبرين إياهم بأي جسد قريبة أنثى

سيولدون من خلاله. لا تجعلني أبدأ بالحديث عن الدروز..." وحشر سيجارته بين شفتيه، وكأنما يكبح نفسه جسديًا عن الاستمرار، ثم أخرجها مجددًا. "انظر، أنا أعلم، يبدو الأمر كفولكلور وقصص شعبية، ولكن هناك حالات."

"حالات؟" حاول أندرسون سبر وفهم ما كان يخبر به أنغسلي؛ فثمة طبقات تحت طبقات. "حالات يمكن التحقق منها؟"

"حسنًا، أنا لست تشارلز داروين، ولست عالمًا جيدًا جدًا من أي نوع كما اتضح؛ فأنا أفتقر إلى... الصرامة العلمية."

حدق أندرسون به.

"لم تحضرني إلى هنا من أجل الفتاة فقط."

نظر أنغسلي إليه ببساطة. "لا." وعيناه تتوهجان بالحمية والاتقاد.

داروا حول منعطف في النهر، وظهرت المدينة أمامهم كهدية: الأبراج البوذية الذهبية للقصر الملكي، وأسطح المعابد اللامعة باللونين الأحمر والأخضر.

إذا تمكنوا من فعل ذلك... وإذا كانت لديهم حالات يمكن التحقق منها... فستكون لديهم القدرة على فعل ما لم يفعله أحد بعد—لا ويليام جيمس، ولا جون إدغار كوفر في ستانفورد، ولا ج. ب. راين في ديوك، الذي أغلق على نفسه في المختبر طوال تلك السنوات مع بطاقات الإدراك الفوق حسي الخاصة به. سيكونون قد عثروا على دليل على بقاء واستمرار الوعي بعد الموت.

قال أندرسون ببطء، وكان يستنتج الأمر ويفهمه وهو يتحدث. "سنحتاج إلى العودة غدًا، في الصباح الباكر؛ وسنأخذ الفتاة ونحضرها

إلى فيشيت، لنرى ما يمكنها التعرف عليه. سألتقي بك في الردهة في الخامسة والنصف."
ضحك أنغسلي ضحكة مكتومة وشتم بخفة. "حسنًا."
كانت هناك فترة توقف، وبالكاد تمكن أندرسون من التنفس. تمتم أندرسون. "بوبي، هل توجد حقًا حالات أخرى مثل هذه الحالة؟"
ابتسم أنغسلي، واستنشق من سيجارته وأطلق سحابة طويلة من الدخان.
كان الضوء على الأبراج البوذية معميًا في الشمس الغاربة، ولكن أندرسون لم يتمكن من التوقف عن النظر، وبالكاد أطاق الانتظار حتى الصباح؛ فثمة الكثير من العمل ليفعل.
⩔⩔⩔
"إعادة احتساب المسار."
كم مرة قال جهاز تحديد المواقع (GPS) ذلك؟ أين كان؟
لقد اتخذ منعطفًا خاطئًا في مكان ما.
انحرف أندرسون إلى جانب الطريق الموحل ونزل من السيارة. اندفعت الشاحنات والسيارات مسرعة بجانبه على الطريق السريع، الذي كان ينضح برائحة الأسفلت والعوادم وشعور زائف بالأهمية: أمريكا. تطلع حوله بحثًا عن لافتات الطريق؛ وآخر ما لاحظه أنه كان في مكان ما خارج فيلادلفيا. فإلى أي مدى ضل طريقه وابتعد؟
حاول طرد مشاهد وأصوات تايلاند من رأسه، وشعر بوجود صديقه بالقرب منه، وكأنه غادر جانبه للتو.
صديقه المقرب، الذي رحل الآن؛ ورحل كل شيء: المعهد، ذلك الصرح الجميل الذي بناه هو وأنغسلي وبأموال أنغسلي. أي حماس ومتعة

حظيا بها في بنائه، عندما كان المجال ملكهما للاكتشاف وتدفقت الحالات واحدة تلو الأخرى، مرسلةً إياهما: إلى تايلاند، وسريلانكا، ولبنان، والهند، وكل حالة كانت مقنعة وجديدة. حظيا برحلة جيدة وممتعة في ذلك أيضًا، حتى توفي أنغسلي فجأة، بعد ستة أشهر من شيلا، وهو يسير صاعدًا تلًا في ملكيته بفرجينيا؛ إذ تشنج قلبه وتوقف، هكذا ببساطة.

في الجنازة (الكاثوليكية والتقليدية—وكان ينبغي لأندرسون أن يعلم حينها أن الأرملة ستستنزف الأموال ببطء من المؤسسة كاستنزاف الدم في عروق زوجها) كانت هناك علامة تعجب واندهاش مطبوعة على وجه أنغسلي لم يتمكن حتى الحانوتي ومخرج الجنازات من محوها. فكر حينها وهو ينظر إلى ذلك الجسد المألوف المحشو بالفورمالديهايد والبودرة وأحمر الخدود على وجنتيه، والمتجه إلى ضريح العائلة: *أوه يا صديقي، ليس هذا الدفن الذي تخيلته، وعظامك القديمة عارية على جرف وتلمع في الشمس.*

أوه يا صديقي، لقد سبقتني إلى هناك؛ والآن أنت تعلم، وأنا لا أعلم.

مات أنغسلي، وأُغلق المعهد، وشُحنت ملفاته بعيدًا. لم يتبق سوى شيء واحد ليفعله، حالة واحدة أخرى فقط ليحقق فيها؛ وكل ما كان عليه فعله هو إنهاؤها وإتمامها.

16

كانت مدينة أشفيو بولاية فرجينيا تثير توتر جاني. لقد كانت ضاحية من ضواحي العاصمة واشنطن، غاصة بتلك الأنواع من منازل ماكماينشنز الشبيهة بمنازل زوجات ستيبفورد والتي طالما ازدرتها: بيوت تفتقر لأي إحساس بالتاريخ، تلتهم كل إنش من المساحة المخصصة لها بمرائب ضخمة متباعدة. مع ذلك... كان عليها أن تعترف بأن هناك شيئًا قد يكون جاذبًا للطفل في هذه المنازل الجديدة الهائلة الحجم، والباحات الأمامية الفسيحة ذات الخضرة الزاهية، وأشجار البلوط التي تصطف في الشوارع بنظام مفرط، وتتشابك أغصانها الخضراء فوق الطريق كالأقواس.

كانوا قد عبروا الشارع الرئيسي بالسيارة بضع مرات. توقفوا بجانب ثلاث مدارس مختلفة (يبدو أن إحداها كانت مدرسة *تومي موران*). كانت كل واحدة منها جذابة بطريقتها الخاصة، بملعب كرتها الفسيح وحديقتها الترفيهية.

كان أندرسون يستمر في السؤال. "هل تلمح أي شيء مألوف؟"، لكن نوح لم يقل شيئًا. بدا مذهولًا، مشتت الذهن، يراقب المباني من المقعد الخلفي، ويتمتم لنفسه بين الحين والآخر بصوت نغمي رتيب. "أش-فيو، أش-فيو."

قالت جاني لأندرسون. "لقد مررنا من هنا بالفعل."

كان قد أقلّهما من المحطة وتوجه مباشرة إلى وسط المدينة.

"مرة واحدة أخرى. سنسلك طريقًا مختلفًا."

أدار مقود السيارة وعادوا أدراجهم عبر الشارع الرئيسي للمدينة. كانت جاني قد حفظته عن ظهر قلب الآن: ستاربكس، مطعم بيتزا، كنيسة، كنيسة أخرى، بنك، محطة وقود، متجر خردوات، مبنى البلدية، إدارة الإطفاء؛ معالم تنزلق أمام أعينهم مرارًا وتكرارًا مثل بلدة في حلم.

لمحت أندرسون بطرف عينها. كان يقود بتصلب، وفكه مشدود بعزم عنيد. كان يكبرها بأربع وعشرين سنة، ويكبر نوح بأربع وستين سنة، ولم تكن تبدو عليه أي علامة من علامات الإرهاق. "لست متأكدة من أنه يتعرف على أي شيء."

عقّب قائلًا. "هذا ليس أمرًا غير مألوف. بعض الأطفال يرتبطون بالمنزل الفعلي أكثر من البلدة. الناس يتذكرون أشياء مختلفة."

⋙

أخيرًا وصل إلى بوابة. تبادل أندرسون الحديث مع حارس فحص قائمة في يده ثم أشار لهم بالعبور. تقدموا ببطء في شارع تحفه منازل أكثر حداثة وضخامة. كان هناك ملعب جولف يتلألأ في التلال الممتدة خلفها. توقف أندرسون أمام منزل قرميدي ضخم ذكّر جاني بامرأة عادية المظهر مثقلة بالكثير من الإكسسوارات. كانت الإشارة الوحيدة للحياة البشرية هي شاحنة قلابة بلاستيكية بجانب الممر الحجري المؤدي إلى الباب الأمامي، وكانت عجلاتها في الهواء مثل خنفساء مقلوبة على ظهرها.

جلسوا في السيارة صامتين. راقبت جاني ابنها في مرآة الرؤية الخلفية. كانت تعابير وجهه غير قابلة للقراءة بالنسبة لها.

قال أندرسون أخيرًا. "حسنًا، لقد وصلنا."

قالت جاني فجأة. "إنهم أثرياء. تومي كان ثريًا." وشعرت بالكلمة كأنها صفعة.
أظهر أندرسون ابتسامة متوترة. "يبدو الأمر كذلك."
حسنًا، لا عجب أن نوح أراد العودة إلى هنا. فكرت جاني. *من ذا الذي لا يريد ذلك؟* فماذا لو كان تصميم المنزل سيئًا—من يمكنه أن يسعد بشقة صغيرة بغرفتي نوم في طابق شبه أرضي عندما يكون قد حظي بهذا؟
التفت أندرسون نحو نوح في المقعد الخلفي، ولانت ملامح وجهه ونبرة صوته. "هل يبدو لك أي شيء مألوفًا هنا يا نوح؟"
نظر إليه نوح. وبدا غائبًا عن الوعي قليلًا. "لا أعرف."
أومأ أندرسون برأسه. "لماذا لا ندخل ونكتشف ذلك؟"
بدا أن نوح يستجمع قواه. فك حزام مقعد السيارة بنفسه واندفع خارجًا وصعد الممر الحجري.
فتح الباب رجل يرتدي قميص بولو وبنطالًا قطنيًا أنيقًا. كان وجهه متوردًا ينم عن ضيق، وشعره الأحمر منسدلًا بلا حيوية، ونظر إليهم جميعًا بوجوم يشبه وجوم شخص مصاب بالسكري يواجه فرقة من فتيات الكشافة يحملن كعكًا. حاولت جاني ألا تحدق فيه أو في نوح، الذي كان يتفحص حذاء الرجل الصيفي. كبحت نفسها بصعوبة عن قول. *"عزيزي، هل هذا والدك من حياتك الأخرى؟"* ثم أوشكت أن تغرق في الضحك من فرط التوتر.
حدجهم الرجل بنظرة غاضبة، وقال أخيرًا وهو يتراجع إلى الخلف ممسكًا بالباب مواربًا، مما اضطرهم إلى إمالة أجسادهم للدخول. "أظن أنه ينبغي عليكم جميعًا الدخول." كانت الردهة بحجم غرفة

معيشتها في بروكلين. تابع قائلًا. "فقط لكي تعلموا، أنا لست موافقًا على أي من هذا. لذا إذا كنتم تتوقعون أي تعويض، دعوني أخبركم—"

قاطعه أندرسون بحزم. "نحن لا نريد مفاوضات." وأدركت جاني أنه لا بد أن يكون متوترًا هو الآخر؛ فقد كان يقبض على حقيبته بقوة في يده.

ضيق الرجل عينيه. "عذرًا؟"

"قصدت—تعويضًا."

"صحيح." وأشار لهم بالدخول إلى غرفة استقبال فسيحة. حاولت جاني أن تسترخي وتتنفس وحسب؛ كانت هناك رائحة شيء حلو يُخبز في الأجواء، وثمة رائحة حمضية مطهرة تحتها علقت في صدرها. ومن مكان ما في عمق المنزل، كان دوي مكنسة كهربائية يطن.

كانت الغرفة مؤثثة بطريقة أنيقة ومحايدة، بأثاث فاخر بلون البيج، ولوحات مؤطرة لزهور على الجدران. من خلال الأبواب الزجاجية المنزلقة في خلفية الغرفة، استطاعت أن تلمح مسبحًا كبيرًا مغطى بملابس قماشية رمادية ثقيلة. كان يبدو كأنه قشرة جرح تيبست في منتصف الباحة الخلفية.

"لقد وصلتم!" ابتسمت لهم امرأة شقراء ضئيلة البنية بدفء من شرفة تطل على الغرفة. كانت تسند على وركها طفلًا رضيعًا ممتلئ الجسم يبلغ من العمر نحو عام، وكأنه مصنوع من الهواء. كانت جميلة، بوجه مستدير وملامح ناعمة رقيقة.

انضمت المرأة إلى الثلاثة الواقفين بارتباك أمام المدفأة. وابتسمت بلطف لجاني وأندرسون، كما لو كانوا قد جاءوا لتناول الشاي، وصافحت كل منهما بدورها بيدها الناعمة. كان شعرها ملمومًا

بأناقة عند مؤخرة عنقها بمشبك شعر من الكلوازوني، والذي لاحظت جاني أنه يتطابق تمامًا مع بلوزتها الحريرية ذات اللون الأصفر الكناري.

قالت. "شكرًا لقطعكم كل هذه المسافة. أنا ميليسا."

التفتت ميليسا إلى نوح ومدت يدها إليه أيضًا. فصافحها بوقار. كانت الغرفة بأكملها تراقبهم دون أن تجرؤ على التنفس؛ الزوج المتشكك عند مدخل الباب، والبالغان القلقان. حك نوح قدميه بخجل بالسجادة، ولاحظت جاني بأسف أن حذاءه الرياضي الأيسر بدأ يثقب عند مقدمة الإصبع. شيء آخر لم تتمكن من تداركه وإصلاحه.

ابتسمت ميليسا بعذوبة لنوح وقالت بنبرة صوت خفيفة وعالية تشبه نبرة معلمات الروضة. "هل تحب كعك الشوفان بالزبيب؟"

أومأ نوح برأسه وهو ينظر إليها بعينين متسعتين.

"كنت أظن ذلك." قالت وعدلت جلوس الرضيع وهي تهزه في ذراعيها. "ستكون جاهزة قريبًا. لقد صنعت عصير ليمون بالنعناع أيضًا، إذا كنتم ترغبون في بعض منه."

كانت جذابة للغاية بشعرها الأشقر الساطع وابتسامتها العريضة... مثل نوح. أي غريب سيظن أنها والدة الصبي. كانت من نوع الأمهات اللواتي تختارينهن من دليل التسوق: *أريد تلك الأم*. أي شخص سيرغب في العودة إلى هذا المنزل الكبير وهذه الأم ذات الوجه العذب وصانعة الكعك. شبكت جاني ذراعيها. كان جلد الجزء الخلفي من ذراعيها العلويين محببًا قليلًا، وهي حالة طبية لم تختفِ تمامًا قط. كان نوح يعاني من المشكلة نفسها. أرادت أن تمد يدها وتتحسس تلك الخشونة المألوفة على ذراعيه. فكرت: *إنه ابني، هذا هو الدليل*.

رجتهم ميليسا. "تفضلوا بالجلوس، ألا تودون ذلك؟" لتهبط أجسادهم دفعة واحدة على الأريكة المنحنية. وضعت ميليسا الرضيع على الأرض، وراقبوه وهو يحبو حول الأثاث بقدميه الممتلئتين المترنحتين. التصق نوح بجاني، منكسرًا، ورأسه منحنٍ، وعيناه لا يمكن قراءة ما فيهما تحت جفنين شبه مغلقين. حاولت أن تتشرب دفء جسده الملتصق بجسدها.

فتح أندرسون حقيبته وأخرج ورقة. "لدي قائمة بالعبارات التي قالها نوح، إذا كنتم لا تمانعون في مراجعتها لمعرفة ما يتطابق منها—"

لمحت جاني الصفحة:

نوح زيمرمان:
— معرفة غير عادية بالزواحف
— يمكنه تسجيل نقاط مباراة بيسبول
— يحب فريق البيسبول واشنطن ناشونالز
— يتحدث عن شخص يدعى بولي...

التقطتها ميليسا ونظرت إليها، رامشة بعينيها بضع مرات.

"يجب أن أعترف—كنت متشككة عندما أرسلت لي بريدًا إلكترونيًا. ما زلت متشككة. لكن هناك الكثير من... التشابهات... وحسنًا، نحن نحاول أن نبقي عقولنا منفتحة، أليس كذلك يا جون؟" لم يقل جون شيئًا. وتابعت. "أو على الأقل أنا أفعل ذلك. لقد قمت بالكثير من مراجعة الذات منذ..." تلاشت نبرة صوتها. وشعرت جاني بعينيها تتحركان تلقائيًا نحو النافذة، إلى المسبح المغطى. عندما نظرت إلى ميليسا مجددًا، كانت المرأة تحدق فيها بعينين حادتين ومغرورقتين

بالدموع. قالت. "أنا سعيدة لأنكم هنا." مسحت دمعة هربت من عينها وقفزت واقفة على قدميها. "مهلًا، لمَ لا أذهب لإحضار الكعك؟ أبقِ عينك على تشارلي، هلا فعلت ذلك يا عزيزي؟" أومأ جون برأسه باقتضاب.

قال أندرسون فجأة وهو يقف بدوره. "معذرة، هل يمكنني استخدام الـ—"

أومأ جون برأسه باتجاه الرواق. "من ذلك الاتجاه." استأذن أندرسون مجددًا، وغرقت الغرفة في الصمت. نظر نوح إلى حذائه الرياضي. راقبت جاني الرضيع وهو يحاول عبور الفجوة الصعبة بين الأريكة والكرسي ذي الذراعين. خطا الرضيع خطوة، وترنح، ثم سقط. وبدأ في البكاء.

مشى جون نحو الصغير والتقطه. "تعال إلى هنا الآن،" قالها وهو يهزه بطريقة آلية. "تعال إلى هنا الآن."

⸙⸙⸙

مشى أندرسون في الرواق، وتجاوز بابًا شبه مفتوح يكشف عن غرفة باللون الأصفر الباستيل مليئة بالحيوانات المحشوة وسرير أطفال، وبابًا آخر مغلقًا، عُلّقت عليه لافتة تقول *ممنوع الدخول* بأحرف طباشيرية طفولية. كانت الأحرف تبدو مبهجة، كما لو كانوا يمزحون فقط في الواقع. تردد، والتفت يمنة ويسرة، ثم دفعه قليلًا ليفتحه.

كانت غرفة صبي. بدت وكأنها استُخدمت بالأمس، وليس قبل خمس سنوات ونصف. غطاء السرير، المطرز بكرات ومضارب بيسبول، كان مدسوسًا بعناية تحت الوسادة؛ وجوائز البيسبول وكرة القدم على خزانة الأدراج تلمع بكل بهائها الذهبي الزائف، وكأن الفوز بها قد تم

للتو؛ كان هناك صندوق يحوي قفازات بيسبول وآخر يحوي كرات، أسفل راية فريق ناشونالز وملصق مؤطر لأنواع مختلفة من الثعابين. في الزاوية استقرت حقيبة ظهر زرقاء لطفل، مطرزة بالأحرف الأولى (TEM). بدت وكأنها لا تزال مليئة بالكتب المدرسية. وعلى رف الكتب في زاوية الغرفة، كانت هناك حفنة من كتب هاري بوتر، إلى جانب موسوعة بيسبول وثلاثة كتب مرجعية عن الثعابين.

أغلق أندرسون الباب وأسرع إلى الحمام.

في الداخل، أقفل الباب، ورش الماء على وجنتيه، ونظر بفزع إلى وجهه الرمادي الشاحب في المرآة.

لم يكونوا هم.

لقد ساوره الشك في ذلك منذ لحظة دخولهم المنزل، ولكنه أصبح متأكدًا الآن.

كان تشارلي رضيعًا—أصغر بكثير من أن يكون حيًا خلال فترة حياة الشخصية السابقة—لم تكن هناك طريقة يمكن لنوح أن يتذكره بها. كان تومي يحب الثعابين، لا السحالي. وبدا أن نوح لا يتعرف على أي من هذا. إنها العائلة الخاطئة.

كان الخطأ خطأه بالطبع. لم تكن قدراته العقلية تعمل بكامل طاقتها. لم يستطع العثور على كلمة سحالي فكتب زواحف بدلًا منها. لم يسأل عن عمر الأخ الأصغر، تشارلي. أخطاء صغيرة، حاسمة، وغير معهودة قادته في الاتجاه الخاطئ، مسببة عواقب كارثية.

لقد كان متلهفًا أكثر من اللازم. كانت الحركة إلى الأمام ممتعة للغاية بالنسبة له، لدرجة أنه كاد ينسى كل ما كان يحدث له في رغبته بالتحرك والاستمرار في التحرك.

مرر يده عبر شعره. القضية انتهت. وهو نفسه قد انتهى. لقد اهتز إيمانه بالكلمات أخيرًا، ومعها كل ما تبقى من ثقة في قدراته المهنية.

ما العمل الآن؟ لقد أخطأ، والآن سيذهب إلى غرفة المعيشة ويصحح الأمر. ثم يعود إلى المنزل. يعود ويستأنف عمله؟ لا استئناف؛ لقد قضي الأمر. كان ذلك واضحًا. نهاية تليق بمسيرة مهنية طويلة وذليلة. آه، لكنه عمل بجد من أجل أن يظل مغمورًا.

استند إلى الحوض، يشحذ نفسه لمواجهة ما لا مفر منه.

17

استطاعت جاني شم رائحة الكعك من أقصى الغرفة. هتفت ميليسا وهي ترفع الطبق عاليًا مثل غلاف كتاب عن أصول الضيافة. "أتمنى أن تحبوه دافئًا!" لقد خرجت من المطبخ مبتهجة وتبدو أكثر نضارة بشكل ما، كانت وجنتاها متوردتين وشفتاها مدهونتين حديثًا بأحمر شفاه وردي. ناولت كعكة لنوح ووضعت بقية الطبق على طاولة جانبية. حجبت الرائحة الزكية رائحة الحمضيات والأمونيا الناتجة عن مواد التنظيف، ورائحة نوح الحامضة التي تسافر معه أينما ذهب. وتساءلت جاني إن كانت المرأة الأخرى قد لاحظت ذلك.

نظر جون إلى ميليسا من فوق رأس الرضيع وقال ممتعضًا. "حفاض تشارلي مبلل."

ضحكت ميليسا ضحكة حادة. "حسنًا، غيّره إذن." التقت أعين الزوجين، وتولّد لدى جاني انطباع واضح بأن خلافًا كبيرًا أو أكثر قد سبق هذه الزيارة. تنهد جون؛ وغادر الأب والابن الغرفة.

ظل نوح جالسًا بلا حراك على الأريكة، ويداه بين ساقيه، وفمه مليء بالكعك. لم يرفع رأسه.

"إذًا." التفتت ميليسا إلى جاني بابتسامة مشرقة. "سمعت أن نوح معجب بفريق ناشونالز إلى حد ما."

"نعم."

"من هو لاعبك المفضل يا نوح؟"

قال نوح وهو ينظر إلى السجادة، وفمه ممتلئ. "ذا زيمرنيتور."

أضافت جاني. "إنه يحب رايان زيمرمان. بسبب الاسم، بالطبع."

لكن عيني ميليسا اتسعتا. "ولكنه كان المفضل لدى تومي أيضًا!"
عند سماع الاسم، رفع نوح رأسه فجأة إلى الأعلى. كان من المستحيل عدم ملاحظة ذلك.
شحب وجه ميليسا. ونظرت إلى نوح. لعقت شفتيها بتوتر. "تـ-تومي؟ هل أنت تومي؟" قالت.
أومأ برأسه مترددًا.
"يا إلهي." وضعت يدها على حلقها. بدت ابتسامتها الوردية وكأنها تطفو على وجهها، منفصلة عنه، كما لو لم تكن لها صلة بعينيها الزرقاوين الدامعتين واللتين ترمشان بسرعة.
هل كانت جاني تحلم؟ هل كان هذا يحدث حقًا؟
"تومي. تعال إلى هنا." كانت الأم الأخرى تقول. كانت ذراعاها البيضاوتان مفتوحتين على مصراعيهما. "تعال إلى ماما."
حدق فيها نوح بذهول.
قطعت المرأة المسافة الصغيرة بينهما وسحبته من الكرسي، ورفعت جسده في ذراعيها مثل دمية قماشية.
لكن هذا لا يمكن أن يكون. فكرت جاني. كان يعاني من الطفح الجلدي نفسه على ذراعيه الذي تعاني منه هي على ذراعيها. لقد احتضنته بعد لحظات من ولادته على صدرها ورتضع فورًا. "مثل محترف قديم"، كما قالت الممرضة بفخر.
بدأت ميليسا تبكي في شعر نوح. "آه، يا طفلي الصغير، أنا آسفة جدًا."
"أوه!" قال نوح. كان جبينه يتحول إلى اللون الوردي فوق ذراعيها، وخرجت الكلمة منه مثل زقزقة ضعيفة.

عندما سُحب من جسد جاني، رفعه الطبيب عاليًا لتراه. كان لا يزال متصلًا بالحبل السري، ملطخًا بالدم وبقايا الطلاء الجبني الأبيض. كان وجهه شديد الحمرة، متغضنًا، وجميلًا.

قالت ميليسا بصوت متحشرج. "أنا آسفة جدًا، جدًا يا حبيبي. لقد ارتكبت خطأً." بدأت الماسكارا تسيل على وجهها. "أعلم أنني أفسدت الأمر. أنا دائمًا أفحص المزلاج. ظننت أنني فحصته. لقد أفسدت الأمر."

بالكاد استطاعت جاني رؤية الجزء العلوي من رأس نوح. لم تكن قادرة على رؤية وجهه.

زقزق مجددًا. "أوه!... أوه!"

"لقد تركت المزلاج مفتوحًا! أنا لا أفعل ذلك أبدًا. آه، لقد أفسدت الأمر." قبضت على ذراعيه اللتين استقرتا متصلبتين على جانبي جسده، وتبقع جلده تحت أصابعها، ليصبح ساطعًا مثل قميصه الأحمر الخاص بفريق ناشونالز. "ولكن لماذا غرقت يا حبيبي؟ لماذا؟ لقد تلقيت دروسًا في السباحة!"

"أوه!"

إلا أنه لم يكن يقول "أوه"، أدركت جاني ذلك فجأة. كان يقول: "لا."

"لا." قال نوح مجددًا، واشرأب بعنقه ليحرر رأسه، واستطاعت أن ترى أن عينيه كانت مغمضتين بإحكام. تلوى جسده لكنه لم يتمكن من الانفلات من عناق المرأة الأخرى. "لا، لا، لا!"

كانت ميليسا تقول وهي تلهث. "لم أكن أعلم أنك ستذهب إلى المسبح. لم أكن أعلم أبدًا أنك ستفعل ذلك. لكنك كنت تجيد السباحة! كنت تجيد السباحة. يا إلهي، لقد أفسدت الأمر يا تومي.

ماما أفسدت الأمر!" مدت يدها لتمسح عينيها، فانتهز نوح الفرصة ليفلت من قبضتها.
تراجع إلى الخلف عبر غرفة المعيشة. كان يرتجف بعنف لدرجة أن أسنانه كانت تصطك. تحركت جاني نحوه. "نوح، هل أنت بخير؟"
مدت ميليسا ذراعيها البيضاوين الناعمتين. "تومي."
نظر من امرأة إلى أخرى، وصرخ. "اذهبي بعيدًا! اذهبي بعيدًا!"
تحرك مبتعدًا عنهما قدر المستطاع، فالتطم بالطاولة الجانبية وقلبها، ليتناثر الكعك على الأرض. التفت إلى جاني صائحًا. "أين ماما؟ لقد قلتِ إنني سأرى ماما! لقد قلتِ!"
"نوح—عزيزي، انظر—"
لكنه أغمض عينيه ووضع يديه على أذنيه وبدأ يطنن لنفسه بصوت عالٍ.
اندفع أندرسون إلى الغرفة، يتبعه جون، حاملًا الرضيع الذي كان يرتدي حفاضًا فقط. استوعب جون المشهد، ونظر أولًا إلى نوح، ثم إلى زوجته، والدموع تسيل كخطوط الإطارات على جانبي وجهها.
"ماذا فعلتم؟" قال.

⸙⸙⸙

في المطبخ، جلس نوح عند الطاولة وعيناه مغمضتان ويداه على أذنيه. كان لا يزال يطنن. رفض النظر إلى جاني، وعندما وضعت يدها على كتفه تلوى مبتعدًا. استقرت صينية أخرى من الكعك على الطاولة الرخامية اللامعة. تغلغلت رائحتها في الغرفة، قوية ومثيرة للغثيان، مثل خطأ فات أوان إصلاحه.
تنحنح أندرسون. وبالكاد استطاعت جاني النظر إليه.

قال وكأنه يخاطبهم جميعًا أو لا يخاطب أحدًا. "لقد كان خطأً. يبدو أنها الشخصية السابقة الخاطئة." لم يجبه أحد. وتابع. "دعوني أشرح..." لكنه لم يكمل. بدا وكأنه فقد اتجاهاته، إن كان قد امتلكها يومًا في الأساس.

كانت ميليسا منهارة عند الطرف الآخر من الطاولة. كانت قد عضت شفتها وهي تنزف الآن. كانت هناك بقعة دم على ياقة بلوزتها الصفراء، ولطخة على أسنانها البيضاء. تمتمت. "ظننت أنني سأحصل على بعض الإجابات." واستطاعت جاني رؤية خصلة رمادية تختلط بخصلات شعرها الأشقر المنسدل.

كان زوجها يمسك بعبوة من المناديل المبللة للأطفال وينظف وجهها، داسًا الرضيع تحت ذراعه مثل كرة قدم ضخمة تتلوى.

قال جون. "لا توجد إجابات. لقد كان حادثًا."

مسح بلطف العلامات السوداء من جانبي وجهها وذقنها. استسلمت له، ويداها تتدليان بارتخاء في حجرها. مع إزالته للمكياج، بدت أصغر سنًا، مثل طفلة.

أنّت ميليسا. "أنت تقول ذلك دائمًا. ولكن هذا خطئي."

"عامل المسبح هو من ترك المزلاج مفتوحًا." بدأ الرضيع بالبكاء العالي. "أنتِ تعلمين هذا. كان يمكن أن يحدث لأي شخص. لقد كانت مصادفة بحتة."

"ولكن دروس السباحة—"

"لم يكن سباحًا ماهرًا."

"ولكن لو كنت قد فحصت المزلاج—"

"حان الوقت لإنهاء هذا يا ميل."

حان الوقت لإنهاء هذا.

أيقظت الكلمات جاني أخيرًا من غيبوبتها. *هذه المرأة فقدت ابنها.* فكرت. لقد فقدت ابنها. تركت الكلمات تغلغل في أعماقها. رأت، لم يكن بوسعها إلا أن ترى، طفلًا أشقرًا عذب المظهر يصارع في قاع المسبح. جسده الصغير الهامد يطفو في تلك المياه الزرقاء الكريستالية. طفل ميت: كل الأشياء السيئة تنبع من هذه الحقيقة، أليس كذلك؟ من بين كل الفظائع التي يمكن أن تحدث، كانت هذه هي الأسوأ. ثم جاءوا إلى هنا وفعلوا هذا بها، بهذه المرأة التي عانت بالفعل ما لا يمكن تصوره: لقد أحيوا آمالها ثم حطموها بمرارة، وسواء كانوا يقصدون ذلك أم لا، لم يكن هذا هو المهم. لقد فعلت هذا الأمر؛ ولم يكن بإمكانها لوم نوح. أندرسون اتبع إملاءات أخلاقياته الخاصة بطريقة لا يمكنها استيعابها حقًا. لكنها كانت أمًا وكان ينبغي لها أن تكون أكثر وعيًا، وبدلًا من ذلك كانت قاسية مع هذه المرأة. كان ما فعلَته أمرًا لا يغتفر، وكل ذلك لأنها لم تستطع مواجهة الحقيقة. وما هي الحقيقة؟

أن تومي موران قد مات ولن يعود.

وأن قضية أندرسون قد انتهت.

وأن نوح مريض.

حان الوقت لإنهاء هذا.

كان الرضيع لا يزال يبكي بكاءً عاليًا. "ميل،" كان الزوج يمسد رأسها كمن يهدئ جروًا صغيرًا. "تشارلي جائع. إنه بحاجة إليكِ."

أخذت ميليسا الرضيع من زوجها بحركة آلية. رفعت قميصها وحمالة صدرها بحركة سريعة ماهرة، فظهر ثديها المستدير، وحلمته الوردية

الكبيرة بدت غير متوقعة كمركبة فضائية. شعرت جاني بأندرسون يشيح بنظره بعيدًا، لكنها لم تستطع إبعاد عينيها. استقر الرضيع الجائع على ثدي ميليسا، وبعد بضع لحظات اتخذ وجهها تعبيرًا أكثر هدوءًا.

تسلل الخزي إلى عنق جاني. لقد جعلت نوح يمر بهذا أيضًا، مما زاد من ارتباكه دون سبب وجيه. فقالت لميليسا. "أنا آسفة."

أغلقت ميليسا عينيها، مركزة على ما يحدث في جسدها، وتذكرت جاني ذلك الإحساس بالوخز عندما يصبح الثديان ثقيلين وحيين بتدفق الحليب، والجذب عند الحلمة بأسنان صغيرة حادة، ثم التنهيدة العميقة الداخلية عندما يمتص الطفل الحليب في فمه.

قال جون، رغم أن الأمر لم يكن بحاجة إلى قول. "ينبغي عليكم المغادرة الآن." قادهم بصمت عبر المنزل، وجاني توجّه نوح بكلتا يديها على ظهره، بينما يداه لا تزالان تغطيان أذنيه، وأندرسون يتبعهم من الخلف. فتح جون الباب الأمامي. ورفض النظر إليهم.

تعثر الثلاثة في هبوط الدرج وخرجوا إلى الشارع الجميل. تمايلت الأشجار في النسمات؛ وتلألأت ملاعب الجولف في الأفق. مر صبي على دراجة من جانبهم على الرصيف بسرعة خاطفة، مركزًا بشدة، وكاد يصطدم بهم. راقبته جاني وهو يتابع طريقه في الشارع، وإطارات دراجته تترنح.

ᯓᯓᯓ

قادوا السيارة مبتعدين في صمت. جلست جاني في الخلف بجانب مقعد سيارة نوح. رفض نوح فتح عينيه أو رفع يديه عن أذنيه. بعد فترة، سقطت يداه على جانبيه وأدركت أنه قد نام.

نوح مريض.

جرّبت الكلمات في رأسها. واستقرت هناك بلا معنى، مثل قطعة بلوتونيوم بريئة المظهر.

انعطف أندرسون في شارع ثم في آخر، وأشار لهم الحارس بالخروج من البوابة. لقد عادوا الآن إلى العالم، إلى الواقع المربك والصاخب. انعطفوا نحو الشارع الرئيسي، باتجاه الفندق الصغير. غنت سيدة جهاز الملاحة نغمتها اللامبالية: "استمر لمسافة صفر فاصل اثنين ميل. ثم انعطف يسارًا إلى شارع بليزانت."

بليزانت. فكرت جاني، وترددت الكلمة في دماغها، متحولة إلى *ذهان.*

خارج النافذة، كانت المدرسة الثانوية المحلية تطلق طلابها لينتهي يومهم الدراسي. فتية كبار يمشون بتراخٍ نحو موقف السيارات، وينادون بعضهم بعضًا بأصوات عالية حيوية.

"انعطف يسارًا إلى شارع الذهان. إعادة الحساب."

إعادة الحساب. *تناول الدواء.*

"استمر لمسافة صفر فاصل اثنين ميل في شارع الذهان. تناول الدواء. تناول الدواء."

كانوا يسيرون في شارع جانبي الآن، متجاوزين بنكًا محليًا، شارعًا لطيفًا بمنازل أصغر، تزين شرفاتها الأعلام الأمريكية. *شارع جانبي. آثار جانبية.*

"استمر لمسافة صفر فاصل ثلاثة ميل. انعطف يسارًا إلى كاثرين بليس." *كاثرين، الجمود التخشبي.*

"انعطف يسارًا إلى مكان الجمود التخشبي. تناول الدواء..."

كان أندرسون ينظر إليها في مرآة الرؤية الخلفية.

قال بهدوء. "جاني، يجب أن أعتذر. من الواضح أنها لم تكن الشخصية السابقة الصحيحة. كان ينبغي لي أن أدرك ذلك. كانت هناك أشياء فاتني الانتباه إليها ولم يكن ينبغي أن تفوتني."

"أشياء؟" حاولت جاني أن تنفض رأسها لتستعيد وضوح ذهنهما.

"نعم، الابن الأصغر، تشارلي—هو أصغر بكثير من أن يعرفه تومي... ظننت أن لديهم طفلًا أكبر سنًا يدعى تشارلي."

كيف تتوقف عن المحاولة عندما يكون الأمر متعلقًا بابنك؟ لكن يجب أن يتوقف الأمر *عند حد ما*.

حان الوقت لإنهاء هذا.

"انعطف يسارًا إلى طريق الإنكار. تناول الدواء. تناول الدواء."

بدت السيارة وكأنها تجوب الشوارع بإرادة خاصة بها.

كان أندرسون لا يزال يتحدث. "واستخدمت كلمة زواحف. كان ينبغي لي أن أقول سحالي. إنه خطئي. هذا ليس من عادتي، ولكن هذا ليس عذرًا. لم أكن دقيقًا. لم أدرك الفرق بين الثعابين والسحا—"

"جيري. أوقف السيارة."

انحرف إلى جانب الطريق وتوقف. واجه الأمام، وحبات العرق تلمع على مؤخرة عنقه. "نعم؟"

"لقد انتهينا هنا يا جيري."

"أوافقك الرأي، بكل تأكيد، كان هذا هو... المنزل الخاطئ."

هل كان الرجل غبيًا؟ "لا، أعني... لقد انتهيت من المدارس والمتاجر والمنازل. كل ذلك. أرجوك خذنا إلى الفندق الصغير."

"هذا هو المكان الذي نتوجه إليه."

"قال جهاز الملاحة يسارًا. أنت انعطفت يمينًا. ثلاث مرات، في الواقع."

عقد حاجبيه. "لا."

"لماذا تظن أنها تستمر في قول 'إعادة الحساب'؟"

"أوه." كانت ابيضاض مفاصل أصابعه المفصولة بقبضتها على عجلة القيادة ملفتًا. "أوه." نظر عبر الزجاج الأمامي، وكأنه ضائع في عرض البحر.

حاولت أن تحافظ على نبرة صوتها باردة. "جيري. استمع إليّ. لا توجد شخصية سابقة. نوح اختلق الأمر برمته."

أبقى أندرسون نظره مثبتًا أمامه، كما لو أن الإجابات تكمن هناك، على الطريق الأسفلتي. "ماذا تعنين؟"

نظرت إلى صبيها النائم. كان منهارًا في مقعد سيارته، ورأسه اللامع مائل على أحد كتفيه، ورموشه الشاحبة ترفرف. استطاعت أن ترى حزام الأمان يترك علامة حيث يقطع وجنته.

"لقد اختلق الأمر. لأنه مصاب بالفصام."

لقد قالتها، تلك الكلمة التي كانت تبدو مثل كل وظيفة جسدية أصابها الجنون في الوقت نفسه.

فتحت باب السيارة وترجلت إلى الطريق. انحنت واضعة يديها على ركبتيها، محجوبة خلف ستارة كثيفة من شعرها. كان الدوار قويًا للغاية. ركعت على حافة الطريق. وشعرت به صلبًا وثابتًا تحتها، مثل الواقع.

"هل أنتِ بخير؟" كان يظلل عينيه وبدا غير ثابت على قدميه.

فكرت فجأة أن أشخاصًا مثلهما—أشخاصًا يائسين—كانوا خطرين. رأت الأم الأخرى، وعلامات الدموع السوداء على وجهها. شعرت بالغثيان مجددًا، هذه المرة بسبب الذنب. مع ذلك، أدركت أن جزءًا

منها شعر بالارتياح أيضًا. ذلك الباب قد أُغلق. لقد عادت إلى الحياة الحقيقية مجددًا، مهما كانت فظاعتها.
مسح أندرسون وجهه بيده، وقال أخيرًا. "لقد حصلتِ على تشخيص."
نظرت حولها، كما لو كانت تريد من يجادل في هذا: العشب، الأسفلت، السيارات التي تمر مسرعة في طريقها إلى السوبرماركت أو المركز التجاري. "نعم."
هز رأسه. "من؟"
"ليس تشخيصًا بالضبط. اقتراح. من الدكتور ريمسون. هو طبيب نفسي للأطفال في نيويورك. واحد من الأفضل، على ما يبدو." ألقت بهذه العبارة الأخيرة لتؤذيه.
استوعب هذا دون أن يبدي رد فعل. "لماذا لم تخبريني؟"
"أظن أنني كنت خائفة من ألا ترغب في العمل معنا."
ومضت عيناه. "ألا تعلمين ما الذي سيقوله زملائي إذا—" واستنشق الهواء ببطء وبجهد خفض نبرة صوته مجددًا. "أنتِ—" ارتجفت شفته قليلًا، ثم سكنت. فكرت أن هناك ثمنًا يُدفع لتهدئة تلك الواجهة الخارجية. "كان ينبغي لكِ أن تخبريني."
أنا لا أهتم بزملائك. لا أهتم بما يحدث بعد أن يموت الناس. أنا أهتم بالصبي الذي في السيارة. هذا كل ما اهتممتُ به يومًا. فكرت. واعترفت ببلادة. "نعم. كان ينبغي لي أن أخبرك. عندما يكون ابنك مريضًا جدًا، لا تكون نفسك، ولا تتصرف بطرق عادية. لا يمكنك الرؤية بوضوح."
مسحت عينيها المبللتين بيدها. "لقد كان أمرًا غير مسؤول مني." وكانت تعني كل كلمة.
هز رأسه بحدة. قال أندرسون. "نوح ليس مصابًا بالفصام."

شعرت بالأمل يبدأ في الطنين بداخلها، وسحقته بسرعة قبل أن يتمكن من إحداث مزيد من الضرر.
"وكيف تعرف ذلك؟"
"هذا رأيي المهني."
وقفت وابتسمت له ابتسامة باهتة. "أنا آسفة ولكن هذا لا يحمل الكثير من الوزن لدي الآن." تجاهلت جفلته. "بالإضافة إلى ذلك، لقد رأيت سلوك نوح اليوم."
طأطأ أندرسون رأسه. "لقد كانت الشخصية السابقة الخاطئة. لقد كان خطئي. إنه أمر مزعج. ولكن—"
"لقد انتهى الأمر. القضية انتهت يا جيري."
"نعم. بالطبع." أومأ برأسه ببطء. "بالطبع. أنا فقط بحاجة إلى..." قالها. ثم مشى بضع خطوات مبتعدًا في العشب ونظر حوله، وكأنه يبحث عن طريقه.
"ماما؟"
كان نوح يستيقظ. تمدد وأرسل ابتسامة مؤثرة للغاية في اتجاهها.
"كيف تشعر يا حبيبي؟" ملست شعره، ومسحت العلامة الحمراء التي تركها حزام الأمان على وجهه. "هل أنت جائع؟ لدي لوح غرانولا في حقيبتي."
ابتسم بنعاس. "هل وصلنا بعد؟"
"لقد اقتربنا من الفندق الصغير."
"لا، يا أمي-ماما." قال بصبر، كما لو كانت هي الغبية. "متى نصل إلى طريق أشفيو؟"

بدأ سوجيث جاياراتني، وهو صبي من ضاحية كولومبو عاصمة سريلانكا، يظهر خوفًا شديدًا من الشاحنات وحتى من كلمة "لوري"، وهي كلمة بريطانية تعني شاحنة، أصبحت جزءًا من اللغة العرقية السنغالية، عندما كان عمره ثمانية أشهر فقط. عندما أصبح كبيرًا بما يكفي للتحدث، قال إنه عاش في غوراكانا، وهي قرية تقع على بعد سبعة أميال، وإنه مات بعد أن صدمته شاحنة.

ذكر العديد من العبارات عن تلك الحياة. سمعها عم أبيه، وهو راهب في معبد قريب، وذكر سوجيث لراهب أصغر سنًا في المعبد. أثارت القصة اهتمام هذا الراهب، فتحدث مع سوجيث، الذي كان يبلغ من العمر أكثر بقليل من عامين ونصف العام في ذلك الوقت، عن ذكرياته، ثم كتب ملاحظات عن المحادثات قبل أن يحاول التحقق من أي من العبارات. توثق ملاحظاته أن سوجيث قال إنه من غوراكانا وعاش في حي غوراكاواتي، وأن والده كان يدعى جاميس ويعاني من عيب في عينه اليمنى، وأنه التحق بمدرسة كابال إيسكولي، والتي تعني "المدرسة المتداعية"، وكان لديه معلم يدعى فرانسيس هناك، وأنه كان يعطي المال لامرأة تدعى كوسوما، كانت تجهز له "السترينغ هوبرز"، وهو نوع من الطعام... وقال إن منزله كان

مطليًا باللون الأبيض، وأن مرحاضه كان بجانب سياج، وأنه كان يستحم في ماء بارد.

كان سوجيث قد أخبر والدته وجدّته أيضًا بعدد من الأشياء الأخرى عن الحياة السابقة لم يكتبها أحد إلا بعد تحديد الشخصية السابقة. قال إن اسمه كان سامي، وكان يطلق على نفسه أحيانًا "غوراكانا-سامي"... قال إن اسم زوجته كان ماغي وابنتهما ناندا‌ني. كان قد عمل في السكك الحديدية وتسلق ذات مرة قمة آدم، وهو جبل شاهق في وسط سريلانكا... وقال إنه في اليوم الذي مات فيه، تشاجر هو وماغي. وغادرت المنزل، ثم خرج هو إلى المتجر. وبينما كان يعبر الطريق، دهسته شاحنة ومات.

ذهب الراهب الشاب إلى غوراكانا للبحث عن عائلة لها فرد متوفى تتطابق حياته مع عبارات سوجيث. بعد بعض الجهد، اكتشف أن رجلًا يبلغ من العمر خمسين عامًا يدعى سامي فرناندو، أو غوراكانا سامي كما كان يطلق عليه أحيانًا، قد مات بعد أن صدمته شاحنة قبل ستة أشهر من ولادة سوجيث.

ثبت أن جميع عبارات سوجيث صحيحة بالنسبة لـ"سامي فرناندو"، باستثناء عبارته بأنه مات فورًا عندما صدمته الشاحنة. فقد مات سامي فرناندو بعد ساعة إلى ساعتين من إدخاله المستشفى عقب الحادث.

—د. جيم ب. تاكر، كتاب الحياة قبل الحياة

18

استيقظت دينيس والاسم على شفتيها. طعمه في فمها، مالح ومر، مثل التراب والبحر في الوقت نفسه. سمحت لنفسها بعشر ثوانٍ للاستلقاء هناك، وهو ما كان أطول بنحو سبع ثوانٍ مما ينبغي، ثم نهضت من ذلك الفراش. ارتدت ملابسها بعناية، متأكدة من إغلاق الأزرار بالطريقة الصحيحة على بلوزتها وسترتها، وفاحصة جواربها الطويلة لتتأكد من خلوها من أي تنسّج، سحبت شعرها ولوته إلى الخلف لتصنع منه كعكة وثبتته بمشبك ليبقى في مكانه. كانت قواعد اللباس في دار الرعاية مريحة إلى حد السخافة (بنطال جينز وبذلات رياضية، يا للهول!)، لكنها ارتدت ملابس احترافية طوال حياتها، حتى في تلك السنوات الأولى كمعلمة متدربة، وبالتأكيد لم تكن على وشك التوقف الآن. بالإضافة إلى ذلك، كان الأمر مهمًا للمرضى وعائلاتهم: فقد كان يرسل رسالة احترام.

صنعت السرير، جمعت ملابس نومها، وضعتها في سلة الغسيل، وعندها فقط سمحت لنفسها بالتوجه إلى الحمام. مخبأة فوق الحوض، خلف الأسبرين والفوط الصحية، كانت زجاجة الحبوب التي أعطاها إياها الدكتور فيرغسون. أخرجت حبة وقسمتها إلى أربعة أجزاء بسكين الزبدة التي تحتفظ بها على الرف. فحتى نصف حبة كان يمنحها إحساسًا بالارتخاء والدوار الطفيف الذي لم تكن تحبه، وحبة كاملة تجعلها مشتتة الذهن طوال اليوم، لكن ربع حبة كان كافيًا عادة. ابتلعتها جافة وأعادت الزجاجة بعناية، وأغلقت الخزانة حتى أصدرت صوت نقرة.

ها قد تم الأمر. وها هي ذاك. ذلك الضباب المألوف من الجلد والعينين البنيتين المبللتين والشعر الأسود. كان شعرها قد بدأ يبيض عند الجذور؛ ولقد تأخرت كثيرًا عن الذهاب إلى صالون الشعر. تمنت لو كان بإمكانها فعل ما تفعله الكثير من النساء السيراليونيات الأخريات وقصه تمامًا ليصبح قريبًا من رأسها وتركه وشأنه. لم يكن بوسعها سوى التحدق عندما ترى نساء بشعر كهذا، معجبة بالبساطة، والأناقة، والتحرر من العناء. مع ذلك، لم تكن لتشعر بالراحة بمظهر كهذا، كانت ستشعر—بأنها غير مستعدة.

في الطابق السفلي، بدأت في إعداد القهوة وتشغيل الراديو، وكسرت بعض البيض في مقلاة القلي. سمعت تشارلي يضرب بقدميه في الطابق العلوي، يفعل ما يفعله الفتيان في سن الخامسة عشرة في الصباح. لم يكن يستغرق الأمر منه سوى لحظة ليرتدي قميصًا وبنطال جينز.

"تشارلي! الفطور!"

وقفت تراقب البيض في المقلاة وتستمع إلى الأخبار في الراديو، مستندة إلى الطاولة. خارج نافذة المطبخ، رأت دينيس طبقة من الصقيع تلمع على بقايا حقول الذرة المزروعة حديثًا. لقد كان شتاءً طويلًا واستمر في المجيء، مواصلًا دورات انتصاره حتى منتصف الربيع. في باحتهم، كان طائر وحيد يحاول مرارًا وتكرارًا الشرب من حوض الطيور شبه المتجمد.

هبط تشارلي السلالم بضربات قوية. كان ذلك يمثل صدمة لها دائمًا، أن هذا الجسد الضخم بجدائل شعره المتهدلة كان يمكن أن يأتي من بنيتها الضئيلة، وأنه ابنها، هذا الجسد الهائل الذي يمر سريعًا في يومها

ويخرج منه. تمدد على كرسي المطبخ وبدأ ينقر إيقاعًا على الطاولة بسكينه وشوكته.
وضعت طبقًا من البيض الساخن أمامه وجلست.
"صنعت لك بعض البيض."
"شكرًا يا ماما." وقف فجأة ليصب لنفسه بعض العصير.
"تشارلي، اجلس، إنك تجعل رأسي يدور."
"هل نمتِ جيدًا؟ هل أبقاكِ ذلك الكلب مستيقظة مجددًا؟"
ترددت؛ هل صرخت مجددًا في نومها؟ هل هذا هو سبب سؤاله؟ "لقد نمت جيدًا."
"جيد." وهبط بقوة على مقعده.
لا، لم يسمع تشارلي شيئًا. زفرت بهدوء. وهذا لا يعني أنها لم تصرخ بالطبع.
جلست بلا حراك، تستمع إلى صوت الراديو دون تركيز على الكلمات. كان مفعول الحبة قد بدأ؛ واستسلمت لنبرات الصوت، صوت رجل يفيض بالتعقل والنمطية، يلطف الحروب والزلازل والأعاصير بإيقاعاته الهادئة والمتوقعة. كان العالم يمكن أن ينتهي، وقد انتهى بالفعل، وكان بإمكانك الاعتماد على أن ذلك الصوت سيظل هناك ليخبرك كيف جرى كل شيء.
"ماما؟"
"هممم؟"
"كنت أسأل إن كان هناك أي لحم مقدد متبقٍ؟"

أجبرت نفسها على الوقوف وشعرت بالدوار؛ فتحت باب الثلاجة ووقفت هناك للحظة، ممسكة به، وتنظر إلى الداخل إلى الأشياء المشرقة والباردة. ها هي ذاك، العبوة اللامعة. وأخرجتها.

"لا تتحدث وفمك ممتلئ." شقت طريقها إلى الموقد، ووضعت اللحم المقدد على المقلاة. فقرقع، نافثًا قطرات صغيرة من الزيت على تنورتها البنية الأنيقة. علمت في الثانية الأولى التي ضربتها فيها أول نفحة منه أنها لن تكون قادرة على تناول لقمة واحدة منه بنفسها. لم تكن تدرك كم يمكن أن يكون اللحم المقدد غير فاتح للشهية.

انتهت الأخبار وبدأت بعض الموسيقى الكلاسيكية. كانت تضع الراديو دائمًا على المحطة الكلاسيكية عندما يكون تشارلي موجودًا. ظنت أن من الجيد له سماعها، بالطريقة نفسها التي تشاهد بها البرامج الإخبارية أو الوثائقيات الطبيعية في الليل عندما يكون في المنزل، في حين أن ما كانت ترغب فيه حقًا هو أحد مسلسلات الواقع الدرامية المبتذلة، الهروب بمشاهدة أثرياء وأغبياء يتصرفون بشكل سيئ. ظن الدكتور فيرغسون أنه بعد كل ما حدث قد تتساهل بشأن هذه الأنواع من الأشياء، لكن الأمر سار في الاتجاه المعاكس.

لفّت اللحم المقدد في منديل ورقي وحملته إلى طبق تشارلي، ملقية القطع اللامعة فوق البيض، ثم هبطت عائدة إلى كرسيها.

"أنتِ لا تأكلين يا ماما؟"

"انتظر. أليس لديك اختبار التربية الوطنية هذا الصباح؟ لم نراجع—"

"كان ذلك يوم الجمعة. لكني أظن أنني أبليت بلاءً جيدًا."

"تشارلي كروفورد!"

"أبليت بلاءً حسنًا. أظن أنني أبليت بلاءً حسنًا."

"هل هذه هي الطريقة التي تتحدث بها في حصة اللغة الإنجليزية؟ هل هذا هو سبب إعطائها لك تقدير 'جيم زائد'؟"

طأطأ رأسه وبدأ يجرف اللحم المقدد في فمه. "لا."

"لأنك تعلم أنك بحاجة إلى أداء أفضل من ذلك إذا كنت ترغب في الالتحاق بكلية جيدة. هذا ما قاله مرشد الكلية—"

"أنا مسيطر على الوضع." لمحها بطرف عينه، ثم نظر إلى طبقه مجددًا، جارفًا بقية طعامه. من كان يعلم ما هي الحقيقة؟ كان تشارلي دائمًا طالبًا جيدًا إلى حد ما، لكن الفتيان في هذا العمر لا يمكن توقع تصرفاتهم بمجرد أن تبدأ الهرمونات في التأثير؛ فابن ماريا كليفورد، المقيم في نهاية الطريق، تحول من قائمة الشرف إلى الرسوب والعمل في محطة الوقود بمجرد لمحة عين.

"هاكِ يا ماما، تناولي بعض اللحم المقدد. إنه جيد." ألقى بقطعة صغيرة على الطاولة أمامها وراقبها حتى التقطتها.

"لماذا تلاحقني هذا الصباح؟"

"لأنكِ لا تأكلين."

"أنا آكل. ترى؟" أخذت دينيس قطعة اللحم المقدد ووضعتها على لسانها. امتلأ فمها بطعم شيء محترق. نقلتها إلى داخل وجنتها؛ ستبصقها عندما يغادر. "انظر. سأحاول الخروج في الوقت المحدد اليوم وسنتناول عشاءً مناسبًا معًا، حسنًا؟"

"لا يمكنني. لدي تدريب."

"تدريب."

"أجل."

"ألا ينبغي لك أن تدرس بدلًا من قرع الطبول في قبو منزل شخص ما؟"

"مرآب."

"أنت تعلم ما أعنيه."

هز كتفيه، ودفع نفسه مبتعدًا عن الطاولة. القط حقيبته من على الأرض. بدأ كلب الجيران في النباح مجددًا. كان بإمكانك سماعه طوال الطريق عبر طريق أشفيو، وربما حتى مسافة بعيدة عند الطريق السريع.

قال تشارلي وهو يتحرك بالفعل نحو الباب. "ينبغي لشخص ما أن يقتل ذلك الشيء، ويسدي للعالم معروفًا."

"كن لطيفًا."

ابتسم لها من خلال ستارة جدائله المتهدلة. "أنا دائمًا لطيف."

وغادر.

أول شيء فعلته هو بصق اللحم المقدد. ثاني شيء هو إطفاء الراديو. كم كانت تكره تلك الموسيقى. كانوا يعزفونها طوال اليوم في دار الرعاية أيضًا، مجبرين كبار السن على تناول موسيقاهم مثل أدويتهم. ابتلعها، إنها جيدة لك، حتى لو كان كل ما تفعله هو تخديرك طوال يومك. على الأقل كان الأشخاص من أصول لاتينية يجلبون موسيقاهم الخاصة، إيقاعات طبول وألحان نحاسية يمكنك الرقص عليها، ليس أنها قد تفعل مثل هذا الشيء قط. مع ذلك، علمت أنها تسترخي وتتأخر كثيرًا في غرفة السيدة رودريغيز، تغسل تلك الأطراف الممتلئة السمرة وتلك الموسيقى تعزف وابنة المرأة تجلس هناك هادئة كما تود وهي تحل الكلمات المتقاطعة بجانب السرير مباشرة، رغم أن السيدة رودريغيز لم تتعرف على نسيبها الخاص منذ سنتين على الأقل. كانت تحب الغسيل والتنظيف. لقد اعتادت الآن على

الروائح، وكان جسد السيدة رودريغيز أقل هشاشة من معظم الآخرين؛ لم يكن عليها القلق من أن تترك كل بصمة إصبع علامتها بالطريقة التي تقلق بها مع الكثير من البيض. كان هناك شيء مهدئ في القدرة على لمس شخص ما بهذه الطريقة، دون أي جوع أو نقاش. مجرد جلد على جلد. جسد وقطعة قماش وفائدة. لذا كانت تتأخر. وعلمت أن هذا ليس عادلًا بالنسبة للمرضى الآخرين، الذين ليس لديهم أقارب، أو نباتات، أو موسيقى. صنعت ملاحظة ذهنية بالتحرك بشكل أسرع اليوم.

وقفت الآن، مستمتعة بالصمت، تغسل الأطباق، وتتخيل غرفة السيدة رودريغيز. بمجرد أن وضعت الأطباق في مكانها، استندت إلى الطاولة وراقبت الساعة، محاولة ألا تفكر في أي شيء. السابعة تمامًا. السابعة والنصف. علمت أن الاسم لا يزال يتردد طليقًا في مكان ما في خلفية عقلها، لكن الحبة كتمته بما يكفي لدرجة أنها لم تستطع سماعه. عندما ضرب عقرب الثواني أخيرًا السابعة وخمس وخمسين دقيقة، أنهت كوب قهوتها وزفرت بارتياح تام.

فقد بدأ الأمر. يومها الطويل، الطويل.



كانت دار أكسفورد للمسنين تمتلك طموحات ذات يوم. كان بإمكان أي شخص رؤية هذا من النباتات الاصطناعية الطويلة والأعمدة والصور المعلقة على الجدران لمناظر الجبال—حتى من الاسم نفسه، الذي لم تكن له صلة بالمؤسسة التعليمية العليا؛ فقد يظن شخص ما أنه يبدو جيدًا. لكن في مكان ما على طول الطريق، سارت الأمور بشكل خاطئ للغاية. فالأرضيات المصنوعة من المشمع كانت مشوهة بعنف

بعلامات جرجرة من كثرة الكراسي المتحركة والنقالات والعكازات؛ وكانت رائحة الردهة تشبه رائحة اللايسول وقليلًا من السجائر التي يدخنها حارس الأمن، وتشبه كثيرًا الرائحة العفنة لجلد كبار السن والمرضى جدًا. السقف الواقع فوق مجموعة المصاعد مباشرة كان يتدلى في شرائط بسبب أضرار المياه، والتي تُركت دون إصلاح لفترة طويلة لدرجة أن الجرح نفسه تحول إلى اللون الأسود، مثل ركبة مسلوخة أصابتها الغرغرينا.

إنها مسألة رعاية. لا أحد يهتم، لذا لا شيء يحدث. فكرت دينيس. لقد تغيرت الإدارة مرات كثيرة لدرجة أنه لم يكن أحد متأكدًا من هو المالك الحالي أو أين يوجد، ولم يكن المرضى في حالة تسمح لهم بالشكوى، ولم يكن هناك الكثير من أفراد العائلات الذين يأتون إلى هناك، رغم أنها تبعد خمسة عشر ميلًا فقط عن المدينة. حلقة مفرغة: كان المكان كئيبًا لدرجة أنه لا أحد يرغب في المجيء، ولأنه لا أحد يأتي ويشتكي، أصبح المكان أكثر كآبة. في مرحلة أخرى من حياتها، كانت دينيس لتأخذ على عاتقها تنظيف المكان، وتبدأ بالتحدث مع عمال النظافة حول نوع محلول التنظيف الذي يستخدمونه، إن وجد، لكن لم يكن لديها أي اهتمام هذه الأيام بتولي مسؤوليات ليست لها.

لقد قامت بدورها؛ وحافظت على تعبير مبهج على وجهها وأدت وظيفتها بأفضل ما يمكنها رغم العاصفة المطلقة من السوء التي تأتي عليها أحيانًا (لم تكن تحب استخدام الألفاظ النابية ولكن بعض المواقف تتطلب ذلك). استمرت في العمل رغم السقف المتعفن والنقص الحاد في الموظفين الذي يترك المرضى دون مراقبة، وأحيانًا لساعات متتالية، والطريقة التي يبدو بها المخزن دائمًا خاليًا من دواء

الديلوديد والمورفين عندما تكون الحاجة إليهما ماسة. كانت ممتنة للوظيفة، وممتنة للراتب ولأنها تستهلك الكثير من جسدها وانتباهها وتشغل القليل جدًا من عقلها الفعلي. ومع ذلك: شعرت مؤخرًا بأن عقلها يذهب في اتجاهات خاصة به أكثر مما تشعر بالراحة معه. على سبيل المثال، السيد كوستيلو، الذي كان يموت بسبب سرطان الرئة. لماذا سألته إن كان خائفًا؟ من أين جاء ذلك السؤال؟

ربما أثر فيها هدوء نفسه ورباطة جأشه. كانت لديه أنابيب تمر عبر أنفه إلى خزان أكسجين بجانب سريره مباشرة، ولم يكن بإمكانه تناول أكثر من رقاقات الثلج والبيض المخفوق، وينام بشكل متقطع معظم اليوم، ومع ذلك فإن عينيه الخضراوين النعستان اللتين تشرفان على تفكك جسده، بدتا مستمتعتين؛ بل ومحتويتين بالرضا.

"إذن كيف أبلي؟"

كانت تفحص الأكسجين. "ما زلت تمضي بقوة."

"سحقًا. كنت آمل أن أكون ميتاً بحلول الآن."

"هيّا الآن."

"تظنين أنني أكذب، لكني لا أفعل."

"أنت لست خائفًا؟" اندفعت الكلمات منها قبل أن تعرف حتى ماذا تقول.

"كلا. أنا آخر الموهيكان، كما تعلمين. لقد ذهبوا جميعًا." لوح بيده، كما لو أن زوجته وأصدقاءه قد أخلوا الغرفة للتو.

"هذا جيد إذن،" أضافت. "أعني، أنك لست خائفًا."

نظر إليها بفضول. كان عجوزًا ذكيًا. كان يومًا ما شيئًا—كيميائيًا؟ مهندسًا؟ "والآن لماذا قد أكون خائفًا؟"

ابتسمت. "لم أكن أدرك أنك مؤمن يا سيد كوستيلو."
"أوه، لا، لا، لست كذلك."
"ولكن—تظن أن هناك شيئًا آخر. بعد هذا؟"
"ليس حقًا. أظن أن هذا هو كل شيء على الأرجح."
"أرى ذلك. حسنًا." استطاعت أن تشعر بنفسها وهي تتعرق. "وهذا لا—يزعجك؟ لا تجد الفكرة غير سارة؟"
"هل تحاولين هدايتي الآن؟ أم العكس؟"
لم تكن متأكدة مما يعنيه *العكس* تمامًا، لكنها لم تحبه. وتمتمت. "أنا آسفة للإزعاج والتدخل،" مركزة انتباهها مجددًا على خزان الأكسجين. كان نصف فارغ.
"أتدرين ما هو غير السار حقًا يا سيدة كروفورد؟ هذه الأنابيب في فتحتي أنفي. إنها مزعجة ومثيرة للغضب بحق. هل تظنين أن بإمكانك إخراجها من أجلي؟"
"تعلم أنه لا يمكنني فعل ذلك."
ابتسم لها بعناد. "ولماذا لا، رغمًا عن ذلك؟ ما الفارق الذي يصنعه الأمر؟"
"قليل من الفازلين قد يساعد."
"لا، لا. لا تزعجي نفسك."
نظر إلى يديه. كان جلده هشًا، كما ظنت، مثل نوع ورق قشر البصل المستخدم في الرسائل القادمة من الخارج. تساءلت إن كانوا لا يزالون يستخدمونه، وإن كان أي شخص يكتب هذا النوع من الرسائل بعد الآن. ربما يرسل الناس البريد الإلكتروني الآن وحسب. الرسائل الوحيدة مثل تلك التي تلقتها كانت من هنري، منذ زمن طويل. تلك الأظرف

الزرقاء النحيفة القادمة طوال الطريق من لوكسمبورغ ومانشستر وميونخ إلى صندوق بريدها الصغير في ميلرتون بولاية أوهايو، والطريقة التي تقف بها في الممر، شاعرة بها تنبض بالحرارة في يدها. لقد أمضت ساعات طويلة تتفحص خربشة حبره الأزرق اللامبالي على السطح الرقيق، محاولة تمييز الكلمات، متأخرة عند السطور الرقيقة العابرة—*ومتمنيًا لو كنتِ هنا لتسمعي ذلك*. كان هذا في أيامهم الأولى، قبل أن تتزوج هي وهنري، عندما كانت معلمة مساعدة وكان هو يعزف في نوادي دايتون ويقوم بجولات.

فكرت لنفسها. *الآن هذا ما أعنيه. لماذا أفكر في ذلك الآن؟* ما الخطب الذي أصابها؟

كان السيد كوستيلو يقول. "طوال حياتي، كنت أظن أنك تموت وينتهي أمرك تمامًا. قضي الأمر وانتهى. الآن، لأكون صادقًا معكِ، لست متأكدًا دائمًا. أنا لا أؤمن بالله أو بأي شيء. لا تفهميني خطأ. أنا فقط ليس لدي شعور سيء للغاية حيال الأمر، على ما أظن."

"يسعدني سماع ذلك." قالت، وكانت لا تزال تنشغل بأسطوانة الأكسجين. قررت أنه لا حاجة لاستبدالها بعد. ربما تعيش لفترة أطول منه.

⩔⩔⩔

في الرابعة، بعد الانتهاء من أوعية قضاء الحاجة للمرضى وقلب السيد راندولف والاطمئنان على السيدة رودريغيز لمجرد أنها تحب رؤية نصف ابتسامتها الغائبة عن الوعي في نقاط مختلفة خلال يومها، اتصلت بهنري. وقفت عند محطة الممرضات وسمعت الهاتف يرن ويرن وأوشكت على الإغلاق عندما اندفع صوته في أذنها.

"مرحبًا؟ مرحبًا؟"

لم تقل أي شيء. استطاعت سماع موسيقى مألوفة في الخلفية. ثيلونيوس مونك، بانويكا. وضربها الأمر بقوة، عند ركبتيها. كان لا يزال بإمكانها الإغلاق—

"دييِنيس؟ هل هذه أنتِ؟"

"هذه أنا."

ضحك بخفة. "أنا أعرف هذا الصمت في أي مكان."

"حسنًا إذن." ومنحته المزيد منه.

"تشارلي بخير؟"

"نعم، هو بخير." كم شهرًا مضى منذ أن تحدثا؟ لقد فقدت العد.

"حسنًا، وكيف حالكِ؟"

"أنا بخير تمامًا يا هنري. أنت؟"

"آه، أنتِ تعلمين. لقد تخلصوا أخيرًا من المدير الذي كان رأسه في مكان خاطئ والآن لدينا مدير جديد، بالعناد نفسه. لا تبدأي معي بشأن الميزانية. لم يعد لدي غرفة أو بيانو بعد الآن، أتنقل من غرفة إلى غرفة بعربة، وكأنني أبيع الكعك المحلى. الآن كيف يمكنكِ فعل أي شيء بعربة؟"

"لا أعلم." لم تكن ترغب في التحدث عن التدريس. مرت بها رؤية لغرفة الصف على أي حال، الإحساس بمسحوق الطباشير على أصابعها، والجدران المغطاة بالورق الملون. ليس أن أحدًا يستخدم الطباشير بعد الآن. ففي مدرسة تشارلي الثانوية كان الأمر كله يتعلق باللوحات الذكية.

"لقد جعلتهم جميعًا يغنون دون مرافقة موسيقية. ودعيني أخبركِ، إن غناء الصف الثاني دون مرافقة موسيقية هو أمر محزن ومثير للشفقة. هذه الأرض هي أرضكِ..." وغنى، خارج اللحن بشكل فكاهي، وظل الصوت يتردد في صمتها. فكرت: *إنه يحاول. إنه يحاول حقًا.*

"ما الذي يفعله تشارلي إذن؟"

"لا يزال مجنونًا بتلك الفرقة الخاصة به. يتدرب طوال الوقت."

"يتدرب، همم؟ هل هو جيد؟"

"لا أعلم." وفكرت في الأمر. "ربما."

"ليساعده الله إذن."

"أوه، إذن أنت رجل متدين الآن؟"

"عازف الطبول بحاجة إلى كل المساعدة التي يمكنه الحصول عليها."

ضحكا، مسحة من التواطؤ القديم جعلت حلقها يؤلمها.

"يمكنك الاتصال به، كما تعلم. لتسمع بنفسك. أعلم أنه يفتقدك. لن يقول ذلك، لكنه يفعل."

"لن يقول ذلك، هاه."

استطاعت أن تشعر بالغضب يبدأ في الاشتعال بداخلها.

"هو فقط كتوم. مراهق. هذا كل ما في الأمر. هذا لا يعني شيئًا."

"ألا يعني شيئًا؟"

"هنري."

"فقط أخبريني بهذا. هل تنطقين اسمي يومًا في ذلك المنزل؟ هل تفكرين فيّ على الإطلاق؟ أم أن الأمر وكأنني لم أعش هناك قط؟ لأن هذا هو ما أشعر به."

كذبت قائلة. "بالطبع نتحدث عنك، طوال الوقت. لقد مرت خمس سنوات يا هنري، أظن أننا كلانا بحاجة إلى—"

"خمس سنوات لا شيء. خمس سنوات هراء."

جفلت. كان يتحدث بتلك الطريقة ليستفزها. ويجب ألا تُستفَز.

"حسنًا. بناءً على هذه النبرة إذن، سأقوم بـ—"

"دينيس؟ هل تعلمين أي يوم هو اليوم؟"

لم تقل شيئًا.

"هذا هو سبب اتصالكِ بي، أليس كذلك؟ للتحدث عن تومي؟"

أمسك بها الاسم. ولم تستطع التنفس للحظة.

"لا."

"أنا أراه طوال الوقت. أتدرين؟ في أحلامي."

"استمع يا هنري، سأغلق الهاتف الآن." لكنها وقفت هناك، ممسكة به.

"إنه يقف عند حافة السرير، وينظر إليّ. تعلمين. بتلك النظرة التي كانت لديه. وكأنه يريد منكِ مساعدته ولكنه لن يطلب ذلك أبدًا."

كانت صامتة. هذا هو السبب في أنهما لم ينجحا: هي تحركت واستمرت في التحرك، كما لو كان بإمكانهما العثور على تومي بتلك الطريقة وبتلك الطريقة فقط، هو ظل ساكنًا بلا حراك، ورأسه منحنٍ، تاركًا الأمر يحطمه مرارًا وتكرارًا.

"هل لا تزلين تظنين أن تومي سيعود يومًا ما؟ أنتِ لا تظنين ذلك، أليس كذلك؟ دينيس؟"

كان لصوته إلحاح وصل إلى الأعماق... صوت كان كأنه يد تحفر بداخلها، وتلف أمعاءها مرارًا وتكرارًا مثل شلة غزل. أدركت فجأة أن الاسم لم يتوقف عن تكرار نفسه منذ أن استيقظت به ذلك الصباح.

كان مستمرًا في الخلفية طوال اليوم. ستصاب بالغثيان. ستصاب بالغثيان الآن إذا لم تغلق الهاتف. بدأت يداها في الارتجاف.

"دينيس؟"

جهزت نفسها لقول شيء ما. ولكن لم يكن هناك شيء لتقوله.

أغلقت الهاتف.

كانت ستتقيأ.

لا. لن تفعل. (لسبب واحد، لم تكن قد تناولت أي شيء طوال اليوم).

حسنًا إذن. كانت بحاجة إلى حبة.

لا. لم تكن بحاجة إليها.

أغلقت عينيها وعدت حتى عشرة.

ثم حتى عشرين.

⩔ ⩔ ⩔

كانت تسلك دائمًا الطريق الطويل إلى المنزل، وتأخذ الطريق السريع حتى المخرج ثم تعود أدراجها، لكنها اليوم ركبت السيارة ودون أن تخبر نفسها بما تفعله قادت على الطريق الرئيسي وانعطفت يمينًا عند الإشارة. قادت مباشرة عبر المدينة، متجاوزة شريط عيادات الأطباء، ومتجر الدولار ومتجر الخمور وتاكو بيل، ومتجاوزة محطة الإطفاء والمتجر متعدد الأقسام المغلق بالألواح الخشبية، متوجهة نحو حقول الذرة حيث يوجد المنعطف المؤدي إلى منزلهما، وماكينلي.

كانت مدرسة ماكينلي الابتدائية عبارة عن صندوق خرساني منخفض مخترق بشقوق عمودية؛ وقد بُنيت في الستينيات، عندما لم يكونوا يؤمنون بالنوافذ، كانت تحمل ذلك المظهر الكئيب الشبيه بالسجن

الذي تجده أحيانًا في الكنائس والمدارس من تلك الحقبة. في الداخل كان الأمر قصة مختلفة، فالرواقات كانت مغطاة بالصور والقصص، والغرف تهتز بقوة الحياة الصاخبة للأطفال الصغار الذين يتلقون تعليمهم.

لقد تجنبت هذا المبنى لسنوات، مثل وجهٍ تحاول إخراجه من عقلك، مع ذلك كان هناك، كان هناك دائمًا، على بعد خمس دقائق فقط من منزلهما، وأدركت الآن أنه خلال أيامها في دار الرعاية كان هناك جزء منها يعلم ما كان يحدث، في كل لحظة، في المدرسة: أنه في الثامنة وخمس وأربعين دقيقة كانت الأجراس ترن والطلاب يصطفون للحصة؛ وفي الثانية عشرة والأربعين كانوا يتناولون الغداء؛ وفي الواحدة والعشرة كان لديهم استراحة. إحدى عشرة سنة درستها هناك وكانت إيقاعاتها متأصلة في عظامها.

أوقفت السيارة مقابل المدرسة، على بعد بابين من منزل عائلة سويرز، حيث كان تومي يذهب بعد المدرسة في بعض الأيام للعب ألعاب الفيديو مع ديلان. ألعاب الفيديو في منزل عائلة سويرز، كما تذكرت الآن، كانت أكثر عنفًا من تلك التي سمحت له بلعبها، وكانت هناك بعض الخلافات حول ذلك. تجادلت هي وهنري حول ما إذا كان ينبغي لهما قول شيء لبريندا سوير، أو بالأحرى، كانت تذهب وتجيء في رأيها، واشمئزازها من الألعاب العنيفة يصارع تحفظها الطبيعي بشأن إخبار الآخرين بكيفية تربية أطفالهم، حتى سئم هنري من المسألة برمتها وتعهد بالاتصال ببريندا وإخبارها بأنه لا توجد طريقة تجعل أي ابن له يطلق النار على أي شخص، حتى لو كان الأمر مجرد لعبة.

في النهاية–في النهاية لم يحتاجا إلى حل هذه المسألة. لم تمنحهما الفرصة لفهم الأمر، أو لاكتشاف أي نوع من الآباء سيكونان لتومي في سن التاسعة والنصف، أو الحادية عشرة، أو الخامسة عشرة. كان أفراد عائلة سويرز جزءًا من الحشد في تلك الأسابيع الأولى يلصقون ملصقات تومي في جميع أنحاء مقاطعة غرين، ويسلمون الكعك المحلى والقهوة لضباط الشرطة بإثارة خافتة، وكثافة في الهدف كانت ممتنة لها في البداية ولكن، مع مرور الأيام، لم تستطع سوى الاستياء منها. كانت بريندا وديلان من بين القلة الذين جاءوا للزيارة بعد شهر من اختفاء تومي، حاملين معهم طاجن خضار وبعض الزهور، وكأنهم لم يتمكنوا من تقرير ما يجلبونه. راقبتهم من نافذة غرفة النوم، الأم والابن يقفان جنبًا إلى جنب على عتبة الباب بوجوه متوترة، ورأت أجسادهم ترتخي بارتياح عندما أدركوا أنه لا أحد سيسمح لهم بالدخول. تركوا الطاجن والزهور على العتبة، وعندما ذهبوا ألقت بالزهور وجرفت ذلك الشيء الهلامي المقزز المصنوع من المعكرونة الذي صنعته المرأة في القمامة، وغسلت وفركت المقلاة الزجاجية، وجعلت هنري يسلمها إليهم في ذلك المساء نفسه لتتخلص منهم إلى الأبد.

ها هو منزل عائلة سويرز الرمادي مع حلقة كرة السلة، كما هو دائمًا، وها هي ماكينلي. كانت هناك أضواء مشتعلة في المكتب. وقت متأخر جدًا لما بعد المدرسة ولم تكن هناك سيارات كافية للإيحاء بوجود اجتماع؛ على الأرجح كان طاقم النظافة والحراسة. أو أن الدكتور راموس كان يعمل في وقت متأخر.

إذا كان لا يزال مديرًا. على الأرجح كان قد انتقل. لقد كان دائمًا رجلًا طموحًا.
انطفأ الضوء. كان ينبغي لها الذهاب. لكنها جلست في السيارة حتى خرج الجسد القوي لروبرتو راموس من المبنى، متوجهًا إلى سيارته في موقف السيارات. السيارة السوبارو نفسها. مد يده إلى جيبه، يتلمس مفاتيحه، ثم بدافع من غريزة ما رفع نظره ورأى سيارتها عبر الشارع. نظر كل منهما إلى الآخر عبر تلك المسافة، جسد طويل في معطف أسود؛ سيارة ميني فان متهالكة. وارتجفت في الهواء البارد للسيارة، فاركة ذراعيها. ربما يلوح بيده وحسب، ويركب سيارته، ويذهب. تمنت أن يكون هذا هو ما سيفعله.
مع ذلك ها هو ذاك، يطرق النافذة. ترددت لجزء من المليون من الثانية ثم فتحت قفل الباب. انزلق في المقعد بجانبها في اندفاعة من الهواء وحرارة الجسد، حيًا وواضحًا جدًا بوجنتيه الورديتين الملساء وشعره الأسود ووشاحه الأحمر لدرجة أن عينيها آلمتاها من النظر إليه. كان من الخطأ المجيء إلى هنا. الكثير من الأخطاء اليوم. ركزت انتباهها على عجلة القيادة.
"دينيس. من الجيد جدًا رؤيتكِ."
"كنت فقط أمر بالصدفة في طريقي إلى المنزل. أنا أعمل في دار أكسفورد الآن، كما تعلم، في شارع كريسينت."
"لقد سمعت ذلك."
فرك يديه معًا. كان يرتدي قفازات شتوية. "يا له من ربيع، هاه. من الصعب تصديق أننا في أبريل."
"نعم."

"وكيف يعاملونكِ في دار الرعاية؟"

"أوه، بخير، شكرًا. إنهم أشخاص طيبون، معظمهم، على أي حال."

"يسعدني سماع ذلك. الجو بارد جدًا هنا، هل يمكنكِ—؟"

شغلت السيارة. ودار جهاز التدفئة مصدرًا صوتًا.

جلسا هناك، يستدفئان. "هذا أفضل. أليس كذلك؟"

أومأت برأسها.

"لقد افتقدناكِ، كما تعلمين. أنا افتقدتكِ. أفضل معلمة للصف الأول حظينا بها قط."

"أنا متأكدة من أن هذا ليس صحيحًا."

وضع يده المغطاة بالقفاز فوق يدها العارية وتركته يفعل ذلك، الدفء المكتوم لجسده يشق طريقه ببطء عبر الجلد. مديرها؛ لقد عملا معًا بشكل جيد لسنوات. منذ ما يزيد قليلًا عن ست سنوات الآن. لا وقت على الإطلاق، ومع ذلك فقد عاشت مئة ألف حياة في الفترة ما بين ذلك. لم يتحدثا قط عما حدث بينهما، وكانت ممتنة لذلك. مع ذلك فقد كانت واحدة من الذكريات القليلة التي تعود إليها—التي كانت تتحمل العودة إليها—نصف ساعة من الوقت، منذ ست سنوات، بعد رقصة عيد الحب في المدرسة. بعد ثمانية أشهر من اختفاء تومي.

كانت تلك هي الأشهر، في البداية، عندما ظنت أن ربما بإمكانها استئناف ما توقفت عنده، وأنه سيكون من الأسهل الاستمرار في الحياة التي حظيت بها، والاعتناء بتشارلي، وتدريس فصولها. وكانت لا تزال تفحص موقع findTommynow.com كل ليلة بالطبع، وتضع منشورات جديدة في المكتبة عندما يتم التعدي على المنشورات القديمة، وتغطى ذقن تومي بدروس اليوغا لشخص آخر أو فصول

الأطفال والأمهات. لم تعد تلقي بالمنشورات المسيئة في القمامة بل كانت تنحيها جانبًا، وتثبتها على بعد بضع إنشات جيدة من وجه صبيها العذب، وتخرج من هناك.

ظن الدكتور فيرغسون أن العودة إلى العمل قد لا تكون أسوأ شيء بالنسبة لها—أي شيء يثبتها في الواقع. لم تغادر الكآبة وجوه المعلمين الآخرين قط عندما ينظرون إليها—وكان الضحك يتوقف عندما تدخل غرفة المعليمن، رغمًا عن أن هذا كان هو الحال دائمًا في الواقع. لم تكن متأكدة أبدًا من السبب. ربما ظنوا أنها محتشمة ورسمية أكثر من اللازم بالنسبة لأنواع النكات التي يطلقونها، في حين أنها في وقت من الأوقات كانت لتستمتع بسماعها. الآباء أيضًا كانوا غير مرتاحين معها، لكنها لم تكن تمانع. كانت إنسانًا آليًا، وليست امرأة، لكن لا أحد بحاجة لمعرفة ذلك. كان الأطفال خائفين قليلًا من المرأة التي اختفى ابنها، وعلموا أن هناك شيئًا خاطئًا بها، لكنهم لم يتمكنوا من صياغته في كلمات.

كانت بخير. خاصة عندما يكون هناك عمل للقيام به. ولهذا السبب تطوعت لمرافقة وإشراف رقصة عيد الحب، ولهذا السبب بقيت لوقت متأخر، تنظف المكان.

كانا آخر اثنين متبقيين. كان الدكتور راموس قد أخبر المعلمين الآخرين بالذهاب—وكانت هي الوحيدة التي قاومت. عملا في صمت، يمسحان الأشرطة الملونة مثل خيوط العنكبوت الملونة بحلوى، ويكنسان فتات الكعك الصغير واللمعان والقلوب الورقية من الأرض. قال بعد فترة. "ينبغي لكِ الذهاب إلى المنزل حقًا يا دينيس، سأنتهي من العمل هنا. أنا متأكد من أن زوجكِ ينتظركِ."

"لا." لم تكن ترغب في المغادرة حقًا. لم يكن لديها ما تفعله في المنزل.
"عذرًا؟"
"أقصد فقط، هنري بعيد في جولة وتشارلي يقضي الليلة مع جدته. لماذا لا تذهب أنت، ربما يمكنك إحضار بعض الزهور لزوجتكِ—"
"أنا وشيريل منفصلان." جلس بثقل على المدرجات وجذب شعره بيديه. "لم أكن أقصد قول ذلك."
"لم أكن أدرك ذلك. أنا آسفة."
"وأنا أيضًا. لقد حدث الأمر وحسب." اغرورقت عيناه بالدموع فجأة. "تبًا لكل شيء. لم أكن سأفعل هذا. أنا آسف جدًا يا دينيس. أنا أحمق بحق."
لم ينادها باسم دينيس قبل قط. كان الأمر دائمًا السيدة كروفورد.
جلست بجانبه.
"على ماذا أنت آسف؟"
"لجلوسي هنا وشعوري بالأسف على نفسي في حين أنتِ—"
"لا تفعل ذلك." قاطعته بسرعة. "ألا يمكنك حل الأمر مع زوجتكِ؟"
"هي لا تريد ذلك. أظن أن هناك—" وامتعض وجهه بسرعة. "شخصًا آخر." هز كتفيه، وعيناه تحمران. وأخرج قارورة من جيب سترته وأخذ رشفة، وهز رأسه. "سحقًا. أنا آسـ—"
"هل يمكنني الحصول على بعض من ذلك؟"
"ماذا؟" لمحها، متفاجئًا، وللمرة الأولى نظر في عينيها. "بالطبع."
قبضت على القارورة، وأخذت رشفة، ثم أخرى. حرق الخمر شفتيها، ناعم وخشن في الوقت نفسه.
"ما هذا؟"

ابتسم لرد فعلها.

"ويسكي جيد جدًا. هل أعجبكِ؟"

"إنه—إنه مثير للاهتمام."

"نعم."

جلسا هناك يشربان لفترة، ودفء الويسكي يتدفق بداخلها. كانت الغرفة صامتة ومشرقة جدًا، وأكوام لامعة من القلوب الحلوة والقرنفل المسحوق مكومة هنا وهناك على الأرضية الخشبية اللامعة. غابة متهدلة من الأشرطة الحمراء شبه المنظفة تتدلى من السقف. غرفة مألوفة جدًا غارقة في الغرابة. أخذت رشفة أخرى ولعقت شفتيها. "إنه جيد."

"نعم."

راقبت بالونًا ورديًا يتحرر من السقف ويطفو ببطء إلى الأسفل.

تمتم قائلًا. "لا أعلم كيف تفعلين ذلك. الاستمرار في المضي كما تفعلين. أنتِ امرأة مذهلة."

"لا." كانت سئمة من هذه الأنواع من المحادثات. وكأن بإمكانها اختيار ما يمكنها تحمله. ووضعت يدها على ذراعه. كان بصرها مشوشًا بشكل ممتع.

"أنت رجل طيب، وهي امرأة غبية. أي امرأة ينبغي أن تكون سعيدة بالحظوظ بك."

كانت هناك أشياء أخرى قصدت قولها ولم تتمكن من ذلك. أشياء تتعلق بالطريقة التي يغيب بها هنري لأسابيع متتالية الآن، والطريقة التي يبدو بها صوته على الهاتف عندما تتصل به على الطريق، جودة بعيدة في صوته وكأن أينما كان فإن المكان يمتلك جذبًا قويًا جدًا عليه

لدرجة تمنعه من محاولة أن يكون هناك معها حتى لبضع ثوانٍ. هي في المنزل مع تشارلي، ليلة بعد ليلة تحاول أن تكون أمًا له، تقدم له العشاء والحمام والكتب قبل النوم في حين كانت عبارة عن فراغ تام من الداخل. لم تسمح لنفسها بقول هذه الأشياء بصوت عالٍ، ولكن ربما سمعها روبرتو على أي حال. التفت إليها وعلائم السؤال على وجهه. قبّلته، أو تركته يقبلها، أو على أي حال كانت شفاههما مضغوطة معًا وشعرت بقلبها الوهمي ينفتح، ويدور بسرعة مرارًا وتكرارًا حتى لم يتبق منه شيء... ودينيس القديمة لم تكن لتفعل هذا أبدًا، لم تكن لتستلقي على المدرجات المعدنية الصلبة وتقبل رجلًا بمثل هذه القوة التي شعرت بها في جسدها بالكامل. شعرت بالفراغ بداخلها يمتلئ بالهواء العفن للصالة الرياضية، ورائحة كرات السلة والعرق والحصائر البلاستيكية والقرنفل وطعم الويسكي، والرغبة ترتفع وتملأ كل شق فارغ، مثل الدخان.

لم تكن تعلم أي غريزة جعلتها تتراجع قليلًا، واضعة يديها الاثنين على صدره بأقل قدر من القوة، أقل دفعة لم تكن هي نفسها تريدها أو تقصدها ولكنها كانت كافية لجعله يترنح إلى الخلف، خجلًا وخائفًا، ويهرب من الغرفة، ناثرًا الاعتذارات في أثره. لا بد أنه كان جانب الأم فيها، لا يزال حيًا، حتى ذلك الحين، يجذبها بعيدًا عن الفناء والنسيان الذي تاقت إليه كثيرًا جدًا. بقيت هناك في الصالة الرياضية لأكثر من ساعة بعد ذلك، تكنس، وتفرك بتلات القرنفل الممزقة والزلقة على شفتيها الحارقتين.

لم يكن شيئًا يمكنها فعله مجددًا. الويسكي أو الرجل. ليس عندما يكون الجذب قويًا جدًا وتشارلي لا يزال صغيرًا جدًا. اتصلت لتقول إنها

مريضة في اليوم التالي واليوم الذي بعده ثم لم تعد تأتي إلى المدرسة بعد الآن. لم تجب على أي من اتصالات روبرتو أو رسائله. قدمت أوراقها وبقيت في المنزل. لم يستجوبها أحد آخر بشأن ذلك؛ وكان الأمر وكأنهم كانوا يتوقعونه طوال الوقت.

قال روبرتو الآن، وهو يتحسس حواف صندوق القفازات في السيارة كأنه خزنة قد يقرر فتحها. "إذا كنتِ ترغبين في العودة يومًا ما، يمكننا إيجاد شيء—يمكننا استخدام أخصائية قراءة أخرى."

هزت رأسها. "لا يمكنني العودة."

فهز كتفيه مستسلمًا. "حسنًا."

"كيف حالك يا روبرتو؟ تبدو—متعبًا. صحتك بخير؟"

"أنا بخير، في الواقع. لقد—رزقت زوجتي بطفل."

"طفل؟"

"قبل شهرين." وابتسم رغمًا عنه، والضوء الأزرق النقي لفرحته يشتعل عبر التوتر في السيارة، مباغتًا إياها كما لو أن طائرًا قد طار خارجًا من صندوق القفازات وحلق حول رأسها. "أعني، أنا متعب—أنتِ تعلمين كيف يكون الأمر. ولكنه—إنه أمر جيد. جيد حقًا."

"لقد عدتما معًا أنت وشيريل إذن؟"

"ألم تسمعي؟ لقد تزوجت من أنيكا. أنيكا جونسون؟ أنيكا راموس الآن. كانت تدرس—"

"ولكنها—"

"نعم؟"

كان يراقبها.

"إنها لطيفة."

"نعم."

إنها عادية جدًا، هذا ما قصدت قوله. الآنسة جونسون العادية بشعرها البني المسترسل الباهت ووجهها الشاحب المصفر، وشفاهها الصغيرة الرفيعة المشدودة في خط. وأنت—أي شيء عدا ذلك. لكن كان بإمكانها إبقاء فمها مغلقًا. كان بإمكانها فعل ذلك.

كانت الآنسة جونسون معلمة تومي، وقد أرسلت تنسيق زهور متوقعًا مع الملاحظة المتوقعة... *آسفة لما تمرين به. تومي صبي لطيف جدًا. إذا كان هناك أي شيء يمكنني فعله، بلا-بلا-بلا.* استمرت الحياة في التحرك بسرعة أكبر مما يمكنها تتبعه. طفل جديد في العالم. واستمر العالم في المضي، والمضي، كيف يمكن ذلك، في حين هي—في حين هي— "هل أنتِ بخير يا دينيس؟ هل يمكنني مساعدتكِ بطريقة ما؟" لمح وجهها بقلق، وكأنه يبحث عن بعض الألم هناك يمكنه مسحه مثل رمش بأصابعه الباردة المغطاة بالقفاز.

تراجعت بعيدًا عنه، مرتبة ملامحها في الوجه الذي تستخدمه يومًا بعد يوم، الوجه الذي أصبح وجهها الآن. "أنا بخير تمامًا، شكرًا على السؤال."

⸙⸙⸙

جلست وحيدة في السيارة الباردة. لقد أطفأت جهاز التدفئة في الثانية التي غادر فيها، والباب يفتح على الهواء الليلي المتجمد والمنعش ويغلق عائدًا عليها، والظهر العريض لروبرتو يسرع مبتعدًا في الظلام. رأته يدفن وجهه في جلد طفله الناعم الدافئ امتنانًا وخوفًا. كانت تحمل ذلك في كل مكان معها الآن، ذلك الخوف الذي تثيره في أعين الآباء الآخرين.

أبقى البرد عقلها مركزًا، ومستيقظًا. كانت ستفعل ذلك. علمت وهي تجلس هناك أنها لن تقاوم اليوم. كانت ستتصل. لقد أجلت الأمر طوال اليوم، تتحدث مع هنري وترى روبرتو وتفعل كل شيء تحاول دائمًا عدم فعله، باستثناء الشيء الحقيقي، الشيء الذي تمنع نفسها من فعله كل ساعة من كل يوم، تشطب اليوم على التقويم إذا كانت قد قاومت بنجاح، شهور وسنوات من علامات *إكس* السوداء حتى أصبحت جلساتها الأسبوعية مع الدكتور فيرغسون شيئًا من الماضي وكادت تنسى ما كانت تشير إليه. لكن الآن لا شيء من ذلك يهم، كان هو الشيء الذي يجب القيام به، لذا التقطت الهاتف واتصلت بذلك الرقم المنحوت بحدة في قلبها.

"الملازم لودن يتحدث." كان قد التقط الهاتف في منتصف إخبار شخص ما بشيء، قصة ما؛ وكان صوته خفيفًا، يمزح. استطاعت سماع أصوات في الخلفية—خشنة، عملية. كادت تشم رائحة قهوة مركز الشرطة المحترقة.

"أصبحتَ ملازمًا الآن."

عرف صوتها بالطبع، رغم مرور بضع سنوات. فأنت لا تتصل بشخص ما في الحادية عشرة ليلًا ثم مجددًا في الثامنة صباحًا ثم مجددًا في الظهر كل يوم لسنوات دون أن تحفر صوتك في وعيه. كان هذا هو الهدف. "أجل." شعرت بالإرهاق ينزف في صوته عند سماع صوتها.

"إذن، متى حدث ذلك؟"

"تمت ترقيتي العام الماضي."

"هذه دينيس كروفورد."

"أعلم. مرحبًا يا سيدة كروفورد. كيف حالكِ؟"

"أنت تعلم كيف حالي." كان هذا ذاتها الحقيقية، صوتها الحقيقي، مبحوحًا ولا يتزعزع. ربما لهذا السبب كان من الصعب جدًا عليها التوقف عن الاتصال به.

"وما الذي يمكنني فعله من أجلكِ هذا المساء؟"

"أنت تعلم ما يمكنك فعله."

زفر هواءً.

"لو كانت هناك أخبار لكنت اتصلت بكِ، أنتِ تعلمين ذلك يا سيدة كروفورد."

"حسنًا، أردت الاطمئنان. على التحقيق. على كيف يسير."

"كيف يسير التحقيق."

"نعم."

كان هناك صمت طويل. "تعلمين أنه قد مرت سبع سنوات." كان صوته رفيعًا، يكاد يكون متوسلًا. لقد أنهكت الرجل. واعتبرت هذا نوعًا من الانتصار.

"ست سنوات، وعشرة أشهر، وأحد عشر يومًا، لنكون دقيقين. هل تخبرني أنك أغلقت التحقيق؟ هل هذا ما تقوله لي؟"

"بقدر ما يخصني الأمر يا سيدة كروفورد، هذه القضية لن تغلق أبدًا حتى—حتى نجد صبيكِ. ولكن يجب عليكِ—يجب أن تدركي أن لدينا قضايا جديدة كل يوم. الناس يستمرون في الموت في مقاطعة غرين يا سيدة كروفورد، ولديهم أمهات أيضًا، وتلك الأمهات، يتصلن بي أيضًا، ويجب عليّ الاهتمام بهم."

"تومي ليس ميتًا." كانت الكلمات سطحية، وآلية.

"لم أقل إنه مات." كان صوته ثقيلًا، ويائسًا. هكذا كانا يتحدثان مع بعضهما البعض، العلاقة الحقيقية الوحيدة المتبقية لها في العالم.

نظرت خارج النافذة. كل ما استطاعت رؤيته هو انعكاس صورتها، تينك العينين اللتين كانتا عينيها الحقيقيتين تمامًا، ليستا شرستين مثل الصوت بل متعبتين، متعبتين. وكان فمها مليئًا بذلك الطعم الذي كان في فمها طوال اليوم، طعم شيء محترق.

"أنا لا أزال أبقي عيني مفتوحتين رغمًا عن ذلك. أنا لا أنسى. حسنًا؟ أنا لا أنسى أيًا منهم، لكن خاصة تومي. حسنًا؟"

"ربما يمكنك البحث في الملفات مجددًا. ربما هناك شيء فاتك هناك ولن تدركه إلا الآن، بعد كل هذا الوقت الذي مر. أو ربما ظهر شيء صغير في مكان آخر قد يكون له بعض الأثر—"

كان هناك صمت.

"هناك شيء."

شعرت بنبضها يتسارع. آه، لقد عرفته. واستطاعت الشعور به في صمته. "ما هو؟"

"لا. إنه لا شيء."

"هناك شيء."

"كلا."

"أعلم أنك وجدت شيئًا. يمكنني سماع ذلك في صوتك. أخبرني ما هو."

"اختفى صبي قبل بضعة أشهر في فلوريدا. ربما سمعتِ عن ذلك؟"

"أنا لا أقرأ الصحف بعد الآن. وجدوه؟ وجدوا الصبي؟" ارتجف صوتها بالإثارة في حين التوت أمعاؤها بالحسد. وتلك الكلمة تتردد في أذنيها. *وُجد، وُجد.*

"وجدوا الجثة."

عندها تمزقت مجددًا بالفزع. لنفسها، ولوالدي الصبي، ولكل الآباء في العالم.

"ألم تسمعي عن هذا؟"

"كيف مات الصبي؟"

"لقد قُتل."

"كيف؟"

"لا يمكنني إخبارك بذلك."

"أيها المحقق. تعلم أنني يمكنني التحمل. تعلم ذلك. والآن أخبرني. كيف. قُتل. ذلك. الصبي." بالكاد استطاعت الحفاظ على صوتها مستويًا.

"لا، إنه—إنه جزء من التحقيق. أنا نفسي لا أعلم. إنها ليست قضيتي، إنهم يبقوننا على اطلاع في حال—كانت هناك أي تشابهات."

"هناك تشابهات؟"

تنهد. "كان الصبي في التاسعة. من أصول أفريقية. وعُثر على دراجة."

"دراجة؟ ولكن—ولكن—ولكن كانت هناك دراجة. وجدنا دراجة تومي—بجانب الطريق."

"أنا على علم بتفاصيل القضية يا سيدة كروفورد."

"والرجل الذي فعل ذلك—الذي قتل صبي فلوريدا هذا—"

"لم يُقبض عليه، لا. إنهم يعملون ليلًا ونهارًا على الأمر، يمكنني أن أؤكد لكِ ذلك."

"ليلًا ونهارًا صحيح." لقد رأت كيف يسير الليل والنهار. بنوع من الإلحاح والسرعة ليوم، لأسبوع، لشهر، ثم يصبح الأمر ساعة هنا، وبضع دقائق هناك.

"انظري، سأبقيكِ على اطلاع إذا سمعنا أي شيء. حتى لو وجدوا الجاني، فليس هناك احتمال كبير بوجود صلة. تعلمين ذلك، صحيح؟ من المرجح جدًا أنه كان شخصًا يعرفه، قريبًا، صديقًا للعائلة—"

"أين عُثر على الجثة؟"

"سيدة كروفورد."

"أين عُثر عليها؟"

"في جدول مائي في خلفية مدرسة الصبي."

"ولكن—لدينا جداول مائية في جميع أنحاء المقاطعة. نحن بحاجة لجمع فريق معًا—"

"سيدة كروفورد. ليس هناك إنش في هذه المقاطعة لم أغطّه بنفسي. تعلمين هذا. سأتصل بكِ شخصيًا إذا كان هناك أي شيء ذي صلة بالقضية. انظري، حتى لو لم يكن هناك، إذا وجدوا هذا اللعين في فلوريدا—سأتصل بكِ في ذلك اليوم. حسنًا؟"

"شخصيًا." وزفرت بمرارة.

"نعم."

"إنه يوم ميلاده اليوم."

"ماذا؟"

"إنه يوم ميلاد تومي. أصبح عمره ستة عشر عامًا."

صمت.

"انتبهي لنفسكِ الآن. حسنًا؟ سيدة كرو—"

لكنها كانت قد أغلقت الهاتف.

19

في الموتيل، تمدد أندرسون على السرير، يتملكه ألم وخيبة أمل شديدين.

لقد ارتكب خطأً؛ لم تكن قواه العقلية تعمل بكامل طاقتها. لم يسعفه ذهنه لإيجاد كلمة *سحالي*، فكتب بدلًا منها *زواحف*. يا إلهي، لم يعد قادرًا حتى على اتباع نظام تحديد المواقع (GPS)؛ يقول الصوت شيئًا، بينما يسمع دماغه شيئًا آخر تمامًا.

لقد كان مفرطًا في الحماس. حالة أمريكية قوية وموثقة جيدًا: ظنّ أن هذا سيصنع كل الفارق. طوال الأسابيع القليلة الماضية، كان يحلق مع الاحتمالات، يغفو ليلًا على أحلام إثبات صحة نظريته، ليستيقظ فقط على... خطأ تلو الآخر. الآن، انتهى كل شيء بالنسبة إليه.

كان بإمكانه سماع الصبي يبكي في الغرفة المجاورة لغرفته، والأم تحاول تهدئته. كانت الصرخات تقع عليه كالإبر. عبر الجدار الرقيق، استطاع سماع كلمتي *طريق أشفيو*.

⸙⸙⸙

"متى سنذهب إلى طريق أشفيو؟" سأل نوح بابتهاج حين استيقظ في السيارة. "متى سنذهب؟"

حتى في حالته المحبطة، شعر أندرسون بالكلمات تخترق جسده، وحماسة الصبي تشعل حماسته. *طريق أشفيو!*

أجابت جاني. "نحن في أشفيو الآن يا حبيبي."

قال الطفل بصبر. "لكنه المكان الخاطئ."

"ربما يا عزيزي." نظرت بحدة إلى أندرسون، كما لو كانت ترى ابتهاجه الخام، وقد آلمها ذلك. "لكننا انتهينا هنا."

"إذن، هل سنذهب إلى المكان الصحيح الآن؟"

"لا أعتقد ذلك يا صغيري. لا."

تراجع نوح في مقعد السيارة، متطلعًا من أحدهما إلى الآخر بنظرة من عدم التصديق. ثم التفت إلى أندرسون. "لكنك قلت إنك ستساعدني في العثور على أمي."

"أعلم أنني قلت ذلك." أومأ برأسه في استسلام مهزوم. لقد آذاهما، الأم والطفل. "أنا آسف يا نوح."

قالت والدته. "نوي، هل تود بعض المثلجات؟"

تجاهل الصبي أمه. كانت عيناه اللتان تخترقان أندرسون تفيضان بنوع من اليأس بدا أعمق من وعي طفل. "أنا خائب الأمل تمامًا."

ثم أدار رأسه، حاجبًا كلا البالغين، ووضع يديه على وجهه، وبدأ في البكاء.

⸙⸙⸙

نهض أندرسون من السرير. فتح الثلاجة الصغيرة، وأخرج زجاجة فودكا صغيرة، فك غطاءها، ووضعها على فمه، في نوع من التجربة. لم يشرب الفودكا منذ عقود. سكب القليل منها على لسانه، تاركًا إياها تلسعه هناك ليحسم أمره، ثم تجرع الباقي دفعة واحدة.

دبّ الدفء في جسده بلطف، كأن يدًا خفية تلاطفه في أماكن لم يلمسها أحد منذ سنوات. ارتعش عقله، مستشعرًا الفناء الوشيك. مسح بيده على وجهه، ليعيدها ملطخة بلون يشبه الصدأ. ماذا الآن؟

نظر في المرآة. خيط رفيع من الدم الداكن ينساب من أنفه إلى شفتيه، ووجنتاه ملطختان به. لم يقو على مواجهة عينيه في المرآة.

حشا بعض المناديل في منخريه، وترنح عائدًا إلى السرير. كان يفقد السيطرة؛ كانت جذوره تتراخى تحت تأثير الخمر كشجرة في عاصفة ريحيّة، وعقله ينحرف فجأة، وبشكل لا مفر منه، نحو الشيء الوحيد الذي لم يسمح لنفسه أبدًا بالتفكير فيه. الملف الذي كان سيمزقه إربًا، لولا أنه دليل مادي. أسوأ حالاته على الإطلاق.

بريتا.

استلقى على السرير وحاول إعادتها إلى المكان الذي احتفظ بها فيه طوال هذه السنوات، بعيدًا عن أفكاره اليومية. مع ذلك، لم يستطع الآن التوقف عن رؤيتها. طفلة في الخامسة من عمرها تركض في الفناء مع إخوتها، تطارد كرة، وشعرها اللامع يتطاير. لقد كان سعيدًا بأن يكون لديه طفل مبهج كهذا ليكون موضوع دراسته، بعد فترة طويلة من العمل مع الأطفال الخائفين والمستضعفين في السهول الطينية.

بريتا كابور، نحيلة وجميلة، بعينين واسعتين جادتين.

لقد ظن أنها ستكون واحدة من أقوى حالاته.

أشعة الشمس تتدفق عبر النوافذ الصغيرة للمنزل الخرساني. الطريقة التي وقفت بها الأم وأغلقت النوافذ، ملقية الغرفة في الظلال. الطاولة النحاسية تلمع في الغرفة المعتمة، ويداه هو تتعرقان. طعم الزلابية المستديرة الحلوة على شفتيه—سكر وورد وحليب.

تمثال غانيش الخشبي في الزاوية، مزيل العقبات. تلفاز مستند إلى الجدار، تومض شاشته بفيلم بوليوودي لا يشاهده أحد.

قال والدها. "لم تكن بريتا تتحدث كثيرًا في السنوات القليلة الأولى. حتى بلغت الرابعة، كانت صامتة في الغالب."

قالت الأم بملامح متألمة. "ظننا أنها ربما كانت..."

تابع الأب. "متأخرة عقليًا. لكن بعد ذلك في الرابعة، بدأت تتكلم. قالت: 'أريد الذهاب إلى المنزل'"
أضافت الأم. "'أريد الذهاب إلى المنزل لإحضار ابنتي'، هذا ما كانت تقوله. كانت تقول: 'هذا ليس بيتي، لدي ابنة، أحتاج للذهاب وإحضار ابنتي'."
"وكيف كانت استجابتكم؟"
"أخبرناها أن هذه هي حياتك الآن، وربما تتذكرين حياة أخرى. لكنها... أصرت. وأيضًا، كانت تستخدم كلمات غير مألوفة."
"كلمات؟" أخذ رشفة أخرى من الشاي الحلو. "أي نوع من الكلمات؟"
قالت الأم. "كلمات غريبة. ظننا أنها من اختراعها. كلام أطفال، كما تعلم."
"أفهم ذلك."
قال صديقهم المحامي. "لذا بحثت في الأمر، من أجل العائلة." أخرج بعض الملاحظات من حقيبته. "ظننت أن الأمر مثير للاهتمام، كما ترى. لقد أثارت الحالة اهتمامي."
"وماذا وجدت؟"
هز المحامي إصبعه في وجه أندرسون. "لن تخمن أبدًا ما وجدته."
كتم أندرسون نفاد صبره وابتسم ابتسامة باهتة للمحامي، وهو رجل ممتلئ الخدين، مبهج، يلوح بحزمة من الأوراق الرقيقة في يده بحماس يعرفه أندرسون جيدًا. "نعم؟"
"الكلمات هي من لهجة 'خاري بولي'، وهي لهجة من غرب ولاية أوتار براديش، على بعد أكثر من مئة وخمسين كيلومترًا من هنا."
"أنت متأكد من هذا؟"

"مؤكد تمامًا!" أثار أسلوبه حنق أندرسون قليلًا؛ لا أحد يستحق أن يكون بهذا القدر من اليقين.
"وأنتما لا تعرفان هذه اللهجة؟" وجه حديثه إلى الوالدين. نظرا إليه بهدوء.
"أوه، لا."
"أي أقارب؟ جيران من تلك المنطقة قد يعرفونها؟ أي معارف على الإطلاق؟"
قال المحامي. "لقد سألت. ويمكنك أن تسأل أنت أيضًا. الإجابة هي لا. هم لا يتحدثون تلك اللهجة هنا. لقد كتبت كل شيء."
سلم أندرسون ملاحظاته. لانَ أندرسون قليلًا؛ فلم يكونا مختلفين تمامًا في النهاية. لقد وثّق المحامي كل شيء، كل تصريحات الفتاة الأولى، مع التواريخ. "أتمنى لو كان بإمكاني مواصلة هذا العمل بنفسي، ولكن—للأسف لدي مسؤوليات." راقب أندرسون، وعيناه الصغيرتان تلمعان. رجل آخر سحرته الحقائق.
نظر أندرسون إلى الورقة. كل تلك الكلمات من لهجة الخاري بولي؛ كانت طلاسم غير مفهومة لعائلتها، ومع ذلك كانت بريتا تعرفها وهي طفلة صغيرة. طفلة تفهم كلمات بلغة لم تدرسها ولم تسمعها من قبل: حالته الأولى من *تكلم لغات لم تُتعلم*. كانت هناك حالات أخرى، لكن هذه كانت الأقوى.
بريتا الجميلة، بشعرها اللامع وعينيها الرصينتين.
أحضروا الفتاة إلى الداخل، لكنها لم تتحدث. تحدث الأب، ويداه الأنيقتان ترسمان الكلمات في الهواء وهو يشرح، بينما تمرر الأم طبقًا

آخر من اللوز المحمص وكاسترد الفواكه والزلابية المستديرة بنكهة الورد والسكر التي لم يكن يكتفي منها...
"إنها تبكي دائمًا في المساء، تبكي وتبكي. تقول إنها تفتقد ابنتها."
"إنها تقلق على ابنتها. من سيعتني بها؟ تقول إن زوجها ليس رجلًا صالحًا. عائلته ليست جيدة. تقول إنها أرادت الذهاب إلى منزل والديها، لكنهم لا يسمحون لها. تريد الذهاب إلى المنزل ورؤية ابنتها."
كانت الفتاة تجلس إلى الطاولة، تستمع بصمت إلى كل هذا، ورأسها منحنٍ قليلًا كتلميذة نادمة، ويداها مضمومتان في حجرها.
"هل ذكرت اسم القرية في أوتار براديش؟"
"نعم."
بالطبع سيذهبون. لم يكن يطيق الانتظار، وكان ليرحل في ذلك المكان لو كان ذلك ممكنًا. لكن كما كان الحال، كان عليهم الانتظار حتى الصباح. سافر الخمسة جميعًا، محشورين في شاحنة أندرسون المستأجرة، عبر الريف. كانت المسافة مئة ميل فقط خط نار (كما يطير الغراب)، ولكن هذه هي الهند: استغرقت الرحلة تسع ساعات.
ردتهم عائلة الزوج عند الباب. تحدث إليهم عند عتبة الباب لفترة طويلة، ورأسه منحنٍ في الحر، يهمس بأسلوبه الأكثر احترامًا وإقناعًا، لكنهم وقفوا هناك بوجوه واجمة واستمعوا إليه حتى النهاية وهزوا رؤوسهم.
لم يكن الأمر أنهم لم يصدقوا—هذا ما يتذكر أندرسون أنه فكر فيه. أوه، لقد آمنوا تمامًا بأنه من الممكن أن تكون هذه هي زوجة ابنهم، ولدت من جديد. لكنهم لم يريدوا أي علاقة بها، لا في تلك الحياة ولا في هذه. حتى إنهم لم يعطوهم اسم والدَي الشخصية السابقة، أو البلدة

التي عاشت فيها قبل المجيء إلى هنا. وقفت الطفلة الصغيرة بصمت. لقد أحاطت ذاكرتها بهذا المكان وحده، ولم تحط بأي مكان آخر. من يدري لماذا؟

قال أندرسون والباب يُغلق. "هل يمكننا رؤية الابنة؟ ابنة سوتشيتا؟ هل هي في البيت؟"

"لا توجد ابنة."

قال الجيران خلاف ذلك. كانت هناك طفلة صغيرة، قبل سنوات. لقد ماتت. ولم يعرف أحد كيف.

استقبلت بريتا النبأ بصمت. شكرت الجيران (محددة اثنين منهم باسميهما) ومشت بعزيمة في طريق يؤدي إلى ضفة النهر الذي يتدفق عبر القرية، حيث كانت النساء يغسلن الملابس. وقف أندرسون ودون الملاحظات بسرعة بقلمه الأزرق، والورق الأصفر يرفرف في الريح، بينما كانت تخبرهم بصوت طفلة مبحوح كيف عاملها زوجها وعائلته. كيف أنها وحيدة تمامًا في هذه القرية، بعيدة جدًا عن والديها، وفي سن الرابعة عشرة أنجبت طفلة، ثم بعد عامين، حملت وأنجبت طفلة أخرى. وكانت حماتها هي القابلة.

أخذوا منها الطفلة الثانية فورًا.

قالوا لاحقًا إنها وُلدت ميتة، لكنها كانت تعرف أكثر منهم، لقد سمعت الصرخات.

عندما اتهمتهم بقتل ابنتها الرضيعة ضربوها، وركلوها في وجهها وبطنها في تلك الليلة نفسها، بعد الولادة مباشرة. عندما شعرت بالألم ظنت أن الأمر ربما لم يحدث وأن الطفل لا يزال بداخلها، لكنها أنجبت هذه المرة شيئًا أسود محزنًا مصنوعًا من الدم والأنسجة.

ربما كانت ستموت على أي حال. ربما كانت تعاني من نزيف.
على أي حال، لن يعرفوا أبدًا؛ ألقت بنفسها في نهر يامونا في الصباح التالي.
روت الفتاة، بريتا، هذه القصة؛ انهمرت منها في جمل سلسة تتجاوز بكثير قدرات الطفلة التي كانت عليها آنذاك، واقفة بصوت مبحوح على ضفة ذلك النهر الموحل المتدفق بينما كانت النساء يضربن ملابسهن لتنظيفها على الحجارة عند حافة النهر وصفحات دفتره ترتفع وتنخفض كالمروحة، كالتنفس.
لقد سجل الملاحظات.
عادوا بالسيارة في رحلة التسع ساعات إلى قريتها في صمت. حتى الفتاة كانت صامتة.
أخبرهم أنه سيعود في المرة القادمة التي يكون فيها في الهند، للمتابعة، ليرى كم لا تزال تتذكر. تذكر كيف صافحه الأب مصافحة جيدة وقوية. كيف تشبثت الفتاة بساقيه، مباغتة إياه، وهي تودعه.
بريتا، بشعرها اللامع وعينيها الرصينتين، تلوح له من خلف الفناء...
لم يكن هناك ما يفعله سوى ترك ذكرى ذلك تملأ عقله كرائحة الياسمين، كرائحة الطين الأحمر.
كان يحاول متابعة أفضل حالاته كل بضع سنوات. لكنه كان مشغولًا، في أوج عطائه، يتتبع الحالات في سريلانكا وتايلاند ولبنان، يؤسس المعهد، يكتب المقالات، يكتب كتابه الأول، ثم يحاول الحصول على مراجعات له في أماكن مرموقة. كل هذا استغرق وقتًا، ومرت أربع سنوات قبل أن يعود إلى ذلك الجزء من الهند.

كتب لهم رسالة قبل زيارته لكنه لم يتلق أي رد، ففعل ما يفعله دائمًا في تلك المواقف: سافر عبر البلاد لرؤيتهم.

جاءت الأم إلى الباب، مشتتة الانتباه، وعلى وركها طفل جديد. ارتدت خطوة إلى الوراء عندما رأته.

لقد عادوا إلى القرية بدونه. شرحت له هذا بعد فترة وجيزة، في الغرفة نفسها التي يتذكرها بنافذتها المغلقة، وطاولتها النحاسية التي تلمع في العتمة، وتمثال غانيش الخشبي المزخرف بنقوش معقدة. هذه المرة كانت الأم تتحدث، بينما كان الأب يجلس في الظلال، يستمع.

بريتا في التاسعة. أرته صورة لها. جميلة كما كانت دائمًا، ممشوقة القوام ورشيقة، بابتسامة حزينة. كانت تتوسل إليهم للعودة، لرؤية القرية مرة أخرى، وبعد فترة كانت التوسلات أكثر مما يمكن لوالديها المحبين تحمله. كان لوالدها عمل أحيانًا في تلك المنطقة، يبيع بعض المنسوجات في بلدة مجاورة، فأخذها معه. وأقاموا في منزل صغير في القرية يخدم المسافرين أحيانًا.

بحلول الوقت الذي استيقظ فيه والدها في الصباح التالي، كانت قد اختفت.

النهر نفسه، مرتين.

قال القرويون إنها لم تتردد. مشت بعزيمة نحو النهر وانزلقت مباشرة من جانب الضفة، والطين الأحمر يلطخ ظهر ساريها، ولونه الأخضر البحري الساطع يلوح كعلم في المياه الرمادية. حدث الأمر بسرعة. لم يقل أحد من القرويين الذين كانوا يستعدون للسوق الصباحي كلمة واحدة. وقفوا ببساطة في صدمة وحدقوا في الرأس الداكن الجميل بوجهه الثابت وهو يطفو على سطح النهر، والقماش الأخضر ينبسط

على الماء الرمادي ثم يغرق تحت وطأة وزنه، ويفقد بريقه أمام اندفاع الرمادي، بينما كانت تعبر المنعطف.
لم يقفز أحد خلفها. لم يكونوا يعرفونها. كانت فتاة غريبة في قرية صغيرة. كان النهر خطيرًا. لم يعثروا على الجثة أبدًا.
شعر أندرسون بالاختناق في تلك الغرفة المظلمة. شكر والدي بريتا، بضعف واعتذار، على قضاء الوقت في إخباره بقصتهم، وتعثر خارجًا، مباشرة في إعصار موسمي. وقف هناك تاركًا السماوات تسقط فوق رأسه. في لحظة من الارتباك ظن أن طفلته هي من فعلت هذا. طفلته التي فقدها.
لو لم يأت إليهم، لما ذهبوا إلى القرية أبدًا، ولنسيت الفتاة.
كان هناك بعض المتابعة للقيام بها في القرية، تدوين روايات القرويين عن الوفاة. قام ببحثه، وسجل كل شيء، كل شاهد، ويده تكتب الأوصاف بحبر أزرق دقيق على ورق أصفر بينما كانت عينه الداخلية موجهة دائمًا نحو ذلك النهر الموحل، ذلك الرأس الذي يطفو. لم يستطع النظر إلى النهر مباشرة؛ كان خائفًا من أن يلقي بنفسه فيه.
أفرط في الشرب في تلك الليلة، باحثًا عن الاستحمام في النسيان، لكن الأسئلة طارت في وجهه كالغربان التي كانت تنتظره هو فقط ليفتح الباب، غربان تطير نحو وجهه.
كان ذلك خطأه.
خطأه أن رفات الطفلة يرقد في مكان ما في قاع النهر. خطأه أنها لن تحظى بأطفالها، بحياتها الخاصة.
كان بحثه بلا فائدة. بل أسوأ من ذلك.

لقد آمن دائمًا بالوضوح: بالنظر بأكبر قدر ممكن من النقاء إلى ما كان، على الرغم من الرغبة في الانحراف نحو الوهم المريح والإسقاط، واتباع النتائج بعقلانية. لذلك لم يستطع حماية نفسه الآن من الأسئلة التي تلت ذلك: ماذا يعني أن تولد من جديد فقط لتعيش عذاب الحياة السابقة؟ ما الحكمة في ذلك؟ ما المعنى؟

استطاع أن يرى، فجأة وللمرة الأولى، جاذبية الهروب، جاذبية العدمية. مع ذلك، فإن جزءًا منه، حتى ذلك الحين، العالم فيه، أبقاه متماسكًا، متحدثًا بوضوح وثبات تحت ضوضاء اللوم والحزن: هل يمكن لدافع الانتحار أن يتدفق كفوبيا أو سمة شخصية من حياة إلى أخرى؟ هل يمكن أن يكون هناك حزن غير حاسم وقوي لدرجة أنه يستمر، يتدفق إلى الحياة التالية بقوة تشبه عيبًا خلقيًا أو وحمة، حيث لا يمكن التخلص منه؟

لم يكن رجلًا يصلي، ليس على الإطلاق، أبدًا، لكنه تلا صلاة على أي حال، واقفًا على ضفة النهر الذي لم يستطع إجبار نفسه على النظر إليه، بأن تكون حياتها القادمة بعيدة عن هنا.

لقد انتشل نفسه من يأسه بالإرادة الغاشمة وحده. لقد أقلع عن الشرب تمامًا في رحلة القطار الطويلة العائدة إلى كلكتا، والرغبة الشديدة تنقر في أعصابه، ويداه ترتجفان دليلًا على إدمان لم يدركه إلا بشكل باهت.

عندما ظهر أخيرًا، مهزوزًا وصاحيًا، عرف أن هناك أسئلة لا يمكنه طرحها على نفسه. وأن هناك ارتباطات لا يمكنه تكوينها. كانت هذه هي الطريقة الوحيدة للاستمرار. وقد استمر على هذا النحو، يعمل بثبات.

حتى الآن.

في ثلاجة الموتيل الصغيرة، كانت هناك زجاجات صغيرة أخرى–صف كامل منها. أدار أندرسون المفتاح وفتح الباب مرة أخرى وحدق. بدا الأمر وكأن أيامًا قليلة فقط مرت منذ توقفه عن الشرب، وليس عقودًا. كان النسيان ينتظره بصبر طوال هذه السنوات. *حسنًا إذن*، فكر. ومد يده للحصول على فودكا صغيرة أخرى.

لا.

ركض إلى الحمام وبصق وغسل فمه، منظفًا أسنانه مرتين. *ليس بهذه الطريقة. ليس بعد كل هذا الوقت*. ألقى بمفتاح الثلاجة في المرحاض وضغط زر الشطف، لكنه ظل في الحوض، يلمع ككنز في قاع البحر.

شق طريقه عائدًا إلى السرير ومدد جسده، محاولًا إحياء شعور الدفء الذي ولدته الفودكا تحت جلده. كان يستطيع تذوق الكحول على شفتيه تحت طعم معجون الأسنان. على الجانب الآخر من الجدار، كان الصبي لا يزال ينتحب.

تبًا.

لقد أحبّه. الصبي. *نوح*.

تبًا. تبًا. تبًا.

⁂

عندما غفا أندرسون أخيرًا، حلم بأوين. حلم بأن ابنه كان معافى سليمًا. كان أوين سليمًا وكانت شيلا سعيدة ولم تكن هناك حاجة للذهاب إلى تايلاند، بغض النظر عما قاله أنغسلي عبر الهاتف. كان بإمكانه البقاء في ولاية كونيتيكت مع عائلته وجرذان تجاربه.

استيقظ فجأة، على شعور بالخسارة ناصع النقاء لدرجة أنه لم يستطع الكلام في البداية.

جلس في السرير. كانت الغرفة لا تزال مظلمة. وكان عقله صافيًا.

يمكنني مساعدته، فكر. يمكنني مساعدة هذا الطفل. لقد أخطأت، ولكن لم يفت الأوان بعد لتغيير ذلك. إذن فقد كان لدينا الشخصية السابقة الخاطئة. حسنًا. لقد حدث هذا من قبل. لدي المعلومات، التي أحتاجها الآن. سأقنع والدته. من أجل نوح، سأصيب هذه المرة.

لكنه كان قد استسلم. أليس كذلك؟

نهض وفتح الستائر، متطلعًا عبر النافذة إلى الفجر الذي بدأ يفرض نفسه عبر موقف السيارات غير المبالي، والضوء الشاحب ينير الشارع. يوم آخر، سواء رغب في ذلك أحد أم لا. مع ذلك، شعر بنفسه على الرغم من كل مخاوفه جائعًا لبدء هذا اليوم.

مشى إلى حاسوبه وقام بتشغيله. لم يكن يطيق الانتظار حتى يفتح. فتح نافذة البحث وكتب: *تومي طريق أشفيو*.

20

ربطت جاني حزام الأمان لنوح ثم لنفسها بشعور من العزم الصارم.
كانت مضيفة الطيران في الفيديو تقول: "في حال حدوث تغيير في ضغط المقصورة، ضع قناع الأكسجين الخاص بك أولًا، مع سحب الحبل، ثم ساعد الآخرين في مجموعتك ممن يحتاجون إلى مساعدتك." أظهر الفيديو أبًا وسيمًا يضع قناع الأكسجين فوق وجهه، وابنته الهادئة تجلس بهدوء بجانبه، تتنفس هواءً سيئًا.
أي نوع من الأغبياء ابتكر هذه القاعدة؟ إنهم لا يفهمون الطبيعة البشرية على الإطلاق.
تخيلت المقصورة تمتلئ ببطء بالدخان ونوح بجانبها، يلهث. هل ظنوا حقًا أنها تستطيع ضبط القناع على وجهها وتستنشق هواءً نظيفًا بينما يكافح ابنها المصاب بالربو لالتقاط أنفاسه؟ كان الافتراض هو أنها وطفلها كيانان منفصلان بقلوب ورئات وعقول منفصلة. لم يدركوا أنه عندما يلهث طفلك بحثًا عن الهواء، تشعر بأنفاسك أنت محتبسة في صدرك.
في الوقت نفسه، كانت تكذب على ابنها، وكان هذا يجعله يعوي من الضيق، ويزعج الركاب الآخرين على الطائرة، ويعطل قدرتهم على سماع كيفية ربط حزام الأمان، ويشوش بجدية على حسن إدراكها المتضرر بالفعل.
أراد نوح الذهاب إلى طريق أشفيو، وهم ذاهبون إلى طريق أشفيو، لكن لم يكن بإمكانه معرفة ذلك، ليس بعد، ليس هذه المرة. "بروكلين عن طريق دايتون،" هذا ما قالته له، ممتنة لأنه لا يزال صغيرًا جدًا ليفهم

الخريطة. لم تكن مستعدة لارتكاب الخطأ نفسه مرتين. ستصنع خطأً جديدًا بدلًا من ذلك، إذا لزم الأمر.
كان نوح يصرخ. "أريد أن أرى ماما!" نظر إليها الركاب الآخرون كما لو كانت تكذب عليهم أيضًا.
استعدت الطائرة للإقلاع وبدأت تتحرك للأمام، منطلقة بسرعة على المدرج. لم تكن خائفة أبدًا من الطيران، ولكنها الآن شعرت بشيء يشبه الإنذار الخطر عند الاهتزازات الأولية للطائرة وهي ترتفع.
عندما كانت حاملًا، قرأت دراسات تفيد بأن المستويات العالية من هرمون التوتر الكورتيزول يمكن أن تعبر من خلال المشيمة إلى الجنين، مما يؤثر على نمو الجنين ويسبب انخفاض الوزن عند الولادة. كان هذا منطقيًا بالنسبة إليها: لم يكن الأمر يقتصر على الجزر الذي أكلته، والفيتامينات التي تناولتها: ما شعرت به، شعر به طفلها. لقد حاولت البقاء هادئة قدر الإمكان، ورفضت وظيفة ممتازة في شركة كبرى حتى لا تؤثر سلبًا على طفلها النامي بساعات العمل الطويلة والتوتر الأقصى.
الآن شعرت بالكورتيزول يرتفع في جسدها وتساءلت عما إذا كان نوح لا يزال بإمكانه الشعور به بطريقة ما، وما إذا كانت جزيئات صغيرة من توترها تحيط بالهواء الذي يتنفسه وتجعل كل شيء أسوأ. لم يكن بيدها حيلة، رغم ذلك. كان العالم أكثر خطورة مما كان عليه قبل بضعة أسابيع. لقد كان عالمًا ينزلق ويميد من تحتك، حيث يموت الأطفال لأن الأمهات ينسين فحص المزلاج. كيف تحافظ على سلامة طفلك في هذا النوع من العوالم؟

منذ اللحظة التي خطت فيها داخل حافلة غرايهاوند وحتى اللحظة التي مشت فيها إلى الطائرة مع نوح وجيري في مطار دالاس، كان لديها شعور بالتدحرج من على تل شديد الانحدار. لم تستطع التوقف. إذا وضعت يديها على جانبيها لإبطاء الزخم، فستجرحهما حتى ينزفا دمًا.

ارتفعت الطائرة في السماء. وارتفع صوت نوح إلى عويل حاد ومستمر.

تركت وحيدة مع نفسها. ماذا كانت تفعل؟ كيف يمكنها مراجعة هذه الفكرة مرة أخرى، بعد الفشل الذريع الذي واجهوه مؤخرًا؟ كيف يمكنها المخاطرة بإيذاء أم أخرى تفجع في طفلها؟

كيف يمكنها أن تتخيل أن نوح ليس لها ولها وحدها؟

مع ذلك، وكأنما في رد على ذلك، خطرت العبارة فجأة في رأسها:

أولادكم ليسوا لكم.

أين سمعت ذلك؟ من قال ذلك؟

أمالت جاني رأسها لفترة وجيزة على المقعد الذي أمامها وربتت على ركبة ابنها الصارخ.

أولادكم ليسوا لكم.

تذكرت الآن، وهي تستمع إلى الصرخات التي تجتاحها في موجات من الصوت وترى مضيفة الطيران وهي عابسة في الممر متجهة نحوها. لقد كانت أغنية. أغنية لفرقة *سويت هاني إن ذا روك* سمعتها مع نوح الصيف الماضي في حفل موسيقي مجاني في متنزه بروسبكت.

كانت أمسية من أوائل يوليو، وكان الهواء لطيفًا وعليلًا. لقد استقرت على بطانية مع بعض الأصدقاء وما يكفي من الحمص والخبز والجزر لإطعام مدينة صغيرة من أطفال الروضة. امتزجت أصوات المغنين في تناغم تام بدون آلات موسيقيّة (أولادكم ليسوا لكم... على الرغم من

أنهم معكم، فهم لا ينتمون إليكم)، خلعت جاني حذاءها وحركت أصابع قدميها المتعبة، مستمعة إلى مخاوف صديقاتها (المدارس الخاصة مقابل المدارس العامة، الأزواج الطائشون). لم تكن هي نفسها قادرة على تحمل تكاليف المدرسة الخاصة ولم يكن لديها زوج لتشكو منه، لكنها كانت سعيدة، لأن الأغنية كانت خاطئة، ونوح كان لها، وكانت أمسية جميلة، ولم تكن تتخيل وجود الكثير من الحب المتبقي في داخلها لأي شخص آخر، على أي حال.

كيف كان لها أن تتخيل آنذاك أنها ستكون هنا، تنطلق بأسرع من الأنفاس نحو امرأة لا تتوقع حضورهم؟

الصيف الماضي فقط، ومع ذلك فقد بدا الأمر وكأنه حياة أخرى.

صرخ نوح مرة أخرى. "أريد ماما!" واستطاعت الطائرة بأكملها سماعه: كما لو كانت تختطفه، كما لو لم يكن دائمًا ملكها بالكامل.



عندما استقرت الطائرة في الأعالي بأمان واستنفد نوح نفسه أخيرًا، ساقطًا في نوم متقطع، مدت جاني يدها أسفل المقعد الذي أمامها وسحبت الصفحات التي طبعها أندرسون في الليلة السابقة. نسخ من مقالات صحفية من جريدتي ميلرتون جورنال ودايتون دايلي نيوز عن تومي كروفورد، الذي كان يعيش في طريق أشفيو وكان في التاسعة من عمره عندما اختفى. كان طالبًا في مدرسة ماكينلي الابتدائية، حيث كانت والدته معلمة مدرسة.

كانت الصورة في المقال الصحفي من يوم التصوير المدرسي. العلم الأمريكي على أحد الجانبين، وخلفية قوس قزح مبتذلة ضد سماء زرقاء مزيفة. كان يمكنك تقريبًا سماع المصور وهو يحثه: "ابتسم

بوضوح الآن. ابتسم ابتسامة عريضة." كان يمكن أن يكون أي صبي، حقًا. كانت بشرته بنية فاتحة. كان أمريكيًا من أصل أفريقي. لم تكن تعرف لماذا كان هذا مفاجئًا لها. ابتسم لها في الصورة. كان لديه ابتسامة لطيفة.

"السلطات توقف البحث عن الصبي المفقود"

أوقفت قوات شرطة مقاطعة غرين البحث اليوم عن تومي كروفورد، تسعة أعوام، من 81 طريق أشفيو، الذي اختفى من حيه في أوك هايتس في 14 يونيو. ورغم المخاوف من وفاة الطفل، صرح المحقق جيمس لودن، الذي كان يقود جهود البحث، قائلًا: "بقدر ما يخصني الأمر، هذه القضية لن تنتهي حتى نجد الصبي، بطريقة أو بأخرى."

كروفورد، الذي كان يدرس في مدرسة ماكينلي الابتدائية، هو بحسب جميع الروايات صبي ذكي ومحبوب. يصف والداه طفلًا مبهجًا يحب لعبة البيسبول وهو شقيق أكبر مخلص لتشارلز، ثمانية أعوام. قال والداه، دينيس وهنري كروفورد، في بيان: "تشارلي يفتقد شقيقه الأكبر. نحن نسيء إلى ولدنا الحبيب. إذا كان تومي معك أو كنت تعرف مكانه، يرجى، يرجى الاتصال بـ—"

نظرت بعيدًا. كان هناك الكثير من الألم في هذه الورقة.

لقد كانوا في الغيوم الآن، في طريقهم إلى مكان لم تزره من قبل. كانت تطير بدافع الغريزة، كلغز حتى بالنسبة لنفسها.

آمنت جاني بالثبات والاستمرارية. كان هذا شيئًا تفخر به. كانت تقول: "لا مقرمشات قبل وقت النوم،" ثم تتمسك بكلمتها. لقد كانت هادئة المزاج (في الغالب)؛ وكانت ثابتة (بقدر الإمكان). كان الأطفال بحاجة إلى ذلك.

لقد حاولت خلق النظام في حياة نوح بالطريقة التي خلقت بها والدتها النظام في حياتها الخاصة، بعد فوضى العيش مع والدها. لم تكن تتذكر الكثير من الوقت الذي سبق مغادرة والدها لهما. كانت هناك ذكرى للجلوس عاليًا على كتفيه في معرض الولاية—ولكن هل كانت تلك ذكرى حقيقية أم شيئًا اخترعته من صورة كانت تملكها؟ كانت هناك المرة التي ذهب فيها الاثنان إلى المركز التجاري في مهمة ما واشترى لها بشكل عفوي دبًا قطبيًا محشوًا ضخمًا، كبيرًا جدًا على أي غرفة باستثناء غرفة المعيشة، وقد اعترضت والدتها لكنها ضحكت بعد ذلك وتركتها تحتفظ به هناك بجانب التلفزيون. كانت هناك رائحة غليونه والسكوتش الخاص به، وصوت طرقه على الباب طوال الليل عندما كان يشرب وترفض والدتها إدخاله. كانت هناك والدتها وهي تمسك بكوب ماء مليء بالنبيذ الأحمر (المرة الأولى والأخيرة التي رأت فيها جاني والدتها تشرب)، تخبرها بالصوت الواقعي المألوف الذي كانت تملكه دائمًا أنها طلبت منه المغادرة وأنه لن يعود أبدًا، وكانت على حق؛ لم يعد. كانت جاني في العاشرة من عمرها آنذاك. تذكرت ذلك اليوم تمامًا، المشهد المباغت لوالدتها وهي تشرب في فترة بعد الظهر، والطريقة التي تطاير بها النبيذ بينما كانت والدتها تتحدث وكانت جاني متوترة من أن ينسكب.

بعد ذلك، عادت والدتها إلى العمل كممرضة ودخلتا في إيقاع منتظم. بدأت تعمل في النوبات الليلية عندما كانت جاني في الثالثة عشرة، لكنها كانت في المنزل للإشراف على الواجبات المدرسية، تحرص دائمًا على وجود وجبات عشاء صحية في المنزل لتسخينها في الميكروويف وملابس نظيفة ومكوية لترتديها في الصباح قبل المدرسة. عندما كانت

تلك الليالي تصبح وحيدة قليلًا، تراجعت جاني إلى غرفتها، حيث كان كل شيء بالضبط بالطريقة التي أرادتها أن يكون عليها. فتحت الباب ورأت ملصقاتها المؤطرة للقلاع الأوروبية الضبابية والخيول؛ وأثاثها المصبوغ يدويًا بألوان أساسية مبهجة؛ وخزائنها المنظمة حسب نظام الألوان؛ عالمها المنسق بالألوان.

تلا ذلك حياة كاملة من خلق المساحات المنظمة، فما النفع الذي عاد من ذلك؟ عندما لا يكون العالم منظمًا.

حتى والدتها كانت، في النهاية، لغزًا بالنسبة إليها.

عندما فتشت منزل والدتها في ذلك الأسبوع الذي تلى وفاتها—تلك الأيام التي كانت فيها غائبة عن الوعي تقريبًا، وقلبها متجمد من الحزن، على الرغم من أن الكلمات كانت تشق طريقها أحيانًا إلى السطح وتتصدع خارجة (كلمات مثل لماذا ويتيمة، على الرغم من أنها بقدر ما علمت كان والدها لا يزال على قيد الحياة في مكان ما، والإله، الذي لم تُعلّم أبدًا أن تؤمن به ولكنها كانت غاضبة منه على كل حال)—وجدت في درج الطاولة المجاورة لسرير والدتها نوع الكتب الذي كانت أمها تسخر منه دائمًا. حتى إنه كان يحمل قوس قزح على غلافه وعنوانًا من العصر الجديد: يمكنك تغيير حياتك. تصفحت الصفحات؛ كان يحتوي على فصول عن التأمل، والكارما، وتقمص الأرواح، وهي أفكار لم يبد أن والدتها الملحدة منحتها ثانية من التفكير—إذ كانت تقلب عينيها وتقول: "من لديه الوقت للتفكير في ذلك؟ عندما ترحل، فإنك ترحل." مع ذلك، كان الكتاب مقروءًا بكثرة وموضوعًا تحته خطوط كثيفة، مع مقاطع مميزة بنجوم وعلامات

تعجب. جملة واحدة، *كل شيء هو إسقاط للعقل*، كانت بجانبها ثلاث نجوم.

هل كانت والدتها ترغب بشدة في استمرار الحياة لدرجة أنها فقدت تعقلها المعتاد؟ أم أنها وجدت شيئًا في النهاية غير الطريقة التي تنظر بها إلى كل شيء؟ أم أنه كان كتاب شخص آخر، ونجوم شخص آخر؟ لم تكن جاني تعرف، ولن تعرف أبدًا، لذا أخرجت الأمر من عقلها، بشكل دائم... أو هكذا ظنت.

هناك أشياء في السماء والأرض أكثر مما تحلم به في فلسفتك يا هوراشيو. كان هذا أحد الأشياء التي أحبت والدتها قولها. لقد كانت امرأة عملية تعمل طوال اليوم مع الأدوات الجراحية، ولكن كان لديها دائمًا ضعف تجاه شكسبير. لم تفكر جاني كثيرًا في الاقتباس؛ كان شيئًا تقوله والدتها، عادة مع نفخة من نفاد الصبر، في اللحظات التي تنفد فيها التفسيرات—لماذا لم يتصل بها والدها أبدًا، على سبيل المثال، أو في المستشفى، لماذا رفضت الشروع في علاج تجريبي آخر.

المرة الأخيرة التي فكرت جاني فيها في الأمر كانت الليلة التي حبلت فيها بنوح في ترينيداد. في تلك الليلة، بعد أن غادر جيف، لم تستطع النوم، لذا مشت بمفردها عائدة إلى الشاطئ. كان الوقت متأخرًا، وكانت مدركة كما هو الحال دائمًا لضعفها، امرأة بمفردها، والضعف يشتد بالقرب من الجنس، من أن تُرى في أكثر حالاتها تجردًا من الحماية. كانت تلك اللحظة الخام من التقارب مع جيف موجودة، لقد كانت غارقة فيها، والآن اختفت، مثل عود ثقاب مشتعل ينطفئ في الظلام الرطب.

نظرت إلى السماء، التي سخرت من السماوات الليلية التي عرفتها في الغالب: كانت هذه جوهر السماء، في أعماق ظلامها ونورها. جمالها، مثل مقطوعة موسيقية، حرّك وحدتها إلى شيء يتجاوز نفسها، وجعلها تنظر إلى الأعلى وإلى الخارج بدلًا من الداخل. كان لديها دافع يشبه إرسال رسالة في زجاجة لقذف حيرتها في المدى الواسع، على أمل أن يكون هناك شيء ما (الله؟ والدتها؟) في الخارج، يستمع.

هتفت نصف هازلة. "مرحبًا، هل من أحد هناك؟"

كانت تعلم أنها لن تتلقى إجابة.

مع ذلك، وهي واقفة عند الشاطئ، والأمواج تتراجع لتكشف عن عري الرمال اللامع المليء هنا وهناك بالقواقع والحجارة ثم تدفع للأمام، ساحبة ستارتها الأبدية فوق العري، غمرها شعور بالسلام. لقد شعرت بشيء هناك. هل كان الله؟ هل كانت والدتها؟

فكرت: *هناك أشياء في السماء والأرض أكثر مما تحلم به في فلسفتك يا هوراشيو.*

لقد كان نوح. كان نوح هو إجابتها، الشيء الذي كان هناك. وكان ذلك كافيًا لها.

لذا كان من المناسب، كما فكرت وهي تتطلع الآن إلى المدى الواسع للسماء الزرقاء، أن يعيدها نوح إلى هنا مباشرة، إلى أكثر الأسئلة تجريدًا، والتي أصبحت الآن ذات صلة لا يمكن تحملها. فإما أن يكون تقمص الأرواح هراء، أو لا يكون. إما أن يكون نوح مريضًا، أو لا يكون.

لم تكن هناك طريقة لمعرفة ذلك. لم تكن هناك طريقة للتحليل العقلاني عبر الأمر، أو على الأقل لا توجد طريقة تعرفها هي، أو يمكنها تخيلها.

على الرغم من كل شيء تعرفه أو لا تعرفه عن الحياة، وعلى الرغم من آلاف الحالات التي تم تحليلها بعناية وغير القابلة للتفسير، وعلى الرغم من لحظات ذعرها وسنوات تعقلها وحسن إدراكها، سيكون عليها أن تخوض قفزة إيمانية وتجازف بالوقوع في المجهول.

21

"أنت جاد أكثر من اللازم بالنسبة للشاطئ." كانت تقول وهي تضحك عليه.

"عذرًا يا سيدي؟"

لم تكن شيلا؛ بل كانت مضيفة الطيران، تحوم فوق أندرسون، وتقدم له الماء والمقرمشات. نفض عن نفسه النوم واستيقظ وأخذ الكيس الصغير لكنه رفض المشروب، على الرغم من أنه كان عطشانًا للغاية، خوفًا من إزعاج الطفل النائم بجانبه بإنزال طاولته.

جلست والدة الصبي بجانب ابنها، تتطلع خارج النافذة.

ما كان اسمها؟

لقد سقط الاسم في الهاوية. لقد اختفى.

شعر عقله بالصفاء كالعادة. كانت الكلمة ببساطة هي التي تفلت منه. كانت هناك، أمام عينية مباشرة، تثير حنقه، ومع ذلك تمنع دماغه تمامًا، رافضًا تمامًا مد حتى إصبع واحد للمسها. شعر وكأنه تانتالوس، عطشان وجائع، يسعى بلا جدوى للوصول إلى الماء البارد والعنب اللذين كانا دائمًا بعيدين عن متناوله.

تانتالوس، الذي عاقبته الآلهة لإفشاء أسرارهم الخالدة للبشر. كان لتانتالوس آمال عريضة في البشر، وأين تركه ذلك؟ هالكًا، هذا هو مكانه. نُفي إلى تارتاروس. كيف استطاع تذكر اسم وقصة تانتالوس، ولم يستطع تذكر الاسم الذي يحتاجه؟

آه، هذا الدماغ. من يدري لماذا يتذكر ما يتذكره، أو يفقد ما يفقده. وها هو هنا: جيروم أندرسون في تارتاروس، أعمق مناطق الجحيم.

كانت الأشياء تنهار بسرعة. كان اسم المرأة في ملفه، بالطبع: على الدفتر الأصفر في حقيبته التي كانت ترقد عند قدميه. كان بإمكانه الانحناء الآن واستعادته. هذه المعلومة المحددة يمكن الحصول عليها. مع ذلك، من يدري متى سيفقدها مرة أخرى، أو ماذا سيفقد أيضًا؟ لم يكن ينبغي أن يكون هنا على الإطلاق، خاصة وأن القضية لم تكن تسير وفقًا للميثاق المتبع. ربما كان عليه التوقف. سينسى الصبي، في النهاية. لكن أندرسون لم يكن يعرف كيف يتوقف. لقد كان الرجل الذي لا يتوقف، هذا ما كان عليه، كل ما يعرف كيف يكون، منذ اللحظة التي عاد فيها إلى المنزل من حالاته الأولى مع أنغسلي في تايلاند.

لقد دخل من الباب بعد شهرين، تملؤه الحماسة والإثارة.

كانت شيلا تنتظره على الأريكة، وساقاها القويتان مثنيتان تحتها. بدت كما هي: ذلك الوجه المستدير كالقمر، جميلًا كالعادة، مع انتشار النمش عبر الأنف، وتلك السحابة الكثيفة من الشعر الأشقر. هو، من ناحية أخرى، كان رجلًا مختلفًا.

نظرت إليه بنظرة ثاقبة وفاحصة—لم يكن قد كتب لها طوال هذين الشهرين باستثناء إبرام برقية يخبرها فيها بموعد عودته إلى المنزل—وقد تملّكه الحنان تجاه كل ذلك: الأريكة الحمراء القديمة وحشوها يظهر عند التماس، والزوجة الشابة التي تحاول معرفة ما إذا كان لا يزال لديها زوج، والواقعية الملموسة والأسلوب الخالص اللذين يشكلان الحياة كما كنت تعيشها، وحيوية الوهم. قبل أن يقبلها أو يخلع سترته، كان يخرج ملفاته من حقيبته ويفرشها على طاولة القهوة.

لم تكن الصور جميلة، لكنه أرادها أن ترى. نشرها أمامها، الموتى والأحياء: التشوهات والوحمات وتقارير الأطباء الشرعيين عن جروح وفاة الشخصيات السابقة. الفتاة ذات الأصابع المشوهة في إحدى يديها، والمرأة التي قُتلت عندما حرقت الأرز. عندما انتهى من آخر تفصيل وحشي وغير محتمل، نظر إلى شيلا وحبس أنفاسه، متسائلًا عما ستقوله. شعر أن حياته كلها، وزواجه كله، الشيء الوحيد إلى جانب عمله الذي كان يعني له أي شيء على الإطلاق، معلق في الكفة.

"لقد فاجأتني بالتأكيد يا جيري."

بدت حائرة ومصدومة ومستمتعة في آن واحد. كان هناك، الشيء الذي أحبه أكثر فيها، هناك تمامًا—تلك المسحة من التسلية لأن هذه هي الطريقة التي آلت إليها حياتها. "لوهلة عندما دخلت ظننت أنك ستخبرني بأنك وجدت امرأة أخرى."

"هذا هو ما أريد أن أفعله بحياتي. أريد العودة، ومقابلتهم جميعًا مرة أخرى في غضون عام أو عامين. العثور على المزيد من الحالات."

"أنت تعلم أن الناس سيضايقونك بسبب هذا؟ وأنه لن يأخذك أحد على محمل الجد؟"

"لا أهتم بما يعتقده الآخرون. أنا أهتم فقط بما تعتقدينه أنت."

لم يكن هذا، كما تبين لاحقًا، صحيحًا تمامًا.

"أنت تتخلى عن مهنة واعدة للغاية."

"سأجعل الأمر ينجح بطريقة ما. من أجلنا،" أضاف، والكلمة تتدلى بغير مهارة بينهما. "إذن، ما رأيك؟"

توقفت، وحبس أنفاسه لفترة طويلة حتى شعر بالدوار من نقص الأكسجين. "لا أعرف يا جيري. كيف لي أن أعرف؟ ما تخبرني به—" هزت رأسها. "كيف يمكن أن يكون هذا ممكنًا؟"
"ولكنك ترين البيانات. لقد أريتك إياها. أي تفسير آخر يمكن أن يكون هناك؟ تعتقدين أنهم يكذبون؟ ولكن ما السبب الذي يدفعهم للكذب؟ هذه العائلات لا تحصل على أي أموال من هذا، ولا تبحث عن الانتباه، صدقيني... ونعم، من الممكن أن يكون لدى هؤلاء الأطفال نوع من الإدراك الفائق بالحواس، لقد فكرت في ذلك، لكن هؤلاء الأطفال لا يتحدثون فقط عن حياة أشخاص آخرين، بل يقولون إنهم هم هؤلاء الأشخاص الآخرون. وإذا استبعدت ذلك—أعني، ما التفسير الآخر الموجود؟ الوحمات، والتشوهات، والطريقة التي تتطابق بها مع أنماط الموت، ليس دائمًا بشكل مثالي، لا، ولكن هناك اتصال، اتصال مرئي، وقد بدأت للتو—هناك الكثير من الحالات لدرجة تمنع أن يكون الأمر عشوائيًا. لا يمكن أن يكون عشوائيًا—"
"هذا الأمر يتعلق بأوين، أليس كذلك؟"
للمرة الأولى، توقف عن الكلام. لقد كانت دائمًا ترى ما بداخله بوضوح.
تصفحت بحيرة الأوراق المنشورة عبر طاولة القهوة. الملاحظات، الوجوه، الأجساد التي تحمل علامات عليها، الأجساد الأخرى ذات التشوهات، وإن لم يكن أي منها سيئًا مثل تشوه أوين. "أنت تعتقد أن ابننا ولد بالطريقة التي ولد بها بسبب—شيء حدث في حياة سابقة؟ هل هذا ما تعتقده؟"

"ألا يمكنك الاعتراف بأن هذا محتمل؟ أو على الأقل ممكن؟" كان يضغط عليها بشدة، لكنه لم يستطع منع نفسه. كان بحاجة إلى هذا.

عبست بتفكير. "لقد كنت دائمًا رجلًا عاقلًا يا جيري. رجلًا حذرًا. لا يبدو لي أن ذلك قد تغير، حتى لو—" هزت رأسها. "فإذا كنت تعتقد أن هذا ممكن، فسأعترف بأنه ممكن. سأمنحك ذلك."

تمسك بكلماتها. "هذا كل ما أطلبه."

"سوف تتبع هذا الأمر على أي حال، حتى تنتهي منه."

التقى بنظرتها. "أعتقد أن هذا صحيح."

تنهدت، وتطلعت إليه جانبًا بنظرة متعبة، فكاهية، وعاتبة. كان الأمر كما لو كانت تعرف في تلك اللحظة بالذات أنه لن ينتهي من الأمر أبدًا، وأنهما لن يحظيا بمزيد من الأطفال، وأنها ستقضي بقية أيامها تعيش في أعقاب هذا الهوس حتى لا يتبقى شيء تفعله سوى الانضمام إليه.

ولا يزال مستمرًا في ذلك، أليس كذلك؟

على الرغم من قواه العقلية المتضررة، كان يتقدم للأمام. الآن كان يلقي بالميثاق والبروتوكول عرض الحائط. فالمرأة—المرأة التي يفلت اسمها منه الآن—هي من أصرت على ذلك.

⸙⸙⸙

لقد فتحت باب غرفتها في الموتيل على الفور بعد طرقته المترددة. كانت ترتدي ملابس اليوم السابق، وبدا وجهها شاحبًا كالشاش في ضوء الصباح. قالت بلهجة مسطحة. "لقد مررنا بليلة سيئة." سلمها الصفحات التي طبعها في مكتب الموتيل، المليئة بالبحث الذي جمعه—البحث الذي يشير إلى طفل مفقود يدعى تومي كروفورد كان يعيش في طريق أشفيو. قالت عندما أدركت ما يعطيه إياها. "لا بد أنك

تمزح معي." لكنها أخذت الأوراق ونظرت إليها بينما كان نوح يغط في نوم عميق في السرير المجاور.
قالت أخيرًا. "أنت تعتقد أن هذه هي الشخصية السابقة."
"أجل، أعتقد ذلك."
ظلت تلتقط الصفحات وتضعها مرة أخرى.
تحدث أندرسون بصوت منخفض، محاولًا كبح جماح حماسته الملحّة. "ليس من الغريب أن يولد الناس من جديد في عرق أو ثقافة مختلفة. كانت هناك حالات عديدة تذكر فيها أطفال في الهند حيوات قضوها في طبقة اجتماعية مختلفة. وبدا أن بعض الأطفال البورميين يتذكرون حيوات سابقة كجنود يابانيين قُتلوا في بورما خلال الحرب العالمية الثانية."
"إذن. إذا فعلنا هذا—" وجهت إليه نظرة رصينة ومحذرة. "إذا ذهبنا إلى أوهايو—"
قفز قلبه. لم يستطع منع نفسه. "نعم؟"
"نذهب الآن. اليوم."
قال أندرسون بتعمل. "ليست هذه هي الطريقة التي تسير بها الأمور. نرسل بريدًا إلكترونيًا للعائلة أولًا. أو نكتب رسالة، إذا استطعنا. لا نظهر فجأة عند عتبة بابهم." لقد فعل هذا، في واقع الأمر، في آسيا، عندما لم يكن لدى عائلة الشخصية السابقة هاتف أو وسيلة اتصال. لكن في آسيا لم تكن العائلات مثل العائلات الأمريكية، وكان من المرجح أن يكونوا فضوليين على الأقل لرؤيته.

"هذا هو بالضبط ما سنفعله. لن أقترب من أم أخرى مفجوعة دون أن أكون متأكدة. ليس مجددًا. إذا لم يتعرف نوح على أي شيء، نلتف ونعود إلى المنزل، ولن يعرفوا شيئًا."

بدأ هدوءه يتلاشى في الهواء. لا يمكن أن تكون جادة. "من الأفضل الاتصال بالعائلة أولًا."

"أنا ذاهبة، معك أو بدونك. سآخذ الرحلة القادمة المغادرة."

"هذا أمر غير مستحسن."

"ليكن إذن. لن آخذ نوح إلى المنزل لمجرد بدء كل هذا من جديد. لذا أعتقد أنه إما الآن أو أبداً. وإذا فعلنا هذا..." جلست بشكل مستقيم على السرير. "لا يمكنك الكتابة عن الأمر. هل تفهم؟ هذا يتعلق بابني، وليس بإرثك العلمي."

حاول أن يبتسم. لقد كان متعبًا للغاية. "سحقًا لإرثي."



إرثه العلمي—أوه، لقد كانت لديه آمال عريضة في نفسه، لكنه لم يصل إلى مدى بعيد. كانت هناك أشياء كثيرة لا يزال لا يعرفها. لماذا يولد بعض الأطفال بذكريات حيوات سابقة، وأجسادهم تحمل علامات وآثار صدمات ماضية؟ هل كان الأمر متعلقًا (ولا بد أن يكون كذلك) بحقيقة أن 70 بالمئة من الشخصيات السابقة التي تذكرها هؤلاء الأطفال قد ماتوا ميتات مأساوية؟

إذا كان الوعي ينجو من الموت—وقد أُثبت أنه ينجو—فكيف يرتبط هذا بما أدركه ماكس بلانك وفيزيائيو الكم: أن الأحداث لا تقع إلا إذا تم رصدها، وبالتالي فإن الوعي أمر أساسي، والمادة نفسها مشتقة منه؟ هل يجعل ذلك هذا العالم أشبه بالحلم، حيث تتدفق كل حياة، مثل

كل حلم، واحدة تلو الأخرى؟ وهل كان من الممكن إذن أن يستيقظ بعضنا—مثل هؤلاء الأطفال—بشكل مفاجئ للغاية من هذه الأحلام، يتحرقون شوقًا للعودة إليها؟

امتدت السماء الزرقاء عبر النافذة أمامه، إلى ما لا نهاية. أشياء كثيرة كان يتوق لاستكشافها بشكل أعمق. كان يريد سبر أغوار طبيعة الواقع ذاتها. كان يريد إنهاء هذا الكتاب. لكن الآن تشتت عقله، وكل ما أراده هو مساعدة طفل واحد.

نظر إلى الصبي المستند إليه، وجسده مستقر على ذراع أندرسون. كان يمكن أن يكون أي طفل، ينام بعذوبة. لقد كان أي طفل.

قالت المرأة. "إنه يحبك."

"وأنا أحب تومي. كثيرًا جدًا."

حبست أنفاسها بحدة. "نوح."

"ماذا؟"

"اسمه نوح."

بالطبع. "أنا آسف جدًا. لا أعرف كيف حدث ذلك."

جيري. جيري. تماسك.

لقد شحب لونها.

"أنا آسف. أنا متعب قليلًا—"

"لا بأس." قالت، نظرت بعيدًا عنه وعضت على شفتها.

نوح. تومي. كل شيء يتلخص في الأسماء، أليس كذلك؟ الدليل على أن المرء هو هذا الشخص وليس ذاك. وإذا ضاعت، الأسماء—عندما تضيع—وكل ما يتبقى لديك هو امتداد طويل وضبابي من الإنسانية، كحافة من الغيوم في السماء—ماذا يحدث بعد ذلك؟

سيكون عليه الأداء بشكل أفضل. سيكون عليه الاحتفاظ بالأسماء قريبة. نوح، تومي. سيلفها ويملأ بها الشقوق في عقله بالطريقة التي يدس بها الناس قصاصات الورق التي تحمل الأمنيات بين أحجار حائط المبكى.

تطلعا معًا إلى الصبي النائم.

همس أندرسون. "أنت تعلمين أنني لا أستطيع تقديم أي وعود."

"بالطبع."

لكنها كانت تكذب. لقد ظنت أنه وعدها بكل شيء.

22

جلست دينيس على حافة كرسيها وتأملت وعاء حلوى الذي بدا وكأنه لم يمس قط على الطاولة الجانبية للطبيب. هل يأكلها أحدٌ على الإطلاق؟ هل كانت هذه هي نفس الحلوى التي ظلت تحدق فيها لقرابة سبع سنوات؟ فكرت أنه ينبغي لأحدهم أن يجري تجربة؛ يضع كل الحبات الخضراء على السطح ليرى ما سيحدث، ويوقع بالطبيب الموقر متلبسًا.

"دينيس؟"

"أنا أصغي." لم تكن ترغب في النظر إليه، لكنها قررت أنه ربما يسجل ملاحظة ضدها إن لم تفعل. بدا وجهه الأنيق الشبيه بوجوه الخيول أكثر استطالة بسبب القلق.

كان الدكتور فيرغسون يقول. "لقد قلت إن الجميع ينتكسون أحيانًا. هذا يحدث."

نظرت مجددًا إلى وعاء الحلوى. "ليس معي."

"أنتِ قاسية جدًا على نفسكِ. لقد قمتِ بعمل مذهل لبناء حياة لنفسكِ. لا تنسي ذلك."

"حياة لنفسي." قالتها بالطريقة نفسها التي قد تقول بها: "نصف رطل من المرتديلا، مقطعة شرائح رقيقة، من فضلك"، أو: "حان وقت دوائك يا سيد راندولف." لكن ما كانت تقصده، والذي يمكن لأي شخص أن يراه ما لم يكن أحمقًا، هو: *حياتي عبارة عن قذارة*. لم يكن الدكتور فيرغسون أحمقًا، وشعرت به وهو يتأملها. "أنتِ خائبة الأمل في نفسكِ."

وضعت حبة خضراء في فمها، فتحول السكر إلى رماد على لسانها. لم تستطع تذوق أي شيء. "لقد انتهيت."

"وماذا يعني ذلك؟"

ربما كان من الأفضل أن تخبره بالحقيقة. فمن عساها أن تخبر غيره؟ "لقد سئمت من هذا الأمر. لقد عملت بجد طوال هذه السنوات لأتماسك من أجل تشارلي، ومكالمة هاتفية واحدة أعادتني إلى هناك تمامًا، وكأن كل شيء حدث بالأمس. وأنا لا أستطيع—" أخذت نفسًا. "لا أستطيع فعل ذلك."

شعرت به وهو يختار كلماته بحذر. "أفهم أنه لا بد أن يكون الأمر مزعجًا للغاية أن تشعري بهذا الشعور مجددًا."

هزت رأسها. "لا أستطيع."

وضع إحدى ساقيه الطويلتين النحيفتين فوق الأخرى. "وما الخيار الآخر المتاح أمامكِ؟" تحركت تفاحة آدم في رقبته بشكل مرئي، مثل شخصية إيكابود كرين في فيلم رأته ذات مرة. *أظن أن هذا يجعلني الفارس مقطوع الرأس.* فكرت. هذا يبدو دقيقًا أيضًا. لم يتبقَ لديها أفكار أو مشاعر؛ كانت تراقب نفسها من علو شاهق، بالطريقة التي يُقال إن الموتى حديثًا يراقبون بها أجسادهم.

"لنقل فقط إنني أدرس خياراتي."

"هل تخبرينني أنكِ تفكرين في الانتحار؟"

لاحظت قلقه، كان الأمر أشبه بفقاعة تفكير عائمة فوق رأسه، لا تعني شيئًا. هزت كتفيها؛ وهي عادة كان يفعلها تشارلي وتزعجها دائمًا، لكنها أدركت فائدتها الآن.

"لأنكِ إن كنتِ تقصدين ذلك، وإن كنتِ جادة، فيتعين عليّ اتخاذ إجراء ما. أنتِ تعلمين ذلك."
ذلك المستشفى... تلك الأرائك الملطخة، والأرضيات المتشققة، والوجوه الشاغرة التي تشاهد تلفزيونًا بلا هدف. قشعر بدنها.
على أية حال، لن يعطيها وصفة طبية أبدًا إذا بدت ميالة للانتحار. هي بحاجة إلى تلك الوصفة. لم تكن تدري لمَ قالت ذلك. "أنت تعلم أنني لن أفعل ذلك أبدًا. مطلقًا. لن أمنحه تلك المتعة أبدًا."
"من؟"
رمقت الطبيب بنظرة لاذعة. "الرجل الذي سرق تومي، بالطبع." في اللحظة التي قالت فيها ذلك، عرفت أنها الحقيقة، وأنها لا تستطيع فعلها. سحقًا لكل شيء. قد كانت تشعر بهدوء شديد أيضًا. "وبالطبع لا يمكنني فعل ذلك بتشارلي."
بالطبع لا يمكنها ذلك. ألم يكن هناك جزء صغير وضئيل منها لا يزال يريد شيئًا من هذه الحياة؟ أن تلقي بهذه الشظايا من نفسها في مهب الريح، لترى إن كان بإمكانها أن تضرب بجذورها في مكان ما؟
"إذن، ماذا قال المحقق لودن عندما اتصلتِ به؟"
"تقصد الليلة الماضية، أم هذا الصباح؟"
حسنًا يا دكتور، الآن ترى أين وصلنا، أليس كذلك؟
صمتٌ قصير. "أي منهما."
"قال إن المحققين في فلوريدا يعملون بجد على القضية. هذا ما يقوله دائمًا: 'إنهم يعملون بجد يا سيدتي'، بكل أدب كما تعلم. وأنا أعلم أنه يظنني مجنونة. كلهم يظنون ذلك."
"من هم 'كلهم'؟"

"الجميع. هل تعتقد أنني مصابة بالبارانويا؟ أنا لست كذلك. في كل مرة ألتقي فيها بالناس، يرمقونني بهذه النظرة، الأمر خفي ولكني أراه، وكأنهم متفاجئون، وكأن—"
"وكأن ماذا؟"
"وكأن خطبًا ما أصابني، وأنه لا ينبغي لي أن أظل أسير في الأنحاء، بل ينبغي أن أكون—"
"نعم؟"
"ميتة. لأن تومي ميت."
كانت هذه هي المرة الأولى التي تنطق بها، وأرادت على الفور استرجاع الكلمات. لقد سقطت الكلمات من فمها مثل الكرات الزجاجية، تدحرجت هنا وهناك على الأرض، ولا يمكن استعادتها.
فكرت أن الناس على حق؛ لِمَ ينبغي لها أن تستمر في التنفس؟ طوال هذه السنوات كانت تتماسك ليس فقط من أجل تشارلي بل من أجل تومي أيضًا؛ لكي تكون سليمة ومعافاة عندما يعود إليها.
لكنها لم تعد قادرة على التظاهر بعد الآن: تومي ميت وهي—ماذا عساها أن تكون؟ ليست أرملة، وليست يتيمة. لم تكن هناك كلمة تعبر عما هي عليه.
قال الدكتور فيرغسون "أنا أفهم." أزاح علبة المناديل الورقية بالقرب منها عبر الطاولة الجانبية.
نظرا إلى بعضهما البعض. وأدركت أنه ينتظر منها أن تبكي. كانت العلبة المربعة تحدق فيها بترقب، وغلافها الكرتوني يسبح بفقاعات وردية وخضراء سخيفة، ومنديل واحد يبرز بشكل فاضح من شقها، يستدعي دموعها، يستدعي—ماذا تسميه الكتب؟—التطهير النفسي.

كان يريد رؤيتها تنهار في النهاية. حسنًا، تبًا له إن كان سيجعلها تفعل ذلك. ما الذي يمنحه إياك التطهير؟ سيتعين عليك رغم ذلك أن تلملم شتات نفسك وتستمر في حياتك، حياتك التي لم تكن سوى كومة من القذارة. وقفت.

"إلى أين أنتِ ذاهبة؟"

"انظر. هل ستعطيني الوصفة الطبية أم لا؟"

"هذا غير مستحسن—"

"نعم أم لا؟ لأنني سأذهب إلى مكان آخر... أنت تعلم أن شخصًا آخر سيعطيني إياها إن لم تفعل."

تردد، لكنه أعطاها ورقة الوصفة. "عودي قريبًا، حسناً؟ الأسبوع المقبل؟"

⩔⩔⩔

كان لا يزال يتعين عليكِ أن تلملمي شتات نفسكِ وتخرجي من ذلك الباب وتواجهي وهج شمس الظهيرة المنعكس على الزجاج الأمامي للسيارات في موقف السيارات.

كان لا يزال يتعين عليكِ العثور على سيارتكِ ووضع المفتاح في مجرى التشغيل وسماع زئيرها القوي وهي تدب فيها الحياة. كان عليكِ توجيهها نحو الطريق مع كل الكائنات الحية والمتحركة الأخرى، كلها متجهة إلى مكان ما وكأن دوران الأرض يعتمد على رحلاتهم إلى المصبغة أو مركز التسوق.

كان عليكِ الانعطاف خارج الطريق إلى موقف سيارات صيدلية، والنزول من السيارة والوقوف بانتظار دوركِ عند المنضدة مع بقية الأشخاص الذين يبحثون عن جرعات تشتري لهم ساعة أخرى أو يومًا آخر، سواء

أرادوا ذلك أم لا، وكان عليكِ وضع نصف حبة في فمكِ، نصف حبة فقط، وابتلاعها، جافة وقاسية، والشعور بها وهي تخدش حلقكِ نزولًا. بعد ذلك، وبما أنه لم يكن لديكِ طعام في المنزل وكان عليكِ رعاية كائن بشري آخر غير نفسكِ، كان عليكِ السير على الرصيف حتى متجر ستوب آند شوب. كان عليكِ الوقوف هناك بالداخل ترمشين تحت تلك الأضواء الساطعة الشديدة، وكل تلك الصفوف والألوان تقفز في وجهكِ؛ طماطم حمراء لدرجة تؤذي عينيكِ، أكياس دوريتوس برتقالية نارية، عبوات سفن أب ذات الست زجاجات بلونها الأخضر الفوسفوري، كل شيء يصرخ في وجه الأحياء: اخترني! اخترني! اخترني! لم يكن بإمكانكِ الوقوف هناك إلى الأبد، وكأنكِ لم تري متجرًا كبيرًا من قبل. كنتِ بحاجة، حتى في ذلك الوقت، وخاصة في ذلك الوقت، عندما بدأت قوة دفعكِ تخبو، إلى مواصلة الحركة. ملأتِ عربتكِ بما تحتاجه عائلتكِ؛ وضعتِ دجاجة ميتة مسلوخة هناك، وعلبة كبيرة من الكورن فليكس، وغالونًا من الحليب. وضعتِ بروكلي من أجل تشارلي، الخضار الوحيد الذي يأكله، وبعض بصل الفيداليا من أجل هنري في حال جاء يومًا ما، ووضعتِ أيضًا كيسًا من طماطم الكرز الصغيرة. كنتِ تعلمين أن تشارلي لن يأكلها، وأنكِ نفسكِ تفضلين طماطم البيفستيك الكبيرة، لكنكِ التقطتها على أية حال، أليس كذلك؟ جلودها الحمراء الملساء تطل عليكِ من خلال شبكة الكيس، التقطتِها لأن تومي كان يحبها، كان يحب أن يمسكها بين أسنانه ويقذف سائلها عبر الغرفة، وكنتِ تريدين أن تثبتي لنفسكِ أنكِ لا تزالين تتذكرين ما يحبه تومي، حتى لو كان ذلك يفجر فجوة في قلبكِ.

ثم كان عليكِ الوقوف في الصف متجاهلة السيدة مانزينوتي وهي تحدق فيكِ من قسم منتجات الألبان، فتصفحتِ المجلات المليئة بالمشاهير الذين ينهارون أو يقعون في الحب أو كلاهما، ملاحظة أن السيدة مانزينوتي تسير في اتجاهكِ الآن ومتمنية لو أنها ظلت تتجاهلكِ كما فعلت في السنوات القليلة الأولى، متجنبة التقاء الأعين، تتراجع عندما تمر بأي منكما في المتجر أو وسط المدينة. لكن ها هي ذا، مليئة ببهجة مبالغ فيها وعزيمة واضحة، تندفع نحوكِ، وكأن كل ذلك قد انتهى وعلينا أن نمضي قدمًا كما كنا من قبل، أليس كذلك؟ لا يهم إذا كنتِ مستعدة؛ لقد استعددتِ بسرعة. فتحدثتِ عن كم هو جميل أن نشعر بالربيع أخيرًا اليوم (وكأنكِ لاحظتِ ذلك أصلًا) وسألتِ عن السيد مانزينوتي وإيثان وكارول آن، وعندما قالت: "وكيف حال تشارلي؟" قلتِ: "نحن بخير تمامًا، شكرًا لكِ"، وكأن قصتكِ الخاصة كانت مقالًا في مجلة يمكن لشخص ما أن يتصفحه ويعيده إلى الرف، وكأن ولدكِ العذب لم يكن (قوليها) ممزقًا في مكان ما تحت التراب.

بينما كنتِ تدفعين الحساب لأمين الصندوق، خطرت لكِ في تلك اللحظة فكرة أن هناك رجلًا في فلوريدا يتوقف عند محطة وقود في مكان ما في هذه الدقيقة بالذات. يمكنكِ رؤيته بوضوح كوضوح النهار وهو يشتري كيسًا كبيرًا من الدوريتوس ولحم البقر المجفف ومشروب ريد بول، ثم يترك الكيس هناك على المنضدة مع الموظف بينما يتوجه إلى المرحاض ليتبول قبل أن يعود إلى الطريق. وعينا ذلك الرجل الواقف هناك، تانك العينان غير النادمتين اللتان تحدقان في مرآة الحمام، كانتا آخر عينين رآهما تومي قبل أن—

لا.

لا، لأن: تومي كان حيًّا.

حيًّا على هذه الأرض في هذه اللحظة بكل تفاصيله وتصرفاته: حبه للطماطم والمارشميلو وحلوى التوفي، كرهه غير المبرر للفراولة، الطريقة التي كان يمسك بها يدها وهو يغادر فراشه ليلًا، طالبًا منها البقاء لبضع دقائق أخرى (آه، لماذا حررت نفسها من قبضته وقبلته قائلة تصبح على خير؟ لماذا لم تبقَ لدقائق قليلة كان يتوق إليها؟)، الغمازة في خده التي تظهر عندما يبتسم تلك الابتسامة السخيفة والمخادعة بعد قيامه ببعض المشاغب، مثل تلك المرة التي فجر فيها بالون أخيه في طريق عودتهم من المهرجان وتظاهر بأن الأمر كان حادثًا.

تومي كان حيًّا على هذه الأرض ولا يمكن لأحد أن يخبرها بعكس ذلك.

تومي كان حيًّا على هذه الأرض، ويومًا ما سيلتقيان مجددًا.

لقد حدث هذا في بعض الأحيان. تلك الفتاة في يوتا، على سبيل المثال. تلك الفتاة ذات الوجه الودود المنفتح والشعر الأصفر، والتي بدت وكأنها خرجت للتو من حظيرة الماعز في مسابقة زراعية بدلًا من أن تكون زاحفة على يديها وركبتيها خارجة من الجحيم. ها هي ذا على غلاف المجلة، لا تزال دينيس تحتفظ بتلك النسخة في درج الطاولة الجانبية لسريرها، تحفظها عن ظهر قلب: اختفت الفتاة من غرفة نومها ذات ليلة ثم بعد خمس سنوات عادت إلى منزلها مجددًا والوحش الذي فعل ذلك سيذهب إلى السجن إلى أبد الآبدين. كانت هناك صور لها مع عائلتها، تجلس على الأريكة وذراع والدتها تلتف حولها، ويد والدها تستقر على كتفها بكل طبيعية وتلقائية. لقد كانت تبدأ الدراسة مجددًا، هذا ما قاله المقال. تعزف على البيانو. ابتسامة

خجولة على وجهها، وأشرطة زرقاء في شعرها. كانت الفتاة سليمة ومعافاة. إلى حد ما. يمكن أن يحدث هذا.

الأشياء تحدث. لم يكن الأمر أكثر أو أقل استحالة من طفل يذهب لركوب دراجته إلى منزل صديقه المفضل في نهاية الطريق ذات صباح سبت ويسقط من على حافة الأرض.

لكن هذه الأفكار، مثل صفحات المجلة، كادت أن تبلى من كثرة الاستخدام. مما جعلها تعود إلى الفكرة الأخرى. مما جعلها تفكر مجددًا بأنها لم تعد قادرة على فعل ذلك بعد الآن.

لا أستطيع التمسك بالأمل، ولا أستطيع الصمود بدونه أيضًا.

خرجت من موقف السيارات. عندما وصلت إلى التقاطع، وبدلًا من التوجه يمينًا نحو المنزل، اتجهت يسارًا ووجدت نفسها تقود سيارتها باتجاه دايتون. قادت لفترة من الوقت مارة بالحقول الخضراء المستوية، غير متأكدة بعد إلى أين تذهب، حتى رأت لافتة متجر ستابلز الجديد وراء مركز التسوق. كان يشرق بابتسامته النيونية الكبيرة في وجهها، وكأنه كان ينتظرها، وكأنها واحدة من الأوفياء الذين وجدوا طريقهم للعودة إلى الديار.

شعرت بإثارة خفيفة عندما لم ينظر إليها أحد مرتين وهي تدخل الباب. استمروا في فعل ما كانوا يفعلونه، الكثير من اللاشيء على حد علمها. فتاة ذات ضفائر مهترئة فظيعة كانت تتصفح مجلة. شاب أبيض يرتدي قبعة صوفية على رأسه (لماذا يرتدونها داخل المنزل؟ إلا إذا كانوا صلعًا، ولم يكن هذا الصبي كذلك) كان يسجل حساب شيء ما. سمعت ضحكاته المتوترة المتقطعة تتردد أصداؤها في المتجر.

تجولت لفترة من الوقت في الممرات الطويلة المليئة بالمستلزمات المعلقة، ولكل منها غرضه الواضح، مستمتعة بالهواء البارد.
في الممر رقم 10، التقطت دباسة حائط (مسدس دبابيس) جديدة لامعة ومشيت إلى الخلف حيث يوجد مركز التصوير، شاعرة بثقلها في يدها.
كان هناك صف من الناس يمسكون بأوراقهم. يبيعون سيارات ربما، أو يبحثون عن طلاب لتعلم البيانو. وقفت في الصف، شخص آخر لديه الحاجة لمضاعفة شوقه أضعافًا مضاعفة، ممسكة في يدها الأخرى بالمنشور الذي تحتفظ به في صندوق القفازات بالسيارة لهذا السبب بالذات. انتظرت دورها ثم سلمت منشورها إلى شاب في أوائل العشرينيات من عمره، شاب ذو بشرة بنية داكنة ووجه ناعم ودود وممل.
ربما سيبدو تومي هكذا يومًا ما. ربما سيحصل تومي على وظيفة في ستابلز. يمكنه أن يجد ما هو أسوأ لنفسه. كانت تسمح لنفسها بالتفكير في ذلك. كانت تعلم ذلك. كان الأمر كما لو أن عقلها الواعي لا يزال مستقرًا في موقف سيارات متجر ستوب آند شوب وكانت تسمح لهذا الجزء الآخر من نفسها بتولي زمام الأمور مجددًا.
"مائتان، من فضلك."
أخذ الورقة منها ولم ينظر إليها. *بارك الله فيك. بارك الله فيك لأنك لم تنظر.* فكرت. لقد اعتاد الناس في متجر الأدوات المكتبية في المدينة عليها الآن؛ لم تعد الشفقة في عيونهم طازجة بل تبلورت على مر السنين إلى شيء مألوف وتلقائي، وكأنها كانت كلبة ضالة تدخل بين الحين والآخر للحصول على كسرة خبز أو ربتة حنان.

لكن دينيس لم تكن بحاجة إلى ربتة، أو أي شفقة معاد تسخينها. كانت بحاجة إلى نسختها المائتين.
"هل ترغبين في ذلك بألوان مختلفة يا سيدتي؟ أم على ورق أبيض؟"
"هل سيكون الوجه واضحًا بالألوان المختلفة؟"
"بالتأكيد. يمكننا فعل ذلك."
"إذن ربما ألوان مختلفة هذه المرة."
"حسنًا. أي الألوان تفضلين؟"
"اختر أنت."
"سأختار الأصفر والأخضر والأحمر. ما رأيكِ؟"
"ممتاز."
ابتسمت له. وقفت خلف المنضدة، تتلمس حافتها الصلبة الحادة بأصابعها. شعور الحبة وهي تسري في جسدها. مسدس الدبابيس ثقيل في يدها الأخرى. لقد تخلص هنري من الآخر. تسعة وعشرون دولارًا كلفتها إياه وقد ألقى به في القمامة مباشرة.
كان قد قال لها: عليكِ أن تتوقفي عن هذه المنشورات.
تدفقت الكلمات في عقلها ببرودة تقارع برودة الهواء المثلج، وكأنها كلمات كانت تسمعها بالصدفة، تُقال بين غرباء.
ما حقك في الحضور إلى هنا وإخباري بما يجب عليّ فعله؟
تشارلي أخبرني. هذا هو السبب. ابننا. يقول إنكِ لا تكونين موجودة حتى لتناول العشاء في نصف الوقت.
الولد يأكل. انظر إليه. إنه لا يموت جوعًا.
ليس هذا هو المغزى. أنتِ تنهكين نفسكِ، وتشارلي أيضًا. وأنا أيضًا.
وماذا يهمّك أنت؟

عليكِ أن تتوقفي. أرجوكِ.

لا أستطيع. ماذا لو—

اتصلي بالطبيب إذن. احصلي على بعض المساعدة.

ماذا لو أحدث هذا فارقًا يا هنري؟ ماذا لو رأى أحدهم أحدها و—

بحق الله يا دينيس—

عاد الشاب. "في الواقع، اللون الأحمر غامق قليلًا بالنسبة للوجه. ما رأيكِ بالأزرق؟ الأزرق فاتح حقًا."

"سيكون ذلك جيدًا."

انتظرت. لم يكن عليها سوى الانتظار، وأصابعها تداعب الحافة الحادة لمنضدة العرض، ووجه تومي يتضاعف باللون الأخضر والأزرق والأصفر. تركت عقلها يتأمل كل وجه من الوجوه وهي تتدفق خارجة من الآلة، مفكرة: ربما هذا الوجه. ربما يكون هذا هو الوجه الذي سيحدث كل الفارق.

23

قاد تشارلي كروفورد دراجته عائدًا إلى منزله ببطء من منزل هاريسون جونسون، ورأسه يغلي بالمقاطع الموسيقية، وجسده كله ينبض بنشوة النصر وبأثر الحشيش الممتاز الذي كان لدى هاريسون دائمًا من صديق شقيقه الذي يعمل في مطعم البيتزا.

با دا دا با دا دا دا. الطريقة التي أطال بها تلك النبرة الأخيرة، مدحرجًا إياها ثم ممسكًا بها حتى رنت في جميع أنحاء المرآب، عرف على الفور: لم يفسد الأمر. كان بإمكانه رؤية ذلك في الطريقة التي توقف بها هاريسون وكارسين واستمعوا حقًا لمرة واحدة، في الإيماءات الممتنة التي وجهوها نحوه وهو يتوجه خارجًا من الباب في نهاية البروفة. كان يعلم أنهم كانوا يريدون التخلص منه من أجل ذلك الفتى مايك الذي يدرس في كلية المجتمع، لم يظنوا أبدًا أنه جيد بما فيه الكفاية، لقد كان دائمًا الطفل الذي يملك طقم طبول ويعيش في الجوار ويمكنه نوعًا ما ضبط الإيقاع. لكن اليوم: لقد أراهم وجعلهم يرون جيدًا. لقد سحق ذلك المقطع، وتركه ميتًا في الطريق.

حسنًا، حسنًا، ربما لم تكن هذه أفضل معزوفة طبول منفردة على مر العصور، ربما لم يكن مثل لارس أولريش، ولكن في حياته كان هذا بمثابة نصر كبير مذهل وكان سيأخذ ذلك النصر ويركبه طوال الطريق إلى المنزل، وحشيش صديق شقيق هاريسون المذهل يتدفق عبره ويجعل كل شيء على ما يرام، يجعل كل شيء على ما يرام لدرجة أنه قام بدورة إضافية حول الحي، ناصلًا للأسفل مرورًا بكلب الجار الشرس وصولًا إلى حافة حقول الذرة وعائدًا مجددًا، ولم يكن يخشى

بشكل خاص العودة إلى ممر سيارات منزله، حيث—الحمد لله—كانت سيارة والدته غائبة. هل يمكن للأمر أن يكون أفضل من هذا؟ كان بإمكانه أخذ علبة آيس كريم والصعود إلى غرفته وإرسال رسالة نصية إلى غريتشن. أو—الأفضل من ذلك—التفكير في غريتشن دون عناء إرسال رسالة نصية لها فعليًا، مستلقيًا هناك على سريره بينما النشوة لا تزال فيه، مفكرًا في جسد غريتشن وهو يهتز على إيقاع معزوفته المنفردة القاتلة، وركبتيها تتمايلان انتباهًا وانفراجًا في تلك التنورة الجينز القصيرة التي ارتدتها في المدرسة أول أمس—أو انتظر—الأفضل من ذلك كله—تجاوز غريتشن تمامًا، فالأمر يتطلب الكثير من الجهد، والانتقال مباشرة إلى الإنترنت، جاهز، انطلق! الآن كانت هذه طريقة ممتعة لقضاء فترة بعد الظهر.

انعطف عائدًا إلى الحي مجددًا، شاعرًا بالوخز من شدة الحماس، وضفائر شعره تطير كالأجنحة فوق أذنيه، ثم قرر أن الأفضل له أن يسرع بالأمر قبل أن يتلاشى مفعول الحشيش. لم يكن يجرؤ أبدًا على جلب أي حشيش إلى المنزل—لسبب واحد، وهو أن والدته كانت تلاحقه وتضايقه بشأن هذا الهراء، وبقدر ما يعلم فقد تشحنه إلى أكاديمية عسكرية إذا وجدت ولو برعمًا واحدًا في جيبه، وهو أمر كان صعبًا في الواقع الحفاظ على السيطرة عليه، أن تبقي رأسك في اللعبة هكذا بشأن كل برعم شارد عندما تنتشي بقدر ما يفعل هو. حتى الآن، بالرغم من ذلك، كانت تشمه بضع مرات بعد عودته إلى المنزل، كما لو كان قالب لحم فاسد في الثلاجة. ربما لم تكن تعرف كيف تبدو رائحة هذا الشيء، وظنت أن لديه بعض العرق الكريه. لحسن الحظ

لم يعبث أحد بخزانته في المدرسة. كان بإمكانه امتلاك صيدلية كاملة في ذلك الشيء ولن يدري أحد.
ترك دراجته في الفناء وركض إلى الباب. لكن كان هناك أشخاص يتجولون حول المنزل، يتلفتون حولهم. أشخاص بيض. رجل وامرأة، وطفل صغير أيضًا. أوه لا. ربما بعض من شهود يهوه، رغم أن معظم من رآهم من شهود يهوه هناك كانوا سودًا. لم يكن يعلم حتى أن هناك شهود يهوه بيضًا. هل يصل المورمون إلى هذه المناطق البعيدة؟ يجب أن يحييهم على إحضار الطفل معهم، كانت تلك لمسة لطيفة. من الصعب أن تغلق الباب في وجه طفل.
طفل صغير مضحك أيضًا. كان يقفز صعودًا وهبوطًا كما لو كان يتظاهر بأنه حيوان الكنغر، صارخًا. "هذا هو، هذا هو، هذا هو!" استمر في التربيت على الكسوة الألومنيوم للمنزل وكأن المنزل بأكمله كلب أحمر كبير.
"هل يمكنني مساعدتكم؟" قال تشارلي، مستدعيًا أفضل ابتسامة لديه من نوع *هذا الشاب اللطيف نشأ نشأة صالحة*، والتي كان بإمكانه إشعاعها مباشرة من خلال ضباب نشوته. تخصصُه في الواقع. كان بإمكانه الجلوس في مكتب المديرة رانزيتا نفسها الآن ولن يكون لديها أدنى فكرة. وقد فعل ذلك بالفعل، في حقيقة الأمر.
تطلع الثلاثة إليه بذهول.
تحدثت المرأة أخيرًا. "هل السيد أو السيدة كروفورد في المنزل؟"
يا فتى، بالتأكيد لقد قاموا بواجبهم المنزلي، هؤلاء الإنجيليون.
"أمي ليست هنا الآن. ربما تعودون في وقت آخر؟" نظر إليهم على أمل.

تبادلت السيدة والرجل العجوز النظرات. بدا وكأنهما على خلاف دون أن يتحدثا. كأن المرأة لديها جدول أعمال والعجوز يريد الخروج من هناك.

هل كانوا من المدرسة؟ لم يتعرف عليهم، لكن الرجل العجوز كان لديه ذلك الطابع الشبيه بمشرفي المدارس والمرأة يمكن أن تكون إدارية أو ربما حتى شرطية، كان لديها ذلك المظهر المتوتر والمستفز. ربما وجدوا الحشيش في خزانته وكانت ستسجنه أو تطرده أو ترسله إلى مصحة إعادة تأهيل مثل ذلك الفاشل في مادة الدراسات الاجتماعية الذي ضُبط وبحوزته زجاجة من مشروب النعناع الكحولي في مكتبه. أعني، مشروب كحولي؟ هذا ما تُضبط بسببه؟ في مكتبك؟ مشروب كحولي؟

لكن لماذا أحضروا طفلًا إذن، إذا كانوا هناك لضبطه؟ لم يستطع استيعاب ذلك في رأسه. الطفل كان يثير ريبته ونفوره نوعًا ما أيضًا. كان يحدق في تشارلي بهاتين العينين الغريبتين اللامعتين.

"إذن، فيمَ تريدون أمي؟" تخلى تشارلي عن دور الشاب اللطيف ووقف يحدق في الثلاثة بوجه متجهم.

قالت المرأة. "هذا أمر بيننا، أخشى ذلك." بدت متوترة. أوه لا.

خطرت له فكرة. ولمعت بالاحتمالات في دماغه، فقالها. "هل أنتم من التلفزيون؟"

"ماذا؟"

"تعرفين، مثل برنامج 'أكثر المطلوبين في أمريكا'، شيء من هذا القبيل؟"

"لا، لسنا كذلك. آسفة."

"أوه." كانت والدته تتحدث دائمًا عن الذهاب إلى برنامج كهذا، لإبقاء القضية حية في الأذهان. لكنهم لا يتناولون الأطفال السود المفقودين على حد علمه، بل الفتيات البيضاوات الجميلات فقط.

من كانوا إذن؟ ثبتهم بنظرة طويلة وجريئة بفعل الحشيش وراقبهم وهم يتحركون بعدم ارتياح. *جيد، اذهبوا بعيدًا، أيها البيض الغرباء.*

صمتٌ. لم يقل أحد شيئًا باستثناء الطفل الصغير، الذي كان لا يزال يقفز على أطراف أصابعه ويتمتم لنفسه: "هذا هو، هذا هو."

كرر في سره: *اذهبوا بعيدًا، اذهبوا بعيدًا، أيها البيض الغرباء.*

قال الرجل العجوز. "سنعود لاحقًا."

أنت يا سيدي، قارئ أفكار حقيقي. (ربما لم يفت الأوان بعد لمشاهدة الإباحية، على أية حال؟)

"لا!" كان للطفل هذا الصوت الصغير جدًا، وكأنه استنشق غاز الهيليوم أو شيء من هذا القبيل. "أريد البقاء!"

"سنعود بعد قليل يا حبيبي. حسنًا؟" مسحت السيدة على شعره. لم تعد تبدو كشرطية بعد الآن.

"لا!" بدأ الطفل يثير أعصابه الآن.

"نحن عائدون يا نوح. الأمر على ما يرام."

بدأ الطفل في البكاء. قرفص الرجل بجانبه وسأله شيئًا بصوت منخفض لم يستطع تشارلي تمييزه تمامًا. أومأ الطفل برأسه، ثم أشار بسبابه مباشرة إليه.

"بالتأكيد. هذا تشارلي." قال.

نظر الرجل العجوز والسيدة إلى تشارلي. بدأ يتصبب عرقًا، وكأن خطبًا ما ارتكبه. "لم أفعل شيئًا لهذا الطفل، أنا لا أعرفه حتى." نظر بتوسل

إلى عيونهم المحدقة. خمن أن هذا الحشيش لم يكن جيدًا جدًا بعد كل شيء؛ لقد كان يجعله مصابًا بالبارانويا.
سأله الرجل العجوز. "هل هذا هو اسمك؟ تشارلي؟"
"أجل."
وقفوا هناك، الأربعة يتحركون على عتبة الباب الخرسانية الصغيرة، والطفل الأشقر لا يزال يبكي، مسببًا له القشعريرة والتوتر.
أخيرًا خطر بباله أن والدته ربما تعرف هؤلاء الناس. فهم يعرفون اسمه على أية حال. كانت ستقتله إذا اكتشفت أنه تركهم ينتظرون في الخارج على العتبة.
"هل تودون الدخول؟"
قال الرجل العجوز. "هذا سيكون لطيفًا، شكرًا لك. لقد كنا نسافر لفترة طويلة."

ᯓᯓᯓ

ماذا تفعل بجدّ وامرأة وطفل يشهق من البكاء وكلهم واقفون في غرفة معيشتك؟ جلس الرجل العجوز بترقب على حافة الأريكة وبدأ في كتابة ملاحظات بهذا الخط الصغير الشبيه بخطوط العنكبوت على دفتر أصفر.
قال الطفل مجددًا. "هذا هو." بدا متحركًا ومثارًا حقًا. بدأ يركض حول الغرفة، والسيدة (كان متأكدًا تمامًا أنها والدة الطفل) تتبعه مباشرة من خلفه.
كان يعلم أن هناك شيئًا ينبغي عليه فعله. جاءت الفكرة إليه ببطء، كثافة متلألئة على الجانب الآخر من الغرفة أخذت تكتسب وزنًا وحركة تدريجيًا، عائمة نحو دماغه مثل شبح مساعد. الطعام. عندما

يكون هناك ضيوف في المنزل، فإنك تقدم لهم الطعام. "هل تودون شيئًا للأكل؟ وجبة خفيفة، أو شيء من هذا القبيل؟"
قال الرجل العجوز. "هذا سيكون لطيفًا." بدا ممتنًا حقًا، وكأنه لم يأكل طوال اليوم.
عندما عاد تشارلي من المطبخ (خالي الوفاض إلا من بضعة أكواب من ماء الصنبور—لم يكن هناك شيء في الثلاجة سوى بعض صلصة المعكرونة القديمة والآيس كريم في المجمد الذي كان يحتفظ به لنفسه) كان الطفل واقفًا أمام المدفأة، مشيرًا إلى صورة المزرعة التي رسمها جده جو عندما كان على قيد الحياة. كان الطفل يقول. "تلك كانت في الأعلى. في العلية."
"أجل، لقد نقلناها إلى هنا بعد أن غادر أبي—" ثم صمت. "ماذا قلت؟"
"بابا ليس هنا؟"
"أبي يعيش في يلو سبرينغز الآن."
"لماذا انتقل إلى هناك؟"
"حسنًا، لم يكن هو وأمي يتفقان بعد الآن، لذلك هما—"
كان الطفل ينظر إليه بعينين متسعتين. يا صاح، هذا طفل غريب حقًا.
"والداي—منفصلان."
"منفصلان؟" كان وجه الطفل يتحرك وكأنه يستوعب الأمر.
قالت السيدة. "هل تعرف ماذا يعني منفصلان يا حبيبي؟ هذا عندما يقرر الأب والأم العيش في مكانين منفصلين—"
كان الطفل يمشي نحو البيانو الآن، رافعًا غطاء المقعد الخشبي. "أين كل الموسيقى؟"
"ليس لدينا أي منها."

"كانت هناك موسيقى."

شعر تشارلي بأنه بدأ يفقد السيطرة. يصاب بالذعر. قبضته على الواقع كانت تنزلق من الشبكة. ربما كان هناك شيء آخر في حشيش صديق شقيق هاريسون، مثل بعض البيوت (مخدر هلوسة) أو شيء من هذا القبيل. لقد سمع أن الناس يفعلون ذلك أحيانًا، يخلطون المادة بشيء يسبب الهلوسة يمكنه إرسالك إلى بعض الأماكن المجنونة، على الرغم من أنه لم يستطع فهم سبب رغبة أي شخص في فعل ذلك، لأن المغزى بأكمله بالنسبة له كان تنعيم الحواف وتخفيف حدة الواقع.

نظر إلى الطفل. كان جالسًا على مقعد البيانو. *حاول يا تشارلي، حاول.*

"هل تعزف على البيانو؟"

اكتفى الطفل بالجلوس هناك.

قالت السيدة. "لا، هو لا يعزف."

ثم بدأ الطفل في العزف على البيانو. كانت الأغنية الرئيسية لفيلم *النمر الوردي*. استطاع تمييز تلك المعزوفة على الفور، بعد النوتات القليلة الأولى. لم يكن قد سمع تلك النغمة منذ سنوات، ولكن عندما كان يسمعها، عندما كان شقيقه يعزفها، كان يسمعها كل يوم، وأحيانًا كل بضع ساعات حتى هدد والدهما بخنقه، وعلم دون أدنى شك أو ذرة شك أنه قد قُضي عليه. لقد فُقد عقله تمامًا. لقد جُن جنونه وكان سيصاب بانهيار عصبي وتشنج، الآن، أمام كل هؤلاء الناس البيض.

"عليك أن تتوقف عن عزف هذا." قال.

استمر الطفل في العزف.

"عليك أن تتوقف عن عزف هذا."

سمع السيارة وهي تدخل إلى ممر السيارات بصوت عادمها المميز.

أوه، يا يسوع العذب، شكرًا لك. أمي هنا.

"مرحبًا، أيها الطفل."

اللعنة على النمر الوردي.

قال الطفل. "ألا تعرفني يا تشارلي؟"

انغلق باب السيارة بقوة. كانت تخرج شيئًا من صندوق الأمتعة. *تعالي إلى داخل المنزل يا أمي. تعالي إلى الداخل وحلي هذا الهراء، خذيه من يدي.*

"لا، لا، أنا لا أعرفك."

"أنا تومي."

حاول التمسك بآخر شظايا النشوة لكنها لم تكن هناك بعد الآن، لقد ذهبت منذ زمن طويل.

24

بأثر رجعي، لقد فعلوا كل شيء بشكل خاطئ.
وقف أندرسون في مطبخ عائلة كروفورد، محاولًا أن يحدد لنفسه بدقة كيف سمح للأمر برمته أن يفسد وينحرف عن مساره.
ما يقرب من ثلاثة آلاف حالة عمل عليها وكان يقوم دائمًا بتحليل ما بعد الوفاة والمتابعة، ليس فقط لتتبع حالاته ولكن أيضًا ليتعلم كيف يؤدي عمله بشكل أفضل. الآن كان في حالته الأخيرة وشعر تمامًا كما كان يشعر في البداية، فجًا وغير متمرس. لقد كانت حالته الأخيرة ذات أهمية كبيرة، وكان محقًا في ذلك: مهمّة ليس لأنها الحالة الأمريكية التي يمكن أن تثير العالم بأسره ليلاحظ أخيرًا أن هناك دليلًا على التناسخ وتقمص الأرواح، بل لأنها الحالة التي أثبتت مرة واحدة وإلى الأبد أنه قد انتهى وأنه يلفظ أنفاسه المهنية الأخيرة.
كان ينبغي له أن يعرف أفضل من ذلك. بمَ كان يفكر؟ لم يكن ينبغي لهم التحدث إلى المراهق، كان يجب عليهم المغادرة فورًا لإعادة ترتيب صفوفهم. ما يقرب من ثلاثة آلاف حالة وبالتأكيد خمسين أو ستين حالة أمريكية جيدة؛ كان يعلم أن هذه ليست الهند، حيث يشير القرويون بلهفة إلى حالات الولادة الجديدة المحتملة، مرسلين إياه للبحث عن وحمات وعلامات خلقية يكاد لا يراها. في الهند كانوا يريدون له النجاح، وكانوا متحمسين لإمكانية إثبات ما يعرفونه بالفعل. في الحالات الأمريكية كان حذرًا. كان يشق طريقك ببطء، ببطء شديد، إلى موضوع ما تفعله، بألطف العبارات الممكنة، موضحًا أن كل ما يفعله هو طرح الأسئلة.

كان ينبغي لهم المغادرة قبل وصول الأم.
كان ينبغي له أن يتوقع أن المراهق قد يتسرع هكذا.
"ماما، هذا الصبي يقول إنه تومي،" قبل أن تدخل المرأة المسكينة من الباب حتى.
كان ينبغي له أن يدرك، والأهم من ذلك، أنه بما أنهم لم يعثروا على جثة، فإن المرأة لم تكن تعلم أن ابنها قد مات.
"ماما، هذا الصبي يقول إنه تومي." قال المراهق ذلك. والمرأة لا تزال تتدخل من الباب، بوركها أولًا، ممسكة بكيس من البقالة ومضغوطة به ضد صدرها وحزمة من الأوراق مدسوسة تحت ذراعها.
"هذا الصبي يقول إنه تومي." الفتى بالداخل يعزف على البيانو، وهو نفسه مشلول بسبب ذلك الخجل والتردد اللفظي اللعين وأيضًا بسبب النشوة التي تتدفق في مراكز الدوبامين في دماغه: النشوة التي تصاحب دائمًا التحقق من أن الحالة متطابقة—لأنه كان متأكدًا تمامًا أن الطفل لم يعزف على البيانو من قبل، وأن النغمة التي كان يعزفها كانت ذات مغزى لعائلة الشخصية السابقة.
الموسيقى. هل كان هناك شيء أكثر قوة منها في استدعاء ما فُقد؟ هل كان من المفاجئ حقًا أنه عندما التفتت المرأة نحو الغرفة كان هناك أمل في عينيها، ذلك الأمل البري واليائس الذي تراه أحيانًا في وجوه الأشخاص المصابين بأمراض مستعصية وهم يناقشون أحدث العلاجات؟ هل كان من المفاجئ حقًا أنها ظنت للحظة أن ابنها المفقود موجود هناك في الغرفة في مكان ما، وأنه حي وقد عاد إليها؟
أو أنه عندما استقرت عيناها بدلًا من ذلك على الطفل الأبيض الصغير الذي هو نوح، والذي كان يركض الآن نحوها مثل صاروخ موجه يتعقب

الحرارة، قاذفًا نفسه عند ساقيها، أنها ستنهار وتتحطم؟ كان عليها استيعاب كل ذلك دفعة واحدة، الأمل وصدمة الخيبة وصدمة قوة حياة نوح وهي ترتطم بجسدها، كل ذلك وهي واقفة على عتبة منزلها بمعطفها ومفاتيحها لا تزال في يدها وكيس ثقيل من البقالة بين ذراعيها.

كان ينبغي له أن يتولى زمام الأمور في تلك اللحظة بالذات. يفرض نوعًا من النظام. يأخذ الكيس من ذراعيها. *سيدة كروفورد، أنا البروفيسور أندرسون، تفضلي بالجلوس وسنشرح سبب وجودنا هنا.* كانت هذه هي الجملة في رأسه. سمع نفسه يقولها بنبرة مهدئة. لكنه تردد، راغبًا في التأكد من أنه يملك الكلمات الصحيحة، وقبل أن تتاح له فرصة التحدث، اندفعت جاني إلى الأمام، ممسكة بنوح من ذراعه ومحاولة سحبه بعيدًا عن ساقي المرأة.

"حبيبي، اتركها."

"لا."

"عليك أن تتركها. أنا آسفة جدًا." قالت ذلك لدينيس. حاولت سحب نوح بعيدًا، لكنه تمسك بقوة أكبر، ضاغطًا على ساقيها بكلتا ذراعيه الصغيرتين.

"هل هذه نوع من الدعابات السخيفة والمريضة؟"

"نوح، أنت تزعج هذه المرأة، اتركها الآن."

"لا!" قالها. "هذه أمي!"

قالت دينيس كروفورد. "هذا جنون." هزت ساقها في محاولة لتخليص نفسها من الطفل. كانت لا تزال ممسكة بكيس البقالة الثقيل. لم يأخذه أحد منها. كان المراهق واقفًا هناك وفمه مفتوح على

مصراعيه. كان أندرسون يراقب، مشكلًا الكلمات في عقله. كان هناك نوح يضغط بنفسه ضد دينيس وجاني تحاول سحبه في الاتجاه الآخر، الاثنان مقفلان معًا في معركة إرادات مثل الصراع البدائي بين الأم والطفل، حتى بدأت رزمة الأوراق التي كانت دينيس تحملها مدسوسة تحت ذراعها في الانزلاق، وفي محاولة لاستعادة السيطرة هزت ساقها مجددًا، أو ركلت، وسقط نوح.

سقط إلى الخلف، وارتطم رأسه بالأرض الخشبية بصوت فرقعة مدوٍّ. شعر أندرسون بالصوت يرتعد في جسده.

لم يتحرك الصبي. استلقى بلا حراك على الأرض وعيناه مغلقتان. سمع أندرسون شهقة—كانت تلك جاني—ثم صوتًا يشبه تدفق المياه بينما انزلقت أوراق دينيس، منفرشة أمامهم جميعًا، تومي كروفورد يبتسم باللون الأخضر والأصفر والأزرق.

كانت جاني بجانبه في لحظة. "نوح؟"

ثم تمسك أندرسون بزمام نفسه وقرفص بجانب الصبي. قاس نبض الصبي، وأعادت الضربات القوية الغرفة إلى الحياة مجددًا.

انفتحت عينا نوح. رمش، ونظر إلى السقف. بدت حدقتاه طبيعيتين.

سأل أندرسون. "هل تعرف من أنا؟"

انزلقت نظرة الصبي من السقف إلى أندرسون. نظر إليه بتعبير حزين، وكأن السؤال قد خيب أمله. "بالطبع أعرف من أنت. أنا أعرف الجميع هنا."

وقف أندرسون، ونفض ركبتيه. "أعتقد أنه بخير."

صرخت جاني. "أنت لا تعلم ذلك! ماذا لو كان مصابًا بارتجاج في المخ؟"

"سنراقب الأعراض. هذا غير مرجح."

"حقًا؟ كيف تعرف؟"

اهتز السؤال في الهواء بينهما. فكر. إنها لا تثق بي. هذا منطقي. لِمَ ينبغي لها ذلك؟

"أوه!" دويّ آخر—هذه المرة كان كيس البقالة يسقط بينما فقدت دينيس أخيرًا قبضتها عليه، وصوت دحرجة البصل مثل كرات البينبول يشق طريقه عبر الأرض. حدقت دينيس من نوح إلى الفوضى على الأرض، هازة رأسها. "أنا آسفة—"

كافح نوح للجلوس. وتشنج وجهه. "أمي؟"

كررت دينيس. "آسفة جدًا." بدت ركبتاها وكأنهما تنثنيان وخشي أندرسون للحظة أن تخذلاها، وأنها ستسقط، وتكتمل المهزلة. بدلًا من ذلك، قرفصت للأسفل، جامعة الأوراق، واضعة إياها بدقة في كومة.

جمعت جاني نوح بين ذراعيها. "تعال يا حبيبي. لنذهب ونحضر—كوبًا من الماء، هل نفعل؟" لم تنتظر رده؛ وقفت ومشت خارج الغرفة.

كانت دينيس مبحوحة الصوت، مذهولة، وهي تجمع المنشورات واحدًا تلو الآخر. "لم أكن أقصد... إيذاء أحد..."

قال المراهق. "أمي، اتركيها."

"لا، يجب عليّ أن..."

"اتركي المنشورات وشأنها."

قال أندرسون. "ليس خطأكِ. إنه خطئي."

نظرت إليه، لكنه لم يستطع التقاء عينيها.

بعد عشر دقائق، جلس أندرسون مستقيمًا على الأريكة وترك القوة الكاملة لغضب المرأة وارتباكها تقع عليه. كان يعلم أنه يستحق ذلك.

"عن ماذا تتحدث بحق الجحيم؟"

أجاب أندرسون ببطء. "ربما ينبغي لنا مناقشة هذا بمجرد أن تتعافي أكثر قليلًا. من الصدمة."

"أوه، لقد تعافيت." وقفت المرأة كروفورد فوقه. لم تبدُ مستقرة تمامًا.

فكر أندرسون أن هذا يثبت ببساطة أن الأساليب تهم دائمًا. لم يكن ينبغي له الاستماع إلى جاني. كان يجب عليه إرسال بريد إلكتروني للمرأة أولًا. إعطاؤها نوعًا من التحذير.

عقدت ذراعيها وشعر بالغل والغضب ينبتان في داخلها، ويكشفان عن نفسهما في صوتها المرتعش وبريق عينيها. "دعني إذن أفهم هذا بوضوح. أنت تعتقد أن ابني قد—تجسد مجددًا في مكان ما داخل هذا الطفل؟ هذا ما تعتقده؟"

"سيدتي، نحن نحاول ألا نقفز إلى..." نظر إليها. سحقًا لكل شيء. "نعم. هذا ما أعتقده."

"أنتم الناس قد فقدتم عقولكم اللعينة."

"سيدتي. أنا آسف لأنكِ—وصلتِ إلى هذا الاستنتاج." أخذ نفسًا عميقًا. لقد واجه مقاومة مرات عديدة. لِمَ يؤثر فيه الأمر كثيرًا الآن؟ لم يستطع العثور على الوضوح في داخله ليشرح ما كان بحاجة إلى شرحه. "إذا كان بإمكانكِ فقط أخذ لحظة والسماح لي بشرح بعض الأشياء التي كان نوح يقولها ويمكنكِ إما—الموافقة عليها أو—"

"نوع من الفودو المجنون—"

قالت جاني وهي تقف عند الباب. "ليس فودو." شعر أندرسون بارتياح عميق لرؤيتها هناك. "كيف حال نوح؟"
"بخير. في الوقت الحالي. لن يتحدث إليّ. تشارلي أجلسه في المطبخ يشاهد الرسوم المتحركة على الكمبيوتر." التفتت جاني إلى دينيس. "انظري، أنا أعلم أن هذا يبدو جنونيًا، وبعيد المنال تمامًا... والحقيقة هي أنه بعيد المنال، كل هذا، ولكن ربما يكون أيضًا—" لمحت أندرسون، عيناها متفاجئتان، مفتوحتان على مصراعيهما كافذة. "إنه أيضًا حقيقي."
أصيب أندرسون للحظة بامتنان جارف. ربما لم يذهب كل شيء إلى الجحيم بعد كل شيء.
قالت جاني بتوتر. "انظري، نحن لا نريد إزعاجكِ. هذا آخر ما نريده." وضحكت دينيس، بصوت فظيع. "يمكنكِ المضي قدمًا وتصديق ما تشائين. هذا حقكِ. ولكن أرجوكِ اتركي معي وعائلتي خارج الأمر."
سأل أندرسون فجأة. "هل كان لدى تومي سحلية تدعى هورنتيل؟"
كان وجه دينيس غير قابل للقراءة فوق ذراعيها المعقودتين. "وماذا في ذلك إن كان لديه؟"
"نوح يتذكر أنه كان صبيًا يدعى تومي وكان لديه سحلية تدعى هورنتيل وشقيق يدعى تشارلي. لقد قدم إشارات متعددة إلى كتب هاري بوتر، ويحب فريق البيسبول الوطني." فاجأ أندرسون نفسه بطلاقته المكتشفة حديثًا مع الأسماء العلم، وكأن جزءًا آخر سليمًا من دماغه كان يستعيد المعلومات اللازمة. كان هذا نوعًا من حبسة الكلام، مادة صالحة لورقة بحثية لشخص ما، إلا أنها لم تكن بحثًا، بل كانت

حياته؛ كانت هذه اللحظة. "لقد تحدث عن إطلاق النار من بندقية عيار 54."
لوت دينيس شفتيها إلى ابتسامة رفيعة. "حسنًا، إذن، أترى؟ لم يكن لدينا بنادق في منزلنا قط. لم أكن أسمح للأولاد حتى باللعب بالبنادق اللعبة."
أضافت جاني بهدوء. "يقول إنه يفتقد أمه. أمه الأخرى. يبكي بشأن هذا طوال الوقت."
"انظري، أنا لا أعرف لماذا يقول ابنكِ هذه الأشياء. إذا كان هناك خطب ما به، فأنا آسفة حقًا. لكن هذا هراء، مجموعة من المصادفات نصف المطبوخة، وأنتِ تقولين كل هذا للشخص الخطأ، لأنه لكي أكون صادقة، أنا لا أهتم." ضحكت دينيس مجددًا، إذا كان بإمكانك تسميتها ضحكة. كان بإمكان أندرسون استشعار ألمها خلف تلك الواجهة الواضحة والغاضبة، مثل البرق الذي يلمع في الأفق. لم يكن هناك طريق للدخول. "انظري، أنا لست قسيسة، وبقدر ما أرى، لست أنت أيضًا كذلك. لن أقف هنا في غرفة معيشتي وأخمن بشأن الحياة الآخرة، لأن شيئًا من هذا لا يحدث أي فارق. لأن شيئًا من هذا لا يعيد إليّ ابني. تومي—" تخشب صوتها. هزت رأسها وحاولت مجددًا. "ابني ميت."
رنت الكلمات في الغرفة. نظرت من واحد إلى الآخر، وكأن أحدهم قد يناقضها فعليًا. تمنى فجأة لو كان طبيبًا مقيمًا مجددًا، مسلحًا بمعطفه الأبيض، يشفي المرضى؛ أي شيء سوى من يكون، وأين يكون: في هذه الغرفة، يوافق هذه الأم على أن ابنها ميت.
قالت جاني."أنا آسفة جدًا." كان صوتها مخنوقًا بالدموع.

إلا أن دينيس كروفورد لم تكن تبكي. كانت مستمرة، متحدثة بصوت متجمد للغاية شعر أندرسون ببرودته تخترق عمق عظامه: ذلك الحزن البارد الذي كان يعرفه جيدًا. "إنه ميت. ولن يعود أبدًا. وأنتم—يجب أن تخجلوا من أنفسكم."

"سيدة كروفورد—"

"أعتقد أنه ينبغي لكم الذهاب الآن. لقد فعلتم ما فيه الكفاية. فقط—اذهبوا."

حاولت جاني الابتسام. "سيدة كروفورد—سنغادر، نحن موافقون على المغادرة، إذا كان بإمكانكِ فقط رؤية نوح لبضع دقائق—ليس عليكِ قول أي شيء، إذا جلستِ معه فقط وكنتِ... ودودة—"

"لقد أقنعتِ هذا الطفل بأنه شخص آخر. وسحبتِ به إلى هنا طوال الطريق من الله وحده يعلم أين—"

"نيويورك."

"لماذا لا يفاجئني ذلك؟ لقد غسلتِ دماغ هذا الطفل المسكين وعربتِ به طوال الطريق من نيويورك. الآن تريدين مني أن أساير الأمر وكأن هذه نوع من الألعاب." هزت رأسها. "إنها ليست لعبة بالنسبة لي. الآن اخرجوا من بيتي."

قال أندرسون ببطء وثبات. "إنها ليست لعبة بالنسبة لنا أيضًا. استمعي، يا سيدة—أنا أعلم أنكِ عانيتِ من خسارة. خسارة فادحة. أنا أفهم كيف تشعرين."

"أنت تفهم؟ لماذا؟ من الذي خسرته؟"

"لقد خسرتُ—خسرتُ—" تلمس الكلمة لكنها تكسرت تحته مثل درجة في سلم، قاذفة به في الظلام. رأى وجه زوجته في عين عقله. كانت خائبة

الأمل فيه. "الآخرين من عائلتي." كان هذا كل ما استطاع العثور عليه. لقد فقد اسم زوجته الخاصة. ابنه الخاص.

وقفت دينيس كروفورد بكامل طولها. كانت تقريبًا بطول أندرسون. "لقد قلت، 'اخرجوا'."

هذا هو السبب في أنني قضيت سنوات عديدة في آسيا. هذا ما كان يحدث مع الحالات الأمريكية. فكر. وقف هناك. لم يستطع التفكير.

نظرت جاني إليه، وتبعها هابطًا الممر.

أنا آسف. آسف لسحبكِ إلى هذا. آسف لجعلكِ تؤمنين بحقيبة عظام مثيرة للشفقة كهذه. فكر.

همست بحدة وضراوة. "إذن ماذا نقول لنوح؟" ضربه قربها في الممر، وأنفاس همسها في وجهه، بقوة، وتراجع غريزيًا من الكثافة الشديدة.

"كيف يمكنني تصحيح هذا معه؟"

"سوف تكتشفين ذلك."

"هذا كل ما يمكنك قوله؟ هذا كل شيء؟ سوف أكتشف ذلك؟"

من مكان قريب، بدأ إيقاع طبل، شؤوم، محتوم، وكأنه يقود جيشه إلى هزيمته. أجبر نفسه على رفع رأسه والنظر في عينيها. "أنا آسف."

التفتت بعيدًا عنه وفتحت باب المطبخ. لكن لم يكن ضروريًا لها أن تكتشف أي شيء، لأن نوح كان قد اختفى.

25

بدا الأمر وكأنه منزل من ورق ينهار، هكذا فكر أندرسون. كل ما يمكن أن يرتد بوبال وسوء قد حدث بالفعل. هو، إذ يراقب الهستيريا وهي تتكشف فصولًا، بدا أكثر عجزًا من أي منهم. لقد حاول الوصول إلى الكلمات، لكنها لم تكن هناك.

لم يكن هذا ليحدث أبدًا في الهند. ففي الهند، كانوا يفهمون أن الحياة تتكشف بالطريقة التي تتكشف بها، شئت أم أبيت: بقرة تظهر في منتصف الطريق، انعطافة مفاجئة تنقذك أو تقتلك. حياة تنتهي، وأخرى جديدة تبدأ؛ ربما تكون أفضل من السابقة، وربما لا تكون. كان الهنود (والتايلانديون، والستراليون من سريلانكا) يتقبلون هذا الأمر بالطريقة نفسها التي يتقبلون بها الرياح الموسمية أو الحرارة الشديدة، بزهد واستسلام يشبهان الفطرة السليمة البسيطة.

تبًا للأمريكيين. الأمريكيون، الذين لم يتمرسوا على تلال الروث المشتعلة والانعطافات الحياتية المفاجئة، لم يملكوا إلا أن يتشبثوا بقوة بالحياة التي يعيشونها، كمن يقبض بجزع على غصن هزيل مآله الكسر لا محالة... وعندما لا تسير الأمور تمامًا كما هو متوقع، يفقد الأمريكيون صوابهم تمامًا وتنهار أعصابهم.

وهو نفسه من ضمنهم.

كان هذا تفسيرًا كافيًا ومقنعًا مثل أي تفسير آخر لما حدث في ذلك الميقات من بعد الظهر.

لكن، لم يكن بوسعك حقًا إلقاء اللوم على أمريكا، أليس كذلك؟ لأن الأمور في الهند كانت تخرج عن مسارها وتسوء أيضًا في بعض الأحيان، أليس كذلك؟

البشر غاية في التعقيد، فكيف يمكنك بحق الجحيم التنبؤ بكيفية ردود أفعالهم في مواجهة المستحيل؟

لا يمكنك ذلك.

وقف في منتصف المطبخ، محاولًا استعادة توازنه وتحديد وجهته. على الثلاجة، كانت هناك صورة معلقة لفريق دوري الصغار للبيسبول يبتسمون بملء أفواههم. ضيق عينيه ليتأملها عن قرب، فميز تومي في أسفل الجانب الأيسر، وهو يحمل لافتة كُتب عليها: *أبطال دوري الصغار، منطقة ميلرتون الجنوبية، الناشونالز.*

آه، الناشونالز. القطعة المفقودة من الأحجية. لقد نسي أنهم أحيانًا يطلقون على فرق الدوريات الترفيهية أسماء فرق الدوري الرئيسي. دليل جيد بلا شك، ومع ذلك لم يبعث في نفسه أي شعور بالرضا. فما نفع الأدلة الآن؟

خرج من المطبخ وبدأ يبحث عن الصبي المفقود.

ঌ ঌ ঌ

وقفت جاني عند الباب الخلفي لمنزل دينيس، وتأملت مساحة شاسعة من الفراغ واللاشيء.

لقد رخت حذرها ويقظتها لدقيقة واحدة فقط، لكنها كانت دقيقة أطول مما ينبغي، والآن اختفى نوح.

أجرت مسحًا وتفتيشًا آخر لغرفة المؤن، وغرفة المعيشة، والحمام في الطابق الأرضي، بينما كان المراهق يعيد فحص الغرف الأخرى في المنزل، لكنه لم يكن له أي أثر.

لا بد أنه تسلل خارجًا من الباب الخلفي عندما كانت تتحدث إلى دينيس، وفي الوقت الذي انصرف فيه تشارلي ليتدرب على طبوله. لا بد أنه ظن أن دينيس قد رفضته ونبذته، ولهذا السبب دفعته وسقط. بالطبع كان سيفكر على هذا النحو. أو ربما ظن أن الخطأ خطؤه هو–خطؤه، في حين أنه كان خطأ جاني... حسنًا، لا وقت لهذا الآن. سيكون هناك متسع من الوقت للندم والملامة لاحقًا.

فتحت الباب الخلفي: امتداد من العشب الموحل، رقع صفراء تتداخل مع عشب أخضر جديد ينبت كأنه شعر يشيب بطريقة عكسية. مغطس طيور يحتضن بركة صغيرة من المياه الداكنة، وتدور ورقة شجر مرارًا وتكرارًا في وسطه. شبح شجرة تبرز البراعم عند أطراف أغصانها. ثم ينتهي الفناء وتبدأ الحقول، ممتدة على مدى بصرها.

"نوح؟"

لقد نسيت كم هو صامت وموحش هذا الريف. وفي مكان ما، نبح كلب.

"نوح!"

إلى أي مدى يمكن لفلذة كبد في الرابعة من عمره أن يصل؟

تطايرت شظايا من كلمات المواساة والتعزية في رأسها: *في أي دقيقة الآن، لا تقلقي، سيكون كل شيء على ما يرام، لطالما كان الأمر كذلك، لا بد أنه في مكان ما هنا.* تحتها مباشرة، كان ذعر جارف يرتفع كأمواج الفيضان، يطمس ويجرف كل شيء آخر في طريقه. العشب يمتد نحو السيقان الخضراء المنخفضة لحقول الذرة المزروعة حديثًا.

"نوح!"

أطلقت ساقيها للريح وبدأت تركض.

كانت سيقان الذرة توخز كاحليها وهي تركض عبر الحقول، باحثة عن رأس أشقر. شعرت بالسيقان الغضة تتكسر تحت قدميها وهي تسرع الخطى.

"نو-ح!"

يمكن أن يكون في أي مكان. يمكن أن يكون منكمشًا على الأرض الرطبة وراء مدى رؤيتها مباشرة، محاطًا بالسيقان الخضراء. يمكن أن يكون بين الأشجار وراء الحقول، في الظلال الداكنة للغابة.

ربما كان السبب في الاسم. لقد كان صبيًا عنيدًا. ربما كان يحاول إثبات وجهة نظر ما، وإذا استخدمت الاسم الآخر فقد يستجيب لها ويعترف بوجودها.

"تومي؟" انطلق الاسم ممزقًا حنجرتها، خادشًا الهواء.

"تومي!"

"نوح؟ تومي؟ نوح!" تردد الصدى واصطدم بالأرض المستوية وقبة السماء الرمادية كوعاء مقلوب.

"تومي! نوح! تومي!" نادت جاني، وهي تمسح بنظراتها ذلك العالم الأخضر والرمادي. هل كانت تبحث عن رأس أشقر أم رأس داكن؟ هل كُتب عليه أن يُفقد للمرة الثانية، أكان هذا هو قدره؟ أن يُفقد ويُفقد ويُفقد مجدداً بلا نهاية؟

لا. أنتِ تصابين بالبارانويا والذعر. إنه في مكان ما بالجوار. ستجدينه في أي دقيقة.

أو ربما لن تجديه.

"نوح! تومي!" ركضت متجاوزة الحقول، متوغلة في الغابة، حتى فقدت كل إحساس بالاتجاهات. كيف لها أن تساعد صبيها وهي نفسها باتت مفقودة تائهة؟

فكرت حينها، ولم تملك إلا أن تفكر، في دينيس كروفورد. دينيس، التي لا بد أنها وقفت في هذا المكان نفسه منذ فترة ليست بالبعيدة، تصرخ بهذا الاسم نفسه، تصرخ به في وجه السماء غير المبالية حتى بحّ صوتها، وفي غمرة ذعرها وبؤسها، أدركت جاني أن المسافة الفاصلة بينها وبين هذه المرأة الأخرى قد تلاشت وانكمشت إلى عدم. لقد كانتا أمهات. كانتا الشيء نفسه تمامًا.

26

استلقت دينيس على السرير. كانت تريد المساعدة في البحث عن الصبي، لكن ساقيها التوت ولم تعودا تحملانها، وذلك الطبيب، أو أيًا كانت صفته، رمقها بنظرة واحدة وأصر على أن تستلقي. كان الألم في رأسها شديدًا ولكنه كان يخمد ويتلاشى بسرعة، بفضل حبتين إضافيتين تناولتهما. أثناء تطلعها إلى نفسها في خزانة الأدوية، تملكتها رغبة عارمة في تفريغ الزجاجة اللعينة بأكملها في جوفها ووضع حد لكل شيء دفعة واحدة وإلى الأبد، لكنها واست نفسها بحبتين إضافيتين في الوقت الحالي، قاذفة إياهما جافتين في فمها وابتلعتهما دون ماء، ووضعت الباقي في جيبها.

والآن، لم تكن تشعر بأي ألم، لا ألم على الإطلاق، شكرًا جزيلًا، وكانت تعيش في غمرة حلم، في واقع بديل، حيث انقلب كل شيء على نفسه واستحال إلى شيء آخر تمامًا. لقد حاولت بعض الشياطين مخادعتها وتضليلها، وقد آذت ملاكًا كان يريد منها شيئًا، لكنهم رحلوا الآن.

شظايا من أصوات حادة، تقطع الهواء كالشفرات. كانت الحياة زجاجًا سقط وتحطم، وكانوا هم الشظايا المتناثرة. كان البشر هم تلك الشظايا.

كان هناك من ينادي على تومي.

لكن تومي رحل. تومي كان مفقودًا. كان بإمكانها سماع صوتها وهي تنادي عليه. لقد أُديرت بقوة وجُرفت عائدة لتسقط في ذلك المكان، في ذلك اليوم الذي لم تغادره قط.

لقد ظنت أنها طوت تلك الصفحة، ظنت أنها تجاوزتها، وتحايلت عليها—دون أن تنسى، لا يمكن النسيان أبدًا، بل باتخاذ الطريق الأطول والالتفافي لتتمكن من العبور، لتتمكن من الصمود واجتياز كل يوم، لكنها كانت مخطئة لأن ذلك اليوم كان حاضرًا دائمًا، يعرض فصوله على شاشة روحها. لم تغادره قط. ذلك اليوم المشؤوم.

تومي!

لقد استيقظت على صوت شجار الولدين. كان هنري قد عاد في الليلة السابقة يحمل هدايا اللحظة الأخيرة التي وجدها في أحد المطارات، وكالعادة، أفسد الأمر وبخس التقدير، ففضّل تومي هدية تشارلي على هديته. لذلك كان الولدان يتناحران بسببها واستيقظت هي على ذلك الصخب، وهي لا تزال في شبه نوم، *سحقًا*. فكرت. لم تكن تدري. لم يكن لديها أدنى فكرة عما سيجلبه هذا اليوم. فقط تفكر بسخط، لأن الأطفال يتشاجرون وهنري مستلقٍ بجانبها غارق في تعب مهلك، ينام ليتخلص من أثر كل تلك الحفلات المتأخرة في جولة فنية أخرى امتدت وامتدت بلا نهاية، مما جعل منها أمًا عازبة ومنفردة بمسؤوليتها ولم تكن تنوي أبدًا أن تكون كذلك. لقد تشاجرا بشأن هذا الأمر في الليلة السابقة، بشأن عودته إلى التدريس، لكسب بعض المال الثابت والمستقر، ليكون موجودًا من أجل عائلته، تشاجرا بشأن ذلك أمام الولدين رغمًا عنهما، كما حاولا دائمًا تجنبه. *أنتِ تسلبين مني ما أحب*، كان هنري قد صرخ في وجهها.

تسلبين مني ما أحب.

استيقظت على صوت شجار الولدين. فكرت: *سحقًا، والآن يتعين عليّ الذهاب والتعامل مع هذا الأمر، لا أحد غيري*، فخطت بخطوات ثقيلة

غاضبة نحو الممر وصاحت ملء فاهها: "حلا الأمر بينكما أيها الولدان، وإلا ستوقظان أباكما." وهكذا بدأت ذلك اليوم.
كان تومي يريد اللعب في منزل أوسكار فقالت حسنًا، يمكنك الذهاب، لأن هنري كان نائمًا والولدان يتشاجران، واعتقدت أن الأمر قد يكون أفضل بذهابه وخروجه من رأسها لفترة من الوقت.
هكذا قضت يومها، يومها وتومي بعيد عن رأسها. تشارلي كان هادئًا، يلعب بلعبته الجديدة. هنري نائم. في فترة بعد الظهر، تناولوا غداءً مريحًا على مهل وقررت طهي اللازانيا لتناول العشاء. أثناء الطهي تطلعت خارج النافذة وكانت أزهار النرجس تتفتح حول مغطس الطيور، وهنري في المنزل، والبيت هادئ، وشعرت بحظها وحسن طالعها. كان هنري في المنزل وتشارلي وتومي ومنزلها المزود بمأكل للطيور والإجازة الصيفية على الأبواب، وشعرت بحظها العاثر لامتلاكها هذه اللحظة الهادئة، هذه الحياة، هذا اليوم بالذات.
تومي!
لكنه كان وقت متأخر من بعد الظهر، يقترب من المساء، وذهبت لإحضار تومي ليعود إلى المنزل لتناول العشاء.
كانت تسير على مهل وبخطى وئيدة على طول الطريق. لم يكن هناك ما يدعو للعجلة. كان يوم السبت. الحقول الخضراء تتوهج في الغسق. الصيف قادم، والهواء عذب وطيب برائحته.
تجاوزت الكلب النابح في المنزل المجاور وصناديق بريد عائلتي كليفورد وماكلور، وانعطفت نحو الزقاق المغلق الذي يعيش فيه أوسكار، حذوة حصان من المنازل تحت أشجار شاهقة تتمايل مع النسمات. لا بد أن إحدى الأشجار كانت مريضة؛ فقد كان هناك رجل في أعلاها، ينشر

الأغصان. وقفت وراقبت وفكرت كم هو مخزٍ ومحزن، الأطراف تتساقط من تلك الشجرة القديمة الكبيرة التي كانت موجودة منذ قرون، بينما يلف الربيع العالم بأسره من حولها. في الزقاق المغلق، كان الناس خارج منازلهم، يركبون ألواح التزلج، يستمعون إلى الراديو، يغسلون سياراتهم. كان أوسكار يسدد الكرات نحو السلة في ممر سيارات منزله، ووالدته في حديقتها على جانب المنزل، تسقي الطماطم. كان بإمكان دينيس رؤية الطماطم وهي تصعد درجات المنزل؛ كانت صغيرة ومستديرة وخضراء على الغصن، مثل وعد نضير.

سمعت صوت كرة السلة وهي تخترق الطوق مستحدثة حفيفًا. تدفق المياه من أحد الجيران وهو يغسل الصابون عن سيارته. أزيز المنشار على الشجرة ثم صوت التصدع والشرخ البطيء عندما بدأ غصن في السقوط.

لو كان بإمكانكِ العودة—وهو ما لا يمكنكِ فعله—لو كان بإمكانكِ العودة، لعادت إلى تلك اللحظة بالذات، لعاشت هناك تمامًا، واقفة في ممر السيارات في فصل الربيع تستمع إلى كرة أوسكار وهي تدخل السلة، بانتظار تومي. تلك اللحظة التي سبقت رفع والدة أوسكار رأسها عن طماطمها، وقراءة دينيس للمفاجأة المكتوبة بوضوح على وجه الأم الأخرى، وتصدع حياتها وانقسامها إلى نصفين.

منذ ذلك الحين فصاعدًا، سيكون هناك دائمًا ذلك الجزء من الحياة الذي تعيشه والجزء الآخر، الجزء المعاش في الظلام، والذي كان يحدث فيه شيء ما لتومي في مكان ما.

لكنه كان يحدث مجددًا من جديد، لم يتوقف قط عن الحدوث، تلك اللحظة التي فُقد فيها تومي. لقد كانت حبيسة ومقيدة في داخلها ولن

يكون هناك أي مخرج أبدًا، بغض النظر عن عدد الحبوب التي تناولتها. ستكون دائمًا هناك، في ذلك اليوم، لقد تخيلت فحسب أنها استمرت ومضت قدمًا، وأنها ربت تشارلي بأفضل ما يمكنها، وأنها واصلت العمل.

تطلعت دينيس إلى السقف، ورأسها يدور بعنف. الأمور كانت تتسارع وتتدحرج بسرعة فائقة الآن، والشظايا تسقط من حولها مثل قطع الزجاج. أضواء سيارة الشرطة الزرقاء والبيضاء تومض عبر النافذة. السيارة التي استدعتها بعد فوات الأوان، لأنه كان قد اختفى منذ ساعات، ولم يصل أبدًا إلى منزل أوسكار.

استلقت منبسطة على السرير، تلمس حبوبها بأصابعها في جيبها. أعجبها ملمسها، ناعمة ومتفتتة الحواف. صديقة وودودة. وضعت حبة أخرى في فمها، كانت جافة ومريرة، لكن حبة مريرة أخرى لم تكن تعني لها شيئًا.

أخرجتها من جيبها وتأملتها.

اثنا عشر صديقًا صغيرًا، يغمزون لها، وينادون باسمها.

27

عادت جاني من حقول الذرة وجلست عند طاولة المطبخ بجانب أندرسون. وضعت رأسها بين يديها وحاولت تهدئة الصخب والاندفاع الجارف في عقلها. كان أندرسون يتحدث إلى شخص ما ببطء شديد على الهاتف. تساءلت كيف يمكنه البقاء هادئًا ومتماسكًا هكذا بينما نوح مفقود. لكن نوح لم يكن طفله على أية حال. كان هو غريبًا؛ باحثًا. مثل نوح، كان هذا الذعر الخاص ملكًا لها وحدها.

حاول تثبيتها وتهدئتها بنظرات عينيه. فتجنبته، متفحصة مطبخ دينيس. النافذة المطلة على مغطس الطيور وحقول الذرة. الصورة المؤطرة للخوخ فوق الموقد. ساعة الديك، بتكتكتها العالية الصاخبة. لم تكن تحب التفكير في المعاناة والعذاب اللذين دارت فصولهما في هذه الغرفة.

أغلق أندرسون الهاتف. "الشرطة في طريقها إلينا."

"جيد." كان صوتها مبحوحًا ومجروحًا من كثرة الصراخ. "هل—"

"لقد فتشت المنزل."

"وماذا عن السيدة كروفورد؟"

"تستريح، لكن الطفل لم يكن هناك."

"والمراهق؟"

"يبحث."

"هل بحثت في القبو؟"

"وفي العلية أيضًا. سنبحث مجددًا بعد قليل. سنجده،" قال أندرسون ذلك. بدا منهكًا ومهلكًا، ولكنه كان أيضًا مركزًا ومستيقظًا. فكرت

بمرارة أنه كان واحدًا من أولئك الأشخاص الذين تدب فيهم الحياة وتتوهج طاقاتهم في مواجهة الشدائد والمحن. لقد أعربت عن أملها في أن تكون واحدة من هؤلاء الأشخاص أيضًا، لكنها في هذه اللحظة بالذات لم تظن ذلك.

قالت جاني. "ينبغي لي أن أقود السيارة حول الحي." وقفت. "أعطني المفاتيح."

قال أندرسون. "تمهلي للحظة."

"أنا بخير."

"لحظة واحدة فقط."

"لا!"

"يمكنكِ تقديم مساعدة أكبر إذا كنتِ هادئة ومتزنة."

جلست مجددًا عند الطاولة. وكانت ركبتاها ترتعدان.

"كيف حدث هذا؟ كيف سمحت لهذا بالحدوث؟ إنه في الرابعة من عمره!"

"لذا لا يمكنه الذهاب بعيدًا."

"حقًا لا يمكنه؟" التفتت نحو أندرسون. "ما كان ينبغي لي الحضور إلى هنا أبدًا. ما كان ينبغي لي المشاركة في تجربتك المجنونة هذه. بمَ كنت أفكر بحق الجحيم؟"

"كنتِ تحاولين مساعدة نوح."

"حسنًا، لقد كان خطأً فادحًا."

"انظري إليّ". كانت عيناه صافيتين. "سنجد نوح."

نوح. تسببت الكلمة في انهيار جليدي جارف من الشوق والتوق. ما الذي لم تكن لتضحي به لتمسكه بين ذراعيها مجددًا؟ أطرافه الممتلئة

ورأسه الناعم الغض. لم تكن تفهم أبدًا الأشخاص الذين يصفون أطفالهم باللذيذين، لكنها فهمت الأمر الآن، كانت تريد العثور عليه لتلتهمه، لتستنشقه وتجذبه عائدًا إلى داخل جسدها لكي لا تفقده مجددًا أبدًا.

وقف أندرسون وسكب لها كوبًا من الماء.

"خذي. اشربي."

أخذت كوب الماء وتجرعته دفعة واحدة.

"ماذا لو أصيب بنوبة ربو وهو في الخارج هناك؟ ماذا لو كان الرجل الذي اختطف تومي لا يزال في الأنحاء هناك؟"

ملأ أندرسون الكوب مجددًا وقدمه لها فتجرعته بالكامل.

"الآن، خذي نفسًا."

"ولكن—"

"خذي نفسًا."

أخذت نفسًا عَميقًا. استمرت الساعة في مطبخ دينيس في التكتكة؛ لم تتوقف عن التكتكة طوال هذه السنوات الطويلة.

"أنا على ما يرام الآن. يمكنني القيادة."

"هل أنتِ متأكدة؟"

"أنا متأكدة."

سلمها المفاتيح.

"توخي الحذر يا جاني."

"حسنًا." قبضت على المفاتيح في يديها ووقفت. عند باب المطبخ، التفتت لتنظر إلى أندرسون. كان قد سكب كوبًا من الماء لنفسه أيضًا

وجلس عند الطاولة، يتأمله. بدا متعبًا ومهلكًا. لم يكن ينوي حدوث أي من هذا. شعرت بالأسف والندم لأنها كانت قاسية معه قبل قليل.

قالت بصوت خافت. "كيف فعلت ذلك؟"

"فعلت ماذا؟"

"أن تفقد شخصًا ما؟ كيف تحملت الأمر وصمدت؟"

"تأخذين نفسًا." قال وتجرع رشفة من الماء. "ثم تأخذين نفسًا آخر."

وقفت هناك، والمفاتيح تقعقع في يدها.

رن جرس الباب.

رفع أندرسون رأسه. "لقد وصلت الشرطة."

إحدى القضايا التي تضمنت عدة حالات من التعرف والتحقق هي قضية نزيه الدنف في لبنان. ففي سن مبكرة جدًا، وصف نزيه حياة سابقة لوالديه وأشقائه السبعة، والذين كانوا جميعًا متاحين للمقابلات والتحقق. وصف نزيه حياة رجل لم تكن عائلته تعرفه قط. قال إن الرجل كان يحمل مسدسات وقنابل يدوية، وأن لديه زوجة جميلة وأطفالًا صغارًا، وأن لديه منزلًا من طابقين تحيط به الأشجار وتوجد مغارة بالقرب منه، وأن لديه صديقًا أصم وأبكم، وأنه تعرض لإطلاق النار من قبل مجموعة من الرجال.

أفاد والده أن نزيه طالب والديه بأخذه إلى منزله السابق في بلدة صغيرة تقع على بعد عشرة أميال. أخذوه إلى تلك البلدة، برفقة اثنتين من شقيقاته وأخيه، عندما كان في السادسة من عمره. على بعد نحو نصف ميل من البلدة، طلب منهم نزيه التوقف عند طريق ترابي يتفرع من الطريق الرئيسي. أخبرهم أن الطريق ينتهي بطريق مسدود حيث توجد مغارة، لكنهم واصلوا القيادة دون التحقق من ذلك. عندما وصلوا إلى وسط البلدة، حيث تلتقي ستة طرق، سأله والد نزيه عن الطريق الذي يسلكونه. فأشار نزيه إلى أحد الطرق وقال إن عليهم السير فيه حتى يصلوا إلى طريق يتفرع صعودًا، حيث سيرون منزله. عندما وصلوا إلى التفرع الأول الممتد للأعلى، ترجلت العائلة وبدأت في

الاستفسار والسؤال عن أي شخص مات بالطريقة التي وصفها نزيه.

سرعان ما اكتشفوا أن رجلًا يُدعى فؤاد، كان يملك منزلًا على ذلك الطريق قبل وفاته بعشر سنوات من ولادة نزيه، يبدو أنه ينطبق تمامًا على أقوال نزيه وإشاراته. سألت أرملة فؤاد نزيه: "من بنى أساس هذه البوابة عند مدخل المنزل؟" فأجاب نزيه بشكل صحيح: "رجل من عائلة فرج." ثم توجهت المجموعة إلى داخل المنزل، حيث وصف نزيه بدقة كيف كان فؤاد يحتفظ بأسلحته في خزانة. سألته الأرملة عما إذا كانت قد تعرضت لحادث في منزلهم السابق، فأعطى نزيه تفاصيل دقيقة وصحيحة عن حادثها. سألت أيضًا عما إذا كان يتذكر ما الذي جعل ابنتهما الصغيرة تمرض بشدة، فأجاب نزيه بشكل صحيح أنها تناولت بالخطأ بعض حبوب والدها الطبية. كما وصف بدقة حادثتين أخريتين من حياة الشخصية السابقة. قد أُعجبت الأرملة وأطفالها الخمسة للغاية بالمعرفة التي أظهرها نزيه، واقتنعوا جميعًا بأنه فؤاد وقد ولد من جديد.

بعد وقت قصير من ذلك اللقاء، زار نزيه شقيق فؤاد، الشيخ أديب. عندما رآه نزيه، ركض نحوه قائلًا: "ها قد جاء أخي أديب." طلب الشيخ أديب من نزيه دليلًا على أنه شقيقه، فقال نزيه: "لقد أعطيتك مسدس تشيكي 16." والـ (Checki 16) هو نوع من المسدسات المصنوعة في تشيكوسلوفاكيا وغير شائع في لبنان،

وكان فؤاد قد أعطى شقيقه واحدًا بالفعل. ثم سأل الشيخ أديب نزيه عن مكان منزله الأصلي، فقاده نزيه أسفل الطريق حتى قال بشكل صحيح: "هذا منزل والدي وهذا [المنزل المجاور] منزلي الأول." دخلوا المنزل الأخير، حيث كانت زوجة فؤاد الأولى لا تزال تعيش، وعندما سأل الشيخ أديب لاحقًا عن هويتها، ذكر نزيه اسمها بشكل صحيح وثابت.

—جيم ب. تاكر، دكتور في الطب، كتاب الحياة قبل الحياة.

28

استيقظ بول كليفورد ببطء وتفحص حالته ونفسه. يوم آخر وهو لا يزال سليمًا معافى–إلى حد ما. ربما كان أنفه مكسورًا؛ فقد كان يؤلمه بشدة ويمكنه الشعور بالدم الجاف يسبب له حكة جنونية على شفته العليا. لعل الأمر ليس كذلك على الأرجح. لطالما كان محظوظًا بهذه الطريقة. كان يقع في ورطة ومأزق عميق ومعقد ويفقد وعيه ثم يستيقظ ليجد نفسه لا يزال حيًا على هذا الكوكب اللعين الذي يشبه المزبَلة. تطور مخيب للآمال، كما قال له موجهه القديم في جمعية مدمني الكحول المجهولين ذات مرة، عندما اتصل به في منتصف نوبة سكر وبكاء ملحمية بشكل خاص. اليوم كان مستلقيًا ووجهه لأسفل على خرسانة صلبة، وليس على تراب أو سجادة. هذا يعني أنه كان في قبو منزل والدته.

كان هناك ألم بالقرب من خصيتيه وأدرك أنه مضرب تنس طاولة. لا بد أنه تعثر بالطاولة وسقط الليلة الماضية وظل مستلقيًا حيث سقط. شعر بشفته أيضًا غريبة ومتورمة؛ وحرك لسانه في الأنحاء داخل فمه. كان طعم فمه يشبه طعم الدم والأتربة والأنفاس الكريهة والقيء. كانت هناك قطعة من القيء عالقة بشعره، على الرغم من أنه لم يستطع استيعاب كيف كان لديه أي شيء ليتقيأه. لم يأكل أي شيء صلب منذ أيام.

رفع رأسه. كان الألم يقتله، بالطبع. فوضعه بلطف مجددًا على الخرسانة الباردة. كان ملمسها لطيفًا، كالوسادة. ربما سيبقى هناك لفترة من الوقت. لم يستطع تذكر ما حدث ومع من تشاجر، ولكن

انتابه شعور بأن الوقت قد تجاوز منتصف النهار بكثير وأنه قد أفسد الأمور تمامًا وبشكل ملكي مجددًا. مستحيل أن يقبله السيد كيم مجددًا في محطة الوقود الآن. هذا يعني أن جيمي سيطرده على الأرجح خارجًا. كان متأخرًا في دفع الإيجار، على الرغم من أن دفع الإيجار مقابل أريكة شخص ما لم يلقَ قبولًا أو راحة في نفسه على أية حال. لقد كان يتعرض للاستغلال والنصب على أية حال، أليس كذلك؟ إذن من يهتم؟

لكن الوظيفة في محطة الوقود لم تكن سيئة للغاية؛ فالناس القادمون والمغادرون كانوا يبقون عقله مشغولًا. عندما كان يعمل، كانت والدته تضايقه وتلاحقه بشكل أقل بشأن الحصول على شهادة الثانوية العامة البديلة أو العودة إلى جمعية مدمني الكحول المجهولين. لقد حاول إخبار والدته بأنه لن يعود إلى هناك، لكنها لم تكن تفهم ولم يستطع هو الشرح والتوضيح. استمرت في سؤاله. "لماذا؟"

كان يقول لها. "أسئلة من هذا القبيل، هذا هو السبب."

في جمعية مدمني الكحول المجهولين كان الأمر نفسه القديم والممل. كانوا يريدون منك أن تخبرهم بقصة. *قصتك* الخاصة. كانوا يريدون انتزاعها واستخراجها منك، طفولتك السيئة، أو أيًا كان، ولم يستمعوا أبدًا عندما قال إنه ليس لديه قصة ليرويها. كان والده وغدًا نذلًا، وعندما كان بول في الخامسة عشرة من عمره طلق والدته وتزوج من زميلته في العمل التي كان يضاجعها، ولكن الكثير من الآباء ارتكبوا حماقات وأشياء قذرة كهذه. ما الفارق الذي يصنعه سبب تحوله إلى هذا النحو؟ هو هنا الآن، أليس كذلك؟ لكن هذا لم يكن كافيًا بالنسبة لهم. كانوا يريدون دمك، هذا ما كانوا يريدونه حقًا. تلك المرشدة في

المرة الأخيرة لم تغلق فمها وتكف عن الكلام بشأن هذا الأمر. استمرت في النظر إليه والتحديق فيه وكأنها تعلم أنه يكذب. بدأ دماغه يصاب بذلك الشعور بالدوران والتشتت وكأنه عجلة روليت تدور وقد تتوقف في أي لحظة على الرقم الخاطئ.

كان عليه مغادرة تلك الغرفة على الفور. خرج من الباب الخلفي ومشى مباشرة إلى متجر البقالة واشترى جعة. زجاجة جعة واحدة فقط. *هل أنتِ سعيدة الآن أيتها العاهرة؟* فكر في ذلك وهو يتجرعها دفعة واحدة. عاد إلى المنزل إلى قبو والدته وذلك الطعم على شفتيه وفي عقله يشبه رائحة فتاة لا يمكنه نسيانها، ثم في منتصف الليل غزا المنزل واستولى على كل ما فيه من براندي ونايكويل ونبيذ البلسان وما إلى ذلك، وخلال اليوم التالي أو نحو ذلك لم يفكر في أي شيء، ثم طردته خارجًا.

كان بإمكانه سماع والدته وشقيقه يتحركون في الطابق العلوي، يفعلون أي شيء لعين يفعلونه طوال اليوم. من أسفل في القبو، كان بإمكانه شم رائحة النقانق التي كانت تطبخها. كان يعاني من أثر الثمالة البشع ولكنه كان يتضور جوعًا أيضًا، لذلك كان يشعر بالغثيان والجوع في الوقت نفسه، وهو أمر قد لا تظنه ممكنًا لولا أنه كان يشعر به طوال الوقت. كان مستعدًا للقتل من أجل نقانق الآن أو حتى شطيرة زبدة الفول السوداني، لكنه لم يكن يريد المخاطرة بالصعود إلى هناك لأن والدته سترمقه بنظرة واحدة وتعرف الحقيقة وما يجري. لم تكن حمقاء، حتى لو كانت لا تزال تسمح له بالنوم في القبو أحيانًا.

استلقى هناك حتى سمع والدته وآرون ينتهيان من تناول غدائهما وصوت انغلاق الباب السلكي بقوة عندما خرجا. ربما كان لدى آرون مباراة مصارعة في المدرسة.

بعد رحيلهما لم يجد الطاقة للنهوض لفترة طويلة واستلقى على أرضية ذلك القبو حيث قضى ساعات طويلة عندما كان طفلًا صغيرًا يلعب هوكي الهواء وتنس الطاولة وألعاب الفيديو. فكر في مدى جوعه وإلى أي مدى سقط وغرق في الوحل والقذارة.

ثم بدأ عقله يصاب بذلك الشعور بالتوتر مجددًا، وكأنه على وشك الانفجار، تحسس الأرض من حوله ليرى إن كان هناك أي شيء وعثر على زجاجة فودكا لا بد أنه اشتراها الليلة الماضية. كانت هناك رشفة متبقية فيها لكنها لم تكن كافية.

أجبر نفسه على الصعود السلالم للعثور على بعض الطعام. ربما كانت هناك زجاجة أماريتو أو شيء من هذا القبيل مخبأة في مكان ما لم يعثر عليه بعد، على الرغم من أنه شك في ذلك بجدية، بعد تلك المرة الأخيرة.

كان هناك شخص ما بالخارج؛ كان بإمكانه سماع صوت سحق الحصى. ربما كان رجلًا يوصل البيتزا وأخطأ في العنوان. كان بإمكانه التهام بيتزا كاملة الآن، حتى لو كانت تحتوي على الفطر. سيجد المال في مكان ما. لا بد أن هناك بعض العملات المعدنية الفكة بين وسائد الأريكة أو شيء من هذا القبيل. فتح الباب على مصراعيه بحدة.

كان هناك صبي واقف هناك. طفل صغير، ذو شعر أصفر أشقر. كان واقفًا في ممر السيارات، يحدق في المنزل. كان لدى الصبي سحلية على

كتفه. لقد كان مشهدًا غريبًا ومريبًا حقًا. كان يعرف كل الأطفال في الحي ولم يكن هذا الصبي أحدهم.
قال بول. "مرحبًا."
بدا الصبي متوترًا وقلقًا للغاية. ربما تجرأ بعض الأطفال الآخرين وتحدوه ليأتي إلى هنا. كل الأمهات في الحي يخبرن الأطفال الصغار ألا يتحدثوا إليه؛ كان بإمكانه معرفة ذلك من الطريقة التي يبدون بها خائفين أحيانًا عندما يقول: "مرحبًا." أصابه التفكير في الأمر بصداع في رأسه. أراد من الصبي أن يغادر.
"هل يمكنني مساعدتك في شيء؟"
اكتفى بالوقوف هناك. لم يقل أي شيء. لقد كان صبيًا غريبًا ومريبًا. ربما كان يعاني من خطب ما. كأن يكون منغوليًا أو شيئًا من هذا القبيل. ماذا يسمونهم الآن؟ متلازمة داون. كان لديه صديق لديه شقيقة مصابة بها وكانت تحدق فيه أحيانًا أيضًا، ولم تكن تقصد شيئًا من وراء ذلك. غير أن هذا الصبي كان يملك عينين عاديتين، عينين زرقاوين كبيرتين حقًا وكانتا تنظران إليه وكأنه سرق مصاصته أو شيئًا من هذا القبيل.
ابتسم بول. وحاول أن يكون لطيفًا. لقد كان مجرد صبي صغير. لم يكن وغدًا ونذلًا بالكامل، على النقيض مما يظنه الجميع. "هل تحتاج إلى شيء؟"
قال الصبي. "أنت لا تعرفني؟" بدا خائب الأمل.
بطريقة ما كان بول قد قال الشيء الخاطئ بالفعل. شعر بموجة من الإرهاق والإنهاك تجتاحه. كان الأمر شاقًا للغاية، في بعض الأحيان، أن تحاول أن تكون لطيفًا مع الناس.

"أنا لا أعرف أي أطفال صغار."

"شقيقي يدعى تشارلي."

"حسنًا." خطر له شيء ما. "هل أنت تائه ومفقود؟ هل تريد الدخول والاتصال بوالدتك أو شيء من هذا القبيل؟"

صرخ الصبي ملء فيه بصوت حاد. "لا! لا! اتركني وشأني!"

"حسنًا إذن. حسنًا. يجب عليّ، أمم، أن أنطلق إذن. حظًا موفقًا في الوصول إلى منزلك." إذا كان الصبي سيتصرف بغرابة وجنون تجاه الأمر فلن يتورط ويقحم نفسه. ربما ينبغي عليه الاتصال بالشرطة بشأن الصبي. ربما سيفعل أحد الجيران ذلك، على أية حال. بدأ في إغلاق الباب.

"انتظر—"

التفت عائدًا. "ماذا؟"

كان فم الصبي ملتويًا بالكامل ومتشنجًا. "لماذا فعلت ذلك بي؟"

"فعلت ماذا؟"

بدت عيناه وكأنهما على وشك الجحوظ والخروج من رأسه. "لماذا آذيتني؟"

بدأ بول يتصبب عرقًا. كانت رائحة عرقه تشبه رائحة الكحول وجعلته متعطشًا ومتلهفًا لتناوله. "أنا لم ألتقِ بك من قبل قط. كيف يمكنني أن أؤذيك؟"

"لقد آذيتني بشدة يا بولي."

كيف بحق الجحيم عرف الطفل هذا الاسم؟ لم يناده أحد باسم بولي منذ سنوات طويلة. "أنا لا أعرف عن ماذا تتحدث."

"كنت ذاهبًا إلى منزل أوسكار وأوقفتني. كنت تتصرف بلطف ثم آذيتني."

بدأ يرتجف ويهتز بعنف. ربما كانت أعراض الهذيان الارتعاشي الناتجة عن انسحاب الكحول. كيف يكون ذلك ممكنًا، على أية حال؟ "أنا لا أعرف ماذا تقصد. أنا لم ألتقِ بك من قبل قط. لم أؤذك أبدًا."
"بلى، لقد فعلت. بالبندقية."
وقف هناك مذهولًا. لم يستطع تصديق ذلك. "ماذا قلت؟"
"لماذا فعلت ذلك؟ أنا لم أفعل أي شيء سيء لك قط."
لقد كان يجن ويجن جنونه. هذا هو التفسير الوحيد. كان الأمر يشبه تلك القصص اللعينة المرعبة التي قرأها في المدرسة الثانوية قبل أن يتسرب ويهجر الدراسة، القلب الذي يتكتك ويتكتك عبر ألواح الأرضية الخشبية حتى تفقد عقلك اللعين بالكامل. الصبي لم يكن موجودًا هنا حتى. مع ذلك رآه هناك، يحفر في التراب بقدميه، ويداه مضمومتان في قبضتين، ويبدو خائفًا وغاضبًا في الوقت نفسه. طفل صغير ذو شعر أشقر. لا يشبه ذلك الصبي الميت في شيء. هل كان أحدهم يخدعه ويمكر به؟ ولكن من عساه أن يعرف؟
قال الصبي. "أنت لم تسمح لي حتى بتجربتها. لقد قلت إنك ستفعل."
قال بول. "كيف تعرف بشأن هذا؟ لا أحد يعرف بشأن هذا الأمر."
الأرجح أنه لا يزال مخمورًا غائبًا عن الوعي. ربما كان هذا هو السبب. غير أنه لم يكن يشعر بأنه مخمور على الإطلاق.
وقف الصبي هناك بقبضتيه، وجسده كله يرتجف ويهتز. "لماذا فعلت ذلك، على أية حال، يا باولي؟ أنا لا أعرف لماذا."
انتابه ذلك الشعور مجددًا في عقله، كان يدور ويدور مثل عجلة روليت لعينة، إلا أنه في هذه المرة لم يكن هناك ما يوقفه، وفي هذه المرة استقر وهبط تمامًا حيث كان يتجه طوال الوقت.

29

تابعت جاني القيادة، مستغرقًا تفكيرها في عالم انقسم إلى نصفين: عالمٌ *لنوح* وعالمٌ *لليس نوح*. كانت مصابيح الشوارع تضيء واحدًا تلو الآخر، والارتجاج الخفيف لأسفلت الشارع المتشقق تحت عجلاتها، والمنازل ذات الطوابق المتداخلة بشباك كرة السلة المثبتة فيها، ومروجها الخضراء التي تبدّل لونها إلى الرمادي في عتمة الليل الهابط، وهواء الليل نفسه الذي يبرد سريعًا ويهتز بأصداء المساء؛ كل هذا كان ينتمي لعالم *ليس نوح*، وبالتالي، كان بلا فائدة ولا قيمة له.

كان العالم بالنسبة إليها لا يتعدى طوله ثلاثة أقدام، بشرته شاحبة، شعره أشقر، عروقه تنبض بالحياة.

هذا كل ما كانت عيناها تبحثان عنه، وكل ما يمكنهما تمييزه. كان بإمكانها أن ترى الأشكال في هذا العالم الخالي من نوح، لكن دون أن تستوعبها أو تسجلها في وعيها.

أما عقلها؛ آه من عقلها—

خطؤها هي. هذا هو التفكير الذي لم يطق كبح نفسه عن ملاحقتها. أخطاء كثيرة، ومحطات لا تحصى كان يسعها عندها النزول من هذا الطريق، وأشياء بسيطة جدًا كان بمقدورها فعلها. كان يمكنها ألا تتصل بأندرسون. كان يمكنها أن تقرر أن هذه الرحلة فكرة سيئة حقًا. كان يمكنها البقاء مع نوح في المطبخ بينما كان يشاهد مقطع الفيديو. كان يمكنها الاطمئنان عليه. كان ينبغي لها أن تطمئن عليه. لماذا لم تفعل؟ لقد كان في الرابعة من عمره فحسب.

خطؤها هي. ظنت أن مجيئها إلى هنا قد يساعده، في حين كان يتعين عليها الركض بقوة وبأقصى سرعة في الاتجاه المعاكس. لم يكن التذكر هو الحل. النسيان هو الحل. لا حيوات أخرى، ولا عوالم أخرى. فقط هذه الحياة، هنا تمامًا، هذه الحياة المليئة بالأسفلت المتشقق وغير القابلة للتفسير، وبوجود نوح فيها. هذا كل ما كانت تطلبه. هذا كل ما أرادته. لكنها ارتكبت خطأً، وربما فقدته—إلى الأبد؟

لا، بالطبع لا. ستراه في أية دقيقة الآن.

لكن الظلام كان يزداد حلكة. وطفلها يهيم فيه الآن في مكان ما، ضائعًا ووحيدًا. قريبًا سيبتلع الظلام سترته الحمراء وشعره الأشقر اللامع. كيف ستعثر عليه حينها؟

أنزلت زجاج النافذة، فملأ هواء الليل السيارة بكل ما فيه من برودة وكثافة تذكر بخلو المكان من نوح، وصرخت: "نوح!"

مسحت عيناها المدى، فلم تعثرا على شيء.

⸙⸙⸙

تعثر أندرسون في خطاه وهو يسير في الطريق مبتعدًا عن منزل عائلة كروفورد، مرسلًا بضوء كشافه اليدوي تدفقًا عبثيًا ضئيلًا في مواجهة وجه المساء الباكر العريض والساخر. كان الغسق يحل، ونوح هائم فيه في مكان ما، ونبضت في داخله ضرورة تصحيح كل شيء، ضاخة في جسده طاقة عنيفة ومتصاعدة ورثها من الهرمونات التي تفرزها غدة لب الكظر: الأدرينالين، الذي يزيد من معدل ضربات قلبه، نبضه، ضغط دمه، يرفع مستويات الجلوكوز والدهون في الدم، ويرد عقله مرتدًا من جدار الحاضر إلى الوراء؛ عشر، عشرين، ثلاثين سنة.

بريتا كابور.

النهر نفسه، مرتين.

من يكون هو ليلعب بالحيوات، الماضية والحاضرة، وكأنه إله؟

في حين أن البشر لم يُخلقوا ليتذكروا. لهذا السبب لا يتذكر معظمنا. البشر خُلقوا لينسوا. ليثي: نهر النسيان. فقط بعض النفوس الضائعة نسيت أن تشرب من مياهه الشافية—نسيت أن تنسى.

ها هو هنا، يسير في شوارع الضواحي هذه التي كانت أكثر غرابة عليه من أية قرية هندية زارها يومًا، مطلقًا اسم طفل ضائع في سماء المساء، يمزقه من صدره. طفله الأخير.

نوح، الأشقر والمبتهج، وهو يقفز على أطراف أصابع قدميه.

يسير وينادي؛ مجرد فم، وزوج من العيون؛ هذا كل ما عاد يصلح له الآن. نهر ليثي يرتفع من حوله حتى ينسى قريبًا كل شيء، حتى أسماء المفقودين.

30

كان عليه الخروج من هناك.

ركض بول إلى داخل المنزل. كان لا يزال بوسعه سماع الصبي وهو ينادي ويبكي في الخارج.

اندفع خارجًا من الباب الخلفي، مخترقًا الفناء مباشرة، وعبر الفجوة الموجودة في السياج، راكضًا بأقصى قوته وعزم ساقيه عبر الحقل نحو الغابة. عندما مر بالبئر القديمة ابتعد عنها متخذًا مسارًا واسعًا، وكأن العظام التي في داخلها قد تقفز وتصفعه على وجهه؛ إلى هذا الحد من الجنون كان الفيلم الذي يعرض في رأسه، غير أنه لم يكن فيلمًا ولم يكن في رأسه فحسب. اخترق الغابة عدوًا، مشيته غير متزنة، وقدميه تنزلقان بعنف على إبر الصنوبر لكنهما تدفعانه إلى الأمام، صعودًا، وكأنه يستطيع الهروب من يوم الرابع عشر من يونيو مرة واحدة وإلى الأبد، في حين كان يعلم أنه لن يفلت أبدًا، سيبقى ذلك اليوم هناك دائمًا، وهذا الصبي لا يزال واقفًا هناك في الفناء الخلفي قائلًا.

"لماذا آذيتني يا بولي؟"

"لماذا آذيتني يا بولي؟"

"لماذا فعلت ذلك؟"

قلبه ينبض في داخله ردًا بعنف *لا أعرف لا أعرف لا أعرف.*

31

كان يجلس على حافة سريرها. بشرته الناعمة والمتوهجة. وابتسامته المشعة.

مرحبًا، ماما.

فتحت دينيس عينيها.

كان الغسق قد حل. كانت وحيدة في الغرفة. لم يكن تومي هناك. لقد سمعت صوته في حلم.

الكلمة لا تزال تطن في أذنيها. *ماما.*

كانت الغرفة مظلمة. وأصوات ليست ببعيدة، ونقاط من الضوء تتحرك عبر الحقول.

تومي!

جلست سريعًا، وشعرت بالدوار. كان فمها مكسوًا بطعم دواء مرير وعيناها تؤلمانها عندما ترمش. فتحت كفها ورأت الحبوب فيها. من خلال النافذة كان يمكنها رؤية وميض أضواء الشرطة في الحقول والغابة التي وراءها. فتحت النافذة بدفعها للأعلى لتستنشق بعض الهواء النقي. كان الناس على العتبة الأمامية يتحدثون. وشظايا من المحادثات تخترق أذنيها.

"—لدينا اثنا عشر رجلًا في الغابة الآن، أيها الملازم—"

"في الرابعة من عمره، ويستجيب لاسم نوح—"

استلقت مجددًا. كل شيء يتدفق عائدًا إليها، غامرًا عقلها: أولئك الناس في منزلها، وكلماتهم التي تتسلل كالدود في أذنيها، يتحدثون عن العالم الآخر.

⩔⩔⩔

الأغنية القديمة نفسها. لقد سمعتها من قبل، وإن كان ذلك بمجموعة مختلفة من الإجابات. لقد وُلدت وهي تسمعها.

ترى الآن الخيمة—تلك الخيمة الكبيرة في أوكلاهوما التي لم تفكر فيها منذ ثلاثين عامًا ونيف. تجلس مع جدها الذي اعتقد الجميع أنه فقد عقله وجن. قالت والدتها إنهم جميعًا عصبة من حاوي الثعابين، لكنها لم تهتم، كانت مهتمة برؤية حاوي الثعابين وأرادت الذهاب إلى أي مكان يذهب إليه جدها. كانت الخيمة كبيرة ومرتفعة مثل السيرك. كانت مليئة حتى أطرافها بأناس أكثر مما رأت في حياتها كلها دفعة واحدة، صفوفًا وصفوفًا منهم. وقف القس في المقدمة وتحدث بصوت عالٍ جدًا لدرجة أن الخيمة بأكملها استطاعت سماعه. كان رجلًا طويلًا ونحيفًا ذو بشرة بنية داكنة جدًا وبدا لدينيس غاضبًا، لكن الناس لم يبدُ أنهم يمانعون كثيرًا. بعضهم جلس ساكنًا يستمع إلى القس وبعضهم ضحك وتنهد ونادى بصوت عالٍ.

كانت تجلس على حجر جدها، الذي كان يحبها أكثر من أي شخص آخر. لم تكن تدري كيف عرفت هذا، لكنها عرفت. كان يضع يده الكبيرة على رأسها وبين الحين والآخر يشد إحدى ضفائرها، وكأنه يلقي عليها التحية.

تذكرت أن هناك بعض الترانيم الجميلة ثم بدأ القس يتحدث. تحدث بذلك الصوت الذي يستخدمه الناس عندما يقتبسون من الكتاب المقدس.

وتعب بنو إسرائيل من رحلتهم، وتضاءل رجاؤهم في القفر.

وتكلموا ضد الله، قالوا: هل يقدر الله أن يرتب مائدة في البرية؟

فأمطر عليهم مَنًّا ليأكلوا وأعطاهم بر السماء...

تذكرت أنها قهقهت، فقد ظنت أن الأمر مضحك، فكرة إعداد مائدة في وسط الغابة. استندت بظهرها إلى صدر جدها ويده على رأسها ورائحته تفوح بالصابون والعشب والسماد، وغفت هناك تمامًا وسط ذلك الصخب. ثم بدأ صوت القس العميق يصرخ. "من يريد دخول ملكوت السماوات؟ من هنا ليشهد؟ من هنا ليشفى بقوته؟ أعلنوا عن وجودكم."

فتحت عينيها وكان الناس يسيرون في الممر الأوسط بين المقاعد. السير هو الكلمة الخاطئة. كانوا يجرون أقدامهم أو يعرجون أو يتحركون على كراسي متحركة، هذا كان الأقرب للواقع. كان هناك أشخاص في كراسي متحركة وأشخاص يحملون أطفالًا أكبر منها سنًا لا يستطيعون المشي بمفردهم. صعدوا إلى المقدمة وقالوا أسماءهم وكلهم يمتون لبعضهم بصلة قرابة. أنا الأخت غرين. أنا الأخ مورغان. هكذا. واحدًا تلو الآخر. كلهم كانوا مرضى. كانوا جميعًا جزءًا من العائلة المريضة نفسها، يعانون من آلام الأسنان وسرطان المعدة والنقرس والقدم الحنفاء والعمى والشلل الرعاش. لم ترَ قط مثل هذا التنوع الكبير من الألم.

ربما شفي بعضهم في ذلك اليوم، لكنها لم تظن ذلك. لم تتذكر إن كانوا قد شفوا. كل ما تذكرته هو صدمتها لأن العالم يحتوي على كل هذا القدر من الألم، والظلم في أن تتحمل عائلة واحدة كل هذا القدر من المعاناة.

جدّها مات الآن. لقد ذهب إلى تولسا لشراء بعض معدات الجرارات وسقط على الرصيف بنوبة قلبية، ولأن أحدًا لم يجد الأمر غريبًا برؤية

رجل أسود مستلقيًا هناك أو يتوقف بنقله إلى المستشفى، فقد مات على الرصيف تحت أشعة الشمس الحارقة. وجدتها ماتت بعد ذلك ببضع سنوات، من الحزن والكمد. ووالدتها قبل بضع سنوات، من داء السكري. والآن تومي، أيضًا، مات.

الآن حان دورها.

"أنا آسف—"

كان هذا صوت تشارلي. خافتًا، ومهمومًا، تحمله الرياح؛ كانت لتعرف صوت طفلها في أي مكان.

تشارلي كان هناك، في الخارج، في مكان ما، في ورطة. يظن أن الخطأ خطؤه.

لا، لا يا تشارلي. ليس خطأك. خطئي أنا.

كان ينبغي لي الاطمئنان عليه في وقت أبكر. كان ينبغي لي الاتصال بالشرطة. كنت أستمتع بالهدوء فحسب. كان ينبغي لي الاطمئنان عليه في وقت أبكر وحينها كان بإمكاني الاتصال بالشرطة، لأن الوقت كان جوهريًا وحاسمًا. من ذا الذي لا يعرف ذلك؟ عندما يختفي طفل، يتعين عليك التحرك فورًا، كانت تلك هي القاعدة الأولى، القاعدة الذهبية في كتاب إنذار المفقودين. تتصل بالشرطة. فورًا.

لكنها لم تكن تعلم أنه مفقود، ولذا مرت ساعات وساعات بحلول الوقت الذي اتصلت فيه.

ليس خطؤك يا تشارلي.

كان عليها إخباره. كان عليها إخباره ألا يحزن ويتأسف، وأنه ليس لديه ما يتأسف عليه.

كان ينبغي لي أن أكون أمًا أفضل لتومي. ولك أنت أيضًا. لك أنت.

طوال هذا الوقت كان ينتظرها، تشارلي الخاص بها. سنوات مرت، تركته وحيدًا، وفقدت أثره، ومع ذلك ها هو هناك، لا يزال ينتظرها في مكان ما، ينتظرها لتقول: ليس خطأك يا حبيبي. خطئي أنا. خطئي كله. هل يقدر الله أن يرتب مائدة في البرية؟

فتحت كفها ونظرت إلى الاثنتي عشرة حبة نصف المتفتتة التي كانت مقبوضة بقوة في قبضتها. تأملتها للحظة، ثم ركضت إلى الحمام. ألقت بجميع الحبوب في الحوض، وأطلقت المياه لتندفع فوقها، دافعة البقايا البيضاء إلى أسفل المجرى بأصابعها. غسلت يديها جيدًا وجففتهما. أصلحت هندامها في المرآة، ممسدة شعرها، وماسحة وجهها بمنشفة مبللة. لا شيء يمكن فعله لهاتين العينين.

ثم نزلت السلالم وخرجت إلى الليل لتجد المكان الذي يوجد فيه تشارلي.

32

كانت السحلية قد اختفت. هذا أول ما لاحظه تشارلي. شخص ما أخذ هورنتيل من الحوض في غرفته.

كان أثر النشوة قد تلاشى منه الآن باستثناء شعور عصبي ومضطرب بأن لا شيء على ما يرام ولن يكون هناك شيء على ما يرام مجددًا أبدًا. كان شعورًا مألوفًا. شعور ألا تكون واقعًا تحت تأثير المخدر.

كان يبحث عن الصغير ورأى غياب هورنتيل وحينها عرف. عرف تمامًا اللعنة أين يوجد الصغير.

اندفع خارجًا مغلقًا الباب الخلفي بقوة، عبر الفناء، متجاوزًا مغطس الطيور، حتى وصل إلى أطراف الغابة تمامًا. كانت هناك شجرة بلوط قديمة غُرست في لحائها أوتاد خشبية عميقًا، وعند قمة الأوتاد كانت هناك بعض الألواح الخشبية التي سمرها مع والده معًا ذات يوم في محاولة لصنع بيت شجرة. لم يكتمل بيت الشجرة قط—بناء الشيء كان أكثر تعقيدًا من الناحية الهيكلية مما حسبه والده. لقد أطلق الشتائم يمينًا وشمالًا بشأن الاستقرار والدعم ولم ينهه قط، وحظرت والدتهما عليهما الصعود إلى هناك، بما أنه لم يكن سوى أرضية ولا شيء غير ذلك، دون أي نوع من السياج أو الجدران لحمايتهما من السقوط لأسفل. لكنه وتومي كانا يتسللان إلى هناك على أية حال، أحيانًا، عندما لا يريدان أن يعثر عليهما أحد. كان مرتفعًا وفي الصيف لم يكن بالإمكان رؤيته من بين أوراق الشجر.

كانا يسميانه حصنهما. وكانا يحتفظان بأشيائهما هناك—المذكرات التي كتب فيها تومي لبضعة أشهر، ومجموعة الصخور الخاصة

بتشارلي، ومجلات الأسلحة والسيارات التي سرقاها من عيادة طبيب الأسنان. أحيانًا كان تومي يحب أخذ هورنتيل إلى هناك وتركه يركض وكأن المكان غابة.
حتى العام الماضي، كان تشارلي يصعد إلى هناك ليتعاطى المخدرات ويغيب عن الوعي.
الآن تعين عليه دفع جسده الضخم عبر الفتحة.
كان الصغير يجلس هناك على الألواح الخشبية في الظلام واضعًا يديه حول ركبتيه، وهورنتيل يسترخي على ذراعه. كان الصغير في حالة يرثى لها. عيناه وأنفه يسيلان بغزارة كعاصفة.
قرفص تشارلي بجانبه. "الجميع يبحثون عنك، كما تعلم."
"غرفتنا مختلفة."
"ماذا؟"
"غرفتنا. الأشياء اختفت."
"أي أشياء؟"
"كتب السحالي. قفازي ومضاربي وكأس البطولة الخاص بي."
"آه، تقصد أشياء تومي. حسنًا، لقد احتفظنا بها هناك لفترة من الوقت."
كان خائفًا من النظر في عينيه. هل كان لدى الصغير نوع من القوة مثل الأطفال الغربيين في الأفلام؟ ربما كان يرى الموتى. ربما شبح تومي يحب التسكع حوله. لم يكن يهتم كثيرًا بأي منهما؛ الأمر كله كان مخيفًا ولم يكن يريد أي جزء منه. كان يريد إنزال هذا الصغير إلى المنزل وإخراجه من حياته.
"لماذا أخذتم أشيائي بعيدًا؟"

"أنا لم أفعل. بابا جعل ماما تفعل ذلك. قال إن ذلك ليس جيدًا بالنسبة لي بمجرد عودتي إلى هنا."
أشرق وجهه. "أنت عدت أيضًا؟"
"حسنًا، كنت أقيم في منزل جدتي، كما تعلم، في الأشهر الستة الأولى أو نحو ذلك. بينما كانت ماما وبابا بالخارج يبحثان عن—عن تومي."
تلك الأشهر الطويلة في منزل جدته. لم يفكر فيها منذ سنوات. يجثو على السجاد ذي الوبر الطويل، وموسيقى ترانيم الجدة تعزف على حاكيها القديم، متسائلًا عما يحدث في الوطن، وإن كانوا قد عثروا على شقيقه بعد. لم يتحدثوا عن ذلك قط. *إذا حدث أي شيء سنكون أول من يعلم*، كانت قد قالت، *لذا دعنا نترك أولئك الناس وشأنهم ليفعلوا ما يتعين عليهم فعله. كل ما يمكننا فعله هو الصلاة ليعود إلى المنزل*. كانت في حالة سيئة بالفعل بحلول ذلك الوقت، وقدماها متورمتان جدًا لدرجة أنها بالكاد تستطيع النزول من الكرسي ذي الذراعين لتجثو. لكنه لم يستطع الصلاة. كان خائفًا للغاية.
قال الصغير. "من اعتنى بهورنتيل؟"
"أخذته معي إلى منزل جدتي،" وبدأ يضحك. "لقد أطلقته على سجادها ذات مرة لمجرد إخافتها وإثارة جنونها. لم يعجبها ذلك بتاتًا."
"لا، إنها تكره السحالي."
"أجل."
"والثعابين."
"أجل."
تطلع للأسفل من بين الأغصان. واستطاع رؤية أضواء كشافات الشرطة اليدوية تتحرك عبر الحقول والغابة. كانوا يبحثون عن

الصغير، لكن الصغير كان يطفو عاليًا فوق كل ذلك، كان الصغير في مكان آخر تمامًا.
قال الصغير. "أنا آسف لأنني كسرت غواصتك."
"غواصتي؟"
"غواصتك التي أعطاك إياها بابا."
"آه."
آخر مرة رأى فيها تومي. ذلك اليوم الأخير. خاضا شجارًا كبيرًا. عاد والده من جولة طويلة وأحضر لتشارلي غواصة جديدة لامعة وحصل تومي على كتاب فقط، ويا إلهي، كم كان غاضبًا. أراد تومي اللعب بغواصته، *دور واحد فقط*، ظل يقول ذلك، لكن تشارلي لم يكن لديه أي شيء يريده تومي، كان الأمر دائمًا العكس، وأحب غواصته الجديدة اللامعة التي يريدها تومي وقال: "مستحيل. احصل على غواصتك اللعينة الخاصة بك."
وكان تومي قد قال: "دور واحد فقط."
قال تشارلي: "لا، إنها لي ولا يمكنك حتى لمسها." وانتزعها تومي من بين يديه، في تلك اللحظة بالذات، كاسرًا منظار أفق الغواصة إلى نصفين.
كان الصغير يقول الآن. "على أية حال، أنا آسف بشأن ذلك."
"لا بأس. كان الخطأ خطئي. كان ينبغي لي أن أدعك تجربها." خطر له أنه كان يتحدث إلى الصغير وكأنه تومي. وتلا ذلك تفكير آخر (كانت الأفكار تضربه كالضربات، واحدة تلو الأخرى، وتجعله يرى النجوم) وهو أنه هو وتومي فقط من يعلمان أن تومي هو من كسر البيريسكوب. كان ينوي إيقاع شقيقه في المشاكل بسبب ذلك لكنه اختفى قبل أن تتاح لتشارلي الفرصة. نظر في الظلام عبر الأغصان

الحفافة وشعر بالدوار يجتاحه؛ جلس على مؤخرته ودفع بساقيه الطويلتين ممتدتين عبر الأرضية العائمة. انظر: ها هو جسده، وساقاه مغطتان بقشعريرة البرد، شورته اللامع، وحذاؤه الرياضي العالي.
قال الصغير. "لقد كسرتها لأنني كنت غاضبًا كانت جميلة جدًا. لم أملك غواصة كهذه قط."
"لا بأس."
كان تشارلي يجلس هناك وفمه مفتوح. وخطر له أنه ينبغي عليه إغلاقه. "أنت هو، أليس كذلك؟" متسائلًا عن الكلمات وهي تخرج من فمه. "كيف يمكن أن تكون هو؟"
"لا أعرف كيف."
ساد الصمت بينهما. مرر الصغير كفه فوق الأشواك الموجودة على ظهر السحلية.
"شكرًا لاعتنائك بهورنتيل."
"لا شكر على واجب." شعر تشارلي بالفخر بنفسه، فجأة، لإبقائه سحلية تومي على قيد الحياة طوال هذه السنوات. شعر بجسده كله يتوهج بالفخر، تمامًا كما كان يحدث عندما كان طفلًا ويرمي رمية جيدة ويقول تومي: "رمية جيدة يا تشارلي!"
داعب الصغير السحلية صعودًا وهبوطًا على جانبيها، وهورنتيل ينظر إليه بعينيه الصفراوين. تساءل إن كانت السحلية قد اشتاقت لتومي وتعرفت عليه الآن أم أنه مجرد يوم آخر بالنسبة لها.
قال تشارلي أخيرًا. "أنا آسف بشأن ما حدث لك."
"أنت لم تفعل ذلك."
"لكن ربما كان بإمكاني منعه."

"لا يا تشارلي. لقد كنتَ طفلًا صغيرًا."

ابتلع تشارلي غصته. وصدره يؤلمه. واستطاع الشعور بالكلمات تحترق في حلقه ثم قالها. "ماما أخبرتني أن أقول لك أن تأتي للمنزل لتناول الغداء. أن تعود من منزل أوسكار. أخبرتني أن أقول لك ذلك. لكنني كنت غاضبًا منك لأنك كسرت غواصتي ولم أرغب في التحدث إليك ولم أفعل ذلك. وربما لو كنت قد قلت ذلك لكنت عدت إلى المنزل مبكرًا—ربما حينها—"

"لا يا تشارلي. على أية حال، كنت قد متُّ بالفعل."

"كنت قد مت؟"

"أجل. متُّ سريعًا جدًا."

"ماذا حدث؟" لقد ظل ينتظر سنوات ليعرف. لم يجب الصغير. وبدأ أنفه يسيل مجددًا. تمشت السحلية هابطة على ذراعه إلى الأرضية، لذا التقطها تشارلي وأمسك بالجسد البارد والمتنفس في يده. بعد فترة سمع صوت حفيف في الأسفل. شخص آخر كان هناك في الأسفل، يتنفس. ولم يقل ذلك الشخص شيئًا.

قال الصغير أخيرًا. "لقد رأيته."

"من؟"

"بولي."

"بولي؟"

"بولي. في نهاية الشارع؟"

"تقصد بول كليفورد؟"

أومأ برأسه.

"هو من... قتلني."

"بول كليفورد؟ بولي في نهاية الشارع؟ هو من–هو من قتلك؟"
أومأ برأسه.
"تبًا. بول كليفورد؟ ماذا فعل؟"
"لا أعلم. حدث الأمر بسرعة كبيرة."
أخذ الصغير نفسًا عميقًا.
"كنت على دراجتي متوجهًا إلى منزل أوسكار ورأيت بولي، شقيق آرون، هناك. قال–قال إن لديه هذه البندقية وسألني إن كنت أريد إطلاق رصاصة بها، ولن يستغرق الأمر سوى دقيقة واحدة. فقلت حسنًا لأنه قال دقيقة واحدة فقط وأنت تعلم أن ماما لم تكن تسمح لنا بلمس الأسلحة قط."
"أجل."
"لذا ذهبنا إلى الغابة لنطلق النار وأطلق النار على كل هذه الزجاجات ولم يعطني دورًا على الإطلاق. فسألته إن كان بإمكاني الحصول على دور ثم أطلق النار عليّ."
"أطلق النار عليك؟ لأنك أردت دورًا؟"
"لا أعلم لماذا. لا أعلم. كنت واقفًا هناك ثم لم أعد أرى أي شيء، أصبح كل شيء أسود. وعندما أستيقظ أجد نفسي أسقط."
"تسقط؟"
"جسدي كله يسقط والمسافة طويلة للأسفل، والمياه باردة. إنها باردة حقًا هناك يا تشارلي، المياه ترتفع فوق رأسي بكثير، باردة ورائحتها كريهة. أحاول إبقاء رأسي فوق الماء وأصرخ وأصرخ، لكنه لا يخرجني يا تشارلي، لن يخرجني، ولذا أصرخ وأصرخ والأمر يؤلم في كل مكان من جسدي، جسدي يؤلمني حقًا، لكنني أستمر في الصراخ ولا أحد يأتي ولا

أحد يأتي وأنا وحيد تمامًا هناك، أنا وحيد تمامًا، ولا أستطيع تحمل ذلك. أحاول يا تشارلي، أحاول بجهد كبير، لكنني لا أستطيع إبقاء رأسي مرفوعًا بعد الآن. الجو بارد هناك تحت الماء ولا أستطيع التنفس. أستطيع رؤية الشمس تشرق لأسفل عبر الماء، إنها تشرق بقوة وتجعل الدلو المعدني ساطعًا. إنه لامع حقًا. أستطيع رؤيته يلمع تمامًا عبر الماء. وبعد ذلك مت."

"يا إلهي. آه، يا صاح. آه، يا صاح." لم يستطع قول أي شيء آخر غير ذلك. رأى شقيقه تومي يغرق. كانوا جميعًا هناك في الأسفل، تومي وهو نفسه وأمهما وأبوهما أيضًا، كلهم هناك في الأسفل، يغرقون في المياه الباردة.

"تبًا. بول كليفورد. لماذا يفعل شيئًا كهذا؟"

"لا أعلم. حاولت أن أسأله لماذا فعل ذلك بي، لكنه لم يخبرني. ركض هاربًا."

لم يقل الصغير أي شيء آخر لدقيقة. وكان أنفه يسيل واصلًا إلى فمه فمسحه بكمه. وتمتم بشيء بصوت منخفض.

"ماذا؟"

"إنها لا تريدني يا تشارلي."

"من؟"

"ماما. لا تريد رؤيتي. لقد نسيت كل شيء عني. وأنا أحاول العودة إلى هنا منذ اليوم الذي ولدت فيه."

لم يدرِ ماذا يقول. وضع يدًا على ظهر الصغير ودلكها في دوائر صغيرة. كان ظهر الصغير يتحرك جيئة وذهابًا وهو يأخذ أنفاسًا كبيرة. شهيقًا

وزفيرًا. *لا بأس*، فكر تشارلي. *استمر في التنفس. تنفس الآن فحسب. تنفس من أجلنا جميعًا. لديك الكثير لتعوضه في هذا الشأن.*

كل مشاعره تجاه تومي كانت مغلقة عليها في غرفة ما في مكان ما والآن انفتح الباب وباتت تندفع بلا كبح.

نظر إلى الصغير. طفل أبيض صغير يسيل أنفه، كان شقيقه ولم يكن كذلك في آن واحد. لم يستطع استيعاب الأمر. لم يحاول حتى.

33

"تومي؟"

وقفت دينيس أسفل الشجرة وسمعت الاسم يخرج من شفتيها. بدا غريبًا على لسانها وغريبًا على أذنيها، وكأنها تجربه فحسب، وكأنها لم تنطق بهذا الاسم من قبل في حياتها كلها.

كانت قد وقفت هناك تستمع وشعرت بعقلها يدور في الظلام ولم تكن تمسك بأي شيء؛ لم يكن هناك ما تتمسك به سوى هذين الصوتين اللذين بديا تمامًا مثل صوتي ولديها يتحدثان في كومة الأخشاب المتهالكة تلك التي اعتادا الاختباء فيها. ولداها، كانت لتعرفهما في أي مكان، غير أنهما لم يكونا كذلك. لقد سمعت ولم تسمع. كان هناك شيء يتعين عليها فعله لكنها لم تدرِ ما هو ولم تعد تدري ما هو الحقيقي بعد الآن وحينها سمعت صوتًا كان صوتها ينطق بالاسم.

"تومي؟"

لم تكن تريد النظر. لم تكن تريد الرؤية. لم يكن تومي هناك في الأعلى. كانت تعلم أنه ليس تومي. سمعت ولم تسمع. تومي مات وهذا صبي آخر.

لكنها تمسكت على أية حال بالدرجات الخشبية المسمرة في جذع الشجرة وشقت طريقها صعودًا عبر الفتحة، حاشرة جسدها الطويل للداخل.

لم يكن الصبي يشبه ابنها. كان طفلًا أبيض صغيرًا، شعره ذهبي حتى في وقت الليل مثل صورة في كتالوج جي سي بيني. ليس مثل صبيها العذب

ببشرته البنية الفاتحة التي بدت وكأنها مضاءة من الداخل وابتسامته التي تقسم القلب إلى نصفين. لا يشبه صبيها المفقود في شيء.
هذا كان طفلًا مختلفًا يجلس هناك ويد تشارلي على ظهره.
رفع الطفل نظره إليها. كان مليئًا بالخدوش، ووجنتاه ملطختين بالتراب والدم والدموع، وكأنه زحف صاعدًا من أعماق الجحيم نفسها.
"آه، يا حبيبي." مدت ذراعيها إليه فاندفع متسلقًا وألقى بنفسه عليها، ضاغطًا جسده الصغير على جسدها بقوة شديدة جعلتها تحبس أنفاسها وتستند بظهرها إلى اللحاء، الذي بدا حقيقيًا وخشنًا وصلبًا على عمودها الفقري.
لم تكن تدري إن كان تومي موجودًا هناك في داخل هذا الصغير في مكان ما. لم تكن تدري كيف يمكن أن يكون ذلك. ظنت أنها ربما في غمرة ارتباكها ترتكب خطأً صادقًا برغبتها الشديدة في أن يكون الأمر كذلك. لكنها عرفته من تلك النظرة في عينيه والتي تطابق النظرة في عينيها؛ لقد كان واحدًا من المفقودين، واحدًا من أطفالها.

34

استيقظ بول. كان الظلام دامسًا. شعر بنقاء داخلي، طُهر تغلغل في وجدانه. لا بد وأنه غاب عن الوعي. استلقى ممددًا على إبر الصنوبر، شاخصًا ببصره عبر فروع الأشجار نحو السماء. كانت الليلة صافية، واستطاع رؤية النجوم وهي ترمقه بنظراتها. كانت كثيرة جدًا. لطالما أحب النجوم؛ لم تكن تنقضّ عليه أو تحاكمه، بل كانت تكتفي بالنظر فحسب. لا شيء من هذا يهم، هذا ما كانت تقوله النجوم. أيًا كان الأمر، فهو لا يهم.

لم يكن يرغب في التحرك. لو أنه حوّل عينيه عن السماء، لما درى ماذا سيحل به.

كان الرجال يقتربون. استطاع سماع حفيف خطواتهم، وشعر بوميض الكشافات اليدوية وهو يجتاح عتمة الليل. كانوا يتحركون عبر الغابة. بدا الأمر أشبه بفيلم سينمائي، لولا أن الأفلام عادة ما تحتوي على كلاب حراسة. لو كان هذا فيلمًا لكان الآن يركض والأنفاس تتصاعد حارقة ومتلاحقة من صدره. لكنه لم يكن يفعل؛ بل كان مستلقيًا في سكينة، يواجه السماء بوجهه.

"ما هذا؟"

"ظننت أنني رأيت شيئًا!" سمع الأصوات الحقيقية تتداخل مع الأصوات الحادة والآلية التي تنبعث بقعقعة من أجهزة اللاسلكي.

"ثمة شيء هنا!"

ليس شيئًا، فكر في نفسه، *بل شخص ما*.

خطر له أن عليه الركض، كان ينبغي له أن يلوذ بالفرار. لقد عرف الصغير بطريقة ما وأخبرهم، وها هم قد جاؤوا لأجله. لكنه شعر بجسده يستقر غائصًا بعمق أكبر بين إبر الصنوبر والتراب.

كان يتذكر ذلك اليوم الآن. الرابع عشر من يونيو. أدرك أنه لم يغادره قط؛ لقد ظل هناك دائمًا، في ذلك اليوم تحديدًا، يستمع إلى الصبي وهو يصرخ مستغيثًا من قاع البئر.

⸙ ⸙ ⸙

لقد بدأ الأمر كله مع القطة.

كان على علم بوجودها منذ شهرين على الأقل؛ بجسدها الهزيل وبقعها البيضاء والسوداء التي غدت جزءًا من المشهد تمامًا كالعشب ذي اللون البني القذر، أو حقل الذرة الممتد وراءه، أو السياج الرمادي الذي يفصل ملكيتهم عن ملكية عائلة ماكلور، والذي كانت القطة تسير فوقه كل يوم.

كان يراقبها بلا تفكير وهو يستعد للذهاب إلى المدرسة؛ الطريقة التي تسير بها فوق سياجهم، تضع قدمًا قبل الأخرى بعناية فائقة وكأنها تتبع خطة محكمة خطوة بخطوة، وقد حسد تلك القطة الجرباء لأن بمقدورها الذهاب إلى أي مكان تريده.

ثم ذات يوم، كان واقفًا في الخارج يرمي كرة تنس على حائط الحظيرة، وكانت القطة تمر فوق السياج والتقت عيناهما. شعر بالأمر يسري في جسده كله؛ القطة تنظر إليه مباشرة. لم يعد أحد ينظر إليه بهذه الطريقة مؤخرًا، مباشرة في العينين. الرجل الخفي؛ هذا ما كان يشعر به أحيانًا. كانت المدرسة الثانوية أكبر بثلاث مرات من مدرسته المتوسطة، ولم يكن أحد يولي طلاب السنة الأولى الكثير من الاهتمام

على أية حال، ولم يكن لديه أصدقاء هناك منذ أن باعوا منزلهم الجيد وانتقلوا عبر المدينة إلى هذا البيت المستأجر البائس. كل أصدقائه كانوا في المدرسة الثانوية الأخرى. لم يكن يتعرض للمضايقات، لكنه كان يجد نفسه وحيدًا في معظم الأماسي، يحل واجباته المدرسية ويلعب ألعاب الفيديو ويرمي الكرة مرارًا وتكرارًا على حائط الحظيرة.

في اليوم التالي، خرج إلى هناك ليرمي الكرة مجددًا وكانت القطة واقفة على السياج، فأحضر لها وعاءً من الحليب، فجاءت القطة مباشرة ولعقته حتى النهاية.

فعل الأمر نفسه في اليوم التالي والذي يليه، حتى باتت القطة تظهر بمجرد أن تراه خارجًا من الباب الخلفي، وكأنها قطته الخاصة. ذات مرة، كان واقفًا هناك فتمسحت به تمامًا، وشعر بجسدها يضغط على ساقه. كان فراؤها متلبدًا وشعر بالتوتر من لمسها؛ فقد تكون مصابة بالبراغيث أو شيء من هذا القبيل. كانت تصدر صوتًا خافتًا؛ خرير القطة. سرى هذا الشعور صاعدًا في ربلة ساقه ليعم جسده كله، مسببًا دندنة اهتزت لها جوارحه.

ثم في يوم السبت ذاك، استيقظ متأخرًا ورأى القطة في الخارج، وعندما سكب الحليب في الوعاء سمع صيحة.

"ماذا تفعل؟"

لمح بطرف عينه والده وهو ينظر إليه مباشرة. كان يجلس هناك في غرفة المعيشة، ممسكًا بفردة حذاء في يده، ووجهه محتقن بالحمرة.

ارتعشت يد بول من شدة المفاجأة وانسكب الحليب على حافة الوعاء وانتشر فوق الطاولة، هابطًا من الخشب ليشكل بركة على أرضية اللينوليوم.

"قلت لك، ماذا تفعل؟"

رفع بصره؛ كان المشهد المعتاد. والدته تقرأ على الأريكة، وشقيقه الأصغر يرتب بطاقات البيسبول الخاصة به على الأرض أمام التلفاز، ووالده يتابع الأخبار من مقعده—إلا أنه لم يكن يتابع الأخبار، بل كان لا يزال يحدق فيه.

كان الأمر أشبه بأن تكون في الظلام ثم يشعل أحدهم الأضواء بسطوع مؤذٍ.

راقب بركة الحليب وهي تتسع على الأرض.

"أنظف المكان." قال.

أحضر قطعة قماش من المطبخ ومسحها كلها. رجا في سره أن يتركه والده وشأنه مجددًا. لعق بول شفتيه، وكان والده لا يزال يحدق فيه بنظراته الثاقبة.

"هل بتّ تشرب الحليب في وعاء الآن؟"

"لا."

"إذن لماذا تفعل ذلك؟"

نظر إلى قدمي والده الحافيتين المستندتين على المسند العثماني. كانتا أقبح قدمين رآهما في حياته؛ أصابعهما كانت متورمة بالكامل جراء التهاب المفاصل والاضطرار للوقوف طوال اليوم في حذائه الرسمي. في الأيام الخوالي، كان والده يعد القهوة لوالدته ثم يغادر في الصباح وهو يطلق صفيرًا بينما يتناولون هم وجبة الإفطار، وكان يطيل النوم في عطلات نهاية الأسبوع وربما يتابع مباراة على التلفاز، أما هذه الأيام وفي أيام السبت تحديدًا، فقد كان يستيقظ قبلهم جميعًا واضعًا قدميه على المسند، يلمّع حذاءه. الآن كانت عينا والده تضيقان وهو

ينظر إليه، كشقين أحمرين في وجهه الرمادي الثقيل، وكأن ذنب بول أن حياته آلت إلى هذا النحو، وأن عليه الوقوف هناك طوال اليوم محاولًا بيع أجهزة ستيريو لأناس لا يريدون سوى مكبرات صوت لأجهزة الآيباد الخاصة بهم.

"أجل القطة."

"ليس لدينا قطة." قال والده.

"هناك قطة في الخارج."

اعتدل والده في مقعده الآن.

"وتظنها قطتك؟ تلك القطة لا تمت لك بصلة، وليست قطتك. أتظنني سأعيلك وأعيل قطة أيضًا؟ يمكنك الذهاب والبحث عن عمل لتدفع ثمن الحليب بنفسك، وحينها يمكنك اقتناء قطة لعينة."

قالت والدته من خلف كتابها على الأريكة. "إنه في المدرسة، هذا هو عمله."

"حسنًا، يتعين عليه إذن أن يبلي بلاءً أفضل."

"إنه يبلي حسنًا."

استطاع الشعور بوالده وهو يشتعل غضبًا مجددًا. نظر بول إلى الجدار. في الآونة الأخيرة، لم يكن الأمر يتطلب الكثير لإثارته. "كيف يكون الحصول على تقدير مقبول في التربية البدنية بلاءً حسنًا؟ كيف يحصل المرء على مقبول أصلًا إن كان يحضر الدروس، إلا إذا كان جبانًا؟"

لمحته والدته بطرف عينها صعودًا، وكأنها منزعجة من اضطرارها لمقاطعة قراءتها. كانت دائمًا تقرأ هذه الكتب التي تتحدث عن الجرائم الحقيقية والمرفقة بصور مروعة في صفحاتها الداخلية. "إنها السنة الأولى فحسب. أمهله بعض الوقت يا تيرانس، إنه ليس مثلك."

لقد كان والده بطلًا في المصارعة عندما كان في المدرسة الثانوية. كانوا يحتفظون بالكؤوس على رف في منزلهم القديم، غير أنه لم يكن يدري أين هي الآن؛ لقد تخلصت والدته من معظم تلك الأشياء.

مرر والده الفرشاة على حذائه بطلاء التلميع وقال. "هذا واضح، إنه خيبة أمل لعينة."

لم يقل بول شيئًا. في بادئ الأمر، ظن أن والده يتحدث عن الرجل الظاهر على شاشة التلفاز، سيناتور ما يتحدث إلى المذيع، لكنه أدرك بعد ذلك أن والده كان يتحدث عنه هو.

قالت والدته. "تيرانس..." لكنها قالتها بوهن شديد، وكأن تلك الكلمة الواحدة قد استهلكت كل طاقتها، ولم تكن تملك الكثير منها في الأصل. عندما تعود إلى المنزل بعد العمل في النوبات الليلية في مطعم ديني'ز، كانت تحب قضاء وقتها في عدم فعل أي شيء على الإطلاق.

شخر والده ساخرًا. "وكأننا نملك المال لقطة." ثم عاد ببصره إلى الأخبار.

أنهى بول تنظيف المطبخ ودخل غرفته وأغلق الباب. شغل جهاز البلايستيشن وبدأ يطارد الفلاحين واحدًا تلو الآخر، محولًا إياهم إلى رماد بألسنة نيرانه.

بعد فترة وجيزة، وصل إلى المستوى التالي لكنه ظل يشعر بذلك الشعور العصبي المضطرب في داخله. عندما خرج من غرفته كان الجميع قد غادروا؛ ذهب والده إلى العمل، ولا بد أن والدته أخذت آرون إلى حديقة الألعاب أو مكان ما. وقف ساكنًا للحظة، يستنشق هواء البيت الفارغ. شغل التلفاز باحثًا عن مباراة بيسبول أو أي شيء يركز عقله عليه، لكن لم يكن هناك شيء. فتح الثلاجة، ولم يجد أيًا من

زبادي الفواكه الذي يحبه؛ ظل يطلب منها إحضاره لكنها كانت تصر على شراء النوع الآخر. ولم يكن هناك مياه غازية أيضًا.
كانت قد قالت له. "يتعين علينا شد الحزام الآن."
خيبة أمل لعينة.
شرب زجاجة من جعة والده، ظنًا منه أنها قد تجعله سعيدًا ومسترخيًا كما تفعل بوالده أحيانًا، لكنها بدلًا من ذلك جعلته يشعر بالغثيان والدوار. تمشى متثاقلًا إلى غرفة نوم والديه، فتح بعض الأدراج ونظر إلى الملابس الداخلية لوالدته ثم أغلقها بسرعة. قرفص بجانب السرير وسحب البنادق من الأسفل؛ كان والده يحتفظ بها في علبها الأصلية. لم يكن مسموحًا لهما بلمسها، لكنه كان يحب تأملها أحيانًا عندما يكون بمفرده. عندما كان أصغر سنًا، كان والده يأخذه إلى الغابة للتدرب على الرماية. "رمية جيدة يا بولي!" كان يقولها عندما يصيب علبة معدنية، ويمد يده ليمسد شعره. كان يفعل معه أشياء كهذه طوال الوقت عندما كان طفلًا صغيرًا.
لقد اعتاد والده الصيد، لكنه سمع والدته تقول ذات مرة إن والده بات هذه الأيام يعاني من ثمالة شديدة تمنعه من إطلاق النار على أي شيء.
نزع بول الأغطية عن العلب بعناية، ومد يده وداعب المعدن؛ كانت البنادق جميلة.
سحب إحداها من علبتها. أراد أن يشعر بها مجددًا بين يديه، أن يتذكر شعور الإمساك بزمام هذا النوع من القوة. ظن أن إطلاق النار منها سيكون شعورًا رائعًا، فربما يخفف ذلك من كل هذا الضغط في رأسه وشعور الجعة الغريب في معدته؛ أن يطلق النار على هدف على شجرة ويتخيل وجه والده. *خيبة أمل لعينة؛* في حين أنه حاول جاهدًا في

مدرسته الجديدة، لقد حصل على تقدير جيد جدًا في معظم المواد، بل وعلى امتياز في علم الأحياء. التقط بعض الرصاصات من العلبة الموجودة تحت السرير، ودس البندقية تحت قميصه وخرج من الباب الخلفي.

عبرَ الفجوة الموجودة في السياج ودخل حقول الذرة. كان هناك طريق ترابي قديم يتلوى عبرها وينتهي بمحاذاة الغابة. كان يومًا ربيعيًا جميلًا، وشعر بالارتياح وهو يسير على طول الطريق والذرة ترتفع على جانبي جسده، مستشعرًا ثقل البندقية المستندة إلى بطنه.

بدأ جسده كله يرتجف إثارة. كان يفكر كم هو أمر مؤسف ألا يكون أحد من أصدقائه في الجوار ليراه وهو يحمل البندقية، عندما سمع صرير عجلات على التراب ورأى صبيًا يترنح مسرعًا نحوه على دراجته من نوع شوان، يداه مرتفعتان قدمًا فوق المقود، علامات ابتسامة جنونية ترتسم على وجهه، وكأنه يعلم أن والدته ستقتله لو رأته يقود بسرعة كهذه دون استخدام يديه.

أبطأ الصبي سرعته عندما رآه ووضع يديه مجددًا على المقود ليوجه دراجته بعيدًا عن طريقه.

لقد رآه بول في الحي من قبل، بل ولعب معه مباراة بيسبول ودية ذات مرة في حديقة لينكولن. كان في عمر آرون لكنه كان فتى رائعًا؛ لقد كان راميًا ممتازًا بالنسبة لصبي في التاسعة من عمره. كان آرون يتحدث دائمًا عن كيف أنه يلعب مع فتية في الثانية عشرة. كان أسود البشرة، مثل الكثير من الأطفال في هذا الحي، وهو الأمر الذي جعله يعجبه أكثر بطريقة ما، وإن لم يدرِ السبب. مر الصبي بجانبه على الدراجة وأومأ برأسه تحية (لماذا لا يكون هذا الفتى شقيقه بدلًا من آرون المزعج؟)،

فكر بول. *حسنًا، لِمَ لا؟* لم يكن الأمر كإظهارها لصديق، لكنه كان أفضل من لا شيء، فقد سئم البقاء وحيدًا طوال الوقت.

كان اسمه تومي.

نادى عليه. "مهلًا! تومي."

كان تومي قد تجاوزه؛ فوضع قدميه على الأرض والتفت لينظر إليه.

"أتود رؤية شيء ما؟"

تراجع تومي بدراجته قليلًا ونظر إليه من فوق المقود وكأنه يظن الأمر خدعة. "أي نوع من الأشياء؟"

"شيء رائع حقًا، تعال إلى هنا." ترجل تومي عن الدراجة وسار نحو بول. "لا يمكنك إخبار آرون. إذا أخبرته سأعرف وحينها ستندم."

"لن أخبره."

فكر بول أن هذه لم تكن فكرة صائبة؛ فلو أخبر آرون، لوشى به شقيقه بالتأكيد ووقع في مشكلة كبيرة. لكن تومي كان ينتظر منه الوفاء بوعده، وأي نوع من الفاشلين سيكون إن تراجع الآن؟ سيصبح أضحوكة الحي بأكمله.

رفع بول طرف البندقية أعلى فأعلى حتى برزت من فوق ياقته. "انظر إلى هذا."

"يا إلهي، هذا رائع حقًا." بدا تومي منبهرًا، تمامًا كما ينبغي. "هل هي لك؟"

ابتسم بول؛ لقد أحب هذا الصبي، كان فتى رائعًا بحق. "أجل، بندقية رينجيد حقيقية عيار 54. أتدرّب على الرماية، هل تود إطلاق رصاصة؟"

"لا أدري." تردد وجه تومي، وابتسم ثم تلوى وجهه كمن لا يستطيع اتخاذ قرار. واستطاع بول قراءة أفكاره تقريبًا: *أمي لن يعجبها هذا*، كان يفكر. ولسبب ما، جعل هذا بول يرغب في قدومه أكثر.

"هيا، هذا عرض لمرة واحدة، ينتهي اليوم."

"أنا ذاهب إلى منزل أوسكار."

"هيا، لدقيقة واحدة فقط، لن أخبر أحدًا. أراهن أنك لم تجرب هذا من قبل."

رفع تومي وجهه إليه بنظرة غريبة، وكأنه يريد من بول أن يخبره بالصواب؛ وكأنه يريد حقًا الذهاب إلى منزل صديقه لكنه يريد أيضًا وبشدة تجربة البندقية، ولم يستطع تحديد أي الشخصين يكون.

"أنت على الأرجح رامٍ جيد أيضًا، مع مهاراتك في قذف الكرة وكل شيء." علم أن هذا الكلام سيؤتي ثماره، وبالفعل كان كذلك. "حسنًا... موافق. رصاصة واحدة فقط." وضع تومي دراجته جانبًا عند جدار الذرة المنخفض وسارا معًا على طول الطريق نحو الغابة.

⸙⸙⸙

لقد اعتاد والده دائمًا إحضار قطعة من الورق المقوى عليها علامة الهدف عندما يخرجون للتدرب على الرماية، لكنه لم يفكر في إحضارها معه. لقد ذهبوا للصيد ذات مرة في مكان بالغابة حيث توجد بئر قديمة يتدلى من قمتها دلو، وبعض النفايات المتروكة منذ الأيام التي كان يتجمع فيها الهبيون وراكبو الدراجات النارية في ذلك الجزء من الغابة.

"مهلًا يا تومي، شاهد هذا."

التقط زجاجة مياه غازية ووضعها فوق البئر. رفع البندقية واستشعر ثقلها بين يديه ونظر عبر منظار التصويب وأطلق رصاصة دون تفكير. كادت قوة الارتداد أن تسقطه أرضًا، لكن التصويب لم يكن يختلف كثيرًا عن إحدى ألعاب الفيديو الخاصة به.

قال تومي. "يا صاح! رمية جيدة."

نظر إلى الأرض ورأى أنه أصاب الزجاجة تمامًا وأطاح بها عن تلك البئر القديمة. عدم التفكير هو الجزء الذي أنجح الأمر؛ فكلما أفرط في التفكير في شيء ما، أفسده.

"أجل، شكرًا."

لا بد أن كل ألعاب الفيديو تلك قد ساعدت حقًا في التنسيق بين عينيه ويديه. كان والده يوبخه دائمًا بسبب لعبها، لكن لو استطاع رؤيته الآن لما وصفه بالجبان على الإطلاق؛ باستثناء أنه كان ليقتله بسبب عبثه بسلاحه.

سأل تومي. "هل يمكنك وضع واحدة لأجلي؟"

"موافق." ركض تومي إلى هناك ووضع زجاجة أخرى على البئر. فتى طيب حقًا.

صوب نحو الزجاجة وأطاح بتلك أيضًا؛ كان الأمر مذهلًا، إصابتان من محاولتين.

ركض الصبي عائدًا إليه والأنفاس تتصاعد منه.

"أنت بارع في هذا."

كان تومي ينظر إليه وكأنه فاز بمفرده ببطولة العالم للرماية.

"أتظن أن بمقدوري فعلها مجددًا؟"

أومأ تومي برأسه. "بالتأكيد يمكنك ذلك يا بولي، لكن هل يمكنني الحصول على دوري بعد ذلك؟" كان الصبي يتوق بشدة للإمساك بالبندقية وإظهار ما يمكنه فعله.

تساءل بول إن كان الصبي سيكون راميًا أفضل منه، فذلك كان ممثلًا للاحتمال القائم. "واحدة أخرى فقط." قال.

وضع تومي زجاجة أخرى فوق البئر الحجرية ووقف بعيدًا.

صوب بول نحو الزجاجة، ثم نقل تصويبه نحو الدلو القديم شبه الصدئ الذي كان يلمع فوقها تحت أشعة الشمس. وفكر في وجه والده وهو يقول *خيبة أمل لعينة* بينما كان يضغط على الزناد. سمع رنينًا حادًا للمعدن عندما أصابت الرصاصة الدلو وارتدت عنه. ها!

كان الدلو يتأرجح على حبله. جرب *ذلك أيها الفتى*، فكر في نفسه.

"لقد فعلتها!" التفت نحو الصبي وهو في غاية الحماس. "ثلاث إصابات من ثلاث محاولات." لكن الصبي لم يكن هناك؛ كان مستلقيًا ممددًا على وجهه في التراب.

لم يتحرك تومي. كانت هناك بقعة حمراء غريبة ترتسم على ظهره.

نظر بول حوله؛ كانت الغابة ساكنة تمامًا، لم يكن هناك أحد، ولم تكن هناك حتى طيور تغرد. كان يومًا دافئًا وصافيًا، وكأن شيئًا لم يكن. أغمض عينيه وتمنى لو يعود بالزمن خمس عشرة ثانية قبل أن يصوب نحو الدلو، لكن عندما فتحهما كان الصبي لا يزال مستلقيًا على الأرض.

لماذا لم يصوب نحو الزجاجة بدلًا من الدلو؟ لم يكن ليبرز شيء مرتد عن الزجاجة، بل كانت لتتحطم فحسب.

ترك تيار تلك الفكرة ينجرف بعقله لفترة من الوقت لم يستطع تقديرها (أدقيقة كانت أم ساعة؟) وكأنه بالاستسلام لها يمكنه البقاء هناك، في الماضي. لكن الحاضر فرض نفسه في النهاية بجفاف فمه والحرارة التي تنهال على رأسه. لا مجال للتراجع، لقد كان هنا، وجسد تومي كان هناك، وحياته قد دُمّرت؛ وعلى الأرجح سيقضي ما تبقى منها في السجن. لم يعد هناك شيء يتطلع إليه؛ فلن يصبح طبيبًا بيطريًا، ولا أي شيء على الإطلاق.

كان الأمر غير واقعي؛ حياته انتهت بسبب الجسد المستلقي هناك. لكن لو لم يكن الجسد هناك، فلن تنتهي حياته، وستستمر كما كانت من قبل.

أغمض عينيه وفتحهما، ثم أغمضهما مجددًا. لكن في كل مرة يفتح فيها عينيه كان الجسد لا يزال مستلقيًا هناك، وبالكاد كان يطيق النظر إليه.

كيف يمكن لحياتك بأكملها أن تنتهي بهذه السرعة؟ في لحظة تكون أمامك، ليست مثالية، ولكنها ملكك، وفي اللحظة التالية تختفي. وضع البندقية على الأرض؛ لم يستطع عقله استيعاب الأمر.

لم يكن ينوي قتل تومي، لكن أحدًا لن يصدقه؛ وعلى الأرجح سيظنون أنه عنصري لأن تومي كان أسود البشرة. والده سيقتله، سيخنقه بيديه الحافيتين، ووالدته لن تتحدث إليه مجددًا أبدًا.

لكن ماذا لو استطاع إخفاء الجسد؟ حياة ذلك الصبي انتهت، ولم يكن ينوي قتله، لكنه مات الآن. لكن لماذا يتعين على حياة بول أن تنتهي أيضًا؟ أدرك أنه لا يريد خسارة حياته؛ لم تكن تبدو جيدة جدًا بالنسبة

له قبل ساعة من الآن، لكن في هذه اللحظة بالذات كان يريد استعادتها أكثر من أي شيء آخر.
حمل جسد تومي وسار به نحو البئر. كان أخف وزنًا مما ظن، وكان من السهل إلقاؤه ليتدحرج في المياه الآسنة. سمع صوت ارتطامه بالماء. نظر إلى التراب حيث كان الصبي مستلقيًا فلم يجد دمًا على الإطلاق أو أي علامة تدل على حدوث شيء. وقف هناك، بجانب البئر، والأنفاس تتصاعد منه بكثافة، محاولًا استعادة توازنه العقلي. *لقد قُضي الأمر*، فكر في نفسه؛ لقد انتهى، ولم يحدث قط، ولم يلتقِ بالصبي أبدًا. سمع صوت أنفاسه ونباح كلب في نهاية الطريق، ثم سمع صوت ارتطام بالماء وشيئًا يشبه الصوت البشري.
لقد كان الصبي؛ تومي، ينادي مستغيثًا. لم يكن ميتًا؛ بل كان حيًا، في البئر، أو على الأقل جزء منه كان كذلك. ربما كان يحتضر هناك، وعلى الأرجح أنه شارف على الموت، وسيموت في أية ثانية.
كان الصوت مبحوحًا وواهنًا، ينادي طالبًا المساعدة من عمق عشرين قدمًا على الأقل. استطاع سماع صوت تخبط الماء بينما كان يطفو في البئر.
لم يطق بول إجبار نفسه على النظر للأسفل أو الإجابة. كان الصوت يلتف بإحكام حول عنقه. ركض حول المكان، باحثًا عن غصن متسلق أو حبل أو أي شيء يسحبه به، لكن لم يكن هناك شيء، لا توجد طريقة لإخراج شخص من عمق كهذا، ناهيك عن شخص يحتضر على الأرجح جراء إصابة بطلق ناري. كان بإمكانه الركض لطلب المساعدة، لكنهم كانوا على بعد نصف ميل من أية منازل، وبحلول الوقت الذي تصل فيه المساعدة سيكون الصبي قد مات

بالفعل على الأرجح، وكيف سيشرح الأمر حينها؟ تومي أطلق النار على نفسه ثم ألقى بنفسه في البئر؟ وقف هناك، محاولًا اكتشاف ما سيقوله، وما ينبغي عليه فعله، وكل هذه الأفكار تجتاح كيانه، طوال الوقت وهو يستمع إلى ذلك الصوت الذي شعر وكأنه ينبعث من داخل جسده قائلًا. "ساعدني يا بولي! ساعدني! أخرجني! أخرجني! أخرجني!" ثم تحول الأمر إلى مجرد "ماما! ماما! ماما!" ثم، في النهاية—حل السكون.

لقد انتهى الأمر. بعد مرور وقت طويل، تطلع في البئر فرأى المياه الخضراء الداكنة القذرة نفسها التي كانت موجودة دائمًا هناك. كانت الشمس لا تزال تشرق. التقط بندقية والده والرصاص وركض عائدًا عبر الغابة وعلى طول الطريق بين حقول الذرة، وواصل الركض، متجاوزًا دراجة تومي، حتى وصل إلى منزله. أعاد بندقية والده إلى علبتها ودسها تحت السرير، وشرب زجاجة أخرى من جعة والده، وجلس يتابع التلفاز. *لقد انتهى الأمر*، فكر في نفسه.

بحلول الليل، كان رجال الشرطة يطرقون كل باب في الحي، وخرجت والدته مع الآخرين يبحثون في الحقول والغابات. بحلول الصباح التالي، كان يرى وجه تومي يبتسم له على كل عمود وواجهة محل في وسط المدينة. قاموا بتفريغ بركة السباحة على الجانب الآخر من الحقول. كانت هناك أنباء عن رؤية تومي في كنتاكي، لكن الأمر لم يكن شيئًا. اقتادوا معلم الحاسوب في المدرسة الابتدائية للاستجواب، لكنه عاد إلى العمل. انتظر بول أن يعثروا على تومي في البئر، لكن لم يحدث شيء. غير أن اللاشيء لم يكن لا شيء؛ فقد تسلل ذلك اللاشيء إلى داخله كالأمراض الطفيلية التي قرأ عنها في حصة علم الأحياء، مثل تلك

الدودة في إفريقيا التي تتسلل إلى إصبع قدمك عندما تكون تسبح وقبل أن تدرك ذلك تكون قد التهمتك بالكامل. في كل مرة يسمع فيها اسم تومي أو يرى وجهه، في كل يوم في بادئ الأمر ثم أقل فأقل مع مرور الشهور والسنوات، كان يشعر بتلك الدودة وهي تقضم قطعة أخرى منه. لقد تعفن عقله لدرجة أنه لم يعد قادرًا على التركيز في المدرسة بعد الآن. ذات مرة عندما كان في حالة سيئة للغاية، رأى وجه تومي على ملصق وظن أنه وجهه الميت يبتسم له؛ هكذا كان يبدو اللاشيء.

حتى هذا اليوم، عندما سمع كلمات تومي تخرج من فم ذلك الطفل الأبيض الصغير.

كان الناس يقتربون الآن، واستطاع سماع حفيف خطواتهم عبر الشجيرات. كان ينبغي له أن يركض، لكنه استلقى ساكنًا، يستمع إلى أنفاسه الثابتة والسهلة، شاخصًا ببصره إلى كل تلك النجمات. *لا بد أن هذا هو شعور فقدان العقل*، فكر في نفسه، لكنه شعر بنقاء ذهني لم يشعر به منذ وقت طويل. لقد أراد أن يكون شخصًا صالحًا ذات يوم، أو على الأقل ألا يكون سيئًا، لكنه بعد ذلك أطلق النار على تومي كروفرود وتملكه الخوف لدرجة أنه تركه يموت في البئر. لم يكن يريد فعل ذلك، لكنه فعله على أية حال.

تقاطعت حزم أضواء الكشافات اليدوية فوق التراب وجذور الأشجار وانتقلت صاعدة إلى وجهه. رمش بعينيه في مواجهة الأضواء المسببة للعمى؛ لقد كان رجال الشرطة، وكان ليعرف أصواتهم الآلية الجافة في أي مكان.

أغمض عينيه ورأى النجوم مجددًا. كان كل الضغط في عقله يتلاشى؛ فزفره مع أنفاسه نحو السماء. لقد احتفظ بالكلمات لفترة طويلة

جدًا (إنه أنا؛ أنا من فعل ذلك)، والآن بات بمقدوره إطلاق سراحها. كل ما كان عليه فعله هو النطق بها.

35

رأت جاني ضوء الكشاف اليدوي أولًا، وهو يتأرجح عبر الطريق. عندما توقفت بجانب أندرسون نظر إليها عبر نافذة السيارة دون أن يتعرف عليها، وقميصه كان خارجًا من بنطاله، وعيناه زائغتين. صدمها مرآه؛ فلم تكن تدرك أنه يكترث لأمر ابنها إلى هذا الحد. فتحت الباب فرمش بعينيه ثم ركب السيارة دون أن ينطق ببنت شفة.

قالت. "سأتحقق من المنزل مجددًا." لم تكن لتسمح لنفسها بالتوقف عن الحركة، أو التفكير.

أومأ برأسه. "حسنًا." وتابعا القيادة نحو المنزل في صمت مطبق.

كان هناك محقق يرتدي حلة بنية واقفًا بجانب سيارة في الممر بينما كانت جاني توقف سيارتها. كان يذرع المكان جيئة وذهابًا وظهره إليها، يصرخ في الهاتف. ترجلت جاني من السيارة وتطايرت كلماته لتصدم مسامعها. "يتعين علينا تفريغها من الماء الآن، تبًا للأمر، لا يهمني كم هي عميقة، إن كان يقول إن جسد الطفل في داخلها—"

ترددت العبارات في عقل جاني، مقطعة إلى أجزاء، ومتداخلة ومشوشة.

تفريغها من الماء—

جسد الطفل—

شعرت بنفسها تغيب عن الوعي. لم يكن هذا حقيقيًا، ولن تسمح له بأن يكون حقيقيًا. ستذهب بعيدًا جدًا عن أي مكان يحدث فيه هذا الأمر.

سمعت صوت أندرسون يقول. "تعالي إلى داخل المنزل،" لكن الكلمات لم تكن تعني لها شيئًا.
"هيا."
كان من الجيد ألا تفهم الكلمات؛ فلو سمحت لنفسك بفهم الكلمات، لشعرت بها وحينها لا تدري ماذا قد يحدث.
كان أندرسون يمسك بيدها ويحاول قيادتها للأمام لكنها لم تكن تشعر بقدميها. هكذا كان يبدو الجسد في العالم غير الواقعي؛ كالظلال. كان الرجل بجانبها ظلًا، والمحقق ظلًا، والشخصيات التي تتحرك ببطء نحوها عبر الفناء؛ ظلان طويلان، وظل قصير كطفل، كـ—نـوح! انفجر قلب جاني، وألقت بنفسها للأمام.
كان متشبثًا بخصر دينيس كروفورد ويشخص ببصره نحوها. نوح الجميل والقذر، وخطوط المخاط تزين وجنتيه. كانت جاني واقفة أمامه مباشرة الآن، لكنه لم يحول عينيه عن وجه المرأة الأخرى.
"نوح؟"
لم يكن ينظر إليها. لماذا لا ينظر إليها نوح؟ كيف يمكن أن يكون ذلك ممكنًا؟ شعرت بركبتيها تخوران، وكانت تسقط، لولا أن شيئًا كان خلفها، يمسك بذراعيها، ويبقيها واقفة. لقد كان أندرسون؛ وسمحت له بإسنادها.
"نـوح! إنها أنا! إنها ماما!"
التفت نوح حينها، وتأملها بفضول، من مكان بعيد جدًا، بالطريقة التي قد ينظر بها طائر في أعماق الغابة لأسفل نحو إنسان عابر.
راقبوه جميعًا وهو ينظر، ويبحث عن نفس، ولم يتمكن من العثور عليه.

⋙⋙⋙

تنفس يا نـــوح، تنفس.

لم يكن الأمر بهذا السوء قط. احتضنته جاني في حجرها داخل السيارة، وبخاخ الربو مضغوط على فمه، ولم تكلف نفسها عناء وضعه في مقعد السيارة المخصص للأطفال. كانت الأضواء الزرقاء والحمراء تومض عبر الزجاج الأمامي، تشق لهما الطريق. لو كان نوح واعيًا الآن لكان قد أحب ذلك كثيرًا. مرافقة شرطة خاصة به، مكتملة بصافرات الإنذار والأضواء الوامضة.

تنفس. كان رأسه يترنح مستندًا إليها وكأنه رضيع. رغم القلق الجديد، شعرت بالراحة لامتلاكه بين ذراعيها مجددًا، بعد أن ظنت أنها ربما لن تحظى بفرصة أخرى أبدًا. *تنفس.*

سألها فتى عائلة كروفورد. "سيكون على ما يرام، أليس كذلك؟"

لقد أصر على القدوم وكان يجلس بجانبها، ينقر بأصابعه على ركبتيه في نوبة من التوتر الإيقاعي المتسارع. تمنت جاني لو تطلب منه والدته التوقف، لكن دينيس بدت غائبة عن الوعي؛ كانت تجلس في المقدمة في مقعد الراكب، وتملي على أندرسون الاتجاهات بصوت ذاهل.

قالت جاني، وهي تحدث نفسها بقدر ما تحدث أي شخص آخر. "سيكون بخير، إنه بحاجة إلى البوتيرول أكثر فاعلية، وسيحصل على ذلك في المستشفى."

قال المراهق. "هل حدث هذا من قبل؟"

"أجل، إنه يعاني من الربو."

"حقًا؟"

"أجل، حقًا."

"إذن هذا بسبب الربو؟"

"أجل."

"يا إلهي، هذا يبعث على الارتياح. ظننت أنه ربما يمر بنوع من استرجاع الأحداث عما حدث في المرة الماضية وأنه كان، كما تعلمين... يغرق مجددًا بالكامل."

لم تقل جاني شيئًا للحظة. وتشبثت بطفلها الصغير، الذي كان يصارع من أجل التنفس ولا علاقة له بتلك القصة أو بأية قصة. انبرى أندرسون متحدثًا من مقعد السائق. "الأمر لا يسير على هذا النحو، وإن كان ثمة رابط في بعض الأحيان بين طريقة الموت و... التشوهات. في بعض الأحيان، الخاضعون للدراسة الذين يعانون من الربو كانت لديهم شخصية سابقة ماتت غرقًا أو اختناقًا بطريقة ما."

اخرس يا جيري، فكرت جاني في نفسها.

قال تشارلي في النهاية. "معلومة جيدة."

لمحه أندرسون في مرآة الرؤية الخلفية. "هل تحدث معك عن الغرق؟"

"أجل، في البئر. لقد تملكه توتر شديد بسبب ذلك."

"أنا لا أفهم." التفتت جاني نحو تشارلي. "لقد أخبرك أنه غرق في بئر؟ لماذا أخبرك بذلك؟"

"ربما لأنه يظنني شقيقه؟"

نظرت إليه؛ مراهق يرتدي قميصًا بلا أكمام لفريق كليفلاند إنديانز وشورتًا، جسده الطويل والنحيل يشع حيوية وشبابًا. "هل تصدقه؟"

"ليس لديك خيار آخر حقًا، إن كنت تستمعين إليه، أليس كذلك؟"

تثبتت بنوح، وكان يستند إلى صدرها، ويده تقبض بإحكام على ذراعها. استطاعت الشعور بكل نفس من أنفاسه وهو يكافح ليخرج من أعماقه. "على ما أظن لا."

"أنتِ لا تصدقينه؟" كان تشارلي ينظر إليها.

"لا، أنا أصدقه." وكان هذا حقيقيًا.

"آه، لكنكِ لا تريدين ذلك، أليس كذلك؟" لقد كان أكثر إدراكًا وفطنة مما يبدو عليه.

"أظن—أنني أردته أن يكون ملكي وحدي."

ضحك.

"أتظن الأمر مضحكًا؟"

كانت لديه ابتسامة تحتل وجهه بأكمله، تمامًا كابتسامة نوح، كابتسامة تومي.

قال تشارلي. "يا سيدتي، لا أقصد الإساءة، ولكنكِ لا تعلمين شيئًا؛ لم يكن يومًا ملككِ وحدكِ."

36

ظنت جاني أن تلك الصورة ستظل محفورة في مخيلتها إلى الأبد: نونوح مستلقيًا على سرير المستشفى، شاحبًا ولكنه يتنفس، إحدى يديه تمسك بقناع البوتيرول على فمه، والأخرى تقبض على الشيء الذي امتدت إليه يده أولًا؛ وهو يد دينيس. كانت دينيس تجلس بجانبه، ممسكة بيده الصغيرة بين يديها.

جلست جاني على المقعد المجاور لدينيس، وفكرت في أن تطلب أخذ مكان المرأة الأخرى بجانب ابنها، لكنها لم تكن لتريد المخاطرة بإزعاج نوح. في لحظة ما، أرخت دينيس يدها قليلًا من يد نوح وتحركت، وكأنها تعرض على جاني مكانها الشرعي بجانبه، لكن نوح أمسك بمعصمها، والتقت عيناه بعينيها من فوق القناع. تأملا بعضهما البعض للحظة كحصانين يتعرفان على بعضهما عبر حقل، ثم هزت دينيس كتفيها قليلًا واستقرت في مكانها مجددًا، واضعة يدها الأخرى فوق يده.

بعد خمس عشرة دقيقة أو نحو ذلك من هذا الوضع، لم تعد جاني تطيق الاحتمال أكثر.

"نوح؟ سأكون بالخارج مباشرة، لفترة وجيزة فحسب، خلف ذلك الباب مباشرة." فالتفت الاثنان برأسيهما ونظرا إليها وكأنهما لم يعلما بوجودها في الغرفة.

لم تكن جاني ترغب في تركه هناك على هذا النحو، لكن كان يتعين عليها الخروج؛ كانت بحاجة إلى الهواء. بدأت في التراجع ببطء إلى خارج الغرفة.

"ماما؟"

التفتت جاني ودينيس معًا نحوه، وكان قد نزع القناع.

نظر إلى جاني. "هل ستعودين؟"

لم تظن قط أن الشرارة المفاجئة للخوف في عيني طفلها ستكون شيئًا يمكنها تذوق حلاوته والاستمتاع به، غير أن كل شيء قد انقلب رأسًا على عقب في هذا اليوم.

"بالتأكيد يا حبيبي، سأعود في غضون دقيقة، سأكون خلف ذلك الباب مباشرة."

"موافق." رمقها بابتسامة ناعسة وراضية. "أراكِ قريبًا، أمي-ماما."

"أعد القناع إلى مكان يا حبيبي."

أعاد القناع إلى وجهه باليد التي لم تكن تقبض بإحكام على دينيس، ثم رفع إبهامه لها علامة على الإيجاب.

سحبت جاني الستارة وأغلقت الباب بلطف وتركت كفيها هناك، مستندة بجبهتها إلى الباب. نفس، ثم الذي يليه؛ هكذا يتم الأمر. نفس، ثم الذي يليه.

"إنه بخير، كما تعلمين."

التفتت؛ كان هناك رجل عجوز هزيل يجلس على مقعد في الممر. لقد كان أندرسون؛ متى أصبح واهنًا إلى هذا الحد؟

أضاف قائلًا. "سيسمحون له بالخروج قريبًا."

"أجل."

جلست بجانبه، ترنو ببصرها نحو السقف، إلى الأجساد الداكنة الصغيرة للحشرات الميتة العالقة في قاع وعاء الضوء الساطع. نفس، ثم الذي يليه.

قال أندرسون. "يا له من يوم عصيب."
"ينبغي لي العودة إلى الداخل، أنا لا أعرف حتى تلك المرأة."
"نوح يعرفها."
ساد الصمت.
قال أندرسون. "معظمهم ينسون مع مرور الوقت، كما تعلمين؛ فالحياة الحاضرة تفرض سيطرتها وتتولى الزمام."
"هل من السيئ أن آمل في حدوث ذلك؟"
بدا جسد أندرسون المتصلب وكأنه يلين، وطبطب على يدها قائلًا. "هذا أمر مفهوم."
عندما أغلقت عينيها، أشرق بياض الضوء الساطع داخل جفنيها، ففتحتهما؛ وكان عقلها يموج بالاضطراب. "ذلك الرجل... الذي تحتجزه الشرطة، أهو من قتل تومي؟"
"على الأرجح."
"هل سيتعين على نوح الحضور هناك؟ في المحاكمة؟"
هز أندرسون رأسه، وارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتيه. "الشخصية السابقة لا تصلح لتكون شاهدًا يعتدّ به."
"أظن أنك على حق، لكني لا أزال لا أفهم كيف عثروا عليه."
"أتوقع... أن الأمر له علاقة بنوح."
ستسأل عن ذلك لاحقًا، ستكتشف الأمر لاحقًا؛ فثمة حد معين من المعلومات يمكن للجسد استيعابه في المرة الواحدة. نفس، ثم الذي يليه.
كان ظهر أندرسون مستقيمًا كقضيب حديدي، ويداه في حجره؛ لا يزال في وضع الاستعداد والانتباه.

قالت له. "لا داعي لانتظارك هنا، كما تعلم؛ يمكنك الذهاب إلى الفندق، استقل سيارة أجرى، واحصل على بعض الراحة."
"لا بأس، سنرتاح... في اليوم الذي يلي اليوم."
"غدًا."
"أجل، غدًا."
ظلت الكلمة عالقة في الهواء.
"وغدًا." تمتم قائلًا.
"وغدًا، *يدب بهذه الخطى الوئيدة من يوم إلى يوم*." قالت.
لمحها بطرف عينه مندهشًا. "*إلى آخر مقطع في الزمان المكتوب؛ وكل أمسياتنا قد أنارت للمغفلين الطريق إلى الموت المغبر*."
"أنت تحفظ شكسبير إذن." قالت له. فربما كانت لديه أيضًا أم تقتبس من شكسبير. شعرت فجأة وكأن والدتها معهما في الغرفة، وربما كانت كذلك بالفعل. هل يمكن للناس أن يولدوا من جديد ويكونوا هنا أيضًا، كأرواح؟ لكن هذا سؤال يترك لساعة أخرى.
ابتسم أندرسون بمرارة. "بعض الكلمات أذكرها."
"الجميع ينسى الكلمات أحيانًا." فكرت في الطريقة التي بدا بها وكأنه يستبدل بعض الكلمات بأخرى، والطريقة التي أربكه بها جهاز تحديد المواقع. "لكن الأمر ليس مجرد نسيان عابر، أليس كذلك؟"
صمت للحظة.
"إنه مرض تنكسي، الحبسة الكلامية." ابتسم بمرارة. "تلك الكلمة لا يمكنني نسيانها."
"آه." وشعرت بالكلمة كصدمة موجعة. "أنا آسفة جدًا يا جيري."
"هناك ما هو أكثر في الحياة من الذاكرة، هكذا يخبرونني."

"هناك اللحظة الحاضرة."

"أجل."

"الذاكرة قد تكون لعنة." وكانت تفكر في نفسها، وفي نوح.

"الشيء هو ما هو عليه."

ساد الصمت.

"ربما سأغادر إذن." وضع يديه على ركبتيه، وكأنه يجبر نفسه على الوقوف.

"في الواقع... هل يمكنك البقاء لبضع دقائق أخرى؟" لم تكن هناك طريقة تمنع بها حاجة السند من البروز في نبرة صوتها.

بدت عيناه كالفضة تحت ضوء الفلورسنت الساطع. "حسنًا."

"شكرًا."

"هل يمكنني إحضار شيء لكِ؟ كوب من القهوة؟"

هزت رأسها نفيًا.

"أو إن كنتِ جائعة، يمكنني الذهاب إلى—يمكنني أن—"

"جيري؟"

"نعم؟" نظر إليها—كيف بدا مظهر وجهه؟ للمرة الأولى، ومع تلاشي يأسها الخاص أخيرًا، رأته على حقيقته؛ كم كافح واجتهد في حياته، وبأي شجاعة؛ كم كان متعبًا الآن، وكم كان يشعر بعمق بأنه قد فشل.

"شكرًا لكَ."

"على ماذا؟"

"على... ما فعلته لأجل نوح."

أومأ برأسه إيماءة خفيفة، ولمعت عيناه لبرهة ثم أغمضهما. استقر بعمق أكبر في المقعد، ممددًا ساقيه الطويلتين إلى الأمام وإلى الجانب،

حتى لا يعيق حركة المرور في الممر. وشعرت بالتوتر وهو يتدفق خارجًا منه، يغادر جسده وينتقل إلى الهواء. أسند رأسه إلى الجدار، بجانب رأسها، حتى كاد شعرهما يتلامس دون أن يفعل.

أطلق زفيرًا ناعمًا. "على الرحب والسعة."

توقف جون مكونيل، وهو شرطي متقاعد من مدينة نيويورك يعمل كحارس أمن، عند متجر للإلكترونيات بعد العمل ذات ليلة في عام 1992. رأى رجلين يسرقان المتجر فاستلّ مسدسه. فبدأ لص آخر خلف المنضدة بإطلاق النار عليه. حاول جون رد الإطلاق، وحتى بعد سقوطه، نهض وأطلق النار مجددًا. أصيب بست رصاصات؛ اخترقت إحداها ظهره وقطعت رئته اليسرى، قلبه، الشريان الرئوي الرئيسي، هو الوعاء الدموي الذي ينقل الدم من الجانب الأيمن للقلب إلى الرئتين لتلقي الأكسجين. نُقل على وجه السرعة إلى المستشفى لكنه لم ينجُ.

كان جون مقربًا من عائلته وكثيرًا ما كان يقول لإحدى بناته، وتدعى دورين: "مهما حدث، سأعتني بكِ دائمًا." وبعد خمس سنوات من وفاة جون، أنجبت دورين ابنًا أسمته ويليام. بدأ ويليام يعاني من حالات إغماء بعد وقت قصير من ولادته، وشخّص الأطباء حالته بمرض يُدعى رتق الصمام الرئوي، وفيه لا يتشكل صمام الشريان الرئوي بشكل كافٍ، فلا يتمكن الدم من الانتقال عبره إلى الرئتين. بالإضافة إلى ذلك، فإن إحدى حُجرات قلبه، وهي البطين الأيمن، لم تتشكل بشكل صحيح نتيجة للمشكلة في الصمام. خضع لعدة عمليات جراحية، ورغم أنه سيحتاج إلى تناول الأدوية إلى أجل غير مسمى، إلا أنه أبلى بلاءً حسنًا للغاية.

كانت لدى ويليام عيوب خلقية مشابهة جدًا للجروح القاتلة التي عانى منها جده. بالإضافة إلى ذلك، عندما أصبح كبيرًا بما يكفي للتحدث، بدأ يتحدث عن حياة جده. في أحد الأيام عندما كان في الثالثة من عمره، كانت والدته في المنزل تحاول العمل في مكتبها وكان ويليام يستمر في إثارة الفوضى والمشاكل، وفي النهاية، قالت له: "اجلس، أو سأضربك." فأجابها ويليام: "ماما، عندما كنتِ فتاة صغيرة وكنتُ أنا والدكِ، كنتِ سيئة في كثير من الأحيان، ولم أضربكِ قط!"...

تحدث ويليام عن كونه جده لعدة مرات وناقش وفاته؛ وأخبر والدته أن عدة أشخاص كانوا يطلقون النار خلال الحادثة التي قُتل فيها، وطرح الكثير من الأسئلة حول الأمر.

ذات مرة، قال لوالدته: "عندما كنتِ فتاة صغيرة وكنتُ أنا والدكِ، ما كان اسم قطتي؟"

فأجابته: "تقصد مانياك؟"

فأجاب ويليام: "لا، ليس ذلك، بل الأبيض."

فسألت والدته: "بوسطن؟"

فأجاب ويليام: "أجل، كنت أسميه بوس، أليس كذلك؟"

كان ذلك صحيحًا؛ فقد كانت العائلة تمتلك قطتين، باسم مانياك وبوسطن، وكان جون وحده من يشير إلى القط الأبيض باسم بوس.

_جيم ب. تاكر، دكتور في الطب، كتاب الحياة قبل الحياة.

37

العظام لا تكذب. هذا ما يقوله علماء الآثار، وهم محقون في ذلك. فالعظام لا تختلق القصص لأنها ترغب في تصديقها، ولا تكرر شيئًا سمعته عرضًا في مكان ما، ولا تملك بصيرة خارقة. إنها مادة قابلة للتحقق، تحمل في شقوقها حقيقة مادتنا المعيبة وتفردنا الخاص؛ ذاك الكسر في عظمة الفخذ، وتلك الثقوب في الأسنان. لذا، لم يكن هناك دليل أكبر—في نظر أندرسون—من العظام التي تم تحديد هويتها إيجابياً على أنها تعود لتومي كراوفورد، والتي اكتُشفت في بئر مهجورة في الغابة ليست بعيدة عن مسكن عائلة كليفورد.

وقف أندرسون بجانب جاني ونوح وعائلة تومي، ينظرون إلى تلك الحفرة في الأرض التي أنزلوا فيها صندوقًا باهظ الثمن مغطى بزهور باهظة الثمن بدأت تذبل بالفعل من شدة الحرارة. فكّر أنه ينبغي عليه مراقبة ردود أفعال الأشخاص تجاه هذه المراسم، لكنه لم يفعل؛ بدلًا من ذلك، كان يفكر في أنه عندما يحين وقته، فإنه لا يريد أيًا من ذلك لنفسه. ليدعوا جسده الممزق على قمة جبل ليتفكك ويطعم النسور، كما يفعل الرهبان التبتيون، حتى لا يتبقى من الجزء الجسدي لجيري أندرسون سوى عظام على حافة صخرية. كان يفكر في أن ذلك الوقت لن يطول كثيرًا، وأنه لن يسمح أبدًا لجسده أن يعيش أطول من عقله.

كان والد الصبي، هنري، يقف بجانب الحفرة، والمجرفة في يديه. ملأ المجرفة وألقى التراب عاليًا فوق التابوت، وبدا التراب كأنه يتوقف في منتصف الهواء ليسقط بصوت مكتوم، ثم غرف مجرفة أخرى دون

توقف، حتى بدا الأمر كحركة واحدة مستمرة: الغرف وتساقط التراب ثم الغرف مجددًا، ووجهه يتصبب عرقًا.
راقبوه جميعًا. وقف نوح، هادئًا، بين دينيس وجاني، ممسكًا بيد جاني. ووضع تشارلي ذراعه حول كتف أمه.
بالطبع، لا يمكن لأي قدر من البيانات أن يقنع شخصًا غير مستعد للاقتناع. فالناس يصلون دائمًا إلى الإجابات التي يريدونها. كانوا كذلك دائمًا، وسيظلون كذلك. حاول أندرسون الحذر من هذا في عمله الخاص، فوظف باحثين لمراجعة بياناته مرارًا وتكرارًا، وزملاء لمراجعة مقالاته، حاثًا على أعلى مستويات التشكيك، لكن التحيز كان حتميًا. فزملاؤه هم زملاؤه؛ كانوا يريدون الوثوق به. لقد آمن لفترة طويلة أنه إذا تخلص من أدنى ذرة من الذاتية في عمله، فستكون مسألة وقت قبل أن تُقبل بياناته؛ كان ذلك جزءًا من المعركة التي خاضها، لكن الآن وقد حان ضحى النهار والجو دافئ ورائحة التربة غنية ومنعشة، شعر بأن المعركة تبدأ في التلاشي من داخله. ليدع الناس يؤمنون بما يريدون الإيمان به.
المحقق لادن، على سبيل المثال: الإجابة التي كانت تبدو أكثر منطقية بالنسبة للمحقق لادن هي البصيرة الخارقة. لم يتوقف ذلك عن إدهاش أندرسون. هنا رجل محترف وعقلاني، ذو فكر حاد ونظرة متعبة للعالم، يتمسك بفكرة أن لدى نوح قدرة خارقة للطبيعة كأمر أكثر احتمالًا من أن جزءًا من وعي تومي قد يستمر بطريقة ما بعد موته. بائع سمبوسة في شوارع نيودلهي، أو سائق تاكسي في بانكوك، سيضحكون بملء أفواههم على هذه السذاجة. لكن القدرات النفسية كانت ظاهرة. كان لدى أقسام الشرطة في أمريكا بعض الخبرة بها على

الأقل؛ فجميعهم سمعوا قصصًا عن أدلة تم استنباطها بهذه الطريقة؛ حتى أن البعض وظّف وسطاء نفسيين من وقت لآخر. لذا، كان نوح زيمرمان الصغير وسيطًا نفسيًا قويًا بشكل مذهل، يستشعر اللحظات الأخيرة من حياة تومي كراوفورد. *أي شيء يريحك، أيها المحقق.*

اضطر للاعتراف—بمجرد أن تصالح مع هذا الجانب من القضية—بأن المحقق كان متعاونًا بشكل مفاجئ. قبل أن يحددوا هوية الرفات إيجابيًا، كان قد أجرى مقابلة مع نوح. دون ملاحظات دقيقة واستخدمها لملء الفراغات، واستخراج اعتراف أكثر شمولًا، ليس لأن القاتل كان يخفي شيئًا، لكن المحقق أراد تقديم الحقائق بأكبر قدر ممكن من الوضوح والكمال. أندرسون تفهّم ذلك؛ كان يريد أن يعرف ماذا حدث، وأليس هذا ما نريده جميعًا؟ كل شيء كان يتطابق، إلى حد ما، مع الأدلة. العظام، والأضلاع المهشمة بالرصاص.

أراد الأب موت القاتل، لكن الأم شعرت بأنه لا جدوى من ذلك. كما أن الادعاء قد استبعد عقوبة الإعدام، لأنه اعترف، وكان مراهقًا صغيرًا عندما وقعت الجريمة. بعد كل شيء، ربما من الأفضل له أن يواجه ذنبه في هذه الحياة. لا فائدة من نزف هذا الذنب إلى الحياة التالية. لذا، اتفق أندرسون مع دينيس على عدم جدوى عقوبة الإعدام، على الرغم من أنها لا تزال ترفض استخدام كلمة *تناسخ*.

روح تومي، هكذا عبرت عن الأمر.

أي شيء يريحك يا صديقتي. أي شيء يريحك.

⋙

كان يفكر بجدية أكبر في الكارما مؤخرًا. لم يركز عليها أبدًا في عمله—فكان من الصعب بما يكفي إيجاد تحقق من استمرار الوعي

دون التورط في تعقيدات التداعيات الأخلاقية عبر الزمن—لكنه كان يجري أحيانًا عمليات بحث في البيانات، محاولًا معرفة ما إذا كان هناك رابط بين نوعية الحياة التي عاشها الناس وحيواتهم التالية. لم يكن هناك شيء قاطع، رغم أن نسبة صغيرة ممن عاشوا ظروفًا سلمية أو ميسورة تذكروا حيوات سابقة مارسوا فيها التأمل أو تصرفوا بطريقة قديسة. مع ذلك، كانت لديه أفكاره الخاصة مؤخرًا، بأن الجهل والخوف والغضب، مثل الصدمات، قد تنتقل من حياة إلى أخرى، وأنه قد يتطلب الأمر حيوات متعددة للتغلب عليها. إذا كان الغضب والخوف يمكن أن يستمروا، فبالطبع يمكن للمشاعر الأقوى أن تستمر أيضًا، مثل الحب. هل كان هذا هو ما يجذب بعض الناس للعودة والتناسخ داخل عائلاتهم؟ هل كان هذا ما يجعل بعض الأطفال يتذكرون روابطهم السابقة؟ وإذا كان الأمر كذلك، فربما لم تكن هذه الظاهرة، ذكريات هؤلاء الأطفال التي درسها بعناية، ضد قوانين الطبيعة بعد كل شيء. ربما كانت هي القانون الأساسي للطبيعة الذي يثبتونه، ما كان يوثقه ويحلله لأكثر من ثلاثين عامًا دون أن يعلم: قوة الحب. هز رأسه. ربما بدأ عقله يضعف.

أو ربما لا. لقد أبقى الكثير من هذه الأسئلة بعيدًا طوال كل هذه السنوات، والآن تدور حوله، تلمسه بشيء يشبه الرهبة، في طريقها إلى مكان آخر.

38

لن تتجاوز دينيس الأمر أبدًا. كانت تعرف ذلك.
عظام تومي في قاع البئر.
قضت هي وهنري بعض الوقت مع تلك العظام. عندما انتهت الشرطة من فحصها ووسمها وتصويرها، منحتهم دار الجنازات وقتًا قبل الدفن. ضمّتها إلى صدرها، ومررت أطراف أصابعها على المآقي الملساء التي احتوت يومًا ما عيني طفلها المتألقتين.
هناك، ولكنها ليست هناك. جزء منها أراد تلك العظام، أراد وضع عظام الفخذ تحت وسادتها في الليل عندما تذهب للنوم، وحمل جمجمته في حقيبتها لتكون معه دائمًا؛ أدركت الآن كيف يصاب الناس بالجنون ويفعلون أشياء مجنونة. لكن جزءًا آخر منها كان يعلم أن هذا ليس تومي. إنه ليس موجودًا.
عظام تومي، حيث قال نوح إنه غرق؛ كانت تفترض أن هذا دليل، إذا كان هذا ما تبحث عنه، لكنها لم تكن تبحث عن شيء. بطريقة ما، توقف الأمر عن كونه مهمًا لها.
مع ذلك، كيف لا يكون مهمًا ما إذا كان هذا الصبي يحمل قطعة صغيرة من تومي في أعماقه؟ بعض شظايا حبه. حب تومي لها، *باقيًا*، داخل نوح. ألم يكن ذلك شيئًا؟
لكننا بالتأكيد نحمل جميعًا قطعة صغيرة من بعضنا البعض في داخلنا. فما الفرق إذًا، إذا كانت الذكريات التي تخص ابنها موجودة داخل هذا الصبي الآخر؟ لماذا نكتنز الحب جميعًا، نخزنه، بينما هو

موجود حولنا في كل مكان، يتحرك داخلنا وخارجنا مثل الهواء، لو كان بإمكاننا فقط الشعور به؟
كانت تعلم أن معظم الناس لا يستطيعون اتباعها إلى حيث ذهبت. كانوا سيظنون، مثل هنري، أنها فقدت صوابها. كيف يمكن لأحد أن يفهم ما لا تفهمه هي نفسها؟
قلبُها—حدث له شيء ما. هذا ما كانت ستقوله، لو ظنت أنه سيستمع إليها. كانت تعلم أنه انكسر للأبد. تحطم لدرجة لا يمكن إصلاحها. لكنها لم تحسب حسابه وهو ينفلق.
لن تتجاوز أبدًا فقدان تومي. كانت تعرف ذلك.
كما أنها لا تستطيع العودة إلى الشخص الذي كانت عليه. لم يعد هناك أي مقاومة متبقية، لا شيء محجوز، بعد حياة كاملة من الكبح. كانت تستطيع الشعور بكل نسمة هواء تخترق جوهرها. كان الأمر مرعبًا، لكن لم يكن هناك شيء يمكن القيام به. قلبها الآن منشق، ويمكن للعالم بأسره أن يمر من خلاله.

⋟⋟⋟

سحبها هنري جانبًا بعد الدفن. كان الآخرون يقفون بجانب سياراتهم في الحرارة، مانحين إياهما لحظة للحزن بمفردهما. وقفا بجانب التراب المقلوب والزهور المتناثرة، تلك اللوحة السريالية والمألوفة التي تنادي: صدّق الأمر. ضيقت دينيس عينيها في الشمس نحو كل القبور التي تمتد في صفوف منتظمة والأشجار التي تتقوس فوقها. أشجار وحجارة وتراب وسماء، بقدر ما تستطيع رؤيته.
أمسك هنري بيدها وشعرت بجلدها ينتفض مع شعور الراحة لملامسة بشرته لبشرتها مجددًا. ضغط على أصابعها وقال. "لن آتي

إلى المنزل." كان الجميع يتجمعون في منزلها للاستقبال بعد الجنازة. كانت قد استأجرت متعهدي طعام. شعرت بضغط كبير في تلك اللحظة لا يسمح لها بالتعامل مع مقاومة هنري. كان عليه أن يأتي. "فقط لبعض الوقت يا هنري. أرجوك."

كان يمسك يدها، لكنه كان يعبس. "لا أستطيع تحمل البقاء في نفس الغرفة مع هؤلاء الناس."

عرفت أي الناس يقصد. "لن يزعجوك. لا يهم يا هنري."

ترك يدها. "ماذا تعنين بـ 'لا يهم'؟" رفع صوته. "ألا يهم أنهم مجانين؟ أفترض أن هذا لا يهم أيضًا؟"

كانت تأمل أنه إذا استطاع قضاء بضع لحظات مع نوح، فقد يكون ذلك جيدًا لكليهما: قد يرى هنري ما يجب رؤيته ويأخذ الأمر بأي طريقة يرغب بها. كانت تعلم أن برود هنري يؤلم نوح. أثناء مراسم الجنازة، لاحظت الصبي يختلس النظر إليه بعيون جريحة.

"قد يساعدك الأمر، أن تتحدث معه. وأعتقد أن ذلك سيساعد الطفل..."

"لا أستطيع أن أصدق أنكِ أنتِ، من بين كل الناس، يا دينيس..." كان صوت هنري خشنًا. أخفض رأسه، وأرادت أن تلمس تلك الهالة المألوفة من الأسود والرمادي التي تعرفها جيدًا، لكنها توقفت. كانت عيناه، عندما نظر للأعلى مرة أخرى، تتوسلان. "أعرف أنه أمر صعب، إنه وحشي،" قال. "لكنني لم أعتقد أبدًا أنكِ ستقعين في فخ شيء كهذا. ربما كان ينبغي أن أعرف، بالطريقة التي كنتِ تعتقدين بها أن تومي سيعود إلينا. والآن وجدتِ لنفسكِ طريقة لتستمرّي في الإيمان بذلك، أليس كذلك؟ في وجه كل شيء."

"أنت تظن أنها كلها خيالات."

"أظن أنكِ تفعلين كل ما في وسعكِ لتؤمني أن تومي لا يزال حيًا. أتعتقدين أنني لا أريد ذلك أيضًا؟ أتعتقدين أنني لا أبحث عنه في كل مكان، أتعتقدين أنني لم أكن أرى ابني في وجه كل طفل في الحشود؟ لكننا بحاجة للتمسك بالواقع."

الواقع. لدغتها الكلمة كالصفعة. "أتعتقد أنني لا أعرف أن تومي مات؟ نحن نقف عند قبر ابني. أعرف أنه مات. أعرف أنه لن يعود."

"أتعرفين؟"

"ليس كتومي. ولكن..." بحثت عن الكلمات. "هناك جزء منه هنا. أوه، يا هنري. لا أعرف كيف أقولها، وحتى لو عرفت، فلن تصدقني. لكن، أقسم، لو قضيت بعض الوقت معه. الطبيب..."

شخر هنري بضيق.

"يقول الدكتور أندرسون إن الصبي يمكنه تسجيل مباريات البيسبول. لم يعلمه أحد ذلك. أنت من علمته ذلك يا هنري."

كان هنري يهز رأسه.

"وإلا كيف يمكنه معرفة شيء كهذا دون أن يتعلمه؟" لم تكن تلك هي الحجة التي كانت تقصد قولها، لكن الحجة الحقيقية لم تكن مكونة من حقائق، بغض النظر عن عدد الحقائق التي جمعها الدكتور أندرسون. كانت الحقائق مهمة، وهي تعرف ذلك، لكنها تعلم أيضًا أن لا قائمة طويلة من السمات أو العبارات ستغير هذا الرجل. لم تكن تعرف ما الذي قد يفعل.

"لا أعرف." قال هنري. كانت تستطيع أن تعرف من الثقل في صوته أنها تخسره، وأن صبره على المحادثة ينفد. لو كان بإمكانها فقط العثور

على الكلمات الصحيحة. شعرت بشدة أن زواجها، ما تبقى منه، معلق بخيط رفيع.
التفت إليها هنري، وتجاعيد وجهه تتهدل، كما لو أن الحزن زاد من قوة الجاذبية. "أعرف أن ابني ميت. أعرفه لأنني حملت عظامه بين يدي. وأعرفه في روحي، إن كان هناك شيء كهذا، وهو ما أشك فيه بشدة. لأكون صادقًا يا دينيس، أنا خائب الأمل فيكِ. كنتِ دائمًا واحدة من أكثر الناس عقلانية ممن عرفتهم. الآن تتركينني وحيدًا مع هذا الأمر. ابننا ميت، وأنتِ تتركينني وحيدًا لأذهب وأستمع لبعض الصبي الأبيض الصغير المجنون."
"إنه ليس مجنونًا. لو تستطيع فقط..."
"أنتِ تقتلينني بهذا الهراء. أتعرفين ذلك؟ أنتِ تغتالينني هنا حيث أقف. لقد فقدتِ عقلكِ اللعين."
نظرت إلى الرجل الذي لا يزال زوجها. كان يعاني، ولم تكن تستطيع مساعدته. كانت تزيد الأمر سوءًا. وضعت يدها على كتفه وشعرت بعضلاته تتوتر تحت أصابعها، الألم يجري من جسده إلى جسدها مثل الماء الذي يجد وعاءً جديدًا.
"ربما." أفكارها لم تكن أفكارها؛ كان هذا صحيحًا.
انعمت عينا هنري. شعرت دينيس بالراحة تتصاعد في صدرها.
"يمكننا إحضار بعض المساعدة لكِ، يا نيس." وضع ذراعه الكبيرة حول خصرها. كانا يمسكان ببعضهما الآن، يتأرجحان قليلًا. "منطقي مع كل هذا..." أشار إلى القبر، إلى المقبرة. "إنه أمر مفهوم. أرى ذلك الآن. سنجد لكِ طبيبًا جديدًا، إذا لزم الأمر. لم أحب ذلك فيرغسون أبدًا."

هبّت نسمة هواء، دارت حولهما. مالت إلى الخلف بين ذراعي زوجها القويتين وسمحت لنفسها بالسقوط في ذلك الراحة المألوفة. لقد افتقدت ذلك. افتقدت وجوده. تحرك زنبق قبر تومي جيئة وذهابًا في الريح، كما لو كانا يهزان رأسيهما. رائحة الزهور الحلوة أكثر من اللازم تصارعت في منخريها مع الرائحة الثقيلة للتراب المقلوب. تحت التراب، الصندوق، العظام. عظام تومي. لكنه ليس تومي. كان في كل مكان، مرتبطًا بكل شيء، بما في ذلك الريح، بما في ذلك نوح. لم تكن تعرف كيف يمكن أن يكون ذلك، لكنها لم تستطع التظاهر بخلاف ذلك. ليس حتى من أجل هنري. حررت نفسها من قبضته وجلست القرفصاء، تاركة بعض التراب يسقط بين أصابعها.

"أنا آسفة يا هنري. لا أريد أن أتركك وحيدًا مع هذا، حقًا لا أريد. أنا أفتقده أيضًا، في كل ثانية من كل يوم." غرفت حفنة أخرى وتركتها تتساقط، مطرًا جافًا تحت أصابعها. فكرت في وجه تومي. ركزت على ابتسامته. لم تستطع النظر إلى هنري. "لكن نوح ليس مجنونًا. لديه بعض من تومي بداخله. بعض ذكريات تومي، وبعض من... حبه. لك أيضًا..." بدأت تقول، ملتفتة، لكن ظهر هنري العريض كان يبتعد عنها بالفعل.

39

افترضت جاني أن كل استقبال جنازة مختلف. لم تحضر الكثير منها. اليهود أيضًا يجلسون في شيفا (بيت العزاء)، وهو نوع مختلف من الحفلات، وإن كان بنفس الموضوع.

بعض الناس، مثل تومي كراوفورد، لديهم جنازة. حدث ذلك في الليلة السابقة، في غرفة هادئة ومزدحمة في دار الجنازات. هي ونوح لم يلبثا سوى لحظات قليلة في تلك الغرفة، يحدقان في ذلك الصندوق الخشبي اللامع المغطى بالزهور. التابوت الذي يحمل عظام تومي، وصورة الطفل الموضوعة بجانبه مباشرة.

حدق نوح في الصورة. الجلد البني الأملس، والابتسامة المشاكسة. "هذا أنا!" صرخ نوح. "هذا أنا!"

اضطرت لإخراجه من هناك على عجل. كانت الرؤوس تلتفت نحوهم، وهمهمات تتعالى. لمحت والد تومي يحدق بهم بغضب وهي تسحب نوح من الغرفة وأسفل الممر وإلى الخارج في الليل.

كان ذلك *استيقاظًا*. لكن لماذا يسمونه بذلك؟ مثل المياه المتلاطمة خلف قارب عابر، عدم الاستقرار الذي يعقب حدثًا كبيرًا؟ كهذا؟

أو *استيقظ* كأمر؟

استيقظي يا جاني.

غرست عودًا في بعض مكعبات الديك الرومي ووضعتها في طبق مع بعض سلطة البطاطس ومخلل لها، وبعض الجبن والأناناس لنوح، موازنة الطبق على راحة يدها المفتوحة. كانت الغرفة مليئة بأشخاص لا تعرفهم يرتدون بدلات وفساتين داكنة. أشخاص عرفوا

تومي. الجميع يدردش، ويستعيد ذكرياته. لقد مات تومي منذ سنوات الآن، وتحولت نضارة الصدمة والحزن، وتوجهت إلى الداخل.

مجموعة من المراهقين تجمعت معًا بجانب طاولة الطعام، ببدلاتهم المحرجة. لم يعرفوا ماذا يفعلون بأطباقهم أيضًا. كانوا يمسكونها بارتجاف، ويغرفون ملاعق غير متوازنة من سلطة البطاطس في أفواههم.

مرت دينيس من جانبها، تنادي: *شكرًا لقدومكم، شكرًا لقدومكم.* كانت تحترق. لم تكن هناك كلمات أخرى لوصف ذلك. كانت جاني ستقول إنها ربما تعاني من الحزن لو توجب عليها تسمية حالتها. لكنك لا تستطيع صرف نظرك عنها.

بدت الغرفة وكأنها تتباطأ. طقطقة أدوات المائدة، الهمهمات: *انتهى الأمر الآن، في سلام.* نهر من الصوت يتدفق عبر الغرفة. كان نوح يقف على الجانب الآخر من الغرفة، بجانب تشارلي، والسحلية على كتفه، ورأس المراهق الكبير مائل للأسفل. الشمس حادة في نوافذ غرفة المعيشة، تنعكس عن شعر نوح. يوم دافئ، الحرارة تلمع على وجوههم المسترخية، بريق مريض على سطح سلطة البطاطس في طبق تشارلي. نوح يتحدث إلى تشارلي، يخبره بشيء ما، شيء آخر لن تعرفه أبدًا. قطرة في ذلك المحيط.

استيقظي يا جاني.

جملة من قصيدة لإميلي ديكنسون طفت عائدة إلى ذهنها.

كما يهدّأ البرق للأطفال
بتفسير لطيف
يجب أن تبهر الحقيقة تدريجيًا
وإلا سيصاب كل إنسان بالعمى—

حرارة الأجساد في الغرفة. نوح واقف في ضوء الشمس. لم يكن هناك مكان للجلوس، الغرفة كانت تنزلق أمامها، الجدران تنطلق نحو السماء—
جلست القرفصاء على السجادة. طبقها في حجرها.
غرباء كثر: كبار سن يتعانقون، يهزون رؤوسهم. المراهقون الكئيبون المحرجون. أندرسون، يقف بجانب الحائط، يراقب. دينيس. تشارلي. نوح.
كانت هي الوحيدة هنا التي لم تعرف تومي، باستثناء أندرسون.
ونوح، بالطبع، الذي لا يمكنك... حقًا... الاعتماد عليه.
تصاعدت الضحكات في حلقها مثل فئران جائعة. إلى الأعلى والخارج. غطت وجهها بيديها.
لكن الأمر كان بخير، في الواقع، لأنها لم تكن تضحك حقًا. كانت تبكي. كان لديها دموع لتثبت ذلك، تمامًا هناك على طبق الستايروفوم، تقطر على مربعات الجبن. كان ذلك مقبولًا في حفل جنازة. ربما يفضلونه. على أمل أن يظن الناس هناك أنها كانت تعرف تومي. ربما ظنوا أنها معلمة البيانو الخاصة به. كانت تبدو كمعلمة بيانو. أليس كذلك؟ رغم أنها لا تستطيع العزف على نوتة واحدة. ربما يجب أن تتعلم. يمكن لنوح أن يعلمها لحن النمر الوردي...
أنفها يسيل على أصابعها، ولزوجة المخاط، ورذاذ الدموع المالح.
"هل أنتِ بخير؟"
كانت دينيس تقف هناك بطبق في كل يد.
نظرت للأعلى. "أنا—"
"تعالي معي."

⸙ ⸙ ⸙

كانت غرفة نوم دينيس مشمسة. كانت الستائر مسحوبة بالكامل للخلف، واضطرت جاني لحماية عينيها من الوهج. جلست على السرير. كانت تعاني من فواق، وعيناها تدمعان. أحضرت لها دينيس علبة مناديل.

"يمكنني إعطاؤكِ حبة، لكنها قد تنيمك."

"أظن أنني نائمة بالفعل."

أومأت دينيس برأسها باقتضاب. بدت فعالة الآن، ممرضة نشيطة. "هل تريدين بعض الإيبوبروفين؟"

لم يكن هذا ما تحتاجه، لكنها ستأخذه. "سيكون ذلك جيدًا."

استلقت على السرير وحاولت تهدئة نفسها بينما كانت دينيس تنشغل في الحمام. ثم قفزت واقفة.

"أوه! نوح. أحتاج للعودة—"

"تشارلي يعتني به." كانت قد عادت إلى الغرفة بحبة في يدها وكأس ماء في الأخرى. "وهذا الطبيب هناك."

"نعم، لكن—"

"إنه بخير. اجلسي."

جلست. الضوء في الغرفة كان مبهرًا. أخذت الحبة التي لم تكن بحاجة إليها وابتلعتها. لم يكن الألم هو سبب دوارها. كان الواقع. كانت تجلس على غطاء السرير المليء بالزهور في غرفة امرأة أخرى—كان ذلك حقيقيًا؛ وضوء الشمس في عينيها كان حقيقيًا؛ وهنا كانت هذه المرأة الأخرى، التي كانت أيضًا حقيقية. وواقع الموقف كان أيضًا أكبر من ذلك... لكن ماذا تفعل به؟ مجرد التفكير فيه جعل رأسها يدور.

"أنا آسفة." خرجت الكلمات دون تفكير.

"لماذا؟" لم يكشف وجه دينيس عن أي شيء.

"لأخذكِ بعيدًا عن—الحفلة." حامت الكلمة بينهما بشكل مؤلم. كشرت جاني. "أعني، الجنازة... لا، هذا ليس صحيحًا. أعني..." *استيقظي.*

أخذت دينيس الكأس منها. "تشارلي جيد مع الأطفال"، تابعت، كما لو كانت تحاول إعادتها إلى الحالة الطبيعية بثرثرتها. "كنت أحاول للأبد جعله يقوم ببعض رعاية الأطفال هنا. كسب القليل من المال بدلًا من سحب المال من محفظتي مقابل لا أعرف ماذا. كتب مصورة وأطعمة سريعة وألعاب فيديو، في الغالب. هذه فقط الأشياء التي أعرفها."

"واو." حاولت جاني جذب عقلها نحو ما تقوله هذه المرأة. "وجود مراهق، يجب أن يكون أمرًا صعبًا... أنا فقط أحاول النجاة خلال مرحلة ما قبل المدرسة في هذه المرحلة."

"تشارلي طفل جيد. لكنه يكره الدراسة. وهو يعاني من عسر القراءة فوق ذلك. لذا..." هزت رأسها بأسف.

"عسر القراءة... متى تعرفين إذا كانوا مصابين به؟" لم تكن قد فكرت في ذلك من قبل. شيء آخر للقلق بشأنه.

أعطتها دينيس منديلًا وراقبت جاني وهي تمسح أنفها.

"عادة في الصف الأول—عندما يبدأون في القراءة—هذا هو الوقت الذي تبدأ فيه صعوبات التعلم في الظهور."

"أوه. فهمت." حاولت تذكر ما إذا كان نوح يعاني من أي مشاكل في التعرف على الحروف. بدا جيدًا جدًا في ذلك. "هل كان تومي أيضًا—"

"فقط تشارلي." كان صوتها مفاجئًا.

تأملت جاني في الأمر للحظة. كان هناك رابط وراثي، أليس كذلك؟ ولكن هل يمكنك وراثة أشياء من عائلة تناسخك السابق؟ بدأ رأسها يدور مرة أخرى. أخذت نفسًا عميقًا. أين انتهى تومي وبدأ نوح؟ ما علاقة هنري ودينيس بالأمر؟ أرادت أن تسأل دينيس لكن لم تكن لديها الشجاعة. "أفترض أنه بحلول الوقت الذي يصبحون فيه مراهقين، تعرفينهم جيدًا من الداخل والخارج."

للمرة الأولى، رسمت دينيس ابتسامة. "أتمزحين؟ لا أعرف نصف ما في رأس تشارلي معظم الوقت. إنه فقط—اختفى عني." وخزت الكلمات الهواء. انغلق وجهها مرة أخرى. أرادت جاني ملء المساحة بينهما لكن لم تجد الشيء الصحيح لتقوله.

ألقت بنظراتها حول الغرفة. لم يكن هناك الكثير لرؤيته باستثناء الصور: صور مدرسية لتشارلي وتومي على الحائط (تعرفت على تلك من مقال الصحيفة)، وأخرى على الطاولة بجانب السرير. لقطة مؤطرة لطفل صغير يتعثر عبر الأرض نحو امرأة شابة جميلة بأقراط ذهبية وذراعين مفتوحتين.

"كان ذلك في اليوم الذي تعلم فيه تشارلي المشي،" قالت دينيس ببساطة. كانت تقف بجانبها تمامًا، تنظر من فوق كتفها. "انتقل من خطوة أو خطوتين إلى المشي عبر الغرفة بوضوح. يبدو وكأنه يمشي إليّ، لكنه كان يمشي حقًا إلى أخيه، خلفي مباشرة. كان يقدس ذلك الصبي."

نظرت جاني مرة أخرى إلى الصورة. لم تدرك أن المرأة في الصورة هي دينيس. التقطت الصورة المجاورة لها.

صورة لتومي يقفز من طوافة خشبية. كانت لقطة خاطفة، لكن الكاميرا التقطت الشمس وهي تتلألأ على الماء، والخشب الخام للطوافة. كان تومي ملتقطًا في منتصف الهواء، وساقاه متباعدتان؛ عرفت البهجة الخالصة على وجهه. كانت تعرف ذلك التعبير. لم تستطع صرف نظرها.

نظرت دينيس إلى الصورة. "كان ذلك بجانب منزل البحيرة. كنا نذهب إلى هناك كل صيف." كان صوتها مفعمًا بالحنين. "أحبَّ تومي ذلك المكان."

"أعرف"، قالت جاني. "تحدث نوح عن ذلك."

"هل فعل؟ حقًا؟"

"أخبر معلميه أنها كانت عطلته المفضلة"، قالت جاني. حامت الكلمات في عقلها لحظة، وانتظرت أن تتبعها الغيرة. لكنها لم تشعر بأي غيرة، وهي تنظر إلى تلك الصورة التي بدت وكأنها تحتوي على تقطير لفرح نوح. شعرت بشيء آخر يتدفق عبرها: الامتنان. لقد عاش حياة جيدة هنا، مع دينيس؛ للمرة الأولى، أدركت أنها لا تستطيع فصل ذلك عن الصبي المحب والمبتهج الذي ولد لها.

أخذت دينيس الصورة بلطف من يديها ووضعتها مرة أخرى على الطاولة بجانب السرير.

"كان يبكي ويبكي عندما كان علينا العودة للمنزل"، تأملت دينيس. "'متى سنعود إلى هناك يا ماما؟ متى سنعود؟' في السيارة طوال الطريق للعودة. جنّنا تمامًا."

"أتخيل ذلك"، قالت جاني. "إنه يتعلق بالأشياء كثيرًا. كان دائمًا هكذا."

لكن ماذا يعني *دائمًا*؟ متى بدأت *دائمًا*؟

"لم نذهب إلى هناك منذ سنوات." تغيمت عينا دينيس. "ربما..."

ترقرقت الفكرة هناك في الغرفة معهما، سراب لبحيرة مع صبي أشقر يقفز فيها. صرفت جاني نظراتها عن الطفل في الصورة؛ كان الأمر أكثر من أن يتم التأمل فيه. تلاشت الخيالات قبل أن يجرؤ أي منهما على تسميتها.

"تبدين هادئة جدًا بشأن كل هذه الأشياء." قالت جاني.

"هادئة." ضحكت دينيس. "حسنًا. نحن لا نعرف بعضنا البعض، أليس كذلك؟"

"لا. لا نعرف."

كان هناك انفجار ضحك في غرفة المعيشة.

"أظن أنه يجب علي العودة إلى هناك"، قالت دينيس. "هناك الكثير من الناس في منزلي. وهم يستمتعون كثيرًا. إنها جنازة، بعد كل شيء." بدت الابتسامة التي تحمل حواف شفتيها ثابتة هناك بقوة الإرادة المحضة. سوت شعرها للخلف نحو كعكتها، رغم أن شيئًا لم يفسد.

"حسنًا. لكن—فقط شيء آخر..."

وقفت المرأة هناك، تنتظر. شعرت جاني بكل أسئلتها تفور بداخلها؛ لم تستطع كبحها أكثر من ذلك. "ماذا لو لم يتجاوز نوح هذا؟ ماذا لو أراد أن يكون هنا طوال الوقت، تمامًا كما أراد أن يكون في البحيرة؟"

ضمت دينيس شفتيها. "سيكون ابنكِ بخير. أمه تحبه بجنون."

"أمي-ماما" قالت.

"ماذا؟"

"أنا أمي-ماما. أنتِ كنتِ 'ماما'. هذا ما كان يناديكِ به."

عبست دينيس في وجهها بحذر. *ما كان يجب أن أقول ذلك*، فكرت جاني. لكن الأوان كان قد فات. "وماذا عن ابنكِ؟" قالت.

"سيكون تشارلي بخير أيضًا،" قالت دينيس، لكنها لم تبدُ واثقة. بدت وكأنها تريد الخروج من هناك.

"عنيت ابنك الآخر." لم تكن الطريقة الصحيحة لقولها؛ لم تكن تعرف إن كانت هناك طريقة صحيحة. *ما رأيك في كل هذا؟* هو ما أرادت قوله. *ماذا يعني ذلك؟*

كان الأمر كما لو أن جاني داست على إصبع قدم مكسور. اشتعلت عينا دينيس.

"تومي ذهب."

"أعرف. أعرف. ولكن—"

"لا."

"لكن، نوح—"

"هو شخص آخر"، قالت بشراسة. لمعت عيناها. "ابنكِ."

"نعم. نعم هو كذلك، ولكن... ولكنكِ بنفسكِ رأيتِ، ألم تري، قلتِ إنكِ فعلتِ، أن ذكرياته—بدت حقيقية. كانت حقيقية. ألم تكن كذلك؟ وكانت العظام—" لم تكن هناك طريقة للتعبير عما أرادت قوله. هزت رأسها.

وقفت دينيس تتألم في ضوء الشمس الذي كان يقطع وجهها.

"لذا—" تابعت جاني بؤس—لم تستطع التوقف الآن. "هل هو بعض العزاء؟ هل يساعد؟"

لم تقل دينيس شيئًا. كانت تقف في شعاع من ضوء الشمس مليء بالغبار الدائر. بدت مصدومة وضائعة تمامًا، وخجلت جاني فجأة من نفسها لأنها سألت.

"لا أعرف." قالت دينيس ببطء.

"فقط... تبدين وكأنكِ تعرفين شيئًا."

"حقًا؟" بدأت دينيس تضحك. "لأنني كنت آمل نوعًا ما أنكِ تعرفين."

بعد ذلك كانتا تضحكان—ذلك النوع من الضحك القاسي والعاجز الذي جعل معدة جاني تؤلمها، تنفجران ضحكًا على هذه النكتة التي لعبها الكون على كلتيهما. استمرت اللحظة أطول مما ظنت جاني أنه ممكن، حتى تراجعتا أخيرًا، تلهثان. كانت الدموع تسيل على زوايا عيني دينيس ومررت أصابعها على خديها.

"أوه، يا إلهي. سيظنون أنني كنت أجهش بالبكاء في هنا." قالت. سقطت الكلمات مثل الظل عبر الغرفة.

"لن أخبرهم."

"من الأفضل ألا تفعلي."

تبادلتا النظرات. كانتا مرتبطتين ومع ذلك كانت كل واحدة منهما بمفردها مع هذا.

"أظن أنه من الأفضل أن أذهب"، قالت جاني على مضض. "قبل أن يأكل نوح كل كعك البراونيز."

مسحت دينيس عينيها بمنديل. "آه، دعيه يستمتع بنفسه."

"لقد نسيتِ كيف يبدو طفل في الرابعة من عمره بزيادة في السكر. يتحولون إلى مهووسين صغار."

"لا، لم أنسَ." كان وجهها باردًا وجافًا. كان من الصعب تخيل أنها كانت تبكي من الضحك قبل لحظة. فتحت جاني الباب وسمحت للصوت البشري بغمرهما.

"هذا جيد." قالت جاني. كان شيئًا لتقوله. بقيت جاني عند الباب المفتوح واستمعت إلى الغرفة الصاخبة حيث كان نوح يجلس. لسبب ما شعرت بالتوتر بشأن العودة إليه. "لا أعرف من هو بعد الآن"، قالت. "أو ربما أنا من لا أعرف." فكرت ربما لم يكن من الصواب قول هذه الأشياء، خاصة لدينيس، لكنها لم تكن تعرف لمن غيرها تستطيع قولها، أو ما هو الصواب بعد الآن.

مسحت دينيس وجهها الجاف بمنديل جديد، وألقته في سلة المهملات، ونظرت للأعلى. "أنتِ هنا"، قالت بهدوء. "ونوح في غرفة معيشتي، ينتظركِ. أليس هذا كافيًا؟"

أومأت جاني برأسها، مخترقة بحقيقة ذلك. بالطبع كان كافيًا. خطت نحو الغرفة حيث كان ابنها.

"إنه يساعد،" قالت دينيس فجأة. التفتت جاني؛ كانت عينا دينيس ممتلئتين بالعاطفة. "إنه يساعد. ليس في فقدانه، ليس في ذلك الجزء، ولكن..." تلاشى صوتها.

وقفتا معًا في صمت، الهواء بينهما حي بروعة كل شيء لا تعرفانه.

⸙ ⸙ ⸙

نظر نوح للأعلى عندما عادت جاني إلى الغرفة. كان يجلس على الأريكة. دائمًا كانت تلك العيون الزرقاء تخترقها تمامًا، تلمس جزءًا منها لا يقترب منه شيء آخر. استقرت بجانبه.

كانا يشاهدان المراهقين يقفون حول طاولة غرفة الطعام يختارون سلطة البطاطس ويهمهمون لبعضهم البعض، أجسادهم تتحرك بشكل متشنج في بدلات غير مناسبة.

"هل يمكننا الذهاب الآن، أمي-ماما؟" قال نوح.

"ألا تريد قضاء بعض الوقت مع أصدقاء تومي؟"

هز رأسه. "إنهم جميعًا... عجائز."

"أوه."

"هذا مقرف." قال أحد المراهقين، وانفجروا في ضحك توقف فجأة، كما لو كانوا يتذكرون أين هم.

تمنت لو كان بإمكانها فعل شيء لتخفيف التوتر والحزن على وجه نوح، لكن ماذا تستطيع أن تفعل؟ ظنت أنها تستطيع إصلاحه، لكن ذلك كان دائمًا خارج قوتها.

"كل شيء مختلف." قال.

"نعم، أظن أنه كذلك."

التوى فمه.

"أوه، يا عزيزي. أنا آسفة. هل ظننت أنه سيكون هو نفسه؟"

أومأ نوح. "هل سنذهب للمنزل قريبًا؟"

"تقصد، إلى بروكلين؟ نعم."

"أوه."

رمش بضع مرات، ينظر حول الغرفة. تابعت نظراته.

لم تكن قد استوعبت الغرفة بالكامل من قبل؛ كانت مصدومة جدًا لرؤيتها بشكل صحيح. كانت لطيفة بما يكفي، هذا الجزء الداخلي من منزل صغير في الضواحي. شخص ما كان قد ملأها بأثاث بني مريح،

مكدس بوسائد بلون أزرق متناسق. بيانو عمودي وقف تحت الدرج؛ كان مهشمًا قليلًا عند الحواف، لكن الخشب كان يتوهج. النافذة المستطيلة المطلة كانت تطل على شارع مورق. رف المدفأة المبني من الطوب كان مأهولًا بذكريات وتماثيل: قطة حجرية ملفوفة، بعض الشموع، ملاك خشبي صغير يحمل فراشة سلكية، كأس بيسبول. لم يكن شيئًا غير عادي، هذا المنزل من أحلام نوح وكوابيسها. كان مجرد منزل. كان قد شعر بالحب هنا.

"لا يمكننا البقاء هنا، يا نوح."

"أريد الذهاب للمنزل، لكنني أريد البقاء هنا أيضًا."

تخيلت شقتهم الخاصة، غرفته المريحة، النمور على الخزانة، النجوم. "أعرف."

"لماذا لا يمكنني الحصول على كليهما؟"

"لا أعرف. علينا فقط القيام بأفضل ما يمكننا بما لدينا. نحن في هذه الحياة الآن. معًا."

أومأ مرة أخرى، كما لو كان يعرف ذلك بالفعل، وزحف إلى حجرها. أمال رأسه للخلف على ذقنها.

"أنا سعيدٌ جدًا لأنني جئتُ إليكِ."

أدارته لكي تستطيع رؤية وجهه. ظنت أنها عرفت كل مراحل نوح المختلفة—نوح المزاجي والمفجوع، نوح المذعور، الطفل الصاخب والمحب الذي تعرفه أكثر—لكن هذا كان شيئًا جديدًا. حافظت على نبرة صوتها مستقرة. "ماذا تعني؟"

"بعد أن تركت المكان الآخر."

"أي مكان؟"

"المكان الذي ذهبت إليه بعد أن متُّ." قالها ببساطة. كانت عيناه متأملتين ومشرقتين بشكل غير عادي، كما لو كان قد اصطاد سمكة بشكل غير متوقع وكان يعجب ببريق الحراشف الفضية في الشمس.

"وكيف كان ذلك المكان؟"

سؤال بسيط؛ ومع ذلك احتوت الإجابة عوالم بداخلها. حبست أنفاسها، تنتظر إجابته.

هز رأسه. "ماما، لا يمكنك وصف ذلك المكان."

"كنت هناك لبعض الوقت؟"

فكر في الأمر. "لا أعرف كم من الوقت. ثم رأيتكِ وجئت إلى هنا."

"رأيتني. أين رأيتني؟"

"على الشاطئ."

"رأيتني على الشاطئ؟"

"نعم. كنتِ تقفين هناك. رأيتكِ ثم جئت إليكِ."

حتى عندما ظنت أن حدود عقلها قد دُفعت لأقصى ما يمكنها الوصول إليه، كان هناك دائمًا مستوى آخر للاتساع.

ضغط جبينه ضد جبينها. "أنا سعيد جدًا لأنكِ أمي هذه المرة." قال نوح.

"أنا أيضًا." قالت جاني. كان ذلك كل ما تحتاجه.

"مهلًا، أمي-ماما." همس. "احزري ما هو الوقت؟"

"لا أعرف، يا حشرتي. ما هو الوقت؟"

"حان الوقت لقطعة براونيز أخرى!" سحب رأسه للخلف، عيناه تفيضان ببهجته المعتادة والمشاكسة، وعرفت أن الطفل الآخر قد ذهب الآن؛ لقد ألقى بالسمكة عائدة إلى المحيط.

40

بعد أن رحل الضيوف، وساعدت جاني وأندرسون دينيس وتشارلي في وضع الطعام المتبقي، ومسحت جاني الطاولة بينما كانت دينيس تكنس فتات البراونيز؛ عندما أصبح المكان أخيرًا مرتبًا مرة أخرى، وُضعت قضية أندرسون الأخيرة على الأريكة، جنبًا إلى جنب، تشارلي ودينيس ونوح وجاني.

استقر أندرسون في الكرسي بذراعين قبالتهم. شعر بالكرسي يحتضن جسده. سمح لنفسه بالانغماس فيه.

كان الغسق. الخمسة منهم كانوا صامتين، غرباء مقيدون بالغرابة.

"إذن أنتم مغادرون غدًا؟" قالت دينيس أخيرًا.

"سنفعل." كانت هناك نبرة اعتذار في صوت جاني. "رحلتنا في فترة بعد الظهر."

لقد قاموا بزيارتهم؛ تمت مقابلتهم من قبل الشرطة؛ وحضروا الجنازة. الآن كانت هناك حياة يجب استئنافها، وظائف، مسؤوليات. *للجميع باستثناءه*، فكر أندرسون. بشكل غريب، لم تزعجه الفكرة. تساءل لماذا.

"ماذا نفعل الآن؟" سألت جاني أندرسون.

نظر الجميع إليه.

كان هناك المزيد من الأوراق التي يجب القيام بها. كانت الأوراق تهمه كثيرًا في الماضي لكن لم تعد كذلك.

هز أندرسون كتفيه.

"نغادر من هنا، إذًا؟ هذا كل شيء؟ لا"—نظرت إلى دينيس—"نحافظ على التواصل؟"

"يمكن أن تكون هناك زيارات. إذا أردتم." ابتسم. "الأمر يعود إليكم."

"أوه." نظرت جاني حول غرفة المعيشة. "هل تظن أنها فكرة جيدة؟"

"الأمر يعود إليكم." قال أندرسون مرة أخرى. بدا الأمر مستهترًا، حتى لأذنيه. كان يختبر عاطفة غير معتادة بالنسبة له. هل كان هذا هو ما يشعر به الاسترخاء؟

"يمكنني زيارتكِ." قالت دينيس فجأة لجاني. "يمكنني المجيء إلى بروكلين."

بدت جاني مرتاحة. "أوه. سيكون ذلك لطيفًا. أليس كذلك يا نوح؟"

"ليس على الفور، بالطبع." أضافت دينيس بسرعة. "أعني، أظن أننا جميعًا بحاجة إلى القليل من الوقت... لكنني أود المجيء ورؤية أين تعيشين يومًا ما،" قالت لنوح. "رؤية غرفتكِ. هل يمكنني فعل ذلك؟"

أومأ بخجل.

"تم الأمر إذًا." قالت جاني.

راقبهم أندرسون. كان كل شيء مستقرًا، ولم يكن كذلك، كان يعرف ذلك. الأشياء ستتغير. نوح سيتغير. أندرسون سيحتاج للمتابعة، بالطبع. مع ذلك لم يكن لديه جوع لذلك. ربما ستستمر الروابط وربما لا، أو أنها ستتحول إلى طرق أخرى للوجود. لم يدرك مقدار اشتياقه للصمت. جلسوا لفترة طويلة بهذه الطريقة، ضوء الشمس يتحول إلى ضوء أعمق وأثقل، نوح هادئ بين دينيس وجاني. رفع أندرسون وجهه ليتشرب آخر أشعة الشمس مثل حيوان ناعس.

"أظن أننا بحاجة للعودة إلى الفندق الآن، يا عزيزي." قالت جاني لنوح أخيرًا، محركة إياهم جميعًا. "بدأ الوقت يتأخر."

تثاءب نوح. "أريد الاستحمام هنا." قال بنعاس.

تحركت جاني في مقعدها. "تريد *الاستحمام*؟"

دفع شفته السفلى للخارج. "أريد حمامًا هنا. في حوض الاستحمام الوردي. معها."

أشار إلى دينيس، التي هزت كتفيها قليلًا ونظرت إلى جاني للتوجيه.

"أوه."

راقب أندرسون المقاومة تتصاعد في جاني، ثم شعر بها تتخلى عنها.

"حسنًا." قالت جاني.

"ويمكنكِ تحميمي في المرة القادمة، حسنًا يا أمي-ماما؟"

ترددت فقط للحظة ثم ابتسمت مباشرة له. "بالتأكيد، يا نوي. أي شيء تريده."

41

أراد نوح الاستحمام، فذهبت دينيس لتحميمه.
كانت تلك هي المهمة الأخيرة في هذا اليوم الطويل، وبعدها يمكنها الراحة. لقد دفنت طفلًا اليوم، أو ما تبقى من جسده، والآن كانت ستغسل طفلًا آخر.
طفل آخر. هكذا فكرت في الأمر مع نفسها في تلك اللحظة، وهكذا بدا لها الأمر بينما كانت تبتسم للصبي وتضعه على غطاء المرحاض مع واحدة من مجلات غارفيلد الهزلية القديمة الخاصة بتشارلي، بينما كانت تنقب في خزانة الحمام عن رغوة الاستحمام.
كانت هناك زجاجة مستر بابل في الخلف؛ كانت تستخدمها عندما كان ولداها صغيرين، وكان قد بقي فيها القليل، لذا احتفظت بها لسنوات طوال بعد انتهاء وقت استحمام أطفالها، بالطريقة التي يحتفظ بها الناس بمثل هذه الأشياء؛ لأن جزءًا منها اعتقد أنها ربما تستطيع الاحتفاظ بقطعة من طفولة تومي سليمة، كما لو كانت هي الأخرى محبوسة في تلك الزجاجة الوردية الزاهية.
بينما في الحقيقة، كان الأمر قد تلاشى بالفعل. تلاشى إلى أين؟
ابتسم لها مستر بابل ابتسامة جنونية.
فتحت الماء. دوى صوته في أذنيها. ومض عقلها بتذكر تومي، وهو يلهث طلبًا للهواء، ويناديها في ذلك الظلام المائي. "ماما!"
ركزي على الماء. ستكونين بخير.

وضعت يدها تحت تدفق الماء لتثبت نفسها، وسكبت بقايا مستر بابل في الماء، فتكاثرت الفقاعات في حوض الاستحمام وانفجرت نابضة بالحياة.

"هل هذه... فقاعات؟" قفز نوح عن المرحاض وانحنى فوق حافة حوض الاستحمام.

"أجل."

"أوه. هل يمكنني الدخول؟"

"بالتأكيد."

خلع بقية ملابسه ثم بدا مترددًا. وقف على حافة الحوض. "إنه ليس باردًا جدًا، أليس كذلك؟"

"لا يا عزيزي، إنه لطيف ودافئ."

"أوه. حسنًا." أومأ لنفسه، كما لو كان يتخذ قرارًا، ثم نزل إلى الحوض وبدأ يضرب الفقاعات بيديه. "عندما كنت تومي، كنا نفعل الفقاعات دائمًا."

لم يتوقف شعورها بالدهشة أبدًا عندما يقول أشياء كهذه.

"نعم. كلاكما كنتما تصنعان فوضى عارمة."

ضحك. "كنا نفعل."

ركزي على الحب. ستكونين بخير.

أغمضت عينيها للحظة وتذكرت تشارلي وتومي وهما يتصارعان في حوض الاستحمام بالفقاعات، والماء الصابوني ينسكب على الأرض. تمسكت بذلك الشعور حتى بدت الغرفة بأكملها تهتز بقوة حبها لهما. كم كان الحب كثيرًا.

كان الماء لا يزال يتدفق فوق أصابعها وخلالها، يتغير لحظة تلو الأخرى. كطفلة، شاهدت فيلمًا عن هيلين كيلر، كيف شعرت بالماء يتدفق من مضخة وربطت أخيرًا بين الاسم ومصدره؛ لكنها الآن كانت تسير في الاتجاه المعاكس، والأسماء كانت تفقد معناها. من كان نوح أو تومي، ومن كانت هي؟ كان رأسها يهدر بارتباك مشرق. "مهلًا، انظري!" كان يناديها. أيًا كانت هي بالنسبة له، فهي ليست غريبة. لم يكن هناك غرباء.

"انظري،" قال نوح. "انظري إلى هذه الفقاعة!"

اخترق بريق الصنبور عينيها. نظرت دينيس، بعد فوات الأوان قليلًا.

"أوه! انفجرت. آسف،" قال نوح.

"حسنًا."

"انظري! فقاعة!" هذه المرة نظرت بسرعة.

"أراها،" قالت دينيس. "إنها فقاعة كبيرة."

كانت كبيرة حقًا. امتدت المسافة بين ركبتيه، تكبر وتكبر بينما كان يباعد بين ساقيه، وتلمع بجنون في أجزاء من الثانية التي عاشتها.

"انظري!"

كبرت الفقاعة أكثر. في خريطتها المتغيرة باستمرار من الألوان، كان أحدهم يغرق وآخر يولد.

"أوه! انفجرت."

"نعم."

لم يعد هناك شيء للتمسك به. فقط كل شيء.

نظر نوح للأسفل، ثم وضع وجهه بالكامل في الماء. رفع رأسه. كان لديه لحية من الفقاعات وشارب من الفقاعات، وكان يبتسم كبابا نويل رضيع شيطاني. "احزري من أنا؟" قال.

ابتسمت دينيس. "لا أعرف،" قالت. "من؟"

"أنا!"

42

كان الوقت متأخرًا عندما وصلوا إلى المنزل من المطار. جلس تشارلي بجانب أمه بينما كانا يدخلان إلى الممر. ليلة أخرى في طريق أشفيو. نفس أصوات صراصير الليل المعتادة وتلفاز عائلة جونسون الذي يبث مباراة بيسبول. كان من الجنون أن يبدو الأمر كما هو بينما تغير كل ما في رأسه كثيرًا. خمن أن هذه هي الحياة. من يدري ما الذي يدور في ذهن أي شخص؟ وفي الوقت نفسه، يموت الناس ويعيشون حيوات جديدة تمامًا، مثل اليراعات التي تصل في يونيو، تومض هنا، ثم تختفي، ثم تعود هنا مجددًا. كان الأمر أشبه بنوع من خدع السحر المجنونة.

قضى تشارلي ساعات في اصطياد اليراعات مع أخيه عندما كانا صغيرين. كان تومي يركض في الفناء ببرطمان، وتشارلي يلاحقه خلفه مباشرة. بمجرد أن يصطادوا القليل، يضعون البرطمان على الدرجات ويجلسون، يراقبونها وهي تومض. كانا يغضبان دائمًا عندما يحين وقت إطلاق سراحها. أرادا الاحتفاظ بها كحيوانات أليفة، على الرغم من أن أمهما أوضحت أنها ستموت بهذه الطريقة، وأنها تنتمي للبرية. في إحدى الليالي لم يعد تومي وتشارلي يحتملان الأمر؛ كذبا وأخفيا البرطمان تحت سرير تومي، وفي صباح اليوم التالي استيقظا ليجدا نفسيهما مالكين لثلاث حشرات ميتة في برطمان: أشياء جافة، قبيحة، ذات أجنحة سوداء تشبه الخنافس العادية، كما لو أن شخصًا ما دخل في الليل واستنزف الغموض منها. الآن يتساءل تشارلي عما إذا كان هذا الطفل، نوح، يرى اليراعات في المدينة. أو إذا كان يتذكرها. على الرغم من أنه لم يكن تومي. ليس حقًا.

نظر جانبًا إلى أمه. بماذا كانت تفكر؟ عرف أن الأمر يتعلق على الأرجح بأخيه، لكن أحيانًا، في الآونة الأخيرة، كانت تفاجئه. كانت تطلب رأيه في أمور، مثل نوع الطعام الذي يجب تقديمه في حفل الاستقبال أو ما إذا كان ينبغي عليهما دعوة والده للعشاء. لماذا كانت فضولية جدًا بشأن ما أعتقده فجأة، عندما لم تبالي بأي شيء طوال السنوات السبع الماضية؟ وكانت هذه مشكلة أيضًا، لأنها تعني أنه لا يستطيع تعاطي المخدرات بقدر ما يريد. كان قد دخن شيئًا ما في المرآب في اليوم السابق للجنازة ولاحظت ذلك في نصف ثانية. لم يستغرق الأمر أكثر من ذلك. نظرت مباشرة في عينيه وحُرم من الخروج قبل أن يعرف حتى ما حدث.

⸙⸙⸙

حدقت دينيس عبر نافذة السيارة إلى الظلام، متأملة في درجات الفقدان.

ستفتقد تومي دائمًا؛ لم يكن هناك جزء منها لا يفتقده دائمًا. لكن هذا الطفل الآخر، الطفل الذي لم يكن تومي، جلب مذاقًا حلوًا لفم كان مليئًا بالمرارة. لقد مرّا بالأمر، كلاهما، وكان هناك ذلك الرابط الذي عرفت أنه سيكون دائمًا بينهما.

عندما ودّعوا بعضهم في المطار، تمسك بها لفترة طويلة، وفوجئت عندما أدركت أنها لم تستطع الكلام لدقيقة. في النهاية قالت. "سأراك في بروكلين."

"حسنًا."

"هل سترييني غرفتك؟"

أومأ. "لدي نجوم في غرفتي."

"نجوم؟ حقًا؟"

"إنها ملصقات تضيء في الظلام. على السقف. كل الأبراج. وضعتها أمي هناك."

"حسنًا، لا أستطيع الانتظار لرؤيتها."

أجبرت نفسها على الابتسام. كانت لا تزال تمسك نوح من كتفيه وكان هو يضع يديه على خصرها، كما لو كانا يرقصان. لم ترد تركه. لم تكن متأكدة أنها تستطيع ذلك. من حولها كانت الشخصيات الأخرى غير جوهرية، ضبابية: رأت جاني تنظر إلى ساعتها والدكتور أندرسون يتحدث بهدوء مع تشارلي. ثم وضع تشارلي يده الثقيلة على ظهرها وقال: "هيا يا ماما، يجب أن يلحقوا ببوابتهم،" وعرفت أنها يجب أن تفعل ذلك دعي *الأمر يرحل* وتركته يرحل.

مشى الثلاثة مبتعدين عنها ووقفوا في نهاية طابور التفتيش: الدكتور أندرسون، رجل متصلب مثلما كان والدها، من نفس النوع؛ مزارعون وأطباء يأخذون عملهم على محمل الجد، لديهم طيبة بداخلهم تحت كل ذلك الوقار؛ وجاني، أم أخرى كانت تبذل قصارى جهدها في الوظيفة التي كُلفت بها؛ وذلك الصبي الصغير ذو الشعر الأصفر الذي كان لديها بعض الحب في قلبها تجاهه، لا فائدة من إنكار ذلك.

دعي *الأمر يرحل*.

بحق السماء يا دينيس. لقد تماسكت بينما كانت رياح الجحيم تنفث شرارات نارية في فمها، وبالتأكيد يمكنها التماسك الآن. أجبرت نفسها على المراقبة بينما انضموا إلى طابور الأشخاص الذين يحملون كل ما سُمح لهم بإحضاره في طريقهم من هذا المكان إلى التالي. بجانبها وقف تشارلي طويل القامة كرجل وكانت ممتنة ليده التي تدعمها.

الآن نظرت إليه في السيارة. كان ينظر من النافذة، غارقًا في أفكاره—بماذا كان يفكر ذلك الصبي؟ كان عليها أن تكتشف. كان عليها أن تسأله. كان يقرع إيقاعًا بأصابعه على زجاج النافذة.

ربما كان يفكر في هنري. طوال هذه السنوات كان هو الذي يصر على أن عليها مواجهة الأمر، وأن تومي ميت ولن يعود أبدًا، ومع ذلك فإن اكتشاف عظام تومي قد حطمه تمامًا. لم يؤمن أبدًا بعقوبة الإعدام، واعتقد أنها تطبق بشكل غير عادل ومنحاز عرقيًا، لكنه الآن يشعر بالمرارة لأن الادعاء لا يتحدث عنها لقاتل تومي، الذي كان صغيرًا جدًا في ذلك الوقت. استهلكه الموت. مع ذلك، ربما ستتصل به وتطلب منه المجيء لتناول العشاء. وإذا قال لا، فستستمر في المحاولة، ويومًا ما قد يفعل ذلك.

ما قالته لهنري عند القبر كان صحيحًا: هي تفتقد تومي في كل ثانية من كل يوم. تفتقده ومع ذلك تشعر بوجوده في نفس الوقت، ليس في الطفل الآخر بل في كل مكان، ولم تستطع التمسك به أو فهمه، تمامًا كما لم تستطع التمسك بتومي، وأكثر مما تستطيع فهمه لماذا فتحت قلبها بهذه السرعة لنوح أو لماذا كان حبها لهنري ألمًا لم تستطع التخلص منه.

"هل أنتِ بخير يا ماما؟"

كان يراقبها. كان يراقبها دائمًا، تشارلي خاصتها. استدارت لتواجهه.

"أنا بخير يا عزيزي. حقًا أنا كذلك. أحتاج فقط لدقيقة أخرى."

"حسنًا."

أطفأت المحرك وجلسا في الممر في الظلام.

43

فقط الوداع هو ما تبقى ليتجاوزه، فكر أندرسون، بينما كان يمر في حشد البشر المزدحم الذين ينتظرون أحباءهم في منطقة استلام الأمتعة. من حولهم كانت العائلات تمد أعناقها بحماس، أو تندفع نحو أقاربها بالصراخ والعناق وحفنات من البالونات. كان الآباء يرفعون بناتهم عاليًا بين أذرعهم.

اعتاد الناس على لم شملهم عند البوابات، لكن ذلك كان عصرًا مختلفًا. الآن يطالب الناس ببعضهم البعض وبأمتعتهم في هذا المكان القاتم والواسع، منادين *هذا لي*. هذا لي، الحقيبة الزرقاء. أنت لي. فتاة شابة جميلة بملابس جينز زرقاء كانت تبحث في الحشد؛ تقدمت امرأة أكبر سنًا وأثقل وزنًا وأحاطتها بذراعيها.

فقط الوداع ليتجاوزه—ثم—

"هل كل شيء جاهز؟" وضعت جاني يدها على كتفه. أصبحا يعرفان بعضهما بشكل أفضل الآن، وحققا ذلك القرب، سواء أحب ذلك أم لا. كانت قلقة عليه. نظر بعيدًا.

"سيارتي في موقف السيارات." أشار بذقنه. "هل تريدين توصيلة؟"

"سنأخذ سيارة أجرة فقط،" قالت، فأومأ، وكان عقله يضج بالارتياح. لن يضطر للكلام بعد ذلك، ليس بعد الدقائق القليلة القادمة. في عقله كان بالفعل على الطريق في سيارته، يتحرك خلال الليل الهادئ. أضافت. "إنه الطريق الخطأ بالنسبة لك. أو، إذا أردت، الوقت متأخر جدًا للقيادة، يمكنك قضاء الليلة معنا حتى الصباح. لدينا أريكة قابلة للطي—"

"سأكون بخير." تجنب عينيها. كان هناك الكثير من الدفء هناك. لم يردها أن تهتم لأمره. كان قد رحل بالفعل.

جثا بجانب نوح. "سأقول وداعًا الآن، يا صديقي."

"أنا لا أحبّ الوداع." قال نوح.

"وأنا أيضًا،" قال أندرسون. "لكن أحيانًا يكون... جيدًا." كان يقصد كلمة أخرى، لكن لا يهم.

"سنراه مرة أخرى قريبًا، أليس كذلك يا صغيري؟" قالت جاني، محاولة أن تبدو مطمئنة. "أليس كذلك يا جيري؟"

"من الممكن."

"ممكن؟" كان صوت جاني أعلى من المعتاد. أبقى تركيزه على نوح. بدا نوح وكأنه يدير هذا الانفصال بشكل أفضل من أمه. ربما اعتاد على ذلك بحلول الآن. "تقصد، من المحتمل، أليس كذلك؟"

لا، يا جاني، فكر. هذه المرة قلت الكلمة التي قصدتها.

"أعتقد أنك ستكون مشغولًا جدًا بالاستمتاع لدرجة أنك ستنساني تمامًا." قال لنوح.

"لا، لن أنسى. هل ستنساني؟" بدا الصبي قلقًا.

وضع يده على رأس نوح. كان شعره ناعمًا تحت أصابعه. "لن أفعل. لكن لا بأس بالنسيان، أحيانًا." قال بلطف.

استوعب الصبي ذلك. "هل سأنسى تومي أيضًا؟"

"هل تريد ذلك؟"

فكر نوح. "بعض الأشياء أريد نسيانها. وبعضها لا." كان صوته الصغير الواضح بالكاد مسموعًا بين الناس الذين يتجولون حولهم. "هل يمكنني اختيار ما أتذكره؟"

سيفتقد هذا الطفل.

"يمكننا المحاولة،" قال أندرسون. "لكن لا يمكننا نسيان الآن يا نوح. اللحظة التي نحن فيها. الحياة التي نعيشها. هذا أكثر أهمية. لا يمكننا نسيان ذلك."

ضحك نوح بعدم تصديق. "كيف يمكنك نسيان ذلك؟"

"لا أعرف."

كان أندرسون لا يزال جاثيًا، وكان ذلك يؤلم ركبتيه. وضع الصبي جبينه على جبينه وبدا وكأنه ينظر في داخله مباشرة. كان تفوح منه رائحة المصاصة التي أعطته إياها مضيفة الطيران على متن الطائرة. "أنت لا تعرف الكثير."

"هذا صحيح." نظر إلى نوح. كانت القضية شبه مكتملة. لم يتبق سوى شيء واحد. كم هو رائع أنه لم يسأل عن ذلك من قبل.

"هل يمكنك فعل شيء من أجلي؟ أعلم أنه غريب، لكن هل يمكنني رؤية—صدرك وظهرك؟ فقط لثانية؟ هل تمانع؟ هل هذا جيد؟" استدار الآن إلى جاني، التي كانت تستمع لمحادثتهما. أومأت. وقف، وسحب نوح بعيدًا عن الناس، خلف جهاز دوار معطل، بعيدًا عن الأنظار.

كان شخص بالغ سيسأل لماذا، لكن نوح رفع قميصه ببساطة. أدار أندرسون الطفل بعناية، ناظرًا إلى صدره وظهره الشاحبين. وحمتان، مرئيتان بوضوح: دائرة مستديرة باهتة على الظهر، مائلة للحمرة قليلًا، ونجمة ممزقة من الجلد البارز في الأمام. مسار رصاصة، مكتوب بوضوح على اللحم.

في لحظة أخرى، كان سيلتقط صورة له، لكنه الآن ترك القميص يسقط ببساطة. كان الدليل موجودًا.

كانت عائلة كبيرة عند الجهاز التالي تعد الأمتعة. كان صبيان بقمصان كرة القدم يركضان بمرح حول الجهاز. بعد أن انتهى وداعه، ركض نوح وانضم إليهما في لعبة عفوية في المطار.

"يمكنك استخدامه،" قالت جاني بصوت منخفض.

كان هناك يقين في صوتها لم يلاحظه من قبل؛ لقد رأت العلامات على جلد ابنها. "لكتابك. يمكنك الكتابة عن نوح. يمكنك استخدام اسمه الأول."

"هل يمكنني؟" كان سؤالًا لنفسه.

"أنا آسفة لأنني شككت فيك من قبل. لديك إذن مني،" قالت رسميًا. "لاستخدام قصته بأي طريقة تحبها."

أمال رأسه شاكرًا. ربما كان لا يزال هناك ما يكفي من النشاط فيه لإنهاء هذا الفصل، إذا فعل ذلك بسرعة. كان يدين بذلك للرجل الذي كان عليه. الرجل الذي أصبح عليه الآن، ومع ذلك... من كان ذلك؟

"هل تعتقد أن نوح—يتحسن؟" سألت جاني بتردد. الثقة في عينيها وهي تنظر إليه لمسته وأفزعته في آن واحد.

"هل تعتقدين أنتِ ذلك؟"

فكرت في الأمر. "ربما. أعتقد ذلك."

كان نوح وأولاد كرة القدم ينحنون من الضحك.

"لماذا قرر تومي العودة إلى الولايات المتحدة، هل تعتقد؟" قالت، وعيناها على ابنها. "لماذا لم يولد من جديد في الصين أو الهند أو إنجلترا؟ قلت ذات مرة إن الناس غالبًا ما يولدون من جديد في نفس المنطقة. ولكن لماذا؟" كانت تفكر في الأمر بجدية، وشعر بنوع من

الحيرة، كما لو أن كل الأسئلة التي طنطنت حوله طوال حياته قد وجدت مجالًا جديدًا تمامًا لتنتشر فيه.
"يبدو أن هناك علاقة ارتباط." تحدث ببطء، مختارًا كل كلمة بعناية. "يتحدث بعض الأطفال عن قضاء وقت في المناطق التي ماتوا فيها، مختارين والديهم من الأشخاص الذين يمرون بهم. البعض الآخر يولدون في عائلاتهم نفسها، كأحفادهم أو أبناء إخوتهم. لقد تكهنا بأن ذلك قد يكون بسبب... الحب." كانت هناك كلمة أخرى أرادها، أكثر علمية، لكنها كانت بعيدة المنال.
"ربما تحب الشخصيات بلدانها، بالطريقة التي تحب بها عائلاتها." هز كتفيه. "كيف يهاجر الوعي ليس سؤالًا كنت قادرًا على الإجابة عليه. لقد علقت في إثبات وجوده." حرك قدميه بضيق. "اسمعي،" قال. "لقد كان—"
"لكنني لست متأكدة مما يجب فعله الآن." لمست كمه، وأفزعته لفتتها. "كيف أعود وأربي نوح الآن؟"
"تعتمدين على ذكائك و..." مرة أخرى، هربت الكلمة منه. "...مشاعرك. مشاعرك جيدة." كان قد تضاءل الآن، إما إلى تفاهات أو حقائق بسيطة. في كلتا الحالتين، كان عليهما أن يفعلا ذلك. "يجب أن نقول وداعًا الآن،" همس.
"ستحتاج لمتابعة حالة نوح، أليس كذلك؟ أليس كذلك؟"
لا أعرف، فكر، لكنه قال، "بالتأكيد."
"لذا يمكنني مراسلتك أحيانًا؟ إذا كان لدي المزيد من الأسئلة؟"
أومأ، بصعوبة.

"حسنًا." تطلعا لبعضهما البعض، عاجزين عن كيفية الفراق. بدا العناق خارج نطاق السؤال، لكن المصافحة بدت رسمية للغاية. في النهاية مدت يدها إليه بشكل محرج، وأمسكها لفترة وجيزة في يده الكبيرة ثم اندفع وقبلها. كانت البشرة ناعمة تحت شفتيه. كانت قبلة أب في حفل زفاف، يطلق سراح ابنته من رعايته. شعر بوخزة من فقدان غامض، سواء لرفقتها أو للجنس اللطيف، الذي أصبح بعيدًا جدًا خلفه الآن.

"كوني بخير،" قال، مطلقًا يدها. أخذ حقيبته الممزقة وتوجه نحو الأبواب إلى الليل الدافئ.

كان حُرًّا.

هذا من كان عليه.

حُرًا. تباطأت السيارات وسيارات الأجرة، وتوقفت لالتقاط الأقارب والزبائن، ومر بجانبهم وهو يتجه إلى موقف السيارات، مستمتعًا بزخمه، بالطريقة التي تتأرجح بها ساقاه بسلاسة وكفاءة، وعقله يمتد بامتنان في الظلام.

كان يهتم لجاني ونوح، لكنهما كانا يتراجعان عنه بسرعة. قضيته الأخيرة، وقد تمت.

كانا هناك على الأرض وكان هو—مرفوعًا.

لقد حارب بكل ما لديه ليتمسك بحياته كما عرفها ذات مرة، والآن زالت، وطفى على خفة هزيمته. لقد طبّق كامل قوة عقله في محاولته لفهم ما لا يسبر غوره، وربما كان قادرًا على اقتلاع سن أو اثنين من فم اللانهاية، والآن لم يتبقَ عليه سوى كتابة هذه القضية الأخيرة.

كان يعتقد أنه كلما اقترب من موته الخاص، ستخترقه الأسئلة التي لا إجابة لها بشكل لا يطاق، والآن وجد لصدمته وسعادته أنه لا يحتاج لأسئلة. ما سيحدث—سيحدث.

ماذا عن ذلك؟

سيكمل كتابه الآن وبعد ذلك يمكنه فعل ما يحلو له. وعندما لا يعود يومًا ما قادرًا على القراءة... فسيراجع الأجزاء التي حفظها عن ظهر قلب، متذكرًا العمق والإيقاع إن لم تكن السطور نفسها. يمكنه الثرثرة بشكسبير لنفسه تحت أشجار البلوط طوال اليوم كرجل مجنون.

أو يمكنه العودة إلى آسيا. سيكون من الجيد أن يكون على أرض آسيوية مرة أخرى.

وما الذي كان يمنعه؟ لا شيء. يمكنه الذهاب الآن إذا أراد. يمكنه ركوب الرحلة التالية.

تايلاند. الهواء الكثيف والرطب، وفوضى شوارعها.

لماذا لا يذهب؟ شعر بالإثارة تبدأ في النبض من خلاله بينما كان يفكر في الأمر. يمكنه زيارة بوذا المستلقي الضخم، بعلاماته الـ 108 الميمونة المحفورة بصدف اللؤلؤ على باطن قدميه. يمكنه البدء في التأمل. كان دائمًا متوترًا جدًا من أن الممارسة الروحية قد تقوض أو تؤثر على موضوعيته العلمية، لكن ذلك لم يعد ذا صلة الآن. وإذا كان التبتيون على حق، فإن التأمل يمكن أن يؤدي إلى موت أكثر سلامًا، مما قد يؤثر بشكل إيجابي على حياته التالية (على الرغم من أن بياناته الخاصة كانت غير حاسمة في هذا الشأن).

ربما سيتوقف حتى عند شاطئ. قيل إن جزر في في تستحق المشاهدة. رمال بيضاء مثل الحرير بين أصابع قدميك، مياه زرقاء صافية

كالزجاج. اللحظة الحالية. الاستسلام لذلك. سمع أنه يمكنك القيام برحلة بالقارب ورؤية نتوءات الحجر الجيري الغريبة ترتفع من الضباب مثل شيء في لوحة صينية: تلك المشاهد للجبال المرسومة تلتوي إلى السماء الملتوية غير المرئية، بينما يظل إنسان واحد وحيد في قارب في الأسفل، صغير جدًا لدرجة أنه يكاد يكون غير مرئي.

سيتعين عليه شراء ملابس سباحة. لا يطيق الانتظار.

44

أسندت جاني رأسها على نافذة سيارة الأجرة، وذراعها حول ابنها الغافي، تستوعب المشاهد المألوفة. كان هناك الامتداد الواسع لإيسترن باركواي، بمبانيها السكنية واليشيفا (المدارس الدينية) وأشجارها المهيبة؛ وميت فودز حيث اشترت البقالة، والمساحة المظلمة لبروسبكت بارك. فاجأها التشابه، كما لو كانت تتوقع أن تجد العالم في الوطن متحولًا. مروا بالمطعم الذي التقت فيه أندرسون للمرة الأولى، حيث كانت النادلة تضع وشم يولو *(YOLO - تعيش مرة واحدة فقط)* عبر الجزء الخلفي من كتفيها.

تعيش مرة واحدة فقط. هذا ما قاله الناس، كما لو أن الحياة كانت مهمة حقًا لأنها حدثت مرة واحدة فقط. لكن ماذا لو كان الأمر على العكس؟ ماذا لو كان ما فعلته أكثر أهمية لأن الحياة حدثت مرارًا وتكرارًا، ونتائج تتكشف عبر القرون والقارات؟ ماذا لو كان لديك فرص بعد فرص لتحب الناس الذين أحببتهم، لإصلاح ما أفسدته، لتصحيحه؟

كانوا خارج منزلها الحجري الآن. ومض مصباح الغاز في الليل مثل صديق سعيد برؤيتها. دفعت للسائق وحملت صبيها الثقيل النائم بين ذراعيها خارج السيارة، وشعرت بوخزة من الامتنان لأنهما في المنزل، ويعيشان في الطابق الأرضي.

في شقتهما، حملت جاني نوح مباشرة إلى غرفة النوم ووضعته على سريره دون إطفاء الأنوار. تكورت بجانبه، مواجهة إياه في السرير الضيق، وسحبت اللحاف فوقهما. تحرك نوح وفرك عينيه، متثائبًا.

"مهلًا، وصلنا للمنزل." تنهد، واستقر بجانبها. رمى قدمه فوق فخذها، ووضع جبينه على جبينها. وضع يده على كتفها في الظلام.
"أي جزء من الجسم هذا؟" همس.
"هذا كتفي."
"هذا؟"
"هذه رقبتي."
"وهذا هو رأسك، رأسك، رأسك..."
"نعم."
"مممم."
صمت. ثم صوت من تحت الأغطية. ابتسامة ناعسة.
"لقد أطلقتُ ريحًا."
وهكذا، كان نائمًا مرة أخرى.
خرجت جاني ببطء من السرير. تحركت بهدوء عبر الغرفة وتوقفت في المدخل.
تحرك نوح؛ كان على ظهره الآن، ينام تحت النجوم. كانت تضيء فوقه، كل الأبراج التي صنعها الإنسان، تلك الخريطة التي كانت كل ما يمكن لمعظمنا التعامل معه من الكون الذي استمر واستمر بلا نهاية. قبل سنوات، وضعت الملصقات البلاستيكية هناك، مخلقة الدب الأكبر الخاص بنوح، أوريون الخاص به، مفكرة أنه لبقية حياته عندما يرى النجوم سيشعر بأنه في المنزل. حاولت تذكر نفسها كما كانت آنذاك، لكنها لم تستطع العودة، تمامًا كما لم تستطع اعتبار النجوم الملصقة حقيقية.
انزلقت شفاه نوح للأعلى، كما لو كان لديه حلم ممتع جدًا.

وقفت في المدخل لفترة طويلة وراقبته ينام.

خاتمة

لم يكن أي شيء في الرحلة إلى نيويورك كما توقعته دينيس.
على سبيل المثال، قرار هنري بمرافقتها: كان ذلك أمرًا أذهلها.
لم تكن تعلم أبدًا ما الذي ستحصل عليه مؤخرًا مع هنري. كانت هناك أيام يستيقظ فيها وهو يصفر مقطوعة Straight No Chaser، ويعد فطائر التوت صباح كل أحد لها ولتشارلي. في أوقات أخرى، كان يظل مستيقظًا طوال الليل، يشرب البيرة في غرفة المعيشة، والتلفاز يعمل بصوت عالٍ على أي برنامج تافه، وإذا نهضت لتطمئن عليه أو تطلب منه خفض الصوت، كان يزأر في وجهها لتعود للنوم. كانت تبذل جهدًا دائمًا في الصباح التالي لتستيقظ مبكرًا وتستجمع قواها وتراجع خطط دروسها لذلك اليوم، لأنها كانت تعلم أن الأمر سيستغرق وقتًا لإخراجه من السرير والتأكد من أنه ارتدى ملابسه وانطلق في طريقه. أحيانًا كان يبدو الأمر وكأن لديها مراهقين متجهمين في المنزل. كان من المدهش أن يذهبا الثلاثة إلى المدرسة في الوقت المحدد.
"هذا هو أنا الآن. إذا كنتِ تريدينني، فليكن، هذا ما ستحصلين عليه. وإن لم تريدي، فذلك جيد أيضًا." قالها عندما عرض العودة للعيش في المنزل. كان وجهه متصلبًا وهز كتفيه وهو يقول ذلك، كما لو أن الأمر لا يهمه كثيرًا بأي حال من الأحوال، لكنها كانت ترى حقيقته بوضوح، كما لو كان أحد أطفالها، رأت بوضوح تام مدى رغبته في أن تقبله مجددًا. مدى رغبتها هي أيضًا في ذلك.
كانت سعيدة بعودته. كان يحمل ذلك الثقل في داخله منذ وفاة تومي، ولم تتوقع أن يزول ذلك أبدًا، لكنه كان يستطيع الاستمتاع بطبق من

الطعام الجيد، ووجدت نفسها تحب مجددًا تلك المتعة البسيطة في الطهي؛ أن تضع القليل من هذا مع بعض من ذاك، وتخرجه من الفرن وهو يتصاعد منه البخار، لتعم رائحة لذيذة أرجاء المنزل، ثم تأكل كل لقمة منه. "أنتِ تستعيدين عافيتكِ مجددًا." هذا ما كان يكرره هنري، وهو يلمس طبقة اللحم الجديدة الطرية فوق ضلوعها. كان ذلك جيدًا لتشارلي. كان ذلك واضحًا. كان الصبي مهرجًا، لطالما كان كذلك، وكانت تستطيع أن ترى الآن مقدار الفن في ذلك. لم يكن هناك شيء تحبه أكثر في نهاية يوم طويل من رؤية هنري يرجع رأسه للخلف ويطلق ضحكته العميقة تلك فوق مائدة العشاء بعد أن يقول تشارلي شيئًا مضحكًا، ورؤية تدفق المتعة التي تكسو وجه تشارلي وهو يحني رأسه بخجل، مستمتعًا بذلك. أحيانًا بعد العشاء، كانا يعزفان معًا في المرآب، تشارلي على الطبول وهنري على الباس، والأصوات تهتز عبر الجدران وتخرج إلى الحي، لتغطي حتى على صوت كلب الجيران، كانت تشعر أن كل شيء سيكون على ما يرام.

لم يتحدثا عن نوح. لم يرغب أي منهما في خوض ذلك النزال؛ لم يكن هناك فوز فيه ولا نهاية له. عندما حل الربيع وبدأت فكرة زيارة نوح تتسلل إلى أفكارها بينما تمضي في يومها، كانت تدفعها جانبًا في البداية، خوفًا من إزعاج التوازن الجديد والدقيق في المنزل. بدلًا من ذلك، أرسلت لنوح هدية في عيد ميلاد تومي، رغم أنها لم تذكر ذلك في البطاقة.

تحدثت إلى نوح بضع مرات عبر الهاتف في الأشهر القليلة الأولى، لكن الأمر كان كارثيًا في العادة؛ ولم تكن متأكدة ما إذا كان ذلك بسبب صغر سن الصبي ونفاد صبره الطبيعي مع الهاتف، أم بسبب غرابة الظروف.

كان متحمسًا للتحدث إليها في الثواني الخمس الأولى، وغالبًا ما كان يلح على والدته لإجراء المكالمة. مع ذلك، كان يجيب على أسئلتها حول رياض الأطفال بطريقة خجولة ومقتضبة، وبعد أن ينشط لفترة وجيزة ليسأل عن هورنتايل (تنين في قصص خيالية)، كان يشعر بالارتياح بوضوح لإنهاء المكالمة بعد لحظات قليلة. كان الأمر يستغرق منها دائمًا بقية فترة بعد الظهر للتعافي من المشاعر الجياشة التي تلي ذلك. بعد فترة، تلاشت المكالمات.

بحلول الصيف، عقدت العزم على رؤية نوح شخصيًا. ظنت أنها تستطيع التعامل مع الأمر الآن. وافقت جاني على ذلك، رغم أنها بدت حذرة. "إنه لا يتحدث كثيرًا عن تومي حقًا." قالت، واعتقدت دينيس أن ذلك كان أفضل.

حجزت التذكرة قبل إخبار هنري. كان لدى تشارلي وظيفة في ستوب آند شوب لتعبئة البقالة وأخرى كمنقذ في المسبح، لذا لم يستطع المجيء. عندما أخبرت هنري أنها ستذهب إلى نيويورك لرؤية نوح، وقف هناك متألمًا عند سماع الاسم، وتساءلت عما إذا كانت المخاطرة كبيرة جدًا.

"سأذهب معكِ إذن،" قال أخيرًا، كما لو أنه أصبح فجأة زوج شخص آخر. "إذا كان ذلك مناسبًا؟ لدي صديقان قديمان أريد زيارتهما."

كان قد قضى بضع سنوات هناك، عندما كان شابًا وعازف باس واعدًا. سمحت له بالمجيء. لم تطرح أي أسئلة. ربما لم تكن تريد معرفة دوافعه الحقيقية، وأرادت رفقته. لم تكن قد زارت نيويورك من قبل.

شيء آخر لم تتوقعه: أن تستمتع بوقتها معه كثيرًا. في ليلتهم الأولى في المدينة، ذهبا إلى بلو نوت وحصلا على مقعد بجانب المسرح مباشرة.

شربا مشروبات زرقاء متوهجة واستمعا لصديق هنري القديم لو وهو يبدع بساكسوفونه، وبعد ذلك ذهبا إلى مكان آخر مع الفرقة، يضحكان ويشربان ويأكلان طعامًا رخيصًا لذيذًا حتى الصباح الباكر، يستمعان إلى مزاح الموسيقيين العفوي وقصصهم عن البقاء في منزل ابن عم أحدهم على الطريق مع رائحة طعام المطبخ القوية، وحكاياتهم عن قادة الفرق البخلاء والموسيقيين الذين يتعثرون خارجين من الحمام وأنوفهم مغطاة بمسحوق أبيض وبنطالهم منخفض، وتلك المرة التي سافرت فيها حبيبة لو من سياتل لرؤيته يعزف في سان فرانسيسكو لتصطدم بحبيبتيه من أوكلاند ولوس أنجلوس في نفس الليلة.

بالعودة إلى الفندق، تعلقت هي وهنري ببعضهما البعض كالأيام الخوالي. فاجأتها قوة ذلك. كان من الجميل اكتشاف أن ذلك لا يزال ممكنًا، بعد كل ما حدث.

لم تتوقع أن يأتي هنري معها إلى شقة جاني في اليوم التالي، أو أن تكون شقة جاني صغيرة وقديمة الطراز—لقد تخيلت لوفت حديثًا كبيرًا مثل تلك الشقق في نيويورك التي تراها على التلفاز، وليس هذا المكان الجذاب بزخارفه الخشبية كشيء في منزل والدتها.

كان يومًا حارًا. عندما وصلا، نظرت إليهما جاني نظرة واحدة وقالت. "دعوني أحضر لكم بعض الماء. أم ترغبون في قهوة مثلجة؟"

هزت دينيس رأسها. "ليتني أستطيع. إذا شربت القهوة الآن، سأبقى مستيقظة حتى الفجر."

بينما ذهبت جاني لإحضار المشروبات، دخلت دينيس إلى غرفة المعيشة، حيث كان نوح.

كان يقترب من السادسة، ذلك السن الرقيق الذي تبدأ فيه سمنة الأطفال بالتلاشي ويمكنك رؤية الناس الذين قد يصبحون عليه في وجوههم التي بدأت تأخذ ملامح حادة. كان مستغرقًا في كتاب، جالسًا متربعًا على الأريكة، وشعره مشرق وفوضوي. (لماذا لم تأخذ هذا الصبي يومًا للحلاقة؟) لم يبدُ أنه لاحظ وجودهما.

"نوح، انظر من هنا،" قالت جاني عندما عادت بالماء، فنظر للأعلى.

وقفت دينيس في منتصف الغرفة، ممسكة بالهدية التي أحضرتها، وشعرت بحلقها يجف بينما التقت عينا نوح بعينيها بعيون مرحة لا تعرفها.

لم تكن تعلم حتى تلك اللحظة مدى اهتمامها. لم تتوقع ذلك على الإطلاق.

"هذه خالتك دينيس، ألا تتذكر؟" قالت جاني، متقدمة للأمام.

"أوه. مرحبًا، خالة دينيس." ابتسم بأدب، وقبل هديتها ووجودها في حياته بالطريقة التي يفعلها الأطفال، دون أن يسأل من أين أتت.

جلست واحتضنت الماء المثلج بيديها، بينما كان هنري في مكان ما بعيد عنها يعرّف نفسه لنوح، مزق الطفل ورق التغليف عن الصندوق بحركتين سريعتين. بالداخل كانت قفاز بيسبول تومي القديم.

سحبه للخارج بصرخة—"أوه، قفاز جديد!"—وشعرت هي بالمتعة والألم في بهجته المفتوحة وغير المعقدة.

⋙

مشيا إلى الحديقة. كان يومًا مشرقًا، والهواء يتراقص مع القليل من الرياح.

"حسنًا. لدي سؤال واحد لك،" قال هنري لنوح، بينما كانا يمشيان. التفت إلى الصبي بتعبيره الأكثر جدية.

"نعم؟" نظر نوح للأعلى بقلق.

"ميتس أم يانكيز؟"

"ميتس، بكل تأكيد!" قال نوح.

ابتسم هنري. "هذا ما أردت سماعه!" وصافح الصبي بيده عاليًا. "ما رأيك في غراندي؟ هل تعتقد أنه يستطيع القيام بذلك؟"

كان هذا كل ما يتطلبه الأمر، على ما يبدو. تحدثا بحماس عن البيسبول لبقية الطريق إلى الحديقة بينما كانت جاني ودينيس تمشيان بصمت جنبًا إلى جنب. كانت دينيس خرساء من خيبة الأمل.

"أنا آسفة،" قالت جاني بصوت منخفض. "لم أكن أعرف ماذا سيفعل عندما يراك. إنه لا يتحدث عن الأمر بعد الآن، لكنني لم أكن أعرف... أعتقد أنه مجرد نوح الآن."

مشيا قليلًا في صمت.

"إنه لا يزال يحب الأشياء التي يحبها، رغم ذلك،" تابعت. "السحالي والبيسبول وأشياء جديدة أيضًا. يجب أن تري ما يمكنه صنعه من الليغو. هذه المباني الجميلة."

"إنه يشبه أمه،" قالت دينيس أخيرًا.

احمرت جاني، وهزت كتفيها. "إنه سعيد."

وصلا إلى الحديقة ووجدا مساحة مفتوحة، مرجًا. مر زوجان مسنان ذراعًا في ذراع. وتحركت عائلة كبيرة في ممر، يجمعون أطفالهم، ويمنعونهم من الاقتراب جدًا من البركة عند حافة المرج. كان الناس

يطعمون البط، في جنون من المناقير والفتات. وقفت فتاة في العشب تدور بطوق هولا هوب حول خصرها كشخص من زمن آخر.

استقرت جاني ودينيس على بطانية تحت أغصان شجرة كبيرة وأخرجتا حاويات كرات الموزاريلا والحمص، والعنب والجزر وشرائح البيتا، وتثقلتا المناديل بالترمس حتى لا تطير بعيدًا. كانتا قد أحضرتا كرة بيسبول معهما والقفاز، وبينما كانتا تجهزان النزهة عبر هنري ونوح إلى العشب المفتوح وراحا يقذفان كرة البيسبول ذهابًا وإيابًا، وهنري يمسك الكرة بيده العارية، كما كان يفعل في السابق.

راقبتهما دينيس. كان نوح سعيدًا. استطاعت رؤية ذلك. كان من الجميل رؤيته سعيدًا، كأي طفل. كان من الأفضل أنه نسيها، عرفت دينيس ذلك، رغم أن المعرفة لم تجعل الألم يقل. كانت ممتنة لأن الطبيعة قد صححت مسارها لكنها لم تستطع التخلص من الشعور بأن شيئًا قد سُلب منها كان من الممكن أن يكون ثمينًا، لو أنها وجدت طريقة لجعل الأمر كذلك.

استندت إلى مرفقيها تحت الأوراق الخضراء المرفرفة. كان هنري يرمي الكرة بإيقاع ثابت ومسترخٍ، ووجهه ودود ومحايد مثل وجه نوح. أدركت ما كانت تعرفه بالفعل: لم يكن هنري يؤمن أكثر مما كان عليه في أي وقت مضى لكنه كان يفعل هذا من أجلها. لأنه يحبها. كان صوت ذلك الحب في ارتطام الكرة في قفاز تومي القديم، وكان صوت حبها—لهنري وتومي وتشارلي ونوح—في نقر الرياح في الأوراق في الأعلى، وكل ذلك يصنع شبكة من الصوت التي التقطتها وأمسكتها في هذه اللحظة، هنا والآن.

جلست تراقب هنري ونوح يرميان الكرة ذهابًا وإيابًا، ذهابًا وإيابًا، مثل الآباء والأبناء والرجال والأولاد في أي مكان وأي وقت.

"الآن دعنا نراك تحاول التقاط كرة عالية،" قال هنري، ورمى الكرة مباشرة نحو السماء.

⸙⸙⸙

كتبت جاني إلى أندرسون. اعتقدت أنه قد يكون مفيدًا له أن يتابع ما يحدث مع نوح، في حال قاموا بطبعة جديدة لكتابه. الآن بعد أن سادت الطبيعية في عالمها بكل مجدها المحموم، أحبت أن تذكر نفسها أحيانًا بأين كانوا. لم تكن هي وجيري صديقين، لكنهما تشاركا رابطة أعمق: كانا حليفين. كتبت عن زيارة دينيس وهنري، معطية إياه كل البيانات ذات الصلة: مقدار ما استمتع به نوح دون أن يتعرف على أي منهما. أرسلت البريد الإلكتروني، ثم آخر، لكنه لم يكتب لها ردًا.

تمنت أن يكون بخير. رأته مرة واحدة فقط، عندما توقف للزيارة وإعطائها نسخة من كتابه، قبل بضعة أشهر من مغادرته البلاد مرة أخرى نهائيًا. كانت مراجعات كتابه متباينة؛ استجاب بعض النقاد لبحثه بمهاجمته بمرح، كما لو كان كله لعبة طفولية من سوء الفهم أو الاحتيال، لا شيء يؤخذ على محمل الجد؛ وكان الآخرون مهتمين بنتائجه لكنهم لم يعرفوا ما يصنعون بها. لم يبدُ أن أندرسون يهتم، رغم ذلك.

كان أكثر هدوءًا بكثير، وبشكل ما أكثر ارتخاءً، كما لو أن خيطًا مشدودًا قد انقطع. كان يرتدي قميصًا أبيض بجيوب، نوع الشيء الذي يرتديه سكان الجزر. ذكرت ذلك فضحك بالفعل. "هذا صحيح. أنا شخص جزيرة الآن." قال.

لم ترِد جاني نسيان كل ما حدث، لكنها لم تستطع مساعدة نفسها. كانت الحياة اليومية ملحة للغاية. كانت مشغولة بالعمل، بمتعة خلق مساحات متناغمة، وصداع العملاء المتذمرين. لمفاجأتها وسعادتها الكبيرة، دخل بوب، رفيق مراسلاتها السابق، حياتها، مستجيبًا لرسالتها الخجولة *إذا كنت لا تزال ترغب في اللقاء، دعني أعرف؟* بحماس؛ كانا يلتقيان مرة أو مرتين في الأسبوع منذ ستة أشهر الآن، وقت كافٍ لها لتبدأ في الاعتقاد بأن الأمر قد يحدث بالفعل، ولتفكر (ربما يومًا ما) في تقديمه لنوح. بالطبع، كان هناك نوح للعناية به: مراقبة واجباته المدرسية، والتعامل مع عشائه وحمامه (كم المتعة التي تجدها الآن في الحياة العادية!)، ومواكبة كل احتياجات ذاته المتطورة باستمرار. كان يكبر. أحيانًا، عندما كانا يركبان دراجتيهما في الحديقة، كانت تسمح له بالتقدم قليلًا أمامها على الطريق، وبينما كانت تراقب رأسه الأشقر وظهره الضيق وساقيه الصغيرتين اللتين تضخان بقوة وهو يبتعد عنها حول المنعطف، شعرت بوخزة فقدان عرفت أنها مجرد أمومة عادية.

في إحدى الليالي استيقظت في حالة ذعر، متأكدة من أنها تفقد شيئًا ثمينًا، وذهبت إلى غرفة نوح وراقبته وهو ينام (الكوابيس، لحسن الحظ، توقفت منذ زمن طويل). بمجرد أن اطمأنت في هذا الصدد، شغلت حاسوبها وتحققت من بريدها الإلكتروني.

كان هناك، أخيرًا: اسم جيري أندرسون في صندوق بريدها. لا عنوان للموضوع. فتحته بسرعة. *شاطئ*، كتب. بأحرف كبيرة. لا شيء آخر. تردد صدى الكلمة عبر صمت الشقة، مسببًا تموجات من الإنذار والارتياح. *هل أنت بخير؟* كتبت. ألقت الشاشة ضوءًا غريبًا وشاحبًا في

الظلام، وشعرت بحضوره يرتفع في تلك اللحظة كما لو كان موجودًا معها تمامًا. جيري؟

أنا بخير. تخيلته يقول هذا، رغم أنه لم يكتب شيئًا ردًا. كان شعورًا لديها، رغم أنها لا تعرف ما إذا كان صحيحًا أم مختلقًا. مع ذلك، هدأها التفكير في أنها تستطيع الشعور بوجوده هناك، عبر تلك المسافة الشاسعة.

⸙ ⸙ ⸙

في اليوم التالي، كانت جاني في طريقها لإحضار نوح من المدرسة، وتفكر في مليون فكرة في وقت واحد، عندما توقفت فجأة. نظرت حولها. كانت تقف في عربة مترو، وتشعر بالحركة تحت قدميها.

صعد القطار من تحت الأرض، صعودًا وخارجًا فوق جسر مانهاتن، ضوء المساء المبكر يلمع على النهر، على قارب ينقل حمولته من هنا إلى هناك، على الناس في عربة المترو، كل تفصيل يقفز للأمام بوضوح متزايد ورقيق. اللاصق الطبي على ركبة المراهق الذي يقابلها. شعر المرأة الشائك الذي تقرأ بجانبه. شفاه الرجل الراستافاري تتحرك تحت لحيته وهو يمضغ العلكة.

داخل عربة المترو، إعلانات للبيرة، ومساحات التخزين، والمراتب. "استيقظ وجدد حياتك."

لقد كنتُ مخطئة، فكرت فجأة.

ما حدث لنوح بدا وكأنه يفصلها عن الناس الآخرين الذين لم يعرفوا القصة—أو، عندما حاولت شرح ذلك لأقرب صديقاتها، *لم يستطعن الإيمان بتلك الأشياء.* لذا وضعتها جانبًا، واحتفظت بها لنفسها، كما لو

كانت شيئًا آخر يبقيها بعيدة بمهارة، بينما في الواقع... في الواقع، الآثار اقترحت خلاف ذلك.

ما هي الآثار؟

الكثير من الحيوات. الكثير من الناس الذين تم حبهم وفقدانهم وإيجادهم مجددًا. أقارب لم تعرف أن لديك إياهم.

ربما كانت لديها قرابة بشخص ما في عربة المترو هذه. ربما ذلك الرجل ذو البدلة وجهاز الآيباد. أو الراستافاري الذي يمضغ العلكة. أو الرجل الأشقر ذو القميص المنقط والسراخس التي تخرج من حقيبته. أو المرأة ذات الشعر الخشن. ربما كانت إحداهن والدتها. أو حبيبها. أو ابنها، أغلى الغاليين. أو سيكون، في المرة القادمة. الكثير من الحيوات، من المنطقي أنها كانت جميعها مترابطة. لقد نسوا، هذا كل شيء. لم تكن أغنية تخييم هستيرية. (حسنًا، حسنًا، كانت كذلك، لكنها لم تكن فقط ذلك.) كان الأمر حقيقيًا.

لكن كيف كان ذلك ممكنًا؟

لا يهم كيف. كان كذلك. نظرت حول العربة. الرجل ذو البشرة الزيتونية بجانبها كان يقرأ إعلانًا في صحيفة لخطابة. الصبي الذي يقابلها كان يهز لوح تزلج على ركبتيه المصابتين. *أغلى الغاليين*، فكرت. كانت تشعر بالارتباك.

سيكون من الصعب العيش بهذه الطريقة. النظر إلى الناس الآخرين بهذه الطريقة. لكن يمكنك المحاولة، أليس كذلك؟

تفتحت الأبواب بين العربات وخرج رجل، متشرد، يجر قدميه العاريتين القذرتين في عربة المترو. كان شعره متشابكًا في خوذة خشنة، وملابسه—لم تستطع النظر عن كثب إلى ملابسه. مشى بترنح عبر

العربة. كانت رائحته مثل مجال قوة، تطرد كل شيء في طريقها؛ عندما توقف المترو أخيرًا وفُتحت الأبواب، صعد أشخاص جدد بقدم واحدة واستداروا عائدين إلى عربة أخرى. غادر معظم الناس الموجودين بالفعل في العربة أفواجًا.

بقي البعض في أماكنهم، رغم ذلك. قرروا تحمل الأمر. كانوا متعبين جدًا من النهوض أو مشتتين جدًا بأجهزتهم المحمولة أو لم يرغبوا في التخلي عن مقاعدهم. كانت محطاتهم قادمة قريبًا. على أي حال، كانت تلك العربة التي اختاروها، الورقة التي تم توزيعها عليهم، هذه المرة. نظروا بعيدًا عنه بحذر؛ كانوا خائفين من جذب انتباهه.

كانت هي الوحيدة التي تنظر في اتجاهه العام، لذا مشى مباشرة نحوها. وقف هناك، يتمايل أمامها، رائحته تجعل عينيها تدمعان. لم يكن لديه جرة أو أي شيء. مد راحة يده القذرة.

سحبت ثلاثة أرباع من جيبها ووضعتها في راحة يده، وبينما فعلت ذلك، لامست أصابعها يده، ونظرت للأعلى. كانت عيناه بلون الكراميل، مشرقتين حول الحدقتين وأكثر قتامة عند الحواف، وكان التحديق فيهما يشبه النظر إلى كسوف مزدوج. كان لديه رموش كثيفة، مغطاة بالسخام. رمش.

"مرحبًا، شكرًا يا أختي،" قال.

"عفوًا." بدا وجهه وكأنه يقفز للأمام، احتياجاته وآماله محفورة بوضوح هناك، كما لو كان ينتظر طوال هذا الوقت لتلاحظه.

⸙⸙⸙

فقد بول عشرين رطلًا في تلك السنة الأولى. تم نقله حول السجن كما لو كان قطعة ورق على الأرض يتم دهسها بأحذية موحلة. لم يستطع

النوم؛ كان يستلقي هناك على السرير العلوي يتنفس رائحة البول من المرحاض في الزاوية ويستمع إلى أصوات السجن من تقطير وشخير وصراخ. لم يكن يعرف ما إذا كان الصراخ هو السجناء الآخرون الذين يصرخون في نومهم أو ما إذا كانوا مدفوعين إلى اليقظة ببؤسهم، كما كان هو. تحت كل ذلك، الصدى الذي لا ينتهي لتومي كروفورد يناديه من قاع البئر. كان قد توقف منذ زمن طويل عن محاولة عدم التفكير في تومي كروفورد؛ ما فعله كان في خيوط ملابس سجنه والملاط بين الطوب الأسمنتي ورائحة بول القطط التي تغلغلت في كل شيء. أحيانًا كان لا يزال يتمنى لو يستطيع العودة وفعل كل شيء بشكل مختلف، لكنه لم يستطع. في أوقات أخرى كان يتساءل لماذا الحياة هكذا: تفعل أشياء غبية ولا تستطيع استرجاعها بغض النظر عن مدى رغبتك؛ لم تكن هناك فرص ثانية. قال ذلك لمحاميته مرة وقامت المرأة بضم شفتيها، ناظرة إليه عبر الطاولة مثل والدة شخص ما حزينة. كانت امرأة في الخمسينيات من عمرها، نحيفة، بشعر رمادي أشقر كثيف مربوط برباط مطاطي وعيون زرقاء تبدو دائمًا كما لو أنها كانت مستيقظة طوال الليل تقلق عليه. لم يكن يعرف لماذا تفعل شيئًا كهذا، عندما لم يكن حتى قريبًا لها، لكنه كان ممتنًا لخدماتها، وأنه سيخرج من السجن يومًا ما، رغم أنه سيكون في الثلاثين من عمره بحلول ذلك الوقت.

في يوم من الأيام بعد مرور عام أو نحو ذلك، أخبروه بأن لديه زائرًا.

اعتقد أنه لا بد أن يكون محاميته أو والدته.

أحضره الحارس عبر الممر الطويل وإلى الغرفة حيث كانت الطاولات.

عندما رأى من كانت، أراد التراجع خارج الغرفة، لكن الأوان كان قد فات. كانت جالسة هناك، تنتظره. كان شعرها أكثر رمادية الآن مما كان عليه في جلسة الاستماع، لكن وجهها كان كما هو، وعيناها اللتان التفتتا إليه بدت مثل عيني تومي كروفورد عندما كان يحاول أن يقرر ما إذا كان يجب عليه الذهاب معه إلى الغابة لممارسة الرماية أم لا.

تمنى لو يستطيع الاختباء تحت الطاولة.

التقطت الهاتف على الجانب الآخر من الزجاج الثقيل المخدوش، لذا فعل هو أيضًا. "وصلتني رسالتك،" قالت.

نظر إليها. لم يستطع التفكير في أي كلمات ليقولها.

كان قد كتب رسالة حول مدى أسفه لما حدث لتومي. كيف كان يحب تومي ويتمنى لو أن تومي على قيد الحياة وهو ميت. كل ما كتبه كان صحيحًا. اعتقدت محاميته أن ذلك قد يساعد إذا ذهبوا إلى المحكمة، لكن بعد ذلك أبرموا صفقة إقرار بالذنب، وكان قد أرسل الرسالة على أي حال، معتقدًا أن الوالدين لن يستجيبا أبدًا. لماذا سيفعلان؟

"قلت في الرسالة أنك مدمن كحول." كان صوتها منخفضًا. لم تقابل نظراته عبر الزجاج. "هل هذا صحيح؟"

"ممم،" تمتم. ثم أجبر نفسه على قول ذلك. "نعم." كان معتادًا على الاعتراف بذلك الآن، بعد كل الاجتماعات في السجن.

"لكنك رصين الآن؟"

أومأ، ثم أدرك أنه لا توجد طريقة يمكنها رؤيته بها ورأسها منحني للأسفل هكذا. "نعم."

"هل لهذا السبب حدث ذلك؟ لأنك كنت مخمورًا؟" كانت تنظر إلى يديها على الطاولة أمامها.

ابتلع. كان حلقه جافًا. لم يكن هناك ماء هنا. "لا."
"إذن لماذا؟" نظرت للأعلى. كانت عيناها حزينتين، لكن لم يكن فيهما غضب.
"كان حادثًا،" قال ورأى ذلك الظل من الشك، تلك الارتعاشة المتجهة للأسفل للشفتين، التي عبرت الكثير من الوجوه منذ أن اعترف. "لكن ليس لهذا السبب،" أضاف. "كان لأنني كنت جبانًا. جبان وأحمق." أحنى رأسه، أيضًا. نظر للأسفل إلى أيديهما، اليدين البنيتين الطويلتين، واليدين البيضاوين القصيرتين مع الأظافر التي نُقرت نصفها.
أصدرت ضجيجًا على الطرف الآخر من الهاتف. لم يستطع معرفة أي نوع من الضجيج كان.
"أنا آسف لأنني قتلت ابنك،" قال في الهاتف. كانت الكلمات مشوشة لأن حلقه كان سميكًا جدًا وجافًا جدًا. وضع رأسه على ذراعيه وأمل أن الحراس لم يعتقدوا أنه يبكي. كان يبكي، قليلًا، لكن ذلك كان خارج الموضوع.
شعر أنها كانت تنتظر منه قول شيء آخر. لم يكن متأكدًا مما، ثم عرف. أخذ الهاتف في مهد ذراعيه وقال البقية. "أعرف أنك لا تستطيعين مسامحتي."
مسامحة. لم تكن كلمة استخدمها من قبل مؤخرًا. كان الرغبة في المغفرة جزءًا منه الآن؛ كان يتوق إليها كما كان يتوق للكحول. كان هناك صمت طويل.
"إنه لأمر مضحك،" قالت أخيرًا، رغم أنه لم يكن هناك شيء مضحك في العالم كله، على حد علم بول. نظر للأعلى وكان وجهها هادئًا. "كنت أفكر في ذلك." تحدثت مثل معلمة، شخص يعرف شيئًا. "يقول الكتاب

المقدس 'سامح وسوف تُسامح'،... والبوذيون، بالطبع، يعتقدون أن الكراهية لا تؤدي إلا إلى مزيد من الكراهية والمعاناة. أما بالنسبة لي—فأنا لا أعرف. أعرف أنني لا أريد التمسك بالكراهية بعد الآن. لا أستطيع."

علقتا عيناها على وجهه، كما لو كانت تقرر ما إذا كان بشعًا أم لا. تبادر إلى ذهنه أن الرغبة في المغفرة تعني أن عليك منحها أيضًا. كان يعرف أنه لم يسامح والده على بعض الأشياء. لم يستطع تخيل فعل ذلك.

"تومي يعلمني، كل يوم،" تابعت، وكاد يسقط مباشرة عن مقعده. كيف يمكن لتومي أن يعلمها أي شيء؟ "إنه يجبرني على السماح له بالرحيل،" قالت، "على الاستسلام للحظة الراهنة. هناك متعة هناك. إذا استطعت فعل ذلك."

لم يستطع تصديق أنها كانت جالسة هناك تتحدث عن تعلم شيء من ابنها الميت، تتحدث عن المتعة، لَهُ. لَهُ! ربما دفعها للجنون وسيكون ذلك على ضميره أيضًا.

"كيف هو الوضع هنا؟" سألت بهدوء. "هل هو سيء؟"

لم يستطع معرفة ما إذا كانت تريد سماع أنه سيء أم لا.

"إنه ما أستحقه، أعتقد،" قال ببساطة.

لم تعترض على ذلك، لكنها لم تبدُ سعيدة بذلك أيضًا. "أود منك أن تكتب لي،" قالت. "هل ستفعل ذلك؟ أريد أن أعرف كيف يبدو الأمر هنا وكيف تتدبر أمورك. أريد أن أعرف الحقيقة."

"حسنًا." اعتقد أنه سيخبرها أيضًا، حتى لو كانت مجنونة. يمكنه إخبارها بكل الأشياء التي مر بها هنا التي لم يرد أن تعرفها والدته.

"إذن لدينا اتفاق؟" قالت. أومأ. وقفت. ربطت معطفها بإحكام عبر خصرها–كانت نحيفة، مثل شيء يمكن أن ينكسر في ثانيتين، وفي الوقت نفسه شعر أنها ربما كانت أقسى مما يمكن أن يأمل في أن يكون عليه. رفعت يدها له ولوحت وداعًا، ابتسامة مرت عبر وجهها، وُجدت وذهبت، سريعة جدًا لدرجة أنه لم يكن متأكدًا ما إذا كان قد تخيلها.

بعد الزيارة، استقر قليلًا. توقف عن كره ملمس الزي الخشن على جلده، والطريقة التي يرتطم بها لحظة باللحظة التالية دون مساحة للهروب باستثناء الروايات التي كان يحصل عليها من مكتبة السجن ودروس "GED" التي كان يأخذها وزيارات والدته لترى كيف كان حاله. كتب رسائل للسيدة كروفورد، مخبرًا إياها بالحقيقة. كان يستيقظ كل صباح من نوم ثقيل بلا أحلام، لا يزال متفاجئًا بإيجاد نفسه هناك.

عاش الناس في الروايات التي كان يقرأها في مساكن من الخث والحجر في أراضٍ تلالية مغطاة بالضباب، وكانوا يربون التنانين ويتعلمون السحر. كانوا ينقلون أسرارهم من أمّ إلى ابن.

⋙

شعر أندرسون بالماء الدافئ يلعق قدميه.

مشى ببطء، مدركًا في كل لحظة أنه يستطيع العودة، والماء يحيط بربلتي ساقيه وركبتيه المؤلمتين، وفخذيه وصدره. لم يكن متأكدًا مما كان سيفعله حتى اللحظة الأخيرة التي انزلقت فيها الأرض الرملية تحت قدميه وكان يسبح، وحتى حينها نظر للخلف ورأى الشاطئ قريبًا جدًا وصندليه وكتابه هناك تمامًا، في انتظاره.

كان الشاطئ فارغًا. كان الوقت مبكرًا جدًا على السياح ولم يكن هناك صيادون على هذا الجانب من الجزيرة. كان الأمر كما لو أنه الشخص

الوحيد في العالم كله الذي كان مستيقظًا. كان هناك عدد قليل من أشجار النخيل متناثرة هنا وهناك، والجبال الوعرة تحتضن الماء، واللافتة حول تيار الماء مزروعة في منتصف الشاطئ. لم يعد يستطيع قراءتها، ليس بأي من اللغات التي وضعوها، لكنه كان يعرف ماذا تعني.

الماء، أخضر شفاف، اكتسب لونًا أزرق أكثر عمقًا بينما كان يسبح. سبح بعيدًا حتى أصبح صندلاه بقعتين على الرمل، وكتابه ضباب من اللون الأزرق. استمتع بشعور جسده وهو يبذل جهدًا، بمساعدة التيار. طفت الكلمات نحوه وتمسك بها. صمت. محيط. كفى.

كان ينبغي عليه إخبار شخص ما. كان يمكنه إخبار تلك المرأة التي راسلته بالبريد الإلكتروني، على سبيل المثال. تلك التي لديها ابن. كان التفكير في قضيته الأخيرة يشبه خصلة من الشعر تربطه باليابسة—كل ما تبقى بينه وبين البحر المفتوح. كان يمكنه العودة ومحاولة المراسلة مجددًا. كان يقصد كتابة *وداعًا* وخرجت الكلمة بشكل خاطئ، كلمة مختلفة. تمنى أن تكون فهمت ما كان يقصده.

إذا توقف عن التفكير في الأمر، إذا ترك التيار يحمله، فإن الخصلة ستنكسر بسهولة من تلقاء نفسها.

فكّرْ في شيء آخر. فكر. أغمض عينيه. خلقت الشمس بقعًا داكنة على البرتقالي النابض داخل جفنيه.

شيلا.

اليوم الذي التقى فيه بشيلا.

يوم سبت. كان قد غادر المختبر مبكرًا وأخذ أول قطار رآه حتى النهاية ومشى بقية الطريق إلى الشاطئ. جالسًا على الرمل الرطب، غارقًا في

أفكاره. عالم كامل هناك، الكثير من الأشياء غير المعروفة. لماذا كان عالقًا في أقفاص مع الفئران؟
كانت فتاتان تجلسان بجانبه على بطانية الشاطئ. شقراء، حمراء الشعر. فتاتان سخيفتان تأكلان مخاريط الآيس كريم وتضحكان عليه.
كانت الشقراء هي الجريئة. مشت نحوه.
"هل أنت متدين؟"
"ليس على الإطلاق. لماذا؟"
نظر إليها. كانت وجنتاها ورديتين من الشمس، أو ربما كانت خجلة. كان شعرها مربوطًا للخلف في رباط لكنه بدأ يتحرر حول وجهها في قطع مشرقة ومرفرفة.
"كنا نفكر أنك لا بد أن تكون متدينًا لترتدي ذلك. ألا تملك ملابس سباحة؟"
نظر للأسفل إلى نفسه. كان في زيه المعتاد كطالب دراسات عليا، قميص أبيض بأكمام طويلة، وبنطال أسود.
"لا."
"أوه، أرى. أنت جاد جدًا بالنسبة للشاطئ." قالتها بخفة، بدعابة. كان لديها جسد أبيض قوي. آلم عينيه النظر إليه. ملابس سباحة سخيفة منقطة.
كشر في وجهها. "أنتِ تسخرين مني."
"نعم."
"لماذا؟"

"لأنك جاد جدًا بالنسبة للشاطئ." كانت عيناها الزرقاوان حنونتين وساخرتين في آن واحد. لم يستطع فهم ذلك. كانت تجعله يشعر بالدوار.

كان الآيس كريم يقطر أسفل المخروط في الشمس الحارة فوق أصابعها. كان لديه رغبة غريبة في لعقها.

لماذا لا، منقط؟

"الآيس كريم الخاص بك يذوب،" قال.

لعقت المخروط، ثم أصابعها، واحدة تلو الأخرى، ضاحكة على نفسها. كان قد اعتبرها فتاة تضحك كثيرًا، لكن ضحكتها جاءت من مكان أعمق، تدحرجت في الهواء، آخذة مساحة. *آيس كريم*، فكر، دوار يرتفع في جسده من باطني قدميه البيضاوين. سر الحياة هو الآيس كريم. رنت ضحكتها في أذنيه واستمرت في الرنين.

كان قد تمنى ألا تتوقف أبدًا.

كان يشعر بالتعب الآن. كان أمر السباحة في الماء هذا أكثر إرهاقًا مما كان يتوقع. كانت هناك مقاومة فيه أكثر مما اعتقد أنه سيكون. *فقط توقف عن التحرك*، فكر. *دع الأمر يرحل*.

فتح عينيه. عمل التيار بسرعة. صندلاه وكتابه ذهبا الآن، ممزوجين بالشاطئ.

شعر بقلبه ينبض. حسب مدى بعده عن الشاطئ. ربما كان بإمكانه العودة إذا أراد ذلك.

ماذا بعد؟

العودة إلى تلك الحياة الصغيرة والمحدودة بشكل متزايد من المأكولات البحرية والمشي القصير. ليست حياة فظيعة. لكنها تتلاشى...

لم يعد يفتقد اللغة. أحب واقعية هذه الطريقة الجديدة في العيش: الطعم المالح للسلطعون الذي كان يأكله، وجه الفتاة الخجول والفضولي التي تقدمه، الرمل ينزلق عبر أصابع صندله وهو يمشي عائدًا، ملمس أنفاسه تدغدغ منخريه وهو يتأمل. كان الأمر كما لو أن الأرض كانت تمسكه في نظرتها، وتضم وجهه بين يديها. شعر بها تهمس له بلغة بلا كلمات كان قد نسيها طوال حياته ولم يتذكرها إلا الآن، تُحدّثه عن واقع واسع جدًا لدرجة أنه لم يستطع نقله إلى إنسان آخر حتى لو كان لديه القدرة على فعل ذلك. بالكاد تعرّف على نفسه في المرآة: الوجه البني المهمل، المتجعد، العينان البريتان والمشرقتان جدًا—من كان هذا الرجل؟ كان قد قبل بساطة هذه الحياة بامتنان لكنه عرف أنه قريبًا لن يكون قادرًا على فهم حتى أبسط المعاملات. سيضطر للاستسلام للشيء الوحيد الذي كان يخشاه: العجز.

كان الشاطئ لطخة شاحبة في الأفق. كان كتابه هناك، على الرمل. شعر بالحرمان بدونه؛ كان قد حمله معه خلال هذه الأيام الأخيرة. في البداية كان لمنع المحادثة—غمر وجهه في تلك الصفحات التي كتبها ولم يعد يستطيع قراءتها—لكن مؤخرًا أصبح مثل صديق له. عندما كان يستيقظ في الليل مشوشًا وخائفًا، كان يشغل الضوء وعبر الأجسام السميكة للفراشات الدوارة يبحث عن غطائه الأزرق على طاولة سريره. كان يتحدث إليه بلا كلمات، مؤكدًا له أنه قد عاش.

ربما سيجده سائح أثناء جمع الأصداف. ربما سيغير كل شيء بالنسبة له.

تألمت ساقاه. حدق في ضوء الشمس في الشاطئ المتراجع حتى بدا مجرد خدعة للعين، واحة متخيلة. هنا، ثم ذهبت. بالطبع سيقاوم الجسد زواله. بالطبع؛ هكذا كانت الحياة. كيف كان يمكنه التفكير بخلاف ذلك؟ كان درسًا تعلّمه مرارًا وتكرارًا: بغضّ النظر عن مدى دقة تخطيطك أو قيامك ببحثك، فإن الأشياء غير المعروفة سترتفع من الأعماق وتقلب كل شيء. لكن هذا هو ما جذبه، أليس كذلك؟ أعماق ما لا نعرفه؟

ربما سيرى شيلا مجددًا. وجهها. أو بعض وميض منها في شخص آخر.

ربما لن يفعل.

نظر حوله إلى السماء الواسعة، إلى المحيط الذي استمر الآن بقدر ما تستطيع عيناه رؤيته. تألق الماء في ضوء الشمس، مبهرًا عينيه. كل جزيء يلمع في العالم المشع والمنقط. شعر بأطرافه تسترخي، وجسده يذوب تحت جمال ذلك.

سماء زرقاء، ماء أزرق، ولا شيء آخر.

البلد غير المكتشف.

انظر إليها بهذه الطريقة، جير، سمع شيلا تقول. *الآن ستحصل على بعض الإجابات*. شعر بالفضول ينبض من خلاله عند التفكير في ذلك، أقوى من قلبه.

النّهاية.